أحمد بَيْضون

في صُحْبَةِ العَرَبِيَّة

مَنافِذُ إلى لُغَةٍ وأساليب

دار الجـــديد

دار الجـــــديد

الطبعـــــــــة الأولـــــى، ٢٠١٩

دارة محسن سليم، حارة حريك
صنـــــــــدوق بريــــــد: ٥ - ٢٥
الغبيـــري بيروت ـ لبنان
هاتف: ٠٥ ٣٦ ٥٥ ١ ٩٦١
www.dar-al-jadeed.com
daraljadeedbeirut@gmail.com

لوحة الغلاف: طرزٌ مراكشيّ من حدائق ماجوريل.
عنوان الكتاب بريشة علي عاصي.

ISBN 978-9953-1-139-1

إلى قُدامى «مَرْكَزِ الأَبْحاثِ اللُغَوِيّةِ وَالتَرْبَوِيّةِ»
مِنْ قَبِيلِ الشُكْرِ عَلى ما كانَ مِنْ مُتْعةٍ
فِي التَعَلُّمِ وَفِي الصُحْبة...

(...) عَلـى أَنَّهُـمْ، إذْ يُضْطَـرُّونَ إلـى الاعْتِـرافِ بِحَرَكـةٍ مـا، يَعْمِـدُونَ إلـى تَسْـمِيَتِها حَرَكـةً مَجازِيّـة. وَهَـذا لا مُسْـكةَ لَـهُ. فَإنّمـا يَسَـعُ الكَلِمـاتِ أَنْ تَــكُونَ مَجازِيّــةً وَأَمّـا الأَجْـرامُ وَحَرَكاتُهـا فَـلا يَسَـعُها ذَلِـكَ.

تُوماس هُوبْس، **لُوياثان**، الفَصْلُ السادِس

... وَذاكَ أنَّ القَـوْلَ عُصْفُـورٌ، مَتـى أَطْلَقَـهُ المَرْءُ فَلَيْـسَ لَهُ أَنْ يَسْـتَرِدَّه.

بَرْدِيُّ أَحِيقار، مِصْر، أَسْوان، القَرْنُ الخامِسُ ق.م.

قَواعِدُ اعْتُمِدَتْ
فِي ضَبْطِ النَصِّ بِالشَكْلِ

ضُبِطَتْ بِالشَكْلِ حُرُوفُ الأَلْفاظِ ضَبْطًا شامِلًا بِاسْتِثْناءِ ما يَلِي:

(١) آخِرِ اللَفْظِ الذِي يُوقَفُ عَلَيْهِ بِالسُكُونِ فِي آخِرِ الجُمْلة،

(٢) حُرُوفِ المَدِّ الثَلاثةُ بِاعْتِبارِها صَوائِتَ طَوِيلةً لا تَقْبَلُ العَلاماتِ الدالّةَ عَلى الصَوائِتِ القَصِيرةِ، وَكَذَلِكَ الأَلِفُ المَقْصُورة،

(٣) الحَرْفِ السابِقِ لِتاءِ التَأْنِيثِ المَرْبُوطةِ وَذَلكَ لِاضْطِرادِ الفَتْحِ فِيه،

(٤) الحَرْفِ الساكِنِ الذِي يُحَرَّكُ اضْطِرارًا عِنْدَ الْتِقاءِ ساكِنَيْن،

(٥) الحَرْفِ السابِقِ لِأَلِفِ المَدِّ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ مَفْتُوحًا بِالضَرُورةِ. وَلا يَصِحُّ مِثْلُ هَذا في حالَتَي الواوِ والياءِ إذْ يُمْكِنُ أَلّا تَكُونَ إحْداهُما حَرْفَ مَدٍّ فَلا تُجانِسَ حَرَكةَ الحَرْفِ الواقِعِ قَبْلَها.

(٦) لامِ التَعْرِيفِ بِاسْتِثْناءِ الحالةِ التي تَتَّصِلُ فِيها بِلامِ الجَرِّ وَتَدْخُلُ عَلى حَرْفٍ قَمَرِيٍّ فَتُلْفَظُ ساكِنةً.

(٧) الهَمْزةِ الواقِعةِ تَحْتَ أَلِفٍ وَذَلِكَ لاسْتِغْنائِها بِمَوْقِعِها الظاهِرِ عَنْ عَلامةِ الكَسْر،

(٨) أَواخِرِ الأَعْلامِ، مُنْصَرِفةً كانَتْ أَمْ غَيْرَ مُنْصَرِفةٍ، إذْ طَغَت النَزْعةُ إلى تَسْكِينِها، فِي أَيّامِنا، وَأَصْبَحَ تَحْرِيكُها فِي القِراءةِ مَثارًا لِما يُشْبِهُ الاسْتِهْجان...

فِي الكِـتاب

أَسالِيب

مِنْ قَبِيلِ الخِتام

كانَ لِزامًــا ألّا يَخْلــوَ هــذا الكِــتابُ مِــنْ بَعْــضِ التَــكْرار. فَهُــوَ مَجْمُـوعُ مَقـالاتٍ كُــتِبَتْ فِـي نَحْـوٍ مِـنْ عَشْـرِ سَـنَواتٍ وَتَــتَقاطَعُ مَوْضُوعاتُها فِـي مَـدارٍ عـامٍّ مُشْـتَرَك. وَقَـدْ نَظَرْنـا فِـي إمْكانِ إزالـةِ التَــكْرار، وَهُــوَ مَحْـدودٌ إجْمــالًا. وَلَــكِنْ تَبَيَّــنَ أَنَّ الإزالــةَ تَــؤُولُ إلــى إخْــلالٍ جَسِـيمٍ نِسْـبِيًّا بِتَماسُـكِ النَـصِّ الـذِي تَقَـعُ فِيـه. لِـذا أَبْقَيْنـا النُصُـوصَ عَلـى مـا هِـيَ عَلَيْـهِ مُعَوِّليـنَ عَلـى صَبْـرِ القـارئ وَراجِيــنَ مِنْــهُ المَعْــذِرة.

عَلى سَبيلِ التَقْدِيم

إلى هُنا مَعَ العَرَبِيّة

كَلِمةٌ أُلْقِيَتْ فِي حَفْلِ تَكْرِيمٍ لِلْمُؤَلِّفِ أَقامَتْهُ «جَمْعِيّةُ السَبِيلِ» المُتَخَصِّصةُ فِي إنْشاءِ المَكْتَباتِ العامّةِ وَإدارَتِها مَساءَ ١٥ كانُونِ الثانِي ٢٠١٧، وَذَلِكَ فِي مُناسَبةِ اليَوْمِ العالَمِيِّ لِلُّغةِ العَرَبِيّة.

لَمْ أُدْرِجْ نَفْسِي يَوْمًا فِي مَعْشَرِ اللُغَوِيِّينَ بِمَعْنى الحِرْفةِ وَقَلَّما تَكَرَّمَ غَيْرِي عَلَيَّ بِهَذا الإِدْراجِ أَوْ فَطِنَ إلى إمْكانِه. كَثِيرًا ما سَمِعْتُ إشادةً بالعَرَبِيّةِ التِي أَكْتُبُ بِها: بِأَلَقٍ ما يَجِدُها القارئُ أَو السامِعُ مُمْتازةً بِهِ أو بِمَتانةٍ فِي سَبْكِ الكَلام. هَذا مَدْعاةٌ لِسُرُورِي غالِبًا. وَلَكِنَّهُ قَدْ يَغيظُني أَيْضًا حِينَ أَشْتَمُّ فِيهِ صَرْفًا لِلنَظَرِ عَن الفِكْرةِ وَالحُجّةِ أَيْ عَمّا يُسَمّى المَضْمُون. وَهُوَ، فِي كُلِّ حالٍ، حُكْمٌ يَتَعلَّقُ بِالأُسْلُوبِ، أَيْ بِالمُعْجَمِ وَبِأَبْنِيَةِ الكَلامِ وَسِياقَتِهِ. وَالأُسْلُوبُ يَسِمُ الكاتِبَ وَقَدْ وُجِدَ مَنْ قالَ إِنَّهُ هُوَ الإِنْسانُ، وَلَكِنَّهُ لا يُثْمِرُ اللُغَوِيّ. فَلِهَذا الأَخِيرِ شَأْنٌ آخَرُ: فنٌّ أَوْ عِلْمٌ آخَر.

وَما كانَ هَذا التَجاهُلُ الإِجْمالِيُّ لِنِسْبَتِي إلى حِرْفةِ اللُغَوِيِّينَ لِيُضِيمَنِي أَوْ يُؤْذِينِي إِذْ كُنْتُ أَنا نَفْسِي شَرِيكًا فِيه. وَهِيَ شَرِكةٌ بَقِيتُ عَلى ما يُشْبِهُها فِي كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوابِ الكِتابةِ طرَقْتُه. دَرَسْتُ الفَلْسَفةَ فِي الجامِعةِ وَبَقِيتُ مُتَرَبِّصًا على أَعْتابِ الفَلْسَفة. وَدَرَّسْتُ عِلْمَ الاجْتِماعِ عُقُودًا وَلَمْ أَحْتَسِبْ نَفْسي فِي زُمْرةِ أَهْلِه. واشْتَغَلْتُ بِالنَقْدِ التارِيخِيِّ لِأَعْمالِ مُؤَرِّخِينا وَجَرَّبْتُ نَفْسِي فِي أَعْمالٍ تُنْسَبُ إلى التارِيخِ عادةً

وَبَقِيَ طَمَعِي فِي الانْتِسابِ إلى هَذِهِ المِهْنَةِ أَيْضًا مَحْفُوفًا بِالتَرَدُّدِ وَالشَكّ. إلخ، إلخ. هَذا كُلُّهُ مَعَ أَنَّ أَعْمالًا تَمُتُّ إلى هَذِهِ الصَنائِعِ (وَإلى غَيْرِها مِمّا لَمْ أذكُرْهُ) بِوَشائِجَ مُتَنَوِّعَةٍ تكاثَرَتْ بِمَرِّ الأَعْوام. وَلَـكِنَّها تَكاثَرَتْ مُوَزَّعَةً بَيْنَ حُقُولٍ لَعَلَّها أَفْرَطَتْ فِي التَكاثُرِ، هِيَ أَيْضًا، فَلَمْ يَنَلْ كُلٌّ مِنْها سِوى القَلِيلِ نِسْبِيًّا مِن العَناوِين. ثُمَّ إنَّ ما يُسَمّى الأُسْلُوبَ بَقِيَ شاغِلًا مُتَصَدِّرًا فِي مُعْظَمِ الأَعْمالِ فَفاتَ هَذا أَوْ ذاكَ مِنْها أَنْ يَتَكَشَّفَ، مَثَلًا، عَنْ هَذا المَواتِ الأُسْلوبِيِّ أَوْ النُصُولِ الاصْطِلاحِيِّ الذِي يَشْرُطُ بِهِ الصِفةَ العِلْمِيّةَ رَأْيٌ شائِعٌ بَيْنَ الجامِعِيِّينَ لا أُسِيغُهُ، مِنْ جِهَتِي، وَلا أُقِرُّه.

وَلَقَدْ كانَ مِنِّي حِينَ اضْطُرِرْتُ إلى البَحْثِ عَنْ صِناعةٍ أَنْتَسِبُ إِلَيْها بِلا تَحَفُّظٍ، بَعْدَ أَنْ أَعْيانِي الانْتِسابُ الوَطِيدُ إلى هَذا أَوْ ذاكَ مِنْ فُرُوعٍ لِلْمَعارِفِ زاوَلْتُها تَدْرِيسًا وَتَأْلِيفًا، أَنَّنِي لَمْ أَجِدْ سِوى الأَدَبِ، بِمَعْناهُ الأَصْليِّ فِي التُراثِ العَرَبِيّ، أُدْرِجُ فِيهِ جُمْلَةَ أَعْمالِي، تَقْرِيبًا، وإنْ يَكُنْ بَعْضُ هَذا الذِي أُدْرِجُهُ سِياسةً أَوْ تارِيخًا أَوْ بَحْثًا لُغَوِيًّا مَثَلًا... فِيما بَعْضُهُ الآخَرُ شِعْرٌ أَوْ خَواطِرُ مَثَلًا. وَكانَ مِنِّي أَنَّنِي صَرَّحْتُ مَسْرُورًا بِهَذا الانْتِسابِ إلى الأَدَب فِي مُناسَبةٍ مرَّتْ قَبْلَ سَنَواتٍ وَكانَتْ شَبِيهةً لِلِقائِنا اليَوْم.

اليَوْمَ تَنْسِبُنِي «جَمْعِيّةُ السَبِيلِ»، مَشْكُورةً، إلى جَماعةِ اللُغَوِيِّين. وَهُوَ ما يَحْمِلُنِي عَلى اسْتِلالِ كِتابَيْنِ لِي هُما مَجْمُوعا دِراساتٍ أَوْ مَقالاتٍ وَمَعَهُما أَوْراقٌ أُخْرى غَيْرُ مَجْمُوعةٍ مِنْ عَلى رُفُوفِ مَكْتَبَتِي وَمِنْ مَحْفُوظاتِ الحاسُوب. أَسْتَلُّها وَأُرَتِّبُها سَوِيّةً لأُلْقِي نَظْرةً جامِعةً عَلى ما

يَجُوزُ لِي أَنْ أُسَمِّيهِ أَعْمالِي اللُغَوِيّة... فَما الذِي أَقَعُ عَلَيْه؟ هِيَ نُصُوصٌ قَلِيلةُ العَدَد. قَلِيلةُ العَدَدِ نِسْبِيًّا وَلَـكِنَّها لَيْسَتْ زَهِيدةَ العَدَدِ وَلا الحَجْم. ثَمَّةَ إذَنْ ما يَحْتاجُ اسْتِذْكارُ ما فِيهِ مِنْ جانِبي إلى وَقْتٍ وجُهْدٍ غَيْرِ قَلِيلَيْنِ وَما يَحْتاجُ التَبَسُّطُ فِي عَرْضِ مَداراتِه عَلَيْكم هَذا المَساءَ إلى وَقْتٍ ما هُوَ بِالمُتاحِ لِي وَلا لَـكُم. فَلا يَبْقى لِي سِوى الإلْمامِ المُتَعَجِّلِ بِأهَمِّ هَذِهِ المَداراتِ ما دامَت النُصُوصُ مَعْرُوضةً فِي المُدَوَّنةِ التِي أَنْشَأْتُها قَبْلَ سَنَتَيْنِ تَقْرِيبًا. فَيَرْتادُ تِلْكَ المَداراتِ مَنْ تَسْتَهْوِيهِ خَفايا العَرَبِيّةِ وَهُمُومُها وَيَنْصَرِفُ عَنْها آمِنًا مَنْ يُؤْثِرُ النَجاةَ بِجِلْدِهِ إلى هُمُومٍ أُخْرى.

أَهَمُّ المَسائِلِ التِي عَرَضْتُ رَأْيًا فِيها ثُمَّ تَرَكْتُه مَطْرُوحًا عَلى قارِعةِ النَظَرِ لِمَنْ قَدْ يَرْغَبُ فِي تَناوُلِهِ بِالنَقْدِ أَوْ فِي تَعْزِيزِهِ بِالمَزِيدِ مِن البَحْثِ هِيَ التالِية:

(١) فِي اللِسانِيّاتِ العامّة: اجْتِهَدْتُ، مُسْتَهْدِيًا أَمْثِلةً مِنْ مَوادِّ المُعْجَمِ العَرَبِيِّ وَمِنْ حُرُوفِ أَبْنِيَتِه، فِي تَفْنِيدِ مَبْدإٍ اسْتَوى، مَعَ فِرْدِينانْد دُو سُوسُّور، رُكْنًا لِلِّسانِيّاتِ المُعاصِرةِ، وَهُوَ مَبْدأُ تَحَكُّمِيّةِ العَلامةِ اللُغَوِيّةِ أَي اسْتِبْعادِ كُلِّ دَوْرٍ لِلْمَدْلُولِ، وَهُوَ التَصَوُّرُ، فِي تَعْيِينِ الدالِّ، وَهُوَ اللَفْظُ بِما هُوَ سِلْسِلةٌ صَوْتِيّة. هَكَذا، مَثَلًا، لا يُوجَدُ شَبَهٌ بَيْنَ لَفْظِ «بَقَرة» وَصُورَةِ البَقَرةِ فِي الذِهْن. فَيَسَعُ أَلْفاظًا أُخْرى، لا تَمُتُّ إلى لَفْظِ البَقَرةِ بِصِلةٍ، أَنْ تَدُلَّ، فِي لُغاتٍ أُخْرى، عَلى المَدْلُولِ

نَفْسِهِ أَيْ عَلى تَصَوُّرِ البَقَرة... وَيَسَعُ اللُغاتِ أَنْ تَـتَعَدَّدَ بِلا حَدٍّ بِالتالِي وَيَسَعُ اللُغَةَ أَنْ تَـكُونَ نِظامًا قائِمًا بِرَأْسِه تَسْتَقِلُّ دِراسَتُهُ عَنْ مَرْجِعِيّةِ الوُجُودِ المَوْضُوعِيِّ وَتَسْتَوِي عِلْمًا مُكْتَفِيًا بِغَرَضِهِ هُوَ اللِسانِيّات. فِي وَجْهِ هَذا المَبْدَإ، وَضَعْتُ ما يُفِيدُهُ كَلامُ فَرِيقٍ مِنَ اللُغَوِيِّينَ العَرَبِ لَعَلَّ أَوَّلَهُم ابْنُ فارِسٍ وَآخِرَهُم العَلايِلِيُّ فِي مُعَيْنَياتٍ يُسْتَطاعُ التَوَصُّلُ إلَيْها لِحُرُوفِ الجَدْوَلِ الهِجائِيِّ العَرَبِيّ. وَهِيَ تَـتَراءى مِنْ مَنافِذَ عِدّةٍ بَيْنَها ما يُسَمّى «حِكايةَ الصَوْتِ» وَبَيْنَها ما يُظْهِرُهُ تَقْلِيبُ المادّةِ المُعْجَمِيّةِ الواحِدةِ مِنْ وَحْدةٍ فِي مَعْناها العامِّ، عَلى اخْتِلافِ المَعانِي المُشْتَقّة. وَلَعَلَّ بِنْيَةَ الاشْتِقاقِ المُجَسَّدةَ بِإثْباتِ المُعْجَمِ أَوَّلًا حُرُوفَ المادّةِ أَوْ الأَصْلِ قَبْلَ الخُلُوصِ مِنْها إلى المُشْتَقّاتِ تُيَسِّرُ الوُصولَ إلى طَبَقةٍ عَمِيقةٍ مِنْ تارِيخِ اللُغَةِ تَيْسِيرًا لا تُدْرِكُ مِثْلَهُ لُغاتٌ أُخْرى تَطَوَّرَتْ عَلى غَيْرِ هَذِهِ الشاكِلة. وَلَعَلَّ التَعَرُّضَ بِالتَحْلِيلِ نَفْسِهِ لِلْمَوازِينِ الصَرْفِيّةِ وَلِلاخْتِلافِ المُحْتَمَلِ لِدَلالةِ الصامِتِ بِاخْتِلافِ الصائِتِ يَفْتَحُ مَنافِذَ أُخْرى إلى الغايةِ العامّةِ نَفْسِها وَهِيَ إثْباتُ مُثُولٍ لِما سَمَّيْتُهُ «المَجازَ الصَوْتِيَّ» فِي تَعْيِينِ العَلاقةِ بَيْنَ الدالِّ العَرَبِيِّ وَمَدْلُولِه. هَذا كُلُّهُ، وَمَعَهُ انْتِفاءُ التَحَكُّمِيّةِ مِن الأَنْظِمةِ الرَمْزِيّةِ غَيْرِ اللُغَوِيّةِ (مِنْ نِظامِ إشاراتِ السَيْرِ إلى الجُمَلِ

المُوسِيقِيّةِ) يَسْتَبْعِدُ أَنْ تَـكُونَ الصِلةُ بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُولِ فِي العَلامةِ العَرَبِيّةِ اصْطِلاحًا بَحْتًا وَيُرَجِّحُ اسْتِيحاءً غائِرًا فِي الطَبَقاتِ البَعِيدةِ مِن اللُغَةِ لبَعْضِ سِماتِ المَدْلُول أَوْ عَناصِرِهِ فِي وَضْعِ الدالِّ اللُغَوِيِّ عَلَيْه. وهَذِهِ، إنْ وُجِدَتْ، سِماتٌ لا أُنْكِرُ أَنَّ تَطَوُّرَ اللُغَةِ يُغَيِّرُها أَوْ يُمَوِّهُها مِنْ سُبُلٍ يَتَعَذَّرُ اسْتِقْصاؤها وَحَصْرُها. وَأَمّا كَـثْرَةُ اللُغاتِ فَوَجَدْتُ تَفْسِيرَها مُوجِبًا إدْخالَ المُخَيِّلَةِ أَوْ ما كانَ يُسَمِّيهِ الفَلاسِفةُ الإِسْلامِيُّونَ «القُوّةَ الواهِمةَ» فِي تَعْيِينِ العَلاقةِ بَيْنَ الدالِّ والمَدْلُول. عَلَيْهِ لا تَـكُونُ هَذِهِ العَلاقةُ «شَبَهًا» بَلْ «تَوَهُّمَ شَبَه». وَهُوَ ما يُشْرِعُ البابَ أَمامَ الكَـثْرةِ إذْ لا حَدَّ لِما يَسَعُ المُخَيِّلَةَ اقْتِراحُهُ مِنْ مُقارَباتٍ للمَدْلُولِ تَمُتّ إلَيْهِ كُلٌّ مِنْها بِقَرابةٍ مُؤَكَّدةٍ فِيما هِيَ تَبْقى مُتَغايِرةً جِدًّا فِي ما بَيْنَها. ذاكَ ما تُظْهِرُ إمْكانَهُ حالةُ المُوسِيقى عَلى التَخْصِيص. وَهَذا، مَرّةً أُخْرى، فَهْمٌ لِلُّغَةِ، لا رَيْبَ فِي أَنَّ البَيِّنَاتِ العَرَبِيّةَ عَلَيْهِ تَقْرِيبِيّةٌ وَعَسِيرةُ التَحْصِيل. وَلَـكِنَّهُ مَتِين. وَهُوَ لا يُخْضِعُ اللُغَةَ، عَلى غِرارِ ما ارْتَأى دُو سُوسُّور، لِضَرُورةٍ مَنْهَجِيّةٍ يُوجِبُها اجْتِراحُ عِلْمٍ مُسْتَقِلٍّ لِلُّغةِ (هُوَ اللِسانِيّاتُ) وَشَغْلُهُ مَقْعَدًا فِي صَدارةِ عُلُومِ الإِنْسان. وَإِنَّما يَرُدُّ هَذا الفَهْمُ إلى اللُغةِ غَوْرَها الشِعْرِيَّ أَو المُوسِيقِيَّ إذْ يَتَلَمَّسُ لِلْكَلامِ وَظِيفةً خَفِيّةً هِيَ تَلْحِينُ الوُجُودِ غَيْرَ

قاصِرٍ عَمَلَهُ عَلى وَصْفِ هَذا الأَخِيرِ بِتَحْلِيلِهِ وَتَصْنِيفِه. كانَ اعْتِمادُ هَذا القَوْلِ، قَبْلَ ٤٠ سَنةً، أَيْ فِي عَهْدٍ كانَ فِيهِ ظِلُّ البُنْيانِيّةِ لا يَزالُ مَبْسُوطًا عَلى عُلُومِ اللُغةِ وَغَيْرِها وَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ يَنْحَسِرُ، أَمْرًا مُحْتاجًا، مِنْ جِهَتِي، إلى إقْدامٍ بَلْ إلى شَيْءٍ مِن التَهَوُّر. وَقَدْ تَغَيَّرَتْ هَذِهِ الحالُ كَثِيرًا فِي العُقُودِ اللاحِقةِ، وَأَصْبَحَ الوَضْعُ المَعْنَويُّ لِدِراسَتِي، فِي ما أَحْسَبُ، أَوْفَرَ حَصانةً.

(٢) فِي مَسْأَلةِ العَرَبِيّةِ وِالحَضارةِ العَصْرِيّةِ: اسْتَوْقَفَنِي تَشْدِيدُ المُساجِلِينَ عَلى كَفاءَةِ لُغَتِنا لِاسْتِيعابِ الجَدِيدِ أَيًّا يَكُنْ بِاعْتِبارِ اتِّساعِ ما يَفْتَحُهُ لَها مِنْ آفاقِ النُمُوِّ الرَحْبةِ اعْتِمادُها الاشْتِقاقَ بِأَوْزانِهِ الكَثِيرةِ أَصْلًا تَكْوِينِيًّا لَها فَضْلًا عَنْ إمْكانِ النَحْتِ وَعَنْ إمْكانِ التَعْرِيبِ حَيْثُ يَظْهَرُ لَهُما فَضْلٌ ما عَلى مُجَرَّدِ الاشْتِقاق. كانَ هَذا التشْدِيدُ يُوحِي، عَلى نَحْوٍ ما، أَنَّ ما يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا إنَّما هُوَ تَفْعِيلُ طاقاتِ اللُغةِ تِلْكَ فَيَسْتَقِيمَ أَمْرُنا. هَذا المَنْحى فِي الحِجاجِ بَدا لِي، عَلى وَجاهَتِهِ اللُغَوِيّةِ، مُجانِبًا المُشْكِلَ الفِعْلِيّ. فَفِي يَقِينِي أَنَّ العالَمَ أَو العَصْرَ هُوَ المُشْكِلُ الذِي تَتَعَيَّنُ عَلَيْنا مُجابَهَتُه. وَأَمّا اللُغةُ فَيَسْهُلُ عَلَيْها أَنْ تُجارِينا فِي هَذِهِ المُجابَهةِ فَلاحًا أَوْ إخْفاقًا. وَذاكَ أَنَّنا بِتْنا نَعِيشُ فِي عالَمٍ مَصْنُوعٍ وَأَنَّنا قَلَّما صنَعْنا مِنْهُ شَيْئًا... وَأَنَّ المَعْرِفةَ بهَذا

العالَمِ تَسارَعَ نُمُوُّها تَسارُعًا فاحِشًا وَأَنَّ نَصِيبَنا مِنْ هَذا النُمُوِّ زَهِيد. وَالذِينَ يَصْنَعُونَ هَذا العالَمَ وَما يَتَقَصّى أَشْياءَهُ وَبِناهُ مِنْ مَعارِفَ يَتَوَلُّونَ، بِلا مُزاحَمةٍ تُذْكَرُ، تَسْمِيةَ تِلْكَ الأَشْياءِ وَعَناصِرِ هَذِهِ المَعارِف. يُسَمُّونَها بِلُغاتِهِمْ فَتَـتَلَقَّفُ عامِّيّاتُنا أَسْماءَ ما يَبْلُغُنا مِنْها بتِلْكَ اللُغاتِ وَتَحْمِلُنا عَلى الرَطْنِ بِها مُخْتارةً تَعْريبَ اللَفْظِ الأَجْنَبِيّ بِلا اكْتِراثٍ، فِي الأغْلَبِ، لِأُصُولِ هَذا التَعْرِيبِ وَمُهْمِلةً ما قَدْ يُتِيحُهُ اعْتِمادُ الاشْتِقاقِ وما يَقْتَرِحُهُ اللُغَوِيُّون. فَإِنَّ العامِّيّاتِ تَهْضُمُ الحِجارةَ وَإِنَّ سَطْوةَ الحَضارةِ الغالِبةِ لا يَعْسُرُ عَلَيْها أَنْ تَجْتاحَ سُلْطةَ لُغَوِيٍّ يَطْلُعُ بِفَتاوى قَلَّ أَنْ تَسْتَوْقِفَ أَحَدًا. يَزِيدُ مِنْ سُهُولةِ الاجْتِياحِ أَنَّ مَرْجِعِيّاتِ الفَتْوى كَـثِيرةٌ مُخْتَلِفةُ المَشارِبِ إِذ السُلْطةُ فِي الجَماعةِ اللُغَوِيّةِ، وَهِيَ سُلْطةٌ مَعْنَويّةٌ بَحْتةٌ، بِالضَرُورةِ، ظاهِرةُ التَهالُكِ والتَبَدُّدِ عَلى غِرارِ السُلُطاتِ المَعْنَوِيّة كُلِّها فِي أَقْطارِ الناطِقِينَ بِالضاد.

(٣) فِي المُبارَزَةِ المُتَمادِيةِ ما بَيْنَ الفُصْحى وَالعامِّيّاتِ: رَصَدْتُ ما سَمَّيْتُهُ «جَلاءَ الفُصْحى عَنْ مَناطِقِ المُشافَهة». وَلا تُسْتَثْنى مِنْ هَذا الجَلاءِ مَنابِرُ كانَتْ إلى أمْسِ حَكْرًا عَلى الفُصْحى بَيْنَها مَنابِرُ التَدْرِيسِ وَمَنابِرُ الخَطابةِ بِما فِيهِ تَدْرِيسُ اللُغَةِ نَفْسِها وَبِما فِيها خَطابةُ سَدَنةِ الدِينِ الذِينَ كانُوا يُعَدُّونَ ذُخْرًا لِلْفُصْحى وحُصْنًا لِلْفَصاحة. وَلَقَدْ

جَهِدْتُ فِي إِحْصاءِ العَوامِلِ التِي آلَتْ إلى تَكْرِيسِ هَذِهِ الحالِ وَأَوَّلُها هُبُوطُ سَوِيّةِ التَعْلِيمِ كُلِّهِ مَعَ سَوِيّةِ المُعَلِّمِينَ بِفِعْلٍ مِن التَحَقُّقِ الواسِعِ النِطاقِ لِدِيمُقْراطِيّةِ التَعْلِيمِ ثُمَّ هُبُوطُ مَقامِ المَعْرِفةِ اللُغَوِيّةِ فِي هَرَمِ المَعارِفِ المُتاحةِ بِفِعْلٍ مِنْ ذَواءِ القِيمةِ الاجْتِماعِيّةِ لِما تُتِيحُ هَذِهِ المَعْرِفةُ أَداءَهُ مِنْ وَظائِف. ثُمَّ كانَ أَن اسْتَوْقَفَنِي مُؤَخَّرًا ما نُعايِنُهُ أَوْ نُزاوِلُهُ مِنْ رَواجٍ جَدِيدٍ لِلْعامِّيّاتِ فِي الكِتابة. وَهَذا رَواجٌ نعْلَم أَنَّ بَوادِرَهُ كانَتْ ماثِلةً فِي نُصُوصِ المَسْرَحِ وَالسِينَما وَفِي النُصُوصِ المُذاعةِ أَو المُتَلْفَزةِ وَفِي الرِواياتِ وَأَنَّ شَبَكاتِ التَواصُلِ وَقبْلَها البَرِيدُ الإِلكْتِرُونِيُّ قَدْ عَزَّزَتْهُ أَيَّما تَعْزِيز. لا أَرى مُوجِبًا لِلذُعْرِ فِي هَذا الانْتِشارِ، وَقَدْ كَتَبْتُ بِالعامِّيّةِ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ شَيْئًا مِن الشِعْرِ وَشَيْئًا مِن النَثْرِ وَنَشَرْتُ ما كَتَبْت. وَعِنْدِي أَنَّ الذُعْرَ لَدى مُعايَنةِ هَذا النَوْعِ مِن الظَواهِرِ إنّما هُوَ ذُعْرٌ مِن الحَياةِ نَفْسِها. وَكُنْتُ وَلا أَزالُ أَدْعُو إلى اعْتِبارِ العامِّيّاتِ مُسْتَوىً بَيْنَ مُسْتَوَياتٍ فِي اللُغةِ الواحِدةِ حَقُّهُ أَنْ يُدْرَسَ وَأَنْ تُفْرَدَ لَهُ مَعاجِمُ خاصّةٌ وَحَيِّزاتٌ فِي المَعاجِمِ الكُبْرى. فَلَيْسَ هَذا بِدْعًا بَلْ هُوَ المُتَّبَعُ فِي لُغاتِ العالَمِ الكُبْرى وَهُوَ المُتَّبَعُ أَيْضًا، وَلَوْ بتَحَفُّظٍ، فِي الكُبْرَياتِ مِن مَعاجِمِ ما نُسَمِّيهِ عَصْرَ النَهْضةِ، فَنَراها تُثْبِتُ اللَفْظَ العامِّيَّ وَتَصِفُهُ بِالعامِّيّ. هَذا

تَوَجُّهٌ لا يُفْضِي البَتّةَ إلى اسْتِبْعادِ التَفْكِيرِ فِي سُبُلٍ تُشَقُّ إلى النُهوضِ بِالفُصْحى وَالدِفاعِ عَنْها وَإلى إصْلاحِ تَعْلِيمِها وَتَيْسِيرِ تَعَلُّمِها وتَقْرِيبِها مِنْ حاجاتِ البَشَر. فَالفُصْحى حَيَّةٌ نابِضةٌ وَلَها سِيرةٌ طَوِيلةٌ فِي إصْلاحِ نَفْسِها. وَقَدْ دافَعَ عَنْها القُرْآنُ بِلا رَيْبٍ وَتُراثُ الإسْلامِ عَلى الأَعَمِّ وَما تَناسَلَ بِها مِن تُراثٍ ضَخْمٍ فِي الشِعْرِ وَالنَثْرِ عَلى اخْتِلافِ الأَبْواب. وَلَـكِنْ دافَعَ عَنْها، فِي الزَمَنِ الأَخِيرِ، شُعُورٌ قَوْمِيٌّ هِيَ عِمادُه أَيْضًا وَما تَرْعاهُ مِنْ وَحْدةٍ لِسُوقِ الكَلامِ بَيْنَ المُحِيطِ وَالخَلِيج. دافَعَت عَنْها الصَحافةُ وَالأَدَبُ العَصْرِيُّ أَيْضًا وَجَعَلاها غَيْرَ ما كانَتْ وَما فَتِئَتْ لُغَتَهُما الأُولى ولُغةَ القانُونِ وَسائِرِ المَعارِفِ المُدَوَّنة، وَهَذِهِ كُلُّها مَواطِنُ لا تَبْدُو الفُصْحى مُقْبلةً عَلى الزَوالِ عَنْها. وَإنَّما القَصْدُ أَنَّ الفُصْحى لا يُدافَعُ عَنْها فِي وَجْهِ العامِّيّاتِ بَلْ فِي وَجْهِ الجَهْلِ بِمُعْجَمِها وَقَواعِدِها وَبِتُراثِها وَبِطاقاتِها المَعْرِفِيّةِ وَالجَمالِيّة. وَقَدْ كُنْتُ شَدَّدْتُ فِي وَرَقةٍ ضافِيةٍ عَلى أَنَّ تَعَلُّمَ اللُغةِ مُتَّصِلٌ جِدًّا بِما يَنُوطُهُ المُجْتَمَعُ بِها مِنْ قِيمةٍ، عَلى اخْتِلافِ وُجُوهِ القِيمةِ، وَأَوْرَدْتُ مُقْتَرَحاتٍ لِتَحْسِينِ تَعَلُّمِ الفُصْحى لا تَفْتَرِضُ مُناطَحَتَها العامِّيّاتِ وَلا اللُغاتِ الأَجْنَبِيّةَ المُعْتَمَدةَ فِي مَدارِسِنا... وَهَذا، فِي كُلِّ حالٍ، حَدِيثٌ يَطُول.

(٤) وَما دُمْنا قَدْ ذَكَرْنا تَعْزِيزَ الفُصْحى وتَيْسيرَ تَعَلُّمِها

فَلْأُشِرْ إلى أَنَّني أَبْرَزْتُ، مُؤَخَّرًا، فَداحَةَ العَيْبِ الذِي خَلَّفَهُ فِي الكِتابةِ العَرَبِيّةِ اسْتِبْعادُ ما يُسَمّى «الحَرَكاتِ» أَي الصَوائِتِ القَصِيرةِ مِن النُصُوصِ العَرَبِيّةِ المَطْبُوعة. هَذِهِ ضَرْبةٌ أَنْزَلَها بِالعَرَبِيّةِ اعْتِبارُ الكُلْفةِ التِجارِيّةِ وَطَلَبُ السُرْعةِ فِي الإنْجاز. لا يَزالُ القُرْآنُ يُطْبَعُ مُحَرَّكًا. وَهَذا أَمْرٌ يَفْرِضُ نَفْسَهُ جُزْئِيًّا فِي طِباعةِ المَعاجِمِ أَيْضًا. وَلَـكِنَّ دُورَ نَشْرٍ عَرِيقةً كانَتْ، إلى عَهْدٍ لا أَعْرِفُ مَتى أَفَلَ بِالضَبْطِ، تَطْبَعُ دَواوِينَ مِن التُراثِ الشِعْرِيِّ وَكُتُبًا مُخْتَلِفةً أُخْرى عَلى هَذِهِ الشاكِلةِ نَفْسِها. وَعِنْدِي طَبْعةٌ مِصْرِيّةٌ رائِعةٌ لِمُقَدِّمةِ ابْنِ خَلْدُونٍ أَظُنُّها تَرْقى إلى أَوائِلِ القَرْنِ الماضِي مُحَرَّكةٌ حَرْفًا حَرْفًا. وَقَدْ استعادَت هَذا التَقْلِيدَ الحَمِيدَ، قَبْلَ أَعْوامٍ، دارٌ بَيْرُوتِيّةٌ رَفِيعةُ العِلْمِ وَالذَوْقِ هِيَ دارُ الجَدِيد. وَلَـكِنْ أرْهَقَتْها المُنافَسَةُ غَيْرُ المُنْصِفةِ، فَضْلًا عَن الكَسادِ العامِّ، فَاضْطُرَّتْ إلى التَخَفُّفِ مِنْ هَذا الهَمّ أَوْ مِنْ مُعْظَمِه. وَالحالُ أَنَّ غِيابَ الصَوائِتِ عَن المَطْبُوعِ يَقَعُ عَلَيْهِ مُعْظَمُ المَسْؤُولِيّةِ عَنْ تُهْمةِ الصُعُوبةِ الاسْتِثْنائِيّةِ التِي تُرْمى بِها العَرَبِيّةُ ظُلْمًا. فَلَو انَّنا جِئْنا بِنَصٍّ فَرَنْسِيٍّ قَصِيرٍ، مَثَلًا، وَقَصَرْنا الأَلْفاظَ فِيهِ عَلى صَوامِتِها لَراعَنا أَنَّ قِراءَتَهُ باتَتْ تَمْرِينًا هَزْلِيًّا أَوْ شِبْهَ مُحال. وَالحالُ أَنَّنا نُلْفِي أَنْفُسَنا حِيالَ هَذا التَمْرِينِ نَفْسِهِ تَقْرِيبًا كُلَّما وَقَعَتْ عَيْنُ واحِدِنا عَلى

نَصٍّ، أيًّا يَكُنْ، مِن النُصُوصِ العَرَبِيّةِ التِي تَعْتَرِضُ سَبِيلَنا أَوْ نعْتَرِضُ سَبيلَها كُلَّ ساعة. أَقُولُ: «تَقْرِيبًا» لِأَنَّ الصَوائِتَ الطَوِيلةَ تَبْقى ظاهِرةً فِي المَطْبُوعِ العَرَبِيِّ وَلِأَنَّ اشْتِقاقَ الأَلْفاظِ المُخْتَلِفةِ المَوازِينِ، بِالعَرَبِيّةِ، مِنْ مادّةٍ واحِدةٍ يُسْعِفُ السِياقَ شَيْئًا ما فِي بَيانِ اللَفْظِ المَقْصُودِ مِنْ بَيْنِ أَلْفاظٍ عِدّةٍ مُحْتَمَلة. لَـكِنّ هَذا الإسْعافَ يَبْقى حَدْسِيًّا وَتَبْقى الصُعُوبةُ قائِمةً وَالخَطَأُ وارِدًا. فَلَو أنَّ الحَرَكاتِ أُثْبِتَتْ لانْتَفى احْتِمالُ الخَطَأِ بِما فِيهِ الخَطَأُ الصَرْفِيُّ أَو النَحْوِيُّ وَلَاسْتَحالَ النَصُّ، أَيُّ نَصٍّ، إلى وَسِيلةٍ لِتَعَلُّمِ قَواعِدِ اللُغَةِ أَوْ لِاسْتِذْكارِها. إلى ذَلِكَ، يَقْطَعُ التَحْرِيكُ السَبِيلَ أَمامَ الحُجّةِ الرَئِيسةِ لِلْأَتاتُورْكِيِّينَ العَرَبِ مِن القائِلِينَ بِاعْتِمادِ الحَرْفِ اللاتِينِيّ: وَهِيَ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَفْهَمَ النَصَّ العَرَبِيَّ سَلَفًا لِتُحْسِنَ قِراءَتَه... فَفِي النَصِّ المُحَـرَّكِ يَنْتَفِي احْتِمالُ الخَلْطِ بَيْنَ القِدْرِ وَالقَدْرِ وَالقَدَرِ أَوْ بَيْنَ الفاعِلِ وَالمَفْعُولِ أَوْ بَيْنَ الفِعْلِ وَمَصْدَرِهِ، إلخ... وَهَذِهِ وَغَيْرُها وارِدةٌ، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، فِي قِراءةِ النَصِّ العَرَبِيِّ المُجَرَّدِ مِنْ صَوائِتِه. وَقَدْ أَرادَ أَتاتُورْك، عَلى الأَرْجَحِ، فَوْقَ إرادتِهِ إِدْراجَ تُرْكِيا الجَدِيدةِ فِي أُورُوبّا، بَتَّ الحَبْلِ المَوْصُولِ ما بَيْنَ التُرْكِيّةِ وَتُراثِها وَبَيْنَها وَبَيْنَ التُراثِ الإسْلامِيِّ عُمُومًا... أَقُولُ هَذا كُلَّهُ فِي وَقْتٍ أَصْبَحَ فِيهِ التَطَلُّعُ إلى بَرْمَجِيّةٍ

تَـتَوَلّى التَحْرِيكَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها، بِناءً عَلى تَحْلِيلٍ نَحْوِيٍّ وَدَلالِيٍّ لِلنَصِّ، أَمْرًا بَعِيدًا عَنْ شُبْهَةِ التَهْوِيمِ أَو الهَذَيان. بَلْ إنَّ نَماذِجَ مِنْ هَذِهِ البَرْمَجِيّةِ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي المُتَناوَلِ فِعْلًا. فَإذا حَصَلَ التَحْرِيكُ الآلِيُّ بَقِيَ عَلى المُصَحِّحِ، وَهُوَ واجِبُ الوُجُودِ وَالكَفاءةِ فِي كُلِّ حالٍ، أَنْ يَتَدارَكَ ما تَقَعُ فِيهِ البَرْمَجِيّةُ مِنْ أَخْطاء. وَهَذِهِ أَخْطاءٌ يُفْتَرَضُ، كَما هِيَ الحالُ مَعَ بَرْمَجِيّاتِ التَرْجَمةِ، أَنْ تُصْبِحَ أَقَلَّ وُرُودًا كُلَّما تَحَسَّنَت البَرْمَجِيّةُ.

(٥) ذَكَرْتُ السُلْطةَ اللُغَوِيّةَ أَعْلاه. وَقَدْ كُنْتُ تَناوَلْتُها فِي مَقالةٍ قَصِيرةٍ وَفِي مَواضِعَ مُتَفَرِّقةٍ مِنْ أَعْمالٍ أُخْرى. وَقَبْلَ أَسابِيعَ، قَرَأْتُ خَبَرًا مُفادُهُ أَنَّ مَجْمَعَ اللُغَةِ العَرَبِيّةِ فِي القاهِرةِ، وَهُوَ أَوْفَرُ مَجامِعِنا هَيْبةً وَلَعَلَّهُ أَجَلُّها تُراثًا أَيْضًا، يَبْتَغِي مِن السُلْطةِ العامّةِ أَنْ تُقِرَّ تَشْرِيعًا يُعاقِبُ بِغَراماتٍ فادِحةٍ، بَلْ بِالحَبْسِ أَيْضًا، مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الكِتابةَ بِالعامِّيّةِ فِي الصُحُفِ وَسائِرِ وَسائِطِ الإعْلامِ والإعْلان... وَفِي تَرْجَمةِ المُسَلْسَلاتِ المُتَلْفَزةِ أَيْضًا! هَذا هَزْلٌ تَقَعُ فِيهِ مُؤَسَّسةٌ مَعْرُوفةٌ بِالتَجَهُّمِ عادةً! وَقَدْ كُنْتُ أَرى وَلا أَزالُ أَنَّ الإصْلاحَ اللُغَوِيَّ، أَيًّا يَكُنْ، يُقْتَرَحُ وَلا يُفْرَضُ وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُسايِرَ الجارِي فِي الاسْتِعْمالِ مُلْتَزِمًا فِي ما يَقُولُ بِهِ حُدودَ السائِغِ وَالمُمْكِنِ، مُعْتَدًّا بِكَوْنِ الاسْتِعْمالِ سَتَبْقى

كَلِمَتُهُ هِيَ العُلْيا، أَطاعَ دَواعِيَ الإِصْلاحِ أَمْ عَصِيَها. هَذا، فِي كُلِّ حالٍ، شَرْطٌ مُرَجَّحٌ لِإِقْبالِ مَراكِزِ الإِعْلامِ وَالتَعْلِيمِ وَالنَشْرِ عَلى الإِصْلاحِ المُرادِ، إِذْ مِنْها، لا مِن الأَفْرادِ، يَنْطَلِقُ الإِصْلاحُ وَيَنْتَشِر. وَقَدْ سَرَّنِي أَنَّ أَلانْ رِيْ، الكَبِيرَ الذِي تَعَلَّمْتُ مِنْهُ، ذاتَ صَيْفٍ، بَعْضَ ما تَعَلَّمْتُهُ فِي مَيْدانِ صِناعةِ المَعاجِمِ، أَدْلى مُؤَخَّرًا، فِي صَدَدِ مَسْأَلةِ لَحْظِ المُؤَنَّثِ المَطْرُوحةِ عَلى لُغَتِهِ الفَرَنْسِيّةِ، بِهَذا الرَأْيِ نَفْسِه.

(٦) بَقِيَتْ إِشارةٌ أُخْرى إِلى الأُسْلُوبِ، أَيْ إِلى مُمارَسةِ اللُغةِ وَالمَعارِفِ المُتَّصِلةِ بِها، مُمارَسةً شَخْصِيّةً فِي الكِتابة. وَقَدْ حَمَلَتْنِي مُناسَبَتان عَلى تَكْرِيسِ دِراسةٍ لِكَلامِ الأَغانِي عِنْدَ زِياد الرَحْباني وَأُخْرى وَضَعْتُها بِالفَرَنْسِيّةِ، لِأُسْلُوبِ غَسَّان تُوَيْنِي. وَهَذانِ عَمَلانِ لا أُجاوِزُ الإِشارةَ إِلَيْهِما هَهُنا.

•

لَسْتُ فَقِيهًا فِي نَحْوِ العَرَبِيّةِ وَصَرْفِها وَلا بَقِيَ فِي ذاكِرَتِي مِنْ عُلُومِ البَلاغةِ وَلا من عِلْمِ العَرُوضِ سِوى القَلِيلِ المُتَناثِر. أَتَحَيَّرُ أَوْ أَتَرَدَّدُ كَثِيرًا، وَقَدْ أُخْطِئُ، فِي مَسائِلَ تَتَوالى مُتَّصِلةً بِهَذا أَوْ ذاكَ مِنْ عُلُومِ العَرَبِيّةِ المُتَرامِيةِ الأَطْراف. أُقِرُّ بِشِدّةِ قُصُورِي وَأَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَبْقى مُلازِمِي، عَلى الدَوامِ، فَأَتَناوَلُ، حِينَ أَفْطَنُ إِلى جَهْلِي، كِتابًا أَوْ مُعْجَمًا عَنْ رَفٍّ أَوْ أَسْتَطْلِعُ (وَهَذا باتَ هُوَ المُرَجَّحَ فِي الأَعْوامِ الأَخِيرةِ)

ما تَعْرِضُهُ الشَبَكة. وَالشَبَكةُ أَصْبَحَتْ تَعْرِضُ ما يَفِيضُ عَن الحاجةِ وَالطاقةِ بِكَـثِيرٍ مِنْ كُتُبِ اللُغَةِ وَمَعاجِمِها. تَعَلَّمْتُ أَكْثَرَ ما تَعَلَّمْتُ مِن المُطالَعةِ لا مِن المَدارِس. تَعَلَّمْتُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ وَلَعِي بِالفُصْحى وَبِنَثْرِها وَشِعْرِها وَمِنْ مُزاوَلةِ الكِتابةِ بِها، لا رَيْبَ. مِن العامِّيّاتِ أَيْضًا وَمِن الفَرَنْسِيّةِ التِي أَكْتُبُ بِها وَأَقْرأُ كَـثِيرًا تَعَلَّمْتُ أُمُورًا مُهِمّةً تَـتَعَلَّقُ بِالعَرَبِيّةِ الفُصْحى! وَأَسْعَفَنِي، عَلى التَخْصِيصِ، فِي الزِيادةِ عَلى ما كُنْتُ أَعْرِفُ وَفِي تَنْظِيمِهِ عَمَلِي مُدّةَ أَعْوامٍ سِتّةٍ فِي فَرِيقٍ كانَ عاكِفًا عَلى وَضْعِ مُعْجَمٍ فَرَنْسِيٍّ عَرَبِيٍّ لِلتَلامِذة. لَمْ يُبْصِر المُعْجَمُ النُورَ، مَعَ الأَسَفِ، لِأَنَّ المَرْكَزَ الذِي كانَ مُتَوَلِّيًا مَشْرُوعَهُ وَمَشارِيعَ عِدّةً أُخْرى تَعَثَّرَ وَأَسْدَلَ العَتْمةَ عَلى صَنادِيق البِطاقات. وَلَـكِنَّنِي كَسَبْتُ، فِي هَذا المَرْكَزِ، عِشْرةَ المَعاجِم يَوْميًّا فَضْلًا عَنْ عِشْرةِ الزُمَلاء. كَسَبْتُ أَيْضًا أَبْحاثًا أَجْرَيْتُها فِي المِضْمارِ المُعْجَميّ، ولم أُشِرْ إلَيْها أَعْلاهُ، تَناوَلَ بَعْضُها تَنْظِيمَ المُعْجَمِ اللُغَوِيّ وَأَحَدُها وَضْعَ مُعْجَمٍ لِعُلومِ القُرْآنِ وَآخِرُها صِناعةَ مُعْجَمٍ جَدِيدٍ لِمُصْطَلَحِ العُلومِ النَفْسانِيّةِ وَالاجْتِماعِيّة. وَقَدْ أَثْبَتُّ ما وَجَدْتُ وَجْهًا لِنَشْرِهِ مِنْ هَذِهِ الأَبْحاثِ فِي كِتابَيَّ اللَذَيْنِ سَبَقَت الإشارةُ إلَيْهِما، وَهِيَ نُصُوصٌ وَعْرةٌ بَعْضَ الشَيْءِ لا أَنْصَحُ بِقِراءَتِها غَيْرَ المُضْطَرّ.

هَذا كُلُّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا. وَما دامَ كَلامِي تَـكْرارًا كُلُّهُ لِكَلامٍ سَبَقَ، فَلْأَخْتِم، مَرّةً أُخْرى، بتَكْرارِ قَوْلِ القُدَماءِ مِن النُسّاخِ المَسيحِيِّينَ، حِينَ كانَ واحِدُهُمْ يَفْرُغُ مِنْ نَسْخِ مَخْطُوطٍ ما: «إلى هُنا أَعانَنِي الله!».

فِي اللُّغَة

فِي أَنَّ اسْتِواءَ تَعَلُّمِ اللُغاتِ قِيمةً مُدْرَكةً شَرْطٌ لمُعالَجةِ مُشْكِلاتِه(*)

وَجاهةُ الشَكْوى...

تتآزَرُ شَهاداتٌ كَثِيرةٌ فِي تَأْكِيدِ ما يُعانِي مِنْهُ طُلّابُ الجامِعاتِ العَرَبُ مِنْ ضَعْفٍ فِي الكَفاءاتِ اللُغَوِيّة. وَلا يَجِدُ الواحِدُ مِنّا، مَتى كانَ مِمَّنْ عانى التَعْلِيمَ الجامِعِيَّ عَشَراتٍ مِن السِنِينِ وَاسْتَمَعَ إلى الطُلّابِ يَعْرِضُونَ فِي الصَفِّ حَصائِلَ بُحُوثِهِمْ فِي مَسائِلَ شَتّى وَقَرَأَ مِن الرَسائِلِ وَالأُطْرُوحاتِ ما قَرَأَ وَتابَعَ مِنْ إعْدادِ بَعْضِها ما تابَعَ، ما يَحْمِلُهُ عَلى الشَكِّ فِي وَجاهةِ هَذا التَأْكِيدِ أَوْ عَلى الطَعْنِ فِي وَجاهةِ هَذِهِ الشَكْوى. مِنْ جِهَتِي، قَرَأْتُ مِنْ أَعْمالِ الطُلّابِ هَذِهِ نَيِّفًا وَمِائةً بَيْنَ رِسالةٍ وَأُطْرُوحةٍ وهَذا فِي مُدّةِ رُبْعِ قَرْن. وَلَمْ أَكُنْ مُشْرِفًا إلّا عَلى العَدَدِ الأَقَلِّ مِنْها وَكُنْتُ عُضْوًا فِي اللِجانِ التِي ناقَشَت العَدَدَ الأَكْثَرَ وَعُرِضَ عَلَيَّ بَعْضٌ أَخِيرٌ مِنْها لِلتَقْوِيمِ أَوْ لِمُجَرَّدِ الاطِّلاعِ وَإبْداءِ الرَأْي. وَما كُنْتُ مُشْرِفًا عَلَيْهِ قَرَأْتُهُ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ فُصُولًا مُتَفرِّقةً ثُمَّ أَعْمالًا تامّةً. وَكانَ حالُ اللُغةِ شاغِلًا ثابِتًا لِي وَكانَ كَثِيرًا ما يَصْرِفُنِي عَن اسْتِيعابِ ما يُعْرَضُ فَأُضْطَرُّ إلى إعادةِ القِراءة. قَبْلَ رُبْعِ القَرْنِ هَذا (وَقَدْ مارَسْتُ فِيهِ التَدْرِيسَ بِاللُغَةِ العَرَبِيّةِ حَصْرًا) دَرَّسْتُ الفَلْسَفةَ بِاللُغَةِ

(*) وَرَقةٌ قُدِّمَتْ فِي «مُؤْتَمَرِ المَعْرِفةِ الأَوَّلِ» المُنْعَقِدِ بِدُبَي فِي ٢٨ و٢٩ تِشْرِينِ الأَوَّلِ ٢٠٠٧

الفَرَنْسيّةِ فِي الثانَويّاتِ، سِنِينَ كَثِيرةً، وَدَرَّسْتُ التَرْجَمةَ وَاللُغَةَ الفَرَنْسِيّةَ نَفْسَها فِي الثانَوِيّاتِ وَفِي الجامِعةِ وَدَرَّسْتُ التارِيخَ وَالتَرْبِيةَ المَدَنِيّةَ فِي الثانَوِيّات. فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مُهِمٌّ لَمْ أُعانِهِ مِنْ أَحْوالِ تَلامِذَتِنا وَطُلّابِنا مَعَ اللُغاتِ سِوى حالِهِمْ مَعَ لُغةِ العُلُومِ الطَبِيعِيّةِ وَالرِياضِيّات. فَهَذِهِ مَوادٌّ لا نَصِيبَ لِي مِنْها يُعْتَدُّ بِه. عَلى أَنَّنِي لامَسْتُ ــ وَلَوْ لِمامًا ــ مُشْكِلَ العَلاقةِ بَيْنَ مُصْطَلَحِها الأَجْنَبِيِّ المَنْشأ وَمُقابِلِهِ العَرَبِيِّ أَو المُعَرَّبِ فِي أَثْناءِ تَجْرِبةٍ طَوِيلةٍ نِسْبِيًّا فِي العَمَلِ المُعْجَمِيّ.

إلى هَذا، أَتِيحَتْ لِيَ الإقامةُ زائِرًا فِي جامِعاتٍ فَرَنْسِيّةٍ وَمَعَها العُضْوِيّةُ فِي لِجانِ مُناقَشةٍ لأُطْرُوحاتٍ أُعِدَّتْ هُناك. وَأُتِيحَتْ لِي أَيْضًا مُحاوَرةُ طُلّابٍ لُبْنانِيِّينَ تُعَدُّ الفَرَنْسِيّةُ أَو الإنْكِلِيزِيّةُ وَسِيلَتَهُمْ إلى اكْتِسابِ المَعارِفِ وَإنْشائِها أَوْ تَبْلِيغِها وَيَسْتَبْقُونَ العَرَبِيّةَ بِمَعْزِلٍ مِنْ هَذا النِطاقِ بِرُمَّتِهِ فَلا يَقْرَأُونَ فِيها إلّا اسْتِثْناءً وَلا يَكْتُبُون. فَقَيَّضَ لِي ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ أَتَوَفَّرَ عَلى قُطْبٍ صالحٍ للمُقارَنة: مُقارَنةِ الحالِ التِي يُقِيمُ عَلَيْها هَؤلاءِ مَعَ إحْدى اللُغَتَيْنِ الأَجْنَبِيَّتَيْنِ (تُسْعِفها الثانِيةُ فِي كَثِيرٍ مِن الحالاتِ) بِالحالِ التِي وَجَدْتُ جُمْهُورَ طَلَبَتِي وَتَلامِذَتِي مُقِيمِينَ عَلَيْها مَعَ العَرَبِيّةِ وَغَيْرِ العَرَبِيّةِ مِمّا يُفْتَرَضُ بِهِم الإلْمامُ بِهِ مِن اللُغات. فَلَمْ يَزِدْنِي ذَلِكَ كُلُّهُ إلّا رُسُوخًا فِي الشَكْوى وَتَسْلِيمًا بِوَجاهةِ أَسْبابِها.

...وَضَآلةِ الجَدْوى مِنْها

مَعَ هَذا أَرانِي مُسَلِّمًا أَيْضًا بِضَآلةِ الجَدْوى مِنْ هَذِهِ الشَكْوى، بَلْ أَيْضًا

بِالضَرَرِ المَعْنَوِيِّ المُتَأَتّي مِن الإفْراطِ فِي تَـكْرارِها. فَهَذا الإفْراطُ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ نَفْضًا لِلْيَدِ مِن المُشْكِلةِ وَبابًا إلى الاسْتِسْلامِ لخَطْبٍ يَبْدُو عَصِيًّا عَلى المُعالَجة. وَلا تُجاوِزُ مُواجَهةُ المُشْكِلةِ عَلى مُسْتَوَى الدِراساتِ العُلْيا أَنْ تَزِيدَ اليَأْسَ عُمْقًا. فَحِينَ نَقَعُ فِي عَمَلٍ أُعِدَّ لِنَيْلِ شَهادةٍ عُلْيا عَلى الضَآلةِ فِي رَأْسِ المالِ المُعْجَميّ، اللُغَوِيِّ، فَضْلًا عَنْ الاصْطِلاحِيِّ، وَعَلى الجُنُوحِ إلى الرَكاكةِ وَالرَثاثةِ فِي التَعْبِيرِ وَفِي الإنْشاءِ، فَضْلًا عَن الأَخْطاءِ النَحْوِيّةِ وَالصَرْفِيّةِ وَالإمْلائِيّةِ، يُسْقَطُ فِي أَيْدِينا وَنَشْعُرُ أَنَّ أَوانَ إصْلاحِ الحالِ قَدْ فاتَ وَأَنَّ عَلَيْنا أَنْ نَجِدَّ فِي البَحْثِ عَنْ مَعْنًى سَلِيمٍ نَفْتَرِضُ وُجُودَه افْتِراضًا وَراءَ الجُمْلةِ أَو الفِقْرةِ السَقِيمةِ وَأَنْ نَكْتَفِيَ بِهَذا الصَيْدِ إذا تَيَسَّرَ لَنا فَلا نَسْأَلُ الطالِبَ ما هُوَ فَوْقَ طاقَتِه. وَقَدْ باتَ مُعْتادًا أَنْ يَلْجَأَ الطُلّابُ إلى مُصَحِّحِينَ لُغَوِيِّين. فَيُزِيلُ هَؤلاءِ، (وَهُمْ عادةً مُتَفاوِتُو الكَفاءةِ)، ما تَـتَيَسَّرُ لَهُمْ إزالَتُهُ مِن الأَخْطاءِ المُتَصَدِّرةِ، (وَهِيَ الصَرْفِيّةُ وَالنَحْوِيّةُ ـ بِمَعْنى الإعْرابِ ـ وَالإمْلائِيّةُ، دُونَ غَيْرِها عادةً)، وَيَتْرُكُونَ ما تَبَقّى مِنْ وُجُوهِ الخَطَأِ وَالضَعْفِ فِي العِبارةِ، وَهُوَ الأَهَمُّ فِي الواقِعِ إذْ هُوَ الأَشَدُّ تَحَكُّمًا بِمُسْتَوَى المَضْمُون. فَلا يَتَجاوَزُ دَوْرُهُمْ إصْلاحَ القِشْرةِ إذْ يَحِدُّ مِنْ هَذا الدَوْرِ ـ بَيْنَ ما يَحِدُّ ـ هَذا الفَصْلُ ما بَيْنَ الكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ وَالتَمَكُّنِ مِنْ مَوْضُوعِ النَصّ.

يُعادِلُ ضَعْفُ الكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ، عَلى هَذا المُسْتَوَى مِن الدِراسةِ، فِي حَدِّهِ مِنْ جَوْدةِ الأَبْحاثِ، ضَعْفَ الثَقافةِ العامّةِ وَضَآلةَ المَعْرِفةِ بِمَيْدانِ التَخَصُّصِ وَبِأُمَّهاتِ الأَعْمالِ المُؤَسِّسةِ لَهُ وَافْتِقادَ التَمَكُّنِ مِنْ مَناهِجَ وَتَقاناتٍ لا بُدَّ مِنْ إحْسانِ اسْتِعْمالِها لِتَوْفِيَةِ المَوْضُوعِ حَقَّهُ وإِدْراجِهِ فِي إطارٍ مَرْجِعِيٍّ بِعَيْنِه. فَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْ هَذِهِ العَوْراتِ أَثَرَها فِي الانْحِطاطِ بِسَوِيّةِ البَحْثِ وَفِي

إحْباطِ الطُمُوحِ الذِي تَسْتَثِيرُهُ فِي طَوِيّةِ الأُسْتاذِ وَالطالِبِ مَعًا جُهُودُ هَذا الأَخِير. وَذاكَ أَنَّ السَنَواتِ تَنْقَضِي وَلا تَتَّسِعُ لِيَسُدَّ الطالِبُ (وَهُوَ غَيْرُ مُتَفَرِّغٍ لِلْبَحْثِ فِي مُعْظَمِ الحالاتِ) هَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِن الخِلالِ المُشارِ إلَيْها سَدًّا يُعْتَدُّ بِهِ وَيُعَوَّلُ عَلَيْه. فَإِنَّ الوَقْتَ المَصْرُوفَ لِلْبَحْثِ لا يَكْفِي، مَهْما يَطُلْ، لِما يُجاوِزُ الإلْمامَ بِمَصادِرِ المَوْضُوعِ (دُونَ مَراجِعِ المَيْدانِ) وَلِلتَحْقِيقِ الحَقْليِّ (إذا وُجِدَ) ثُمَّ لِمُعالَجةِ المُعْطَياتِ وَلإِخْراجِ البَحْثِ فِي الصُورةِ المَقْبُولةِ شَكْلًا. فَلا يُجِيز المُشْرِفُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْتَرِطَ عَلى الطالِبِ، وَقَدْ بلَغَ هَذِهِ المَرْحَلةَ، اسْتِئْنافَ تَعَلُّمِ المادّةِ مِنْ أَصْلِهِ وَلا ــ بِالأَحْرى ــ تَعَلُّمَ لُغَتِهِ أَوْ لُغَةٍ أَجْنَبِيّةٍ تَلْزَمُهُ مَعْرِفَتُها حَتّى يُحْسِنَ اسْتِنْطاقَ مَصادِرِ بَحْثِهِ وَمَراجِعِه أَوْ بَعْضِها. فَهَذا كُلُّهُ وَسِواهُ مِمّا يُناظِرُهُ يَبْدُو، إذْ ذاكَ، مَطْلَبًا فاتَ أَوانُهُ وَيَبْدُو طَرْحُهُ عَلى الطالِبِ أَشْبَهَ بِالتَنْكِيل.

هَذا وَلا يَزْدادُ مُجَرِّبُ هَذِهِ الأَحْوالِ إلّا غَمًّا حِينَ يَفْطَنُ إلى أَنَّ المُطالَبَةَ بِتَحْسِينِ الإعْدادِ اللُغَوِيِّ لِلطُّلّابِ (وَمَعَهُ وُجُوهٌ أُخْرى مِنْ إعدادِهِمْ)، فِي أَثْناءِ المَراحِلِ السابِقةِ لِلدراساتِ العُلْيا، إنَّما هِيَ مُطالَبَةٌ تَعِدُ بِانْكِشافِ المُشْكِلاتِ أَكْثَرَ مِمّا تَعِدُ بِحَلِّها. فَإِنَّ الطُلّابَ الذِينَ يُواكِبُ أَعْمالَهُمْ وَأَحْوالَهُمْ سَيُمْسِي بَعْضُهُمْ مُعَلِّمِينَ فِي المُسْتَوَياتِ الأُخْرى مِن الجامِعِيِّ فَما دُون. بَلْ إنَّهُ يتَّفِقُ كَثِيرًا أَنْ يَكُونَ مَن اتَّخَذَكَ مُعَلِّمًا قَدْ أَصْبَحَ هُوَ نَفْسُهُ مُعَلِّمًا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ إلَيْك. وَلَيْسَ كَثِيرًا عَلى اللهِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَنْ خَبِرْتَ سُوءَ حالِهِمْ مَعَ اللُغةِ مِنْ مُدَرِّسِي هَذِهِ الأَخِيرة، الراسِخِينَ فِي صُفُوفِها مِنْ سِنِين. هَكَذا يَنْحُو الفَخُّ نَحْوَ الإطْباقِ عَلَيْنا جَمِيعًا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَتَتَّسِعُ الشِقّةُ بَيْنَنا وَبَيْنَ الأَمَلِ فِي حَلٍّ أَوْ ــ عَلى الأَقَلِّ ــ فِي وَضْعِ قَدَمِنا مَوْضِعًا

يَصِحُّ أَنْ نَعُدَّهُ بِدايَةَ طَرِيق ... وَذاكَ أَنَّ التَعَلُّمَ مُحْتاجٌ عادَةً إلى مُعَلِّمٍ بِخِلافِ ما تَزْعُمُهُ طُرُقٌ فِي تَعْلِيمِ اللُغةِ تُزَيِّنُ لَنا الاسْتِغْناءَ عَنِ المُعَلِّمِين. وَالمُعَلِّمُونَ يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمُوا... فَإِنَّ قِيمَتَهُمْ هِيَ ما يُحْسِنُونَهُ بَعْدَ التَعَلُّم. وَلَيْسَ ثَمَّةَ ما لا يُتَعَلَّمُ ــ عَلى قَوْلِ القائِلِ ــ إلّا الجَهْل!...

جَذْرُ المُشْكِلة

لا رَيْبَ فِي سُوءِ حالِنا إذَنْ وَلا فِي وَجاهةِ شَكْوانا. غَيْرَ أَنَّ الذَهابَ إلى حَدِّ القَوْلِ بِتَعَذُّرِ الخُرُوجِ مِنْها ذَهابٌ لا تُجِيزُهُ أَبْحاثٌ كَثِيرةٌ عَنِ المَخارِجِ أَجْراها أَقْرانٌ لَنا واعُونَ لِما نَحْنُ فِيهِ وَمُعْتَنُونَ بِاجْتِراحِ العِلاجِ أَكْثَرَ مِن اعْتِنائِهِمْ بِاجْتِرارِ الشَكْوى. هَؤُلاءِ جَمَعُوا مُعْطَياتٍ وَتَوَصَّلُوا إلى تَشْخِيصاتٍ وَقَدَّمُوا مُقْتَرَحاتٍ تَرَكَّزَتْ فِي مُعْظَمِها عَلى تَعْلِيمِ اللُغاتِ وَمَناهِجِهِ وَطَرائِقِهِ وَكُتُبِه. فَكانَ أَنَّهُمْ عايَنُوا المُشْكِلاتِ حَيْثُ تَظْهَرُ مُباشَرةً لِلْعَيانِ وَجَهِدُوا لِتَعَقُّبِ تَفَرُّعاتِها الحِسِّيّةِ وَلِتَصْنِيفِها وَلِلتَوْصِيةِ بِإجْراءاتٍ مُجْمَلةٍ لِلْمُعالَجةِ تَـتَناوَلُ جِذْعَ المُشْكِلةِ وَبِأُخْرى مُفَصَّلةٍ تَـتَناوَلُ تَفْصِيلاتٍ مِنْها كَبِيرةً وَصَغِيرة. وَهَذا كُلُّهُ فِي مَحَلِّهِ وَبَعْضُهُ إسْهاماتٌ قَيِّمةٌ لِلْغايةِ فِي بابِها وَيَكْفِي بَعْضَهُ الآخَرَ أَنَّهُ مَثارٌ لِلرَدِّ وَالمُناقَشة. فَلا بُدَّ إذَنْ مِن العَوْدةِ إلى هَذا كُلِّهِ إرْشادًا لِكُلِّ عَمَلٍ بَيْنَ يَدَيْ تَعْلِيمِ اللُغةِ أَوْ لِكُلِّ تَدَخُّلٍ فِيهِ يَبْتَغِي إصْلاحَه.

عَلى أَنَّنا نَرى، قَبْلَ الوُصُولِ إلى هَذا الصَعِيدِ، أَنَّ مُشْكِلاتِ الكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ وَاكْتِسابِها لَها جَذْرٌ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا الكَشْفُ عَنْه قَبْلَ تَفْصِيلِ النَظَرِ فِي ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ لِلْجِذْعِ وَلِلْفُرُوع. وَلِهَذا الجَذْرِ، فِي كُلِّ حالٍ، إجْراءاتٌ تُناسِبُهُ

خاصّةٌ، فَلا بُدَّ مِنْ تَعْيينِها. وَهِيَ حِينَ تُتَّخَذُ لَنْ تَـكُونَ بِلا أَثَرٍ فِي الجِذْعِ وَفِي الفُروعِ وَفِي ما يَسْتَوْجِبُهُ ذاكَ وَهَذِهِ مِنْ إجْراءات. عَلى أَنَّهُ لا بُدَّ مِن الإشارةِ، بادِئَ بَدْءٍ، إلى أَنَّ ما نُسَمِّيهِ جَذْرًا إنَّما يَسْتَحِقُّ هَذا الاسْمَ بِاعْتِبارِ مَوْقِعِهِ مِن المُشْكِلةِ بِرُمَّتِها وَلَيْسَ بِاعْتِبارِ أَسْبَقِيّةٍ زَمَنِيّةٍ لَهُ، أَيًّا يَكُنْ مَداها، عَلى الجِذْعِ وَعَلى الفُرُوع. بَلْ إنَّ هَذا الجَذْرَ مُقْتَرِنٌ، فِي وَضْعِ المُشْكِلةِ الراهِنِ، بِاللَحْظةِ التِي نَحْنُ فِيها. فُهُوَ وَلِيدُها وَهُوَ مُحَدِّدٌ فِيها لِعَلاقتِنا بِاللُغاتِ وَبِمَعْرِفتِها. هَذا الجَذْرُ نَقْتَرِحُ لَهُ اسْمًا «قِيمةَ اللُغةِ» أو، بِالأَحْرى، تَمَثُّلَنا لِهَذِهِ القِيمةِ فِي مَرْحَلةٍ يَصْعُبُ التَأْرِيخُ الدَقِيقُ لِبَدْئها وَلَـكِنَّها قَدْ لا تُجاوِزُ العُقُودَ الأَرْبَعةَ الأَخِيرةَ: وَهِيَ العُقُودُ التِي شَهِدَتْ تَراخِيَ «المَدِّ القَوْمِيِّ» العَرَبِيِّ وَتَعَثُّرَهُ ثُمَّ وُصُولَهُ، اليَوْمَ، إلى ما يُشْبِهُ الاضْمِحْلال.

وَلْيُؤْذَنْ لِي (مَعَ ما فِي هَذا النَوْعِ الشَخْصِيِّ مِن الإشاراتِ مِنْ حَرَجٍ تَزِيدُ مِنْهُ عُمُومِيّةُ المَسْأَلةِ المَطْرُوحةِ) بِالعَوْدةِ إلى نَشْأَتِي وَنَشْأةِ جِيلِي إيضاحًا، مِنْ طَرِيقِ المُقارَنةِ، لِما أَرْمِي إِلَيْهِ مِن التَشْدِيدِ، قَبْلَ الغَوْصِ فِي تَفاصِيلِ المُشْكِلِ الراهِنِ المُتَعَلِّقِ بِالكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ، عَلى ما سَمَّيْتُهُ قِيمةَ اللُغةِ وَتَمَثُّلاتِنا لِهَذِهِ القِيمة. فَقَدْ كانَ ماثِلًا فِي تَضاعِيفِ هَذِهِ النَشْأةِ مَوْقِفٌ مِن اللُغةِ وَمِنْ إحْسانِ اسْتِعْمالِها نُطْقًا وَإنْشاءً مُخْتَلِفٌ جِدًّا عَنْ ذاكَ الذِي نُعايِنُهُ عِنْدَ ناشِئَتِنا اليَوْم. كانَ هَذا المَوْقِفُ، فِي واقِعِ الحالِ، مَوْقِفَيْنِ مُتَآزِرَيْنِ: مَوْقِفًا مِن العَرَبِيّةِ الفُصْحى وَآخَرَ مِن اللُغة الأَجْنَبِيّة، وكانت هَذِهِ، فِي حالتي، هِيَ الفَرَنْسِيّةَ (لِأنَّ تَعَلُّمِي لِلإنْكلِيزِيّةِ جاءَ مُتَأَخِّرًا نِسْبِيًّا وَمُتَقَطِّعًا إلى مَراحِلَ، وَلا يَزالُ جارِيًا، بِمَعْنًى ما، حَتّى اليَوْم). وَلَمْ يَكُنْ لِكُلٍّ مِن المَوْقِفَيْنِ صِيغةٌ واحِدةٌ وَلَـكِنْ كانَتْ لَهُ، فِي ما وَراءَ اخْتِلافِ الصِيَغِ

وَتَناقُضِها، دَلالةٌ عَميقةٌ واحِدة. وَذاكَ أَنَّ المَعْرِفةَ اللُغَوِيّةَ كانَتْ تُمَثِّلُ، بَيْنَ ما يَبْتَغِي المُتَعَلِّمُ إِدْراكَهُ، قِيمةً عَظِيمةً مُتَصَدِّرة.

المَعْرِفةُ بِما هِيَ انْتِماء

فِي ما خَصَّ العَرَبِيّةَ الفُصْحى، كانَتْ تِلْكَ المَعْرِفةُ تَـتَقَدَّمُ إلى الصَدارةِ عَلى أَنَّها مَعْرِفةُ انْتِسابٍ أَو انْتِماءٍ يُظْهِرُهُ حُسْنُ الاسْتِعْمالِ وَلَيْسَتْ مَعْرِفةَ اسْتِعْمالٍ وَحَسْبُ. فَكانَ يُنْظَرُ إلى الفُصْحى عَلى أَنَّها شَيْءٌ نَفِيسٌ نَنْتَهِي إلى اكْتِسابِهِ بِالجُهْدِ المُناسِبِ ثُمَّ يُصْبِحُ شِبْهَ ثابِتٍ شَأْنَ هَيْئَتِنا الجِسْمانِيّةِ وَنَحْنُ نَتَقَدَّمُ إلى سِنِّ الرُشْدِ أَوْ شَأْنَ المِهْنةِ التِي نَسْعى إلى اعْتِمادِها لأنْفُسِنا وَالتَبْرِيزِ فِي سِلْكِها. كانَتْ مَعْرِفةُ الفُصْحى انْتِسابًا إلى مَرْتَبةِ الصَفْوةِ مِنْ جَماعةٍ وَمِنْ حَضارةٍ وَمِيزةً نَبُزُّ بِها أَقْرانَنا، مِنْ جِهةٍ، وَنُباهِي بِها، مِن الجِهةِ الأُخْرى، غُرَباءَ عَنّا نَحْسُدُهُمْ أَوْ نَخْشاهُمْ لِأَسْبابٍ كانَ عِلْمُنا بِها عِلْمًا تَقْرِيبِيًّا وَلَـكِنْ كانَتْ مَفاعِيلُهُ النَفْسِيّةُ قاطِعة.

وَكانَ هَذا الطُمُوحُ يَنْعَكِسُ عَلى عَلاقَتِنا بِاللُغةِ الأَجْنَبِيّة. فَهَذِهِ كانَتْ مَدْخَلَنا الصَعْبَ إلى حَرَمِ أُولَئِكَ الغُرَباءِ ومَصْعَدَنا إلى مَصافَّ لَهُمْ كانَتْ تَـتَراءى لَنا أَرْفَعَ مِنْ مَصافِّنا وَكانَ تَطَلُّعُنا إِلَيْها يُوافِقُ ما يَقُولُهُ ابْنُ خَلْدُونَ عَنْ تَمَثُّلِ المَغْلُوبِ بِالغالِب. كُنّا مُسْتَعِدِّينَ لِمُفاخَرةِ الأَجْنَبِيِّ بِلُغَتِنا بَعْدَ أَنْ نُنَزِّهَ هَذِهِ الأَخِيرةَ عَنْ مَقاصِدِ البَشَرِ الأَحْياءِ فَتَبْدُو لَنا شَبَكَةَ حَرِيرٍ فاخِرةً أَوْ عِقْدًا نَفِيسًا لِبَدائعِ المَوْتى وَنَكادُ أَنْ نَعُدَّها جَمالًا بَحْتًا نَرى الوَحْيَ رَأْسَ ما يَلِيقُ لِتَجْسِيدِهِ وَعَرْضِه. وَأَمّا أَنْ تَصْلُحَ بِهَذِهِ اللُغةِ أُمُورُنا

وَأَنْ يَنْجَلِيَ بِها هَوانُنا فِي عالَمِ الحاضِرِ فَكانَ مُجَرَّدَ وَعْدٍ نَقْطَعُهُ لِأَنْفُسِنا مِنْ غَيْرِ أَنْ نُبْصِرَ سَبِيلًا حِسِّيًّا لَهُ إلى النَفاذ.

وَفِي كُلِّ حالٍ، كانَتْ حاجَتُنا ماسّةً، فِي الحاضِرِ، إلى تَعَرُّفِ اللُغةِ الأَجْنَبِيّة. فَهَذِهِ كانَتْ جادَّتَنا المُؤَقَّتةَ، فِي الأَقَلِّ، إلى عالَمٍ لا يُهِينُنا فِيهِ جَهْلُنا بِعَوامِلِ السَيْطَرةِ عَلَيْه. عَلى أَنَّ مِن المُبالَغةِ الزَعْمَ أَنَّ عَلاقَتَنا بِاللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ كانِ يَسْتَغْرِقُها تَطَلُّبُ الغَلَبةِ وَأَنَّها كانَتْ مُجَرَّدَ قِتالٍ لِأَصْحابِها بِسِلاحِهِمْ. فَالذِينَ كانُوا يَرَوْنَها عَلى هَذِهِ الشاكِلةِ، كانُوا يُبَكِّرُونَ إلى الانْصِرافِ عَنْها فِي الغالِبِ أَوْ يَكْتَفُونَ مِنْها بِما يَحْتاجُ إلَيْهِ تَرَفُّعُهُمْ مِنْ صَفٍّ إلى صَفّ. فَإذا خَرَجُوا مِن المَدْرَسةِ إلى الجامِعةِ أَوْ إلى غَيْرِها راحُوا يَنْسُونَ ما حَصَّلُوهُ مِنْ تِلْكَ اللُغةِ أَوْ بِها. وَأَمّا الذِينَ كانَتْ جُهُودُهُمْ تُؤْتِي، فِي هَذا المِضْمارِ، ثِمارًا حَسَنةً، فَكَثِيرًا ما كانَتْ اللُغةُ الأَجْنَبِيّةُ تَسْتَأْنِسُهُمْ فَيَرُوحُونَ يَسْتَزِيدُونَ مِنْ مَعْرِفَتِها وَيُوغِلُونَ فِي عَوالِمِها ما اسْتَطاعُوا إلى هَذِهِ العَوالِمِ سَبِيلًا. وَغَنِيٌّ عَن القَوْلِ أَنّهُ كانَتْ لِبَعْضِنا (وَأُشِيرُ هُنا إلى اللُبْنانِيِّينَ خُصُوصًا) عَصَبِيّاتٌ قَوِيّةٌ خاصّةٌ، دِينِيّةٌ فِي مَنْشَإها، تَنْأى بِهِم عَنْ عَصَبِيّةِ العُرُوبةِ وَتَمِيلُ بِهِمْ إلى التَوَجُّسِ مِنْ تَماهِيها وَالإسْلامَ، فتُسْلِمُهُمْ قَلْبًا وَقالَبًا إلى عالَمِ اللغةِ الأَجْنَبِيّةِ، بِأَصْنافٍ مُخْتَلِفةٍ مِنْ قِيَمِهِ المُجْمَلةِ تَحْتَ اسْمِ «الحَداثةِ»، وَلَيْسَ إلى قِيَمِهِ اللُغَوِيّةِ وَحْدَها. هَؤُلاءِ كانَتْ الأَجْنَبِيّةُ لُغةَ أُمِّهِمْ أَوْ بِمَثابَتِها، وَكانَ ذَلِكَ، فِي كَثِيرٍ مِن الحالاتِ لا فِي كُلِّها، مَصْدَرَ جَفْوةٍ مُزْمِنةٍ بَيْنَهُم وَبَيْنَ العَرَبِيّةِ: فُصْحاها فِي الأَقَلّ.

إزاءَ العَرَبِيّةِ الفُصْحى وَاللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ كِلْتَيْهِما إذَنْ، كانَتْ مَشاعِرُ جِيلِنا كُلُّها مَحْفُوفةً بِأَشَدِّ الالْتِباس. وَلِذا كانَتْ قابِلةً لِحَرَكةٍ بِنْدَوْلِيّةٍ دائِبةٍ

وَلِتَعَلُّقٍ حائِرٍ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الأَفْرادِ، بِهَذا أَوْ بِذاكَ مِنْ طَرَفَيْ القَوْسِ التِي تَرْسُمُها حَرَكَةُ البِنْدَوْل. فَقَدْ كانَ الواحِدُ مِنّا يُغلِّبُ النُفُورَ مِن اللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ فِيما يُغَلِّبُ الآخَرُ الإِصْرارَ عَلى إِتْقانِها. وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَبْعَدًا أَنْ يُشْبِهَ النُفُورُ مَرْأى الحِصْرِمِ فِي حلَبٍ وَلا أَنْ يُشْبِهَ الإِصْرارُ مُجَرَّدَ الخُضُوعِ الذَلِيلِ لِجاذِبِيّةِ مَغْناطِيسٍ غَلّاب. وَلا يَعْنِي الاطْمِئْنانُ إلى عَلاقةِ الرَحِمِ بِالفُصْحى وَلا التَعَلُّقُ المُسْتَمِيتُ بِرِكابِ اللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ أَنَّ الحُظُوظَ مِنْ إِتْقانِهِما كانَتْ تَـتَساوى بَيْنَ الأَفْرادِ وَلا أَنَّ هَذا الإِتْقانَ كانَ يَتَيَسَّرُ فِعْلًا لِكَـثْرةٍ مِنْ هَؤُلاء. فَإِنَّ لِإِتْقانِ هَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِن اللُغَتَيْنِ شُرُوطًا لا تَسْتَغْرِقُها الرَغْبةُ المُجَرَّدةُ فِيه. لا مَراءَ، مَعَ ذَلِكَ، فِي أَنَّ **هَذِهِ الرَغْبَةَ الناجِمةَ مِن اعْتِبارِ المَعْرِفةِ بِاللُغةِ قِيمةً تَنْضافُ إلى الفَرْدِ المَعْنِيِّ بِالتَعَلُّمِ وَإِلى الجَماعةِ فِي آنٍ، كانَتْ هِيَ المُنْطَلَقَ وَالمُحَرِّكَ لِجُهْدِ المُتَعَلِّمِ، فِي المَدْرَسةِ وَبَعْدَها، وَكانَتْ أُمَّ الحُظوظِ فِي تَجْوِيدِ مَعْرِفَتِهِ بِلُغةِ الأُمِّ أَوْ بِاللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ أَوْ بِكِلْتَيْهِما فِي حالاتٍ بَقِيَتْ نادِرة.**

مِن الانْتِماءِ إلى الاسْتِعْمال

اليَوْمَ وَقبْلَ اليَوْمِ بزَمَنٍ أَصْبَحَ لا يُعَدُّ قَصِيرًا، مالَت الدَوافِعُ إلى تَعَرُّفِ اللُغاتِ إلى الرُسُوِّ عَلى القِيمةِ الاسْتِعْمالِيّةِ أَوَّلًا وَتَضاءَلَ كَـثِيرًا قِسْطُ القِيمةِ الانْتِمائِيّةِ مِنْ تَوْلِيدِ تِلْكَ الدَوافِع. وَمِن الخَطَلِ الزَعْمُ أَنَّ الإِسْلامَ وَاسْتِواءَهُ مُجَدَّدًا مَوْئلَ هُوِيّةٍ جامِعةٍ لِمُسْلِمي البِلادِ العَرَبِيّةِ (وَلِغَيْرِهِمْ مِن المُسْلِمِينَ أَيْضًا) يُعَوِّضانِ ما ذَهَبَ بِهِ خِذْلانُ «العُرُوبةِ» مِنْ دَواعٍ إلى مَعْرِفةِ الفُصْحى حَقَّ مَعْرِفَتِها وَإِلى الأَخْذِ بِناصِرِها فِي مُواجَهةِ الضُغُوطِ التِي يُحاصِرُها بِها

عالَمُ اليَوْم. نُرَدِّد كَثيرًا أَنَّ العَرَبِيّةَ لُغةُ القُرْآنِ وَأَنَّ القُرْآنَ حَفِظَها أَرْبَعةَ عَشَرَ قَرْنًا فِي وَجْهِ عَوامِلِ الانْدِثار. هَذا صَحِيحٌ وَلَـكِنَّ التَعْوِيلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ لا يَمْنَعُ أَنْ تَنْزَوِيَ الفُصْحى فِي دائِرةِ عُلُومِ الدِينِ وَعُلَمائِه إذا لَمْ تَصْمُدْ دَواعٍ أُخْرى قَوِيّةٌ إلى حِفْظِها وَنَمائِها فِي ما يَتَعَدّى هَذِهِ الدائِرة. وَقَدْ كانَتْ هَذِهِ حالُها تَقْرِيبًا فِي قُرُونِ العُزْلَةِ التِي امْتَدَّتْ بَيْنَ نِهايةِ الحَمَلاتِ الصَلِيبِيّةِ وَما نُسَمِّيهِ عَصْرَ النَهْضةِ وَقَدْ بَدَأَ مَعَ بَدْءِ القَرْنِ التاسِعَ عَشَرَ تَقْرِيبًا أَيْضًا. ثُمَّ إنَّ هَذِهِ هِيَ حالُها اليَوْمَ أَيْضًا وَأَمسِ فِي المُجْتَمَعاتِ الإسْلامِيّةِ غَيْرِ العَرَبِيّة. وَنَزِيدُ عَلى ذَلِكَ أَنَّ الاخْتِصارَ فِي إعْدادِ رِجالِ الدِينِ وَوُصُولَ مَنْطِقِ التَعْلِيمِ الجَماهِيرِيِّ إلى المَدارِسِ التِي تُعِدُّهُمْ قَدْ تَضافَرا مَعَ أَثَرِ الإعْلامِ الجَماهِيرِيِّ الذِي أُشْرِعَت لَهُمْ مَنابِرُهُ وَشاشاتُهُ وَمَعَ ضُلُوعِ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ فِي الدَعْوةِ السِياسِيّةِ، فَأَثْمَرَ هَذا التَضافُرُ تَرَدِّيًا لِفُصْحاهُمْ وَجُنُوحًا مِنْ جانِبِ أَكْثَرِهِمْ إلى اتِّخاذِ العامِّيّةِ جَمَلًا. فَباتُوا، إذا نَطَقُوا بِالفُصْحى، يُكْثِرُونَ مِن اللَحْنِ حَتّى فِي القُرْآنِ وَالحَدِيث. خُلاصةُ ما نَقُولُ هَهُنا أَنَّ الدافِعَ القَوْمِيَّ كانَ ذا وُجْهةٍ إجْمالِيّةٍ يَصِحُّ نَعْتُها بِـ«الدِيمُقْراطِيّةِ اللُغَوِيّة»، لا بِمَعْنى عُمُومِ إجادةِ الفُصْحى بَلْ بِمَعْنى جَعْلِ النُخْبةِ الأَلِيفةِ لَها نُخْبةً مَفْتُوحةً مَبْدئِيًّا. فَكانَ هَذا الدافِعُ يُزَيِّنُ تَجْوِيدَ المَعْرِفةِ بِالعَرَبِيّةِ لِجُمْهورِ الناطِقِينَ بِها بِعامَّتِه. هَذا فِيما يَنْحُو الدافِعُ الدِينِيُّ مَنْحًى أَقْرَبَ إلى الأَرِسْتُقْراطِيّةِ (وَلَو انَّ هَذِهِ يُطاوِلُها التَضَخُّمُ فَتَـتَناقَصُ مَهابَتُها) فِي حَمْلِهِ لِأَمانةِ الفُصْحى. وَهَذا، فِي الأَقَلِّ، إذا لَمْ تُوجَدْ عَوامِلُ قَوِيّةٌ أُخْرى تُزَيِّنُ لِعامّةِ المُتَعَلِّمِينَ مِن العَرَبِ أَنْ يُقْبِلُوا عَلى الرَفْعِ مِنْ سَوِيّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِلُغَتِهِمْ الجامِعة.

اليَوْمَ تَسُودُ دَواعِي الاسْتِعْمالِ إذَنْ فِي الحَضِّ عَلى تَعَلُّمِ اللُغاتِ الذِي يَنْتَهِي

كَـثيرًا عِنْدَ حَدِّ الإلْمامِ الأَوَّلِيِّ بِها وَلا يَأْبَهُ لِلُزُومِ الصَوابِ فِي الاسْتِعْمالِ دائِمًا وَلا لِلارْتِفاعِ بِسَوِيَّتِهِ. فَتَغْدُو الحاجَةُ إلى هَذا التَعَلُّمِ مَنُوطةً بِحاجاتِ العَمَلِ أَو المُعاشَرَةِ أَو التَسْلِيَةِ أَوْ بِبَعْضِ وُجُوهِ الحاجةِ إلى الاطِّلاعِ وَتَوْسِيعِهِ وَتَـكُونُ هَذِهِ، فِي الأَغْلَبِ، مَحْدُودةَ المَجال. وَقَدْ تَـتَوَزَّعُ اللُغاتُ التِي يَعْرِفُها المَرْءُ وُجُوهَ نَشاطِه المُخْتَلِفةَ فَتَـكُونُ العَرَبِيّةُ، مَثَلًا، لُغةً لنَثْرِ الحَياةِ اليَوْمِيّةِ وَالإنْكِلِيزِيّةُ لُغةً لِلْعَمَلِ وَمُبادَلاتِهِ الكَلامِيّةِ وَلِلْعَلاقةِ بِالحَواسِيبِ وَالفَرَنْسِيّةُ (لِمَنْ لا يَزالُ يَعْرِفُها) لُغةً لِلثَقافةِ العامّة. وَيَغْلِب، بِطَبِيعةِ الحالِ، أَلّا يَكُونَ هَذا الفَصْلُ حادًّا وَأَنْ تَعْتَورَهُ، فِي سِيَرِنا اليَوْمِيّةِ، أَخْلاطٌ وَأَمْزِجةٌ مِن اللُغاتِ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان. هَذا وَيُثْمِر ذَلِكَ كُلُّهُ، عادةً، أَداءً لُغَوِيًّا مُتَعَثِّرًا، فَقِيرًا إلى نُسْغِ الفَصاحةِ وَمُشَوَّشَ المَضْمُونِ الفِكْرِيِّ بِالتالِي. فَإنَّ بَيْتَ القَصِيدِ أَنَّ أَداءَ الأَفْكارِ لا يَنْفَكُّ عَن الأَداءِ اللُغَوِيِّ وَأَنَّ هُبُوطَ سَوِيّةِ العِبارةِ يَنْحَطُّ بِالضَرُورةِ بِسَوِيّةِ الفِكْر. وَحَتّى إنْ وُجِدَ شُذُوذٌ عَنْ هَذِهِ القاعِدةِ، فَبَرَزَت الفِكْرةُ العَظِيمةُ فِي كَلامٍ مُضْطَرِبٍ، فَإنَّ المُعَوَّلَ فِي إبْرازِ قِيمةِ الفِكْرةِ يَكُونُ عَلى قُدْرةِ السامِعِ أَو القارئِ عَلى التَأْوِيلِ أَوْ عَلى تَقْوِيمِ العِبارةِ التِي بَلَغَتْهُ الفِكْرةُ فِيها أَيْ عَلى القِيامِ بِضَرْبٍ خاصٍّ مِنْ ضُرُوبِ التَرْجَمة.

لا أَسَفَ عَلى العَصَبِيّة

لَسْتُ حَزِينًا لِانْفِكاكِ الدافِعِ إلى مَعْرِفةِ اللُغةِ مِنْ إسارِ العَصَبِيّةِ القَوْمِيّةِ ناهِيكَ بِالدِينِيّة. فَإنَّ العَصَبِيّةَ، فِي الأَساسِ، مَناطٌ لِنِظامِ سُلْطةٍ يَكْرَهُ التَنَوُّعَ وَيُضْمِرُ نَبْذَ الغَيْرِ وَأَعْمالِهِ وَمَعالِمِ عَوالِمِهِ، وَلَوْ زَعَمَ العَكْسَ، وَيُنْشِئُ مَعَ الغَيْرِ عَلاقةَ اخْتِزالٍ إجْمالِيّةً، مَسْكُونةً بِأَمْراضٍ مُخْتَلِفة. وَفِي مَجالِ اللُغةِ،

تُنْشِئُ العَصَبيّةُ بَيْنَ هَذِهِ وَالناطِقِينَ بِها عَلاقةَ سَطْوةٍ تَنْحُو نَحْوَ الارْتِدادِ بِهَؤُلاءِ إلى ما يُفْتَرَضُ أَنَّهُ حالٌ مُثْلى لِلُّغةِ أَوْ تُراثٌ مُهَيْمِن. فَلا يُدْرِكُ سَمْتَ تِلْكَ الحالِ أَوْ هَذا التُراثِ مَن ابْتَلاهُمْ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الضُعَفاءِ بِخَلْقِهِمْ فِي زَمَنٍ مُتَأَخِّرٍ جِدًّا عَن الزَمَن النُورانِيِّ الذِي يُفْتَرَضُ ــ بَيْنَ ما يُفْتَرَضُ فِيهِ ــ أَنَّهُ عَهْدُ عِزِّ اللُغةِ وَكَمالِها. لِذا تَحْصُرُ عَلاقةُ السَطْوةِ هَذِهِ فَضائِلَ اللُغةِ كافّةً فِي طَوْرٍ واحِدٍ مِنْ أَطْوارِها وَتُقَيِّدُ حَرَكةَ التَغْيِيرِ وَالتَجْدِيدِ فِي اللُغة. فَلا يَبْدُو مِنْ هَذِهِ الحَرَكةِ، حِينَ تُقَوَّم، غَيْرُ أَنَّها نُزُولٌ عَلى حُكْمِ الضَرُورةِ وَانْحِطاطٌ لَيْسَ إلّا وَجْهًا مِن الانْحِطاطِ الذِي هُوَ حَرَكةُ الزَمَنِ برُمَّتِها. فَحَتّى حِينَ يُقْبَلُ التَغْيِيرُ فِي اللُغةِ وَفِي العَلاقةِ بِها وَيُطْلَبُ، يُرى إلى ذَلِكَ، فِي الأَكْثَرِ، عَلى أَنَّهُ شَوْقٌ إلى الكَمالِ الغابِرِ لا عَلى أَنَّهُ مُعالَجةٌ لِمُقْتَضَياتِ الحاضِرِ وَصُدوعٌ بِمَطالِبِه. هَذا الشَوْقُ يَمِيلُ بِمُسْتَعْمِلِي اللُغةِ إلى الرُضُوخِ لِتَجَلِّياتِ البَلاغةِ المُجَسَّدةِ فِي التُراثِ أَوْ فِي بَعْضِهِ وَيُبِيحُ لِهَذِهِ البَلاغةِ الاسْتِيلاءَ عَلى نُفُوسِهِمْ فتُمْلِي عَلَيْهِمْ ما يَقُولُونَ أَوْ يَكْتُبُونَ وَلا تَدعُهُمْ يُنْشِئُونَه.

عَلَيْهِ عَجِزَت المُعالَجةُ العَصَبِيّةُ لِمُشْكِلاتِ العَرَبِيّةِ عَنْ تَجاوُزِ ازْدِراءٍ عَمِيقٍ لِلْعامِّيّاتِ إذْ نُظِرَ إلى هَذِهِ الأَخِيرةِ عَلى أَنَّها الدَرَكُ الأَسْفَلُ مِنْ أَحْوالِ اللُغةِ لا عَلى أَنَّها مَراكِبُ الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ جَمِيعًا إلى التَواصُلِ وَتَدَبُّرِ وُجُوهِ الحَياةِ كُلِّها تَقْرِيبًا وَالتَعْبِيرِ عَنْها. وَلَمْ يُعْتَرَفْ لِلْعامِّيّاتِ بِأَفْضالِها العَمِيمةِ عَلى الفُصْحى إذْ هِيَ المُخْتَبَراتُ التِي تُهَيَّأُ فِيها عَناصِرُ مُخْتَلِفةٌ تَنْمُو بِها الفُصْحى وَهِيَ شَبَكاتُ الشَراييِنِ التِي تَصِلُ ما بَيْنَ الفُصْحى وَوَقائِعِ الحَياةِ وَأَطْوارِها وَتَحَوُّلاتِها. وَغَلَبَ عَلى التَناوُلِ اللُغَوِيِّ لِلْعامِّيِّ «رَدُّ العامِّيِّ إلى الفَصِيح». وَلَمْ يُبْرَزْ مِنْ أَثَرِ العامِّيِّ فِي الفَصِيحِ إلّا عُدْوانُهُ الفَظُّ عَلى صِيَغِ

الفُصْحى وَأُصُولِها أَحْيانًا. وَهُوَ أَمْرٌ يَحْصُلُ فِعْلًا وَيَتَّخِذُ، فِي حالاتٍ كَثِيرةٍ، صُوَرًا يَصْعُبُ التَسْلِيمُ بِها أَوْ بِرُضُوخِ الفُصْحى لَها وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَغْرِقُ أَبَدًا مَجارِي التَبادُلِ المُتَعَدِّدِ الوُجُوهِ بَيْنَ الفُصْحى وَالعامِّيّات. لا يُنْتَبَهُ كَثِيرًا أَيْضًا، مِن الجِهةِ الأُخْرى، إلى تَفْصِيحِ الفُصْحى لِلْعامِّيّاتِ وَتَوْسِيعِها لِكَفاءاتِ العامِّيّاتِ وَتَقْرِيبِها بَيْنَها. وَلا يُنتَبَهُ كَثِيرًا أَيْضًا إلى أَنَّ العامِّيّاتِ عادَتْ لا تَنْتَصِبُ حَوائِلَ بَيْنَ مُجْتَمَعاتِ الناطِقِينَ بِها عَلى النَحْوِ الذِي كانَ حاصِلًا قَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ لا أَكْثَر. وَمِنْ ذاكَ أَنَّ العَرَبَ فِي سائِرِ أَقْطارِهِمْ بَدَأُوا يَتَعَلَّمُونَ العامِّيّةَ المِصْرِيّةَ مِن السِينَما قَبْلَ نَحْوٍ مِنْ مِائَةِ عام. وَلَكِنَّ الإذاعاتِ ثُمَّ التَلْفَزةَ الأَرْضِيّةَ ثُمَّ الفَضائِيّةَ وَمَعَها تَنامِي الهِجْراتِ بَيْنَ الأَقْطارِ العَرَبِيّةِ وَتَكاثُرُ اللِقاءاتِ بَيْنَ القادِمِينَ مِنْها إلى مَهاجِرَ غَيْرِ عَرَبِيّةٍ قَرَّبَتْ كُلُّها، وَلَوْ إلى دَرَجاتٍ مُتَبايِنةٍ، كُلًّا مِن اللَهَجاتِ القُطْرِيّةِ أَو الإقْلِيمِيّةِ إلى أَفْهامِ العَرَبِ كُلِّهِمْ. وَهَذِهِ، فِي كُلِّ حالٍ، مُؤالَفةٌ لا تَزالُ جارِية.

إلى ذَلِكَ، أَسْفَرَ التَغْلِيبُ نَفْسُهُ لِلنَظَرِ المِعْيارِيِّ أَو التَفاضُلِيِّ لِلُّغةِ عَلى النَظَرِ الوَضْعِيّ فِي أَحْوالِها، عَن اعْتِبارِ الفُصْحى، بِإطْلاقٍ، أَنَّها المَرْتَبةُ العُلْيا مِنْ مَراتِبِ العَرَبِيّةِ وَالجادّةَ الأَثِيرةَ إلى كَمالِها. فَلَمْ يُنْظَرْ إلى الفُصْحى، إلّا لِمامًا أَو اسْتِطْرادًا، عَلى أَنّها، بِما هِيَ الأَداةُ اللُغَوِيّةُ المُشْتَرَكةُ بَيْنَ مُجْتَمَعاتِ العَرَبِ أَوْ بَيْنَ أَوْساطِهِمْ المُخْتَلِفةِ وَالبابُ إلى تُراثٍ مُنْتَشِرٍ عَلى ١٥٠٠ عامٍ، قَد اسْتَوَتْ لِهَذَيْنِ السَبَبَيْنِ التارِيخِيَّيْنِ (وَلَيْسَ لِتَفَوُّقٍ صَمِيمٍ فِيها وَلا لِعِلّةٍ صَمِيمةٍ فِي العامِّيّاتِ) لُغةً لِلْكِتابةِ العَرَبِيّةِ وَلِنِتاجِ العَرَبِ فِي الآدابِ وَالعُلُوم.

لَسْتُ حَزِينًا إذَنْ لِتَراخِي الآصِرةِ هَذا بَيْنَ العَصَبِيّةِ القَوْمِيّةِ وَالإقْبالِ عَلى

تَعَرُّفِ الفُصْحى العَرَبِيّة. وَلَـكِنْ إلى أَيّةِ حالٍ أَفْضَيْنا؟ أَرانا غادَرْنا قَصْرًا تُراثِيًّا شاهِقًا تحْرُسُهُ سُلْطةٌ عُلْيا فتَمْنَعُ عَلى سُكّانِهِ تَغْيِيرَ القُماشِ الذِي يَكْسُو كُرْسِيًّا أَوْ تَبْدِيلَ قَبْضةٍ فِي بابٍ إلّا بَعْدَ مُعامَلاتٍ مَرِيرةٍ وَحَشْدٍ عَرَمْرَمِيٍّ لِتَواقِيعِ المَراجِع. فَما بالُكَ بِالتَبْدِيلِ فِي وَظائِفِ الغُرَفِ وَبِالزِيادةِ فِي البِناءِ أَو النُقْصانِ مِنْه؟ وَأَرانا انْتَقَلْنا إلى مُخَيَّمٍ شاسِعٍ أُعِدَّ مُعْظَمُ ما فِيهِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنى عَنْهُ أَوْ يُصْبِحُ رَثًّا بَعْدَ اسْتِعْمالٍ واحِد. فَكَأَنَّ هَذا المَقامَ الذِي هُوَ جِماعُ اسْتِعْمالاتِنا اللُغَوِيّةِ اليَوْمَ مَعْمَلٌ شاسِعٌ لِلنُفاياتِ: لا لِمُعالَجةِ النُفاياتِ بَلْ لِإنْتاجِها. وَأَرى بَيْنَ هاتَيْنِ الحالَيْنِ صِيغةً ثالِثةً لِلسَكنِ هِيَ الإقامةُ فِي مَنْزِلٍ مُتَّسِعٍ لِوَظائِفِ الحَياةِ كُلِّها يُعَمَّرُ بَعْضُ أَثاثِهِ طَوِيلًا وَتُسْتَهْلَكُ مَوْجُوداتٌ أُخْرى فِيهِ بِسُرْعةٍ وَيَحْتَمِلُ شَيْئًا مِن الفَوْضى تَفْرِضُها الحَياةُ فِي أَوْضاعِهِ كُلَّ ساعةٍ وَفِي كُلِّ مُناسَبة. وَلَـكِنْ يُبادِرُ أَهْلُهُ إلى إعادةِ التَرْتِيبِ وَيُبادِرُونَ أَيْضًا إلى تَجْدِيدِ التَجْهِيزِ كُلَّما شَعَرُوا بِالحاجةِ إلى ذَلِكَ وَلا يَتَرَدَّدُونَ، إذا لَزِمَ الأَمْرُ، فِي زِيادةِ الأَجْنِحةِ وَفِي إعادةِ الهَيْكلةِ تَبَعًا لِحُدُوثِ الحاجاتِ وَتَغَيُّرِ الأَذْواقِ وَالمَطامِح.

الإِحْكام

أَرى إذَنْ أَنْ نَجْعَلَ مُرادَنا، لا فِي النُكُوصِ إلى التَنْزِيهِ الانْتِمائِيِّ لِلُّغةِ، بَلْ فِي الانْتِقالِ مِن الاسْتِعْمالِيّةِ الرَثّةِ إلى اسْتِعْمالِيّةٍ أَوْفَقَ لإِحْكامِ التَفْكِيرِ وَالتَصَرُّفِ، وَحَتّى الشُعُورِ، بِإحْكامِ التَعْبِيرِ عَنْها جَمِيعًا وَإلى تَصْوِيبِ التَواصُلِ فِيما بَيْنَنا بِتَصْحِيحِ أَدَواتِهِ ووَسائِلِهِ اللُغَوِيّة. وَيَفْتَرِضُ الإِقْلاعُ نَحْوَ هَذِهِ الغايةِ تَغْيِيرًا لا فِي مُعامَلَتِنا لِلْفُصْحى وَحْدَها بَلْ أَيْضًا فِي طَرِيقةِ

إقْبالِنا عَلى اللُغاتِ الأَجْنَبِيّة. صَحِيحٌ أَنَّ عَلَيْنا بَذْلَ أَقْصى العِنايةِ لِتَحْسِينِ تَصَرُّفِنا بِلُغةٍ هِيَ المَرْكَبُ التِلْقائِيُّ لِظاهِرِنا وَباطِنِنا مَعًا (وَقَدْ ظَلَّتْ فُصْحاها تَـتَصَرَّفُ بِنا، بِما هِيَ تُراثٌ، أَكْثَرَ مِمّا نَتَصَرَّفُ بِها بِما نَحْنُ بَشَرٌ مُحْتاجُونَ إلى التَواصُلِ وَالتَعْبِير). عَلى أَنَّ التَصَرُّفَ المُحْكَمَ بِاللُغاتِ الأَجْنَبِيّةِ (وَهُوَ غَيْرُ الرَطانةِ السَفِيهةِ بِها، طَبْعًا) سَيَبْقى شَرْطًا لِإحكامِ قَبْضةِ كُلٍّ مِنّا عَلى عالَمٍ باتَ المَصْنُوعُ المُسْتَوْرَدُ فِيهِ غالِبًا عَلى المَطْبُوعِ الحَقِّ أَو المَزْعُوم. وَهَذا عالَمٌ باتَ كُلُّهُ ضالِعًا فِي حَياتِنا وَبِتْنا مُنْخَرِطِينَ فِي آفاقِهِ كُلِّها. فَلا نَسْتَغْنِي عَنِ اللُغاتِ الأَجْنَبِيّةِ فِي تَدَبُّرِنا مَعانِيهِ وَمَوْجُوداتِهِ، وَهَذا مَهْما تَبْلُغْ لُغَتُنا مِن القُدْرةِ عَلى مُواكَبةِ مَخاضاتِه وَأَطْوارِه. وَسَيَبْقى إحْكامُ عَلاقاتِنا اللُغَوِيّةِ بِهَذا العالَمِ الواسِعِ الضَيِّقِ شَرْطًا، بِالتالِي، لِإحْكامِ قَبْضةِ لُغَتِنا نَفْسِها عَلى ناصيةِ العالَمِ بِأَحْوالِ مَوْجُوداتِهِ كُلِّها: بَشَرًا وَحَيَوانًا وَجَمادًا، وَبِسائِرِ مَعانِيه. فَقَلِيلًا ما يُنْتَبَهُ إلى فَضْلِ التَصَرُّفِ بِاللُغاتِ الأَجْنَبِيّةِ عَلى اللُغةِ العَرَبِيّةِ بِما هِيَ لُغَة. وَمِنْ ذاكَ أَنَّ كُتّابَنا، حِينَ تَعَرَّفُوا بَعْضَ هَذِهِ اللُغاتِ فاقْتَبَسُوا عَنْها أَوْ تَرْجَمُوا، لَمْ يَنْقُلُوا إلى العَرَبِيّةِ «مَعْلُوماتٍ» وَحَسْبُ، وَإنَّما نَقَلُوا أَيْضًا أَوْضاعًا مُخْتَصّةً بِاللُغةِ نَفْسِها لَمْ تَتْرُك مُسْتَوىً مِن المُسْتَوَياتِ التِي يَتَحَلَّلُ إلَيْها الكَلامُ إلّا وَداخَلَتْهُ: مِن الأَلْفاظِ الدَخِيلةِ أَو المَوْضُوعةِ لِتُقابِلَ ما يُناظِرُها فِي اللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ إلى الصَرْفِ إلى نَحْوِ الأَلْفاظِ إلى نَحْوِ الجُمَلِ إلى البَلاغةِ (وَمِنْ هَذِهِ مَقاماتٌ جَدِيدةٌ لِلْكَلامِ يُطَوِّعُ لُها الأُسْلوبُ) إلى أَنْواعٍ أَدَبِيّةٍ جَدِيدةٍ بِرُمَّتِها عَلَيْنا إلى أُصُولِ الكِتابةِ فِي العُلومِ وَمُصْطَلَحِها، إلخ.

زُبدةُ المَطْلُوبِ إذَنْ فِي حالَتَي العَرَبِيّةِ وَالأَجْنَبِيّةِ تَعْزِيزُ الاقْتِناعِ العامِّ بِأَنَّ المَعْرِفةَ بِاللُغاتِ قِيمةٌ كُبْرى تَرْقى بِالعارِفِ فِكْرًا وَشُعُورًا وَعَلائِقَ بِالناسِ

وَبِالمَوْجُودات كُلِّها. وَحِينَ نَقْطَعُ شَوْطًا نَحْوَ هَذا المَطْلَبِ، نَكُونُ آخِذِينَ فِي تَـكْوِينِ بِيئةٍ مُواتِيةٍ لِتَعْلِيمِ اللُغاتِ وَلِتَعلُّمِها وَلِلتَعَلُّمِ بِها بِالتالِي فِي المُسْتَوَى الجامِعِيِّ وَفِي ما بَعْدَهُ وَفِي ما دُونَه.

الجامِعةُ وَما قَبْلَها

يُوجَدُ، لا رَيْبَ، مُشْكِلٌ خاصٌّ بِمَعْرِفةِ اللُغاتِ فِي الجامِعاتِ العَرَبِيّة. وَتُوجَدُ مُقْتَرَحاتٌ مَوْضِعِيّةٌ لِمُداوَرةِ هَذا المُشْكِلِ وَلِلتَخْفِيفِ مِنْ بَعْضِ أَعْراضِهِ وَلَيْسَ لِحَلِّه. فَإِنَّ سُبُلَ الحَلِّ المَوْضِعِيِّ يَكُونُ مُعْظَمُها قَدْ سُدَّ فِي تِلْكَ المَرْحَلة. وَعَلى التَغْلِيبِ، يُعالَجُ المُشْكِلُ الناشِئُ عَنْ ضَعْفِ المَعْرِفةِ بِاللُغةِ الأَجْنَبِيّةِ بِالتَسْلِيمِ أَوْ بِتَدابِيرَ تَمُتُّ بِنَسَبٍ وَثِيقٍ إلى رَفْعِ العَتَب. وَأَمّا المَعْرِفةُ بِلُغةِ الأُمِّ فَيَغْلِبُ المَيْلُ إلى اعْتِبارِها مُعْطاةً حُكْمًا أَوْ مَوْفُورةً بِالسَلِيقةِ شَأْنَ التَعاطُفِ بَيْنَ الأُمِّ وَأَوْلادِها. وَواقِعُ الحالِ بَعِيدٌ جِدًّا عَنْ هَذا وَحالُ طُلّابِنا الجامِعِيِّينَ مَعَ العَرَبِيّةِ حالُ مُشْكِلةٌ إشْكالًا عَوِيصًا.

وَفِي ما يَخُصُّ ما قَبْلَ الجامِعةِ تَجْرِي مُناقَشاتٌ كَـثِيرةٌ لِعَثَراتِ تَعْلِيمِ العَرَبِيّةِ وَتُعْرَضُ تَجارِبُ قَيِّمةٌ خِيضَتْ لِتَجاوُزِ العَثَراتِ وَيُسْفِرُ بَعْضُ المُناقَشاتِ عَنْ بَرامِجَ جَلِيلةٍ تُعَدُّ لِلْغايةِ نَفْسِها وَتَجْهَدُ دُورٌ وَهَيْئاتٌ مُخْتَصّةٌ فِي كُبْرَياتِ الدُوَلِ الناطِقةِ بِلُغةٍ ما وَالراغِبةِ فِي تَوْسِيعِ انْتِشارِها لِإِخْراجِ مَناهِجَ وَإِنْتاجِ وَسائِلَ لِتَعْلِيمِ تِلْكَ اللُغةِ لِلأَجانِبِ أَيْ لَنا نَحْنُ مَثَلًا. هَذا كُلُّهُ جارٍ عَلى قَدَمٍ وَساقٍ عِنْدَنا وَعِنْدَ غَيْرِنا. وَالراجِحُ أَنَّ المُشْكِلةَ عِنْدَنا ـ عَلى ما تَدُلُّ الأَبْحاثُ المَنْشُورةُ ـ لَيْسَتْ فِي فُقْدانِ المُقْتَرَحاتِ وَالبَرامِجِ وَالوَسائِلِ بَلْ

فِي ضَعْفِ انْتِشارِها وَوَقْعِها وَفِي تَعَثُّرِ وُصولِها إلى أَصْحابِ القَرارِ، وَهِيَ، أَيْضًا وَخُصُوصًا، فِي ضَرْبِهِمْ صَفْحًا عَنْها إذا وَصَلَتْ وَمُعامَلَتِهِمْ إيّاها وَكَأَنَّها لَمْ تَـكُنْ. فَالراهِنُ أَنَّ المُتابِعِينَ لا يَكْتَفُونَ بِالشَكْوى وَإِن استَـكْثَرُوا مِنْها. وَلَـكِنَّهُمْ يُلاحِظُونَ أَنَّ جُهُودَهُمْ لا تُثْمِرُ إلّا قَلِيلًا. وَيُصَرِّحُ بَعْضُهُمْ بِيَأْسِهِ سَلَفًا مِنْ أَنْ تَنْتَهِي مُقْتَرَحاتُهُ (وَهِيَ أَحْيانًا ثَمَرةُ جُهُودٍ دائِبَةٍ وَأَعْمارٍ مِهْنِيّةٍ بِتَمامِها) إلى ثَمَرةٍ ما.

نَحْنُ، مِنْ جِهَتِنا، لا نَمْلُكُ الخَوْضَ هَهُنا فِي تَفاصِيلِ ما قَدَّمَهُ البَحْثُ التَرْبَوِيُّ العَرَبِيُّ، فِي أَثْناءِ السَنَواتِ الأَخِيرةِ، مِنْ مُنْجَزاتٍ فِي مَوْضُوعِ تَعْلِيمِ اللُغاتِ وَالتَعْلِيمِ بِها... خُصُوصًا وَأَنَّ هَذِهِ الأَبْحاثَ لا تَـتَناوَلُ التَعْلِيمَ الجامِعِيَّ، عادةً، إلّا لِجِهةِ اعْتِمادِ العَرَبِيّةِ أَوْ عَدَمِ اعْتِمادِها فِيهِ، وَهَذا لِسَبَبٍ سَبَقَ إيضاحُه. لَنا، مَعَ ذَلِكَ، أَنْ نُوصِي بِالسَعْيِ لِتَعْزِيزِ الانْتِشارِ المُتاحِ لِهَذِهِ الأَبْحاثِ وَلِلتَوْسِعةِ فِي مُناقَشَتِها وَذَلِكَ بِالمُتاحِ مِنْ وَسائِلِ المُسانَدة. فَالواقِعُ أَنَّها يَفُوتُها دائِمًا إِدْراكُ ما تَسْتأْهِلُهُ مِن انْتِشارٍ وَتَداوُلٍ وَإِلْحاحٍ عَلى أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْد. إلى هَذا نُوصِي، فِي ما يَخُصُّ الأَبْحاثَ المُقْبِلةَ، **بِالمُساعَدةِ فِي تَوْسِيعِ القاعِدةِ الحَقْلِيّةِ التِي تُرْسى عَلَيْها المُقْتَرَحاتُ وَتُوضَعُ البَرامِج**. فَإِنَّ مُطالَعةَ ما يُنْشَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ تَتْرُكُ المَرْءَ فِي شَكٍّ ما مِنْ مُوافَقةِ التَشْخِيصِ لِواقِعِ الأَحْوال. وَذاكَ أَنَّ الباحِثِينَ لا يَمْلُكُونَ، غالِبًا، ما يُسْعِفُهُمْ فِي تَوْسِيعِ الدائِرةِ المُؤَسَّسِيّةِ أَو الاجْتِماعِيّةِ لِخِبْرَتِهِمْ بِالتَحْقِيقِ الحَقْلِيِّ المُناسِب. فَيَلْبَثُ ما يَسُوقُونَهُ مُسْنَدًا إلى المُلاحَظةِ السائِبَةِ أَوْ إلى اسْتِنْطاقِ العَيِّناتِ الضَيِّقةِ أَوْ إلى مُجَرَّدِ الكَلام المُنْتَشِرِ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ ما سُقْناهُ فِي مَقالَتِنا هَذِهِ.

مُقْتَرَحات

وَإذا كانَ لَنا أَنْ نُثَبِّتَ النَظَرَ لَحْظةً عَلى التَعْلِيمِ الجامِعِيِّ تَحْدِيدًا فَإنَّنا نُوصِي بِما يَلِي:

(١) أَنْ يُشْرَطَ قَبُولُ الطالِبِ فِي الجامِعةِ بِامْتِحانٍ قِياسِيٍّ مُوَحَّدٍ فِي اللُغَةِ العَرَبِيّةِ يُصَمَّمُ عَلى غِرارِ الامْتِحاناتِ العالَمِيّةِ التِي تُقاسُ بِها مَعْرِفةُ الطُلّابِ المُتَقَدِّمِينَ لِلتَسْجِيلِ بِاللُغَةِ الإنْكِلِيزِيّةِ، خُصُوصًا، وَذَلِكَ بِصَرْفِ النَظَرِ عَن الفَرْعِ الذِي يُرَشِّحُ الطالِبُ نَفْسَه لِدُخُولِه. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذا الامْتِحانُ مُرَكَّزًا عَلى رَأْسِ المالِ المُعْجَمِيِّ الذِي يَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ المُرَشَّحُ وَعَلى البَلاغةِ بِمَعْنى إحْكامِ العِبارةِ وَجَوْدةِ المَنْطِقِ فِي إنْشاءِ النُصُوصِ، لا بِمَعْنى الفَخْفَخةِ البَيانِيّةِ أَو البَدِيعِيّة. وَلا بَأْسَ، بَعْدَ ذَلِكَ، مِن التَسامُحِ فِي بَعْضِ أَنْواعِ الأَخْطاءِ النَحْوِيّةِ (بِمَعْنى الإعْرابِيّةِ) وَالأَخْطاءِ الصَرْفِيّةِ وَحَتّى الإمْلائِيّة.

(٢) أَنْ تُرَكَّزَ بَرامِجُ المُسانَدةِ اللُغَوِيّةِ لِلطُلّابِ عَلى القُدُراتِ نَفْسِها التِي يَقِيسُها الامْتِحانُ الآنِفُ الذِكْرِ وَعَلى التَرْجَمةِ وَالمُصْطَلَحِ وَالأُصُولِ الأُسْلُوبِيّةِ لِلْكِتابةِ فِي مَجالِ الاخْتِصاصِ، وَأَنْ يَعْتَمِدَ التَدْرِيسُ عَلى الأَمْثِلةِ، قَبْلَ القَواعِدِ، وَعَلى النُصُوصِ وَعَلى إلْزامِ الطُلّابِ بِإنْشاءِ الأَمْثِلةِ وَالنُصُوصِ وَلَيْسَ بِاسْتِظْهارِ القَواعِد.

(٣) أَنْ يَخْضَعَ القَرارُ بِاخْتِيارِ لُغةِ التَدْرِيسِ لِمادّةٍ ما لِتَقْدِيرِ ما

تُتيحُه تِلْكَ اللُغةُ مِنْ مَوارِدَ لِتَجْوِيدِ المَعْرِفةِ وَالتَعْبِيرِ وَالبَحْثِ فِي تِلْكَ المادّة. فَتُسْتَبْعَدُ، بِالتالِي، مِنْ بَيْنِ دَوافِعِ الاخْتِيارِ، مَحْمُولاتُ الخَطابةِ القَوْمِيّةِ أَو الدِينِيّةِ وَالمَزايا العامّةُ لِلُّغةِ العَرَبِيّةِ وَيُشْتَرَطُ، فِي كُلِّ حالٍ، عَلى الطُلّابِ، تَحْصِيلٌ لِمَعْرِفةٍ مُناسِبةٍ بِلُغَةٍ أَجْنَبِيّةٍ مِن اللُغاتِ المَرْمُوقةِ النَشاطِ فِي مَجالَيْ الأَبْحاثِ وَالتَرْجَمة.

(٤) أَنْ يُعْمَدَ، بِشَأْنِ المُشْكِلِ العامِّ المُتَعَلِّقِ بِتَدْريسِ العُلُومِ بالعَرَبِيّةِ، إلى تَقْوِيمٍ جادٍّ قَدْ يَتَفَرَّعُ إلى تَقْوِيمٍ لِلتَجْرِبةِ الخاصّةِ بِكُلِّ مادّةٍ عَلى حِدة. وَيَجِبُ الدُخُولُ إلى هَذا التَقْوِيمِ مِنْ مَداخِلَ مُناسِبةٍ بَيْنَها عَلاقةُ مَضامِينِ التَعْلِيمِ بِحالَةِ العِلْمِ الراهِنةِ وَإِسْهامُ الخرِّيجِينَ فِي الأَبْحاثِ وَحُظُوظُهُمْ فِي سُوقِ العَمَلِ فِي الداخِلِ وَالخارِجِ بِالمُقارَنةِ مَعَ غَيْرِهِمْ، إلخ. وَيُجْتَنَبُ الدُخُولُ إلى التَقْوِيمِ مِن المَدْخَلِ القاصِرِ المُتَمَثِّلِ فِي سُؤالِ الطُلّابِ وَالمُدَرِّسِينَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ دَرَجةِ رِضاهُم عَنْ تَجْرِبَتِهِمْ. وَلا تُهْمَلُ تَجارِبُ شَهِدَتْ تَقَلُّباتٍ وَحاقَتْ بِها ظُرُوفٌ غَيْرُ عادِيّةٍ مِنْ قَبِيلِ التَجارِبِ المَغارِبِيّةِ وَلَـكِنْ يُسْتَحْسَنُ التَرْكِيزُ عَلى تَجْرِبةِ التَعْرِيبِ السُورِيّةِ، المُسْتَمِرّةِ مُنْذُ نَيِّفٍ وَثَمانِينَ سِنة.

(٥) أَنْ تَـكُفَّ الجامِعاتُ عَنْ مُعامَلَةِ عُلُومِ الإنْسانِ وَالمُجْتَمَعِ مُعامَلَةَ القَرِيبِ الفَقِير. إذْ هِيَ تَـتَساهَلُ فِي أَمْرِ شُرُوطِ التَسْجِيلِ فِي فُرُوعِها وَفِي أَمْرِ تَوافُرِ المَراجِعِ أَوْ عَدَمِهِ لِطُلّابِها وَفِي أَمْرِ قُدْرَتِهِمْ عَلى اسْتِخْدامِ هَذِهِ المَراجِع. فَهَذِهِ العُلُومُ

لَيْسَتْ سَهْلَةً إلّا لِأنَّ هَذا التَساهُلَ يَنْتَهِي إلى نَزْفِ مادَّتِها وَلا يَسْتَبْقِي مِنْها غَيْرَ ما يُتَوَهَّمُ مَعَهُ أَنَّ تَحْصِيلَها لا يَحْتاجُ إلى تَأْهِيلٍ وَأَنَّها مُجَرَّدُ صَبٍّ لِأَنْواعٍ مِن الحَدِيثِ السائِرِ فِي قَوالِبَ بَسِيطةٍ جاهِزة. هَذا فِيما هِيَ، فِي الواقِعِ، عُلُومٌ صَعْبةٌ يَحْتاجُ اسْتِيعابُ مَسائِلِها، ناهِيكَ بِمُمارَسةِ البَحْثِ فِي كُلٍّ مِنْها، إلى إعْدادٍ مُتَنَوِّعِ الوُجُوهِ يُمْلِيهِ تَسانُدُها فِي ما بَيْنَها وَحاجةُ الباحِثِ فِيها إلى الاعْتِدادِ بِمَناهِجَ وَتِقاناتٍ غَيْرِ هَيِّنةِ التَحْصِيل. وَهَذا فَضْلًا عَنْ سَعَةِ المَعْرِفةِ المُخْتَصّةِ وَالثَقافةِ العامّة.

(٦) إظْهارُ ثَمَراتِ الجُهُودِ التِي بَذَلَتْها، عَلى مَدى عُقُودٍ، لِتَعْرِيبِ مُصْطَلَحِ العُلُومِ، مَجامِعُ اللُغةِ العَرَبِيّةِ (وَعَلى رَأْسِها مَجْمَعُ القاهِرة) وَاشْتَرَكَتْ فِيها مُؤَسَّساتٌ أُخْرى يَتَوَزَّعُ أَهَمُّها بَيْنَ بَيْرُوت وَالقاهِرة وَالدارِ البَيْضاء. وَتَـكْفِي الإشارةُ هَهُنا إلى أَنَّ مَجْمَعَ القاهِرة أَنْتَجَ مَعاجِمَ فَنِّيّةً مُتَنَوِّعةً لا نَجِدُ ما يَكْفِي لِلتَعْرِيفِ بِها عَلى مَوْقِعِهِ الإلِكْتِرُونِيِّ وَنَشُكّ، بَعْدَ المُحاوَلةِ، فِي أَنْ يَعُودَ البَحْثُ عَنْها فِي سُوقِ الكُتُبِ بِطائِل. فَهَذِهِ، عَلى الأَرْجَحِ، كُنُوزٌ مَجْهُولة. هِيَ لا تُسْتَشارُ مَعَ العِلْمِ بِوُجُودِها. بَلْ تَتِّصِلُ المُناقَشةُ الدائِبةُ فِي تَدْرِيسِ العُلُومِ وَمُصْطَلَحِها بِمَعْزِلٍ عَنْ شَهادَتِها. إلى هَذا، لا يَزالُ مَجْمَعُ القاهِرة يُعَيَّرُ حَتّى اليَوْمِ (أَيْ بَعْدَ الأَهْوالِ التِي عاناها لِإنْتاجِ هَذِهِ الأَعْمالِ) بِـ«الشاطِرِ وَالمَشْطُورِ وَالكامِخِ بَيْنَهُما».

هَذِهِ مُقْتَرَحاتٌ بَعْضُها اصْطِفائِيٌّ أَيْ نَزّاعٌ إلى الزِيادةِ فِي نِسْبةِ الطُلّابِ

المُسْتَبْعَدِين. لِذا لا يُعَدُّ هَذا البَعْض بابًا إلى مُعالَجةٍ قَوِيمةٍ لِلْمُشْكِل المَطْرُوح. وَإنَّما هُوَ شَرٌّ لا بُدَّ مِنْهُ إلى أَنْ تَـتَيَسَّرَ المُعالَجةُ القَوِيمة.

الطَرِيقُ المَلَـكِيّ

بَعْدَ هَذا نَعُودُ إلى التَشْدِيدِ عَلى ما نَعُدُّهُ طَرِيقًا مَلَـكِيًّا إلى تَحْسِينِ العَلاقةِ بَيْنَ اللُغاتِ عِنْدَنا وَمُتَعَلِّمِيها فِي المُسْتَوَى الجامِعِيِّ وَفِي غَيْرِه. وَذاكَ هُوَ **إظْهارُ قِيمةِ التَمَرُّسِ بِاللُغاتِ فِي سِيرةِ الأَفْرادِ بِوُجُوهِها جَمِيعًا**: مِن الرُقِيِّ بِالمُعاشَرةِ وَتَـكْثِيرِ فُرَصِها إلى تَحْسِينِ القُدْرةِ عَلى التَفْكِيرِ تَحْلِيلًا وَتَأْلِيفًا إلى التَبْرِيزِ المِهْنِيِّ، إلخ. إظْهارُ القِيمةِ هَذا يَجِبُ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنْ أَنَّ التَعْلِيمَ قَدْ غَدا اليَوْمَ أَبْعَدَ ما يَكُونُ عَنْ أَنْ يَكُونَ حَكْرًا عَلى مُؤَسَّساتِ التَعْلِيمِ أَيْ عَلى المَدارِسِ وَالجامِعات. فَقَدْ أَصْبَحَتْ الصُفُوفُ، فِي صُورَتِها المُبْتَغاةِ عَلى الأَقَلِّ، أَقْرَبَ إلى أَنْ تَـكُونَ مَنابِرَ لِإظْهارِ ما يَتَعَلَّمُهُ الطُلّابُ فِي خارِجِها وَمَراكِزَ تَوْجِيهٍ لَهُمْ إلَيْهِ وَمُخْتَبَراتٍ لِامْتِحانِهِمْ فِيهِ مِنْها إلى أَنْ تَـكُونَ مَحاجِرَ عَلى المَعْرِفةِ يَحْتَكِرُ فِيها المُدَرِّسُونَ المَعارِفَ وَيَتَوَلَّوْنَ تَلْقِينَها لِلتَلامِذة. وَباتَ يَسْتَوِي (أَوْ يَمِيلُ إلى الاسْتِواءِ) فِي التَعْوِيلِ عَلى ما يُكْتَشَفُ فِي عالَمِ الإعْلامِ وَالمَعْلُوماتِ طُلّابُ الجامِعاتِ وَالصِغارُ وَالكِبارُ مِنْ تَلامِذةِ المَدارِس. فَأَحْرى بِالطُلّابِ الكِبارِ، إذا ضاقَتْ بِهِم السُبُلُ المَفْتُوحةُ فِي الجامِعةِ إلى تَعْزِيزِ أُلْفَتِهِمْ لِلُّغاتِ، أَنْ يَطْلُبُوا هَذا التَعْزِيزَ مِن التِلِفِزْيُونِ وَمِن الإذاعةِ وَمِن الإنْتِرْنِتّ. عَلى أنّ الحافِزَ إلى هَذا الطَلَبِ يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ أَوَّلًا أَوْ أَنْ يُنَشَّط. وَيَجِبُ، مِن الجِهةِ الأُخْرى، أَنْ يُقابِلَ الطَلَبَ عَرْضٌ مُناسِبٌ: أَيْ أَنْ تُبْدِي وَسائِطُ الإعْلامِ وَالمُؤَسَّساتُ

المُخْتَصّةُ، مِنْ مَجامِعِ اللُغةِ إلى فُرُوعِ اللُغةِ وَالتَرْجَمةِ فِي الجامِعاتِ، هِمّةً فِي إنْتاجِ البَرامِجِ الآيلةِ إلى تَقْوِيةِ الحافِزِ وَإلى تَلْبِيةِ الطَلَبِ وَأَنْ تَنْشُرَ هَذِهِ البَرامِجَ بِوَسائِطِ النَشْرِ الفاعِلةِ فِي أَيّامِنا.

هَذا كُلُّهُ بَعِيدٌ جِدًّا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُهِمّةً سَهْلة. وَبَعِيدٌ عَمَّنْ يَتَحَكَّمُونَ بِالوَسائِطِ المُشارِ إلَيْها وَعَمَّنْ يَتَوَفَّرُونَ عَلى الكَفاءةِ لِتَصْمِيمِ البَرامِجِ أَنْ يُقْدِموا عَلى ذَلِكَ (أَوْ عَلى ما يَسِدُّ الحاجةَ مِنْهُ) مِنْ تِلْقاءِ أَنْفُسِهِمْ. وَالكَفاءةُ هَهُنا كَفاءاتٌ: فَإلى المَقْدِرةِ اللُغَوِيّةِ وَالمَعْرِفةِ التَرْبَوِيّةِ بِالحاجاتِ يَجِبُ أَنْ نَقَعَ عَلى مَنْ تُوجَدُ فِيهِمْ قُوّةُ الإقْناعِ بِأَهَمِّيّةِ ما يَعْرِضُونَ وَقُوّةُ جَذْبِ الجُمْهُورِ المُسْتَهْدَفِ إلى الجِدِّ فِي إتْقانِ اللُغةِ وَإلى اللَعِبِ بِها طَلَبًا لِإتْقانِها. وَإذا نَحْنُ عُدْنا إلى الأَوَّلِ مِن المُقْتَرَحاتِ المُثْبَتةِ أَعْلاهُ، تَبَدّى لَنا المَطْلُوبُ أَقْرَبَ إلى البَساطة. فَإنَّ إدْراكَ الإحْكامِ فِي العِبارةِ مَطْلَبٌ يَقْتَضِي مَعْرِفةً مَقْبُولةً بِمَتْنِ اللُغةِ، طَبْعًا، وَهَذِهِ تُكْتَسَبُ بِالمُطالَعةِ وَبِأُلْفةِ المَعاجِمِ. وَلَـكِنَّهُ، فِي نِهايةِ المَطافِ، مَطْلَبٌ يُعَوَّلُ فِي إدْراكِهِ عَلى الانْتِباهِ والرَغْبةِ، فَضْلًا عَن المَعْرِفةِ، أَكْثَرَ مِمّا يُعَوَّلُ عَلى مَوْهِبةٍ ما مِن المَواهِبِ النادِرة. وَهُوَ مَطْلبٌ يَسْهُلُ التَمْثِيلُ عَلَيْهِ جِدًّا: قُلْ إذا كانَ المَطَرُ يَنْزِلُ بِشِدّةٍ: /المَطَرُ يَهْطُلُ/ وَلا تَقُلْ: /المَطَرُ يَنْزِلُ/ فَإنَّ المَطَرَ يَنْزِلُ كَيْفَما شاءَ شَدِيدًا أَوْ غَيْرَ شَدِيد. وَأَمّا لُزُومُ التَماسُكِ المَنْطِقِيِّ فِي الإنْشاءِ فَأَمْرٌ أَصْعَبُ مَنالًا، لا رَيْبَ، وَالتَمْثِيلُ عَلَيْهِ يَقْتَضِي إطالةً فِي الكَلام. وَلَـكِنْ يُمْكِنُ التَدَرُّجُ فِي تَعْلِيمِهِ وَالتَمْثِيلِ عَلَيْهِ، فَنَبْدَأُ بِالقَصِيرِ الهَيِّنِ مِن النُصُوصِ، نُحَلِّلُ مَنْطِقَهُ، لِنَنْتَهِي إلى ما هُوَ أعْوَصُ تَرْكِيبًا وَأَكْثَرُ تَشْعِيبًا، وَنَتَسَلّى، فِي أَثْناءِ ذَلِكَ، ما أَمْكَنَ وَنَتَعَلَّمُ كَـثِيرًا من قَواعِدِ النَحْوِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ تَقْرِيبًا...

السُلْطة اللُغَويّة

تُسْعِفُ هَذِهِ الجُهُودُ، بِمُنْطَلَقِها المُشارِ إلَيْهِ، أَيْ إظْهارِ التَمَرُّسِ اللُغَوِيِّ بِما هُوَ قِيمةٌ، فِي تَحْسِينِ **البِيئةِ النَفْسِيّةِ الاجْتِماعِيّةِ** المُوافِقةِ لِزِيادةِ الطَلَبِ على هَذا التَمَرُّس. بَيْدَ أَنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا آخَرَ يَجِبُ أَنْ تُصاحِبَ وِلادَتُهُ هَذِهِ الجُهُودَ كُلَّها وَأَنْ يَنْتَهِي إلى تَتْوِيجِها وَأَنْ يَرْعى سَلامةَ مآلِها. ذاكَ هُوَ **السُلْطةُ اللُغَوِيّةُ**، وَهِيَ مُفْتَقَدةٌ فِي دِيارِنا. هَذِهِ سُلْطةٌ لا تُعاقِبُ وَلا تُكافِئ. هِيَ تَعْتَمِدُ عَلى مَحَبّةِ الناسِ لِلُغتِهِمْ وَتُشِيرُ إلى الصَوابِ حِينَ تَراهُمْ يُسِيئُونَ إلَيْها. وَأَهَمُّ ما يَجِبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السُلْطةِ أَنْ تَـكُونَ سُلْطةً مَنْظُورةً ــ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَـكُونَ مَحَلَّ ثِقةً وَأُلْفةٍ، فَلا تُعادِي الجَدِيدَ لِمُجَرَّدِ جِدَّتِهِ وَلا تَقَعُ فِي شاطِرٍ أَوْ مَشْطُورٍ يُضْحِكُ الناسَ مِنْها عُقُودًا. وَنَقْصِدُ بِصِفةِ «**المَنْظُورِيّةِ**» أَنْ تُصْدِي لِفَتاوَى هَذِهِ السُلْطةِ سائِرُ المَنابِرِ المُخاطِبةِ لِلرَأْيِ العامِّ وَالضالِعةِ فِي تَـكْوِينِه. فَلا تَبْقى مُداوَلاتُها أَسِيرةَ البُحّةِ فِي الصَوْتِ وَلا حَبِيسةَ الجُدْرانِ فِي مَقَرٍّ ما.

يَذْهَبُ فِكْرُنا مِنْ تِلْقائِهِ إلى الأَكادِيمِيّةِ الفَرَنْسِيّةِ مِثالًا. وَنتَخَيَّلُ، فِي الحالَةِ العَرَبِيّةِ، مُبادَرةً تَشْتَرِكُ فِيها مَجامِعُ اللُغةِ وَمُؤَسَّساتٌ أُخْرى ذاتُ باعٍ فِي التَأْلِيفِ اللُغَوِيِّ، وَبَخاصّةٍ تَأْلِيفِ المَعاجِمِ، تَفْتَحُ لَها سُلُطاتُ الدُوَلِ بَعْضَ أَبْوابِ الإعْلامِ وَيَفْتَحُ لَها المالُ أَبْوابًا أُخْرى. نُفَكِّرُ أَيْضًا فِي بَرنامَجٍ تَوَلّاه ُاللُغَوِيُّ الفَلَسْطِينِيُّ حَسَن سَعِيد الكَرْمِي فِي إذاعةِ لُنْدُن وَفِي آخَرَ تَوَلّاهُ الشاعِرُ المِصْرِيُّ فارُوق شُوشَة فِي إذاعةِ القاهِرة وَنَذْكُرُ بِالخَيْرِ هَذَيْنِ الرَجُلَيْن.

وَلْأَضْرِبْ مِثالًا عَلى الفارِقِ بَيْنَ حِيازةِ «السُلْطةِ» (بِالمَعْنى المُشارِ

إلَيْهِ أعْلاهُ) وَعَدَمِها وَبَيْنَ «المَنْظُورِيّةِ» وَعَدَمِها. قبْلَ عَشْرِ سَنَواتٍ أَوْ أَكْثَرَ بِقَلِيلٍ انْتَشَرَ الهاتِفُ الجَوّالُ فِي لُبْنان وانْتَشَرَ مَعَهُ حَدِيثُهُ فِي وَسائِطِ الإعْلام. وَلا نَعْلَمُ مَنْ كانَ أَوَّلَ مَنْ سَمّاهُ «الخِلْيَويّ» مُتَرْجِمًا عَن الإنْكلِيزيّةِ أَوْ عَن الفَرَنْسِيّةِ فَشاعَتْ شُيُوعَ النارِ فِي الهَشِيم. كانَ المُسَمِّي، عَلى الأَرْجَحِ، سِياسِيًّا أَوْ صَحافِيًّا وَلَمْ يَكُنْ لُغَوِيًّا بِالتَّأْكِيد. فَفِي هَذا المِضْمارِ وَفِي غَيْرِهِ يَحْتاجُ المُتَكَلِّمُونَ إلى اسْمٍ لِشَيْءٍ مُسْتَجَدٍّ فَيُعَرِّبُونَهُ أَوْ يَضَعُونَهُ وَلا يَسْتَشِيرُونَ اللُغَوِيّينَ وَلا يَنْتَظِرُونَهُمْ. يَفْعَلُ هَذا أَيْضًا أَهْلُ عِلْمٍ مُخْتَلِفُو الاخْتِصاصِ يَظُنُّونَ فِي أنْفُسِهِمْ مَقْدِرةً لُغَوِيّةً هُمْ فُقَراءُ إلَيْها فِي الواقِعِ فَيُعْفُونَ أَنْفُسَهُمْ أَيْضًا من اسْتِشارةِ اللُغَوِيِّين. وَالمُؤَكَّدُ أَنَّ مُخْتَرِعَ الاسْمِ المُشارِ إلَيْهِ لِلْهاتِفِ الجَوّالِ حَسِبَ نَفْسَهُ أَوْفَرَ عَبْقَرِيّةً مِنْ مُخْتَرِعِ الهاتِفِ نَفْسِه. وَلَمْ يُعَتِّمْ أَنْ جاءَهُ هادِمُ لِلَّذاتِ مِنْ بَيْنِ اللُغَوِيِّينَ فنَشَرَ فِي صَحِيفةٍ مِنْ صُحُفِ بَيْرُوت ما يُفِيدُ أَنَّ النِسْبةَ إلى خَلِيّة (وَهِيَ عَلى فَعِيلة) إنَّما هِيَ خَلَوِيٌّ أَيْ فَعَلِيٌّ وَما هِيَ بِخِلْيَوِيٍّ التِي لَمْ تَنْزِلْ فِي كِتاب. عَلى أنَّ المَقالةَ بَقِيَتْ صَيْحةً فِي وادٍ وَإلى اليَوْمِ لا تَزالُ «خِلْيَوِيٌّ» سَيِّدةَ المَوْقِف. وَقَدْ لا يَجِدُ مَنْ يُخْطِئُ خَطْبًا جَلَلًا فِي خَطَإِهِ فَيُبادِرُكَ بِاعْتِبارِهِ صَوابًا ما دامَ قَدْ شاعَ وَذاع. وَالواقِعُ أَنَّ المُشْكِلَ لَيْسَ فِي اللَفْظةِ بِحَدِّ ذاتِها وَإنَّما هُوَ فِي إدْخالِها شاذّةً عَلى قاعِدةٍ مِنْ قَواعِدِ تَصْرِيفِ الأَسْماءِ هِيَ قاعِدةُ النِسْبة. وَما يُفْتَكُ بِهِ هُنا إنَّما هُوَ ما يُسَمِّيهِ الصَرْفِيُّونَ «القِياسَ» وَهُوَ البابُ الأَوْسَعُ إلى تَعَلُّمِ الصَرْفِ وَمُزاوَلَته. فَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ مُطالَبَتُنا بِتَيْسِيرِ قَواعِدِ اللُغةِ إذا ظَلَلْنا نُجِيزُ لِأَنْفُسِنا أَنْ نُضِيفَ، كُلَّما سَنَحَتْ لَنا فُرْصةٌ، شاذّةً جَدِيدةً إلى الشَواذِّ الكَثِيرةِ عَنْ هَذِهِ القَواعِد؟ نَزِيدُ إذَنْ فِي طِينِ القَواعِدِ وَالشَواذِّ بِلّةً

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ حِفْظَ الشَواذِّ أَشَقُّ عَلى المُتَعَلِّمِ مِنْ حِفْظِ القَواعِدِ وَأَنَّ الأَصْلَحَ لَنا أَنْ نُلْغِيَ ما يُمْكِنُ إلْغاؤهُ مِن الشَواذِّ لا أَنْ نَزِيدَها واحِدةً بَعْدَ واحِدة. تِلْكَ هِيَ الطامّةُ فِي حالةِ «الخِلْيَويِّ» وَما شاكَلَها. وَأَمّا تَغَلُّبُ السِياسِيِّ أَو الصَحافِيِّ عَلى اللُغَوِيِّ فِي هَذِهِ المُواجَهة فَأَتاحَهُ أَنَّ اللُغَوِيَّ نَطَقَ بِحُكْمِهِ فِي جَرِيدةٍ يَقْرَأُها آلافٌ أَوْ عَشَراتٌ قَلِيلةٌ مِن الآلافِ يَعْلَمُ اللهُ وَحْدَهُ ما يَقْرَأُونَهُ مِنْها. هَذا فِيما أَخَذَتْ تُصْدِي لِمَأْثرةِ السِياسِيِّ أَو الصَحافِيِّ، كُلَّ يَوْمٍ، شاشاتٌ يُشاهِدُها مَلايِين... ما نَطْلُبُهُ هُنا أن يُمْنَحَ اللُغَوِيُّونَ فِي شَأْنٍ هُم العُلَماءُ بِهِ فُرَصًا مُساوِيةً لِفُرَصِ الخَطّائِين.

يَحْتاجُ ما سَبَقَ كُلُّهُ، فِي الواقِعِ، إلى الكَثِيرِ مِن التَمْحِيصِ ثُمَّ إلى التَجَسُّدِ فِي بَرامِجَ مُفَصَّلة. وَهَذا عَمَلٌ لا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الوَرَقةُ وَلا يَسَعُ الفَرْدَ الواحِدَ أَنْ يَنْهَضَ بِه. فَعَسى أَنْ يَعْتَمِدَه القَيِّمُونَ عَلى هَذا المُؤْتَمَرِ غايةً يُقْبِلُونَ عَلَيْها بِما يُناسِبُها مِنْ صِحّةِ العَزِيمةِ وَكَفاءةِ الإمْكانات.

العَرَبِيّةُ مُفَسْبِكةً:
عامِّيّاتٌ يُكْتَبُ بِها وَفُصْحى حِوارِيّةٌ؟ (*)

الفُصْحى وَالعامِّيّاتُ فِي الكَلامِ العَرَبِيِّ المُعاصِرِ: مَواقِعُ مُتَحَرِّكة

قَبْلَ نَحْوٍ مِنْ ١٥ سَنةً، وَقَفْتُ فِي مَقالةٍ طَوِيلةٍ عِنْدَ ما أَسْمَيْتُهُ «جَلاءَ الفُصْحى عَنْ مَناطِقِ المُشافَهة». كُنْتُ أَدِلُّ بِهَذا الاسْمِ عَلى دَوائِرَ لِلْكَلامِ كانَت الفُصْحى واضِحةَ الغَلَبَةِ عَلَيْها، فِي ما مَضى، وَإنْ ترَكَتْ فِي بَعْضِ الحالاتِ أَو اللَحَظاتِ نَصِيبًا مِنْها لِواحِدةٍ مِن العامِّيّات. وَقَدْ ذَكَرْتُ أَهَمَّ هَذهِ الدَوائِرِ أَو المَنابِرِ وَهِيَ مَنابِرُ الخَطابةِ الدِينِيّةِ وَمَنابِرُ التَدْرِيسِ وَالمُنْتَدَياتُ الثَقافِيّةُ وَمَنابِرُ التَصْرِيحِ وَالخَطابةِ السِياسِيَّيْنِ وَالمَسارِحُ وَوَسائِطُ الإِعْلام. كانَ واضِحًا أَنَّ السِيادةَ التارِيخِيّةَ لِلْفُصْحى عَلى هَذِهِ الدَوائِرِ لَمْ تَكُنْ حاصِلةً بِالتَساوِي بَيْنَ هَذِهِ مِنْها وَتِلْك. فَإنَّ إقْبالَ المَسْرَحِيِّينَ عَلى وَضْعِ الحِوارِ بِالعامِّيّاتِ سبَقَ، مَثَلًا، تَسْلِيمَ أَصْحابِ المَنابِرِ الدِينِيّةِ أَو المُدَرِّسِينَ فِي الجامِعاتِ بِاتِّخاذِ العامِّيّاتِ نَفْسِها مَرْكَبًا لِما يَنْقُلونَهُ ارْتِجالًا مِنْ أَفْكارٍ أَوْ مَعارِفَ إلى جُمْهُورِهِمْ. هَذا إلى كَوْنِ المَسارِحِ قَدْ تُعِيرُ خَشَباتِها لِلْغِناءِ وَهُوَ فَنٌّ رَجَحَتْ فِيهِ العامِّيّاتُ مِنْ زَمَنٍ طَوِيل. وَقَدْ فرَضَتْ نَفْسَها باكِرًا عَلى الأَرْجَحِ قِسْمةٌ بِعَيْنِها فِي الصُفُوفِ بَيْنَ ما يُلْقِيهِ المُدَرِّسُ عَلى مُسْتَمِعِيهِ

(*) وَرَقةٌ أُعِدَّتْ لِوَرْشةِ «العَرَبِيّةِ وَشَبَكاتِ التَواصُلِ الاجْتِماعِيّ» وَقَد انْعَقَدَتْ فِي بَيْرُوتَ مِنْ ٢٦ إلى ٢٨ شُباط ٢٠١٥. نَظَّمَتْ الوَرْشةَ وَاسْتَضافَتْها الجَمْعِيّةُ اللُبْنانِيّةُ لِلْفُنُونِ التَشْكِيلِيّةِ ــ أَشْكال أَلْوان، وَأُشرَفَ عَلَيْها أَحْمَد بَيْضُون وَمَنال خَضِر.

وَما يَدُورُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَلامِذةِ مِنْ سُؤالٍ وَجَواب. فَكانَ يُجازُ لِلنَوْعِ الأَخِيرِ مِن الكَلامِ أَنْ يَجْنَحَ إلى العامِّيّةِ أَوْ إلى مَزِيجٍ مِن العامِّيِّ وَالفَصِيحِ فِيما تَسْتَأْثِرُ الفُصْحى، عَلى الإجْمالِ، بِالنَوْعِ الأَوَّل.

وَقَدْ كانَ صَرِيحًا اتِّحادُ مَلَكةِ الكَلامِ الفَصِيحِ، فِي سائِرِ هَذِهِ المَواقِعِ، بِدائِرةِ السُلْطة. فَكانَ اللُجُوءُ إلى الفُصْحى يُفِيدُ، بَيْنَ ما يُفِيدُهُ، الانْفِرادَ عَن الجُمْهُورِ وَالتَفَوُّقَ عَلَيْه. وَكانَ هَذا الانْفِرادُ مُقْتَرِنًا بِادِّعاءِ الحَقِّ فِي مُزاوَلةِ أَنْواعٍ شَتّى مِن الأَمْرِ وَالنَهْيِ تَـتَراوَحُ بَيْنَ التَحْلِيلِ وَالتَحْرِيمِ الدِينِيَّيْنِ وَالإمْلاءِ السِياسِيِّ الصَرِيحِ وَالإدْلاءِ بِخَبَرٍ يَتَعَيَّنُ عَلى المُسْتَمِعِ تَصْدِيقُهُ لِأَنَّهُ يُحْمَلُ إلَيْهِ بِهَذا اللِسانِ الفَصِيح...

طَبِيعِيٌّ، مِنْ بَعْدُ، أَنَّ القُدْرةَ عَلى التَصَرُّفِ بِالفُصْحى كانَتْ، بِالنَظَرِ إلى تَفاوُتِها بَيْنَ الأَشْخاصِ، تَدْخُلُ مِعْيارًا ذا أَهَمِّيَةٍ فِي المُفاضَلةِ بَيْنَ مَنْ يَحْتَلُّونَ مَراكِزَ تَصِحُّ المُقارَنةُ بَيْنَها بِحُكْمِ وُقُوعِها فِي الدائِرةِ نَفْسِها، مَثَلًا. فَالداعِيةُ حِينَ يَكُونُ خَطِيبًا بَلِيغًا وَالمُدَرِّسُ المُتَمَكِّنُ مِن الفُصْحى وَالسِياسِيُّ الناصِعُ البَيانِ بِهَذِهِ الفُصْحى كانُوا يُحَصِّنُونَ بِالارْتِجالِ المُتَدَفِّقِ أَو المُتَأَلِّقِ مَوْقِعَ انْفِصالٍ لَهُمْ عَن العامّةِ أَو عَنْ جُمْهُورِ المُسْتَمِعِينَ وَسَيْطَرةٍ عَلَيْهِما. وَلَمْ تَـكُنْ قِيمةُ ما يُدْلِي بِهِ هَذا أَوْ ذاكَ مِن المَذْكُورِينَ، بِما هُوَ مَعْرِفةٌ أَوْ إرْشادٌ أَوْ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ، مَثَلًا، لِتَنْفَصِلَ عَن القالَبِ الكَلامِيِّ الذِي تُزْجى فِيهِ الرِسالة. بَلْ كانَ فِي مُسْتَطاعِ البَلاغةِ أَنْ تُمَوِّهَ خَواءَ المَضْمُون.

هَذا وَلَمْ يَكُنْ غائِبًا عَن المَعايِيرِ المُعْتَمَدةِ فِي تَقْوِيمِ الكَلامِ مَقامُ البَلاغةِ مِنْ قُدْسِيّةِ النَصِّ الدِينِيّ. وَرَأْسُ هَذا المَقامِ أَنَّ الإعْجازَ القُرْآنِيَّ لِجِهَةِ البَلاغةِ

مُقَوِّمٌ يُزَكِّيهِ النَصُّ القُرْآنِيُّ نَفْسُه لِتَفَوُّقِ القُرْآنِ عَلى ما عَداهُ مِنْ كَلامٍ بِما هُوَ كِتابُ الله. وَيَنْسَحِبُ المِعْيارُ البَلاغِيُّ نَفْسُهُ عَلى كَلامِ الرَسُولِ فَيُوصَفُ بِأَنَّهُ أَفْصَحُ العَرَب. وَيُتابِعُ الشِيعةُ ــ وَقَدْ يُوافِقُهُمْ غَيْرُهُمْ ــ نَشْرَ هَذا المِعْيارِ إلى الإمامِ عليّ بن أَبي طالب فَيَصِفُونَهُ بِأَنَّهُ أبْلَغُ العَرَبِ بَعْدَ الرَسُولِ، إلخ...

هَذا وَلا بُدَّ مِن الإشارةِ إلى أَنَّنا هَهُنا بِصَدَدِ مَنْظُوماتٍ كَلامِيّةٍ عُضْوِيّةِ الانْتِسابِ إلى دائِرةِ المُشافَهة. فَالقرآنُ لا يُتَصَوَّرُ مُسْتَغْنِيًا عَن التِلاوةِ وَالتَرْتِيل. وَالحَدِيثُ النَبَوِيُّ كَلامٌ شَفَوِيٌّ، فِي الأَصْل. وَالكَلامُ المَنْسُوبُ إلى عَلِيّ جُلُّهُ خُطَبٌ أَلْقاها وَحُفِظَتْ عَنْه. يَبْقى أَنَّ هَذِهِ الأَوْصافَ المُتَّصِلةَ بِامْتِلاكِ ناصِيةِ الفَصاحةِ بَعِيدةٌ كُلَّ البُعْدِ عَنْ أَنْ تُعَدَّ عارِضةً أَوْ بَرّانِيّةً فِي تَشْكِيلِ الصُورةِ التِي ارْتَسَمتْ لِكُلٍّ مِنْ مَوْصُوفِيها. بَلْ هِيَ داخِلةٌ فِي جَوْهَرِ هَذِهِ الصُورةِ إلى دَرَجةِ الاسْتِواءِ، بَعْدَ انْتِقالِها بِما يُشْبِهُ العَدْوى مِنْ واحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ المَوْصُوفِينَ إلى آخَرَ، مِعْيارًا عامًّا لا لِتَقْوِيمِ الكَلامِ وَحْدَهُ، مُجَرَّدًا عَن المُتَكَلِّمِ، بَلْ لِتَقْوِيمِ الشَخْصِ بِرُمَّتِهِ لِجِهةِ المَوْقِعِ الذِي يَسْتَحِقُّ احْتِلالَهُ من الجَماعةِ أَوْ لا يَسْتَحِقُّ أَوْ لِجِهةِ تَعْيِينِ المَرْتَبةِ التِي يَسْتَأْهِلُ تبَوُّؤَها بَيْنَ أَقْرانٍ لَهُ احْتَلُّوا أَوْ هُمْ يَحْتَلُّونَ المَوْقِعَ نَفْسَه.

المَفْصِلُ الناصِرِيُّ: نَقْلُ المِعْيارِ وَتَعْدِيلُ عَلاقةِ الخَطابة

تَشِي هَذِهِ المَرْتَبةُ التِي كانَتْ لِلْفَصاحةِ بِعُمْقِ الانْقِلابِ الذِي مَثَّلَهُ هَذا الذِي سَمَّيْناهُ انْسِحابَها مِنْ دَوائِرِ المُشافَهة. لا رَيْبَ أَنَّ هَذا الانْسِحابَ يَجِدُ بَعْضَ ما يُعَلَّلُ بِهِ فِي تَرَدِّي الكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ عِنْدَ المُكَلَّفِينَ، عَلى

اخْتِلافِ المَواقِعِ، بِقَوْلِ كَلامِ السُلْطة. مَعْلُومٌ أَنَّ جَمال عَبْدَ الناصِر حِينَ تَوَجَّهَ إلى جَماهِيرِ المِصْرِيِّينَ فِي خُطَبٍ مُطَوَّلَةٍ، مُرْتَجَلةٍ أَوْ شِبْهِ مُرْتَجَلةٍ، أَدّاها بِالعامِّيّةِ المِصْرِيّةِ أَوْ بِخَلِيطٍ مِنْها وَمِن الفُصْحى، قَدْ مَثَّلَ مَحَطّةً رَئِيسةً فِي التارِيخِ المُعاصِرِ لِلْخَطابَةِ العَرَبِيّةِ، إذْ هُوَ أَرْسى نَمُوذَجًا وَمِعْيارًا راحا يَنْتَشِرانِ، لا إلى غَيْرِهِ مِن القادةِ السِياسِيِّينَ وَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا إلى مُشافِهِي العُمُومِ فِي دَوائِرِ الكَلامِ الأُخْرى كافّة. وَلا تَعُودُ هَذِهِ القُدْرةُ عَلى فَرْضِ القُدْوةِ إلى سَبْقٍ كانَ لِعَبْدِ الناصِر فِي الخَطابةِ العامِّيّةِ. فَالمُؤَكَّدُ أَنَّ كَثِيرِينَ غَيْرَهُ كانُوا يَجْنَحُونَ إلَيْها، عِنْدَ اللُزُومِ أَيْضًا. وَلَكِنَّ عبدَ الناصِر وَظَّفَ مَكانَتَهُ السِياسِيّةَ، بِما كان لَها مِنْ سَعةِ النِطاقِ فِي المَجالِ العَرَبِيِّ، لِيَفْرِضَ طَرِيقَتَه. أَو انَّ جَدَلًا قَدْ نَشَأَ بَيْنَ هَذِهِ الطَرِيقةِ وَتِلْكَ المَكانةِ بِحَيْثُ عزَّزَتْ كُلٌّ مِنْهُما الأُخْرى. هَذا فَضْلًا عَنْ طُولِ خُطَبِ الرَئِيسِ المِصْرِيِّ التِي كَثِيرًا ما استَغْرقَتْ الواحِدةُ مِنْها بِضْعَ ساعاتٍ وعن نَقْلِها بِواسِطةِ الإذاعاتِ ثُمَّ بِواسِطةِ التَلْفَزةِ إلى مَشْرِقِ العالَمِ العَرَبِيِّ ومَغْرِبِه. فَقَدْ كانَ لِسِماتِ الطُولِ وَالتَكْرارِ وَالانْتِشارِ، بِاقْتِرانِها بِالمَكانةِ، فِعْلٌ تَوْكِيدِيٌّ لا رَيْبَ فِيه لِلنَمُوذَجِ وَلِلْمِعْيار.

يُمْكِنُ رَدُّ التَجْدِيدِ المِعْيارِيِّ أَو النَمُوذَجِيِّ الذِي فَرَضَتْهُ خُطَبُ عَبْدِ الناصِر إلى واقِعَتَيْن. الأُولى أَنَّ نَمَطَ المُخاطَبةِ كانَ يُغادِرُ مَعَهُ المَرْجِعِيّةَ الدِينِيّةَ بِاعْتِبارِها الخَلْفِيّةَ المِعْيارِيّةَ لِكُلِّ كَلامٍ مُكَرِّسًا لُغةَ الشَعْبِ أَوْ لُغةَ الجَماهِيرِ مَرْجِعًا لِنَفْسِها. وَقَدْ كانَ هَذا مُلائِمًا لِلانْتِقالِ مِنْ حالِ الانْفِصالِ السُلْطانِيِّ أَو المَلَكِيِّ بَيْنَ السُلْطةِ وَالشَعْبِ إلى حالِ اتِّصالٍ مَوْسُومٍ بِالشَعْبَوِيّةِ أَوْ إلى الرَغْبةِ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الحالِ، عَلى الأَقَلّ. كانَ هَذا مُلائِمًا أَيْضًا لِلْمِضيِّ قُدُمًا فِي تَغْلِيبِ المَنْزَعِ القَوْمِيِّ الذِي اشْتَدَّ عَصَبُهُ فِي أَواخِرِ العَهْدِ العُثْمانِيِّ وَبَقِيَ يُغالِبُ

الحَرَكاتِ الدِينِيّةَ بَعْدَ أُفُولِ الخِلافةِ إلى زَمَنِ عَبْدِ الناصِر وَإلى ما بَعْدَه. وَالثانِيةُ أنَّ عَبْدَ الناصِر لَمْ يُلْغِ انْفِصالَ السُلْطةِ عَن الشَعْبِ بَلْ جَسَّدَ حالَةً مِن النَدِّيّةِ الرَمْزِيّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذا الأَخِيرِ بِحَيْثُ يَسْتَقِيمُ لِكُلٍّ مِن الجِهَتَيْنِ، مَبْدَئيًّا، أَنْ تَدَّعِي نَوْعًا مِن التَماهِي شِبْهِ الصُوفِيِّ بِالأُخْرى. وَلَـكِنَّ هَذِهِ الدَعْوى لَمْ تَـكُنْ لِتُمْكِنَ فِعْلِيًّا إلّا مِنْ جِهةٍ واحِدةٍ هِيَ الجِهةُ الناطِقةُ (بَلْ هِيَ مُحْتَكِرةُ النُطْقِ، فِي الواقِعِ) وَهِيَ جِهةُ السُلْطةِ المُتَجَسِّدةِ فِي الزَعِيم.

وَلا بُدَّ مِن القَوْلِ هَهُنا أَنَّ انْتِشارَ هَذا النَمُوذَجِ مِنْ دائِرةِ السُلْطةِ السِياسِيّةِ إلى دَوائِرِ الكَلامِ الأُخْرى إنَّما كانَ صُدوعًا، لا بِمُجَرَّدِ الرَغْبةِ فِي المُحاكاةِ، بَلْ أَيْضًا بِما سَبَقَت الإشارةُ إلَيْهِ مِن انْحِطاطٍ أَوْرَثَهُ نِظامُ التَعْلِيمِ الجَماهِيرِيِّ فِي مَعْرِفةِ الفُصْحى بَيْنَ صُفُوفِ النُخَبِ عَلى اخْتِلافِها. وَأَخَصُّها بِالذِكْرِ هَهُنا النُخْبةُ العَسْكَرِيّةُ التِي اسْتَوْلَتْ عَلى مَقالِيدِ الحُكْمِ وَالإدارةِ فِي دُوَلٍ عَرَبِيّةٍ عِدّة. وَيصِحُّ ذَلِكَ عَلى النُخْبةِ الدِينيّة نَفْسِها أَيْضًا وَقَدْ ضَرَبَ إعْدادَها من الوَهْن العامِّ الذِي أَوْرَثَهُ التَكاثُرُ وَالاسْتِعْجالُ ما ضَرَبَ إعْدادَ غَيْرِها. هَذا وَلَيْسَتْ نافِلةً الإشارةُ إلى أَنَّ عَبْدَ الناصِر كانَ يَلْحَنُ كَـثِيرًا حِينَ يَتَوَرَّطُ فِي الارْتِجالِ بِالفُصْحى بَلْ كانَ يَلْحَنُ أَيْضًا وَهُوَ يَقْرَأُ الخُطْبَةَ المَكْتُوبةَ أَو الجُزْءَ المَكْتُوبَ مِنْ خُطْبة.

هَذا الانْسِحابُ الذِي أَتَمَّتْهُ الفُصْحى، بِنَوْعٍ مِن الصَمْتِ، مِنْ مَناطِقِ المُشافَهةِ كانَ يُمَثِّلُ عَلى النَحْوِ الذِي حَصَلَ فِيهِ، قبْلَ انْتِشارِ شَبَكاتِ التَواصُلِ وَما سَبَقَها مِنْ أَنْماطِ التَواصُلِ الإلِكْتِرُونِيِّ، اعْتِمادًا تَقْرِيبِيًّا لِلُغَة العَوامِّ فِي مُخاطَبةِ العَوامّ. وَلَـكِنَّهُ لَمْ يُمَثِّلْ، فِي الأُطُرِ التِي بَقِيَتْ تَـكْـتَنِفُهُ، تَعْمِيمًا لِلْحقِّ فِي الكَلامِ عَلى العَوامّ. فَفِي الصَفِّ وَفِي المَعْبَدِ وَعَلى المِنْبَرِ السِياسِيِّ وَالمِنْبَرِ الدِينِيِّ، وَكَذَلِكَ عَلى المَسْرَحِ، بَقِيَ صاحِبُ السُلْطةِ

هُوَ المُتَحَدِّثَ الوَحِيدَ (أَوْ شِبْهَ الوَحِيدِ أو الرئيسَ فِي أَدْنى تَقْدِيرٍ) وَبَقِيَ الجُمْهُورُ، عَلى التَعْمِيمِ، جُمْهُورَ مُسَتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّجِين.

جَدِيدا ثَوْرةِ المَعْلُوماتِ

فِي عَقْدٍ وبَعْضِ عَقْدٍ مِن الزَمَنِ، أفْضَتْ ثَوْرةُ المَعْلُوماتِ إلى أَمْرَيْنِ بَعِيدَي الأَثَرِ يَتَعَلَّقانِ بِالعَرَبِيّةِ وَبِالمَوازِينِ بَيْنَ فُصْحاها وَعامِّيّاتِها حَصَلا مُتَلازِمَيْنِ: وَهُما: (١) اسْتِدْراجُ العُمُومِ إلى كِتابةِ كَلامٍ كانَ يُفْتَرَضُ فِيهِ أَنْ يُقالَ مُشافَهَةً وَهُوَ ما عَنى تَعْمِيمَ الحَقِّ فِي الكِتابة. (٢) مَنْحُ العُمُومِ الحَقَّ المَبْدَئيَّ فِي إِدْراجِ ما يُرِيدُونِ إِدْراجَهُ مِنْ كَلامٍ فِي الفَضاءِ العُمُومِيِّ وَهَذا بِالعَرَبِيّةِ التِي يُحْسِنُونَها، أَيْ دُونَ اشْتِراطٍ لِلْفَصاحة. الأَمْرُ الأَوَّلُ تَحَصَّلَ مَعَ تَعْمِيمِ الهاتِفِ الخَلَوِيِّ بِما أَتاحَهُ مِنْ تَبادُلِ الرَسائِلِ القَصِيرة. وَالأَمْرُ الثانِي أَرْهَصَتْ بِهِ صِيَغُ الدَرْدَشةِ (أَو المُؤانَسةِ) الجَماعِيّةِ وَالمُدَوَّناتُ وَلَـكِنَّهُ بَلَغَ كَمالَهُ مَعَ الفَيْسبُوك وَما جَرى مَجْراهُ مِن الشَبَكات.

وَذاكَ أَنَّ صِيغةَ الرَسائِلِ النَصِّيّةِ نَشَرَت المُكاتَبَةَ إلى نِطاقٍ لا تُقارَنُ بِسَعَتِهِ ما ظَلَّت الرَسائِلُ البَرِيدِيّةُ تَتَّصِفُ بِهِ مِنْ نَدْرةٍ نِسْبِيّة. وَهِيَ قَدْ رَفَعَتْ وَتِيرةَ المُكاتَبةِ إلى مُسْتَوَىً لا يُقارَنُ بِهِ ما بَقِيَ البَرِيدُ التَقْلِيديُّ يَفْرِضُهُ مِنْ تَباعُدٍ وَبِطْءِ. وَالمَعْلُومُ أَنَّ هَذَيْنِ النَدْرةَ وَالبِطْءَ كانا مُغْرِيَيْنِ بِافْتِراضِ هالةٍ لِلرِسالةِ تُزَكِّي المَيْلَ إلى التَفاصُح. فَكانَ شِبْهُ الأُمِّيِّ يَكْتُبُ أَوْ يَجِدُ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ رَسائِلَ تَلْزَمُ قَواعِدَ الفُصْحى وَقامُوسَها ما أمْكَن. وَكانَ لا يَنْدُرُ أنْ تَـكْتَنِفَها عِباراتٌ مَحْفُوظةٌ تُؤَكِّدُ انْتِماءَ النَصِّ إلى الفُصْحى. وَقَدْ يَصِلُ

الأَمْرُ إلى اعْتِمادِ السَجْعِ فِي جُمَلٍ افْتِتاحِيّةٍ مِنْ قَبِيلِ «سَلامٌ سَلِيم. أَرَقُّ مِن النَسِيم.»...

وَفِي مَرْحَلةٍ طالَتْ نَحْوًا مِنْ ثَلاثَةِ عُقُودٍ هِيَ الأَخِيرةُ مِن القَرْنِ العِشْرِينَ، وَجَدَ مَنْ لا يُحْسِنُونَ الكِتابةَ بِالفُصْحى أَوْ لا يُحْسِنُونَ الكِتابةَ أَصْلًا صِيغةً سَهْلةً بَدِيلةً مِن الرِسالةِ المَكْتوبةِ هِيَ صِيغةُ الشَرِيطِ المُسَجَّل. فَكانَ هَذا الشَرِيطُ يُرْسَلُ مِنْ قارّةٍ إلى قارّةٍ وَكانَ فِيهِ مُتَّسَعٌ لِكَثِيرٍ مِن الكَلامِ فِي كُلِّ مَوْضُوع... فَلَمْ يَكُنْ نادِرًا أَنْ يَتَعاقَبَ أَفْرادُ العائِلةِ الحاضِرُونَ كُلُّهُمْ عَلى التَحَدُّثِ إلى الغائِبِ أَو الغائِبِينَ مِنْها عَلى شَرِيطٍ واحِد.

وَكانَ البَرِيدُ الإِلِكْتِرُونِيُّ قَدْ مَثَّلَ، فِي المَرْحَلةِ اللاحِقةِ، مَحَطّةً نَحْوَ ما أَشَرْنا إِلَيْهِ مِنْ تَوْسِيعٍ لِنِطاقِ المُكاتَبةِ وَتَسْرِيعٍ لِوَتائِرِها. وَلَكِنَّ انْتِشارَ الحَواسِيبِ الشَخْصِيّةِ، ابْتِداءً مِن العَقْدِ الأَخِيرِ مِن القَرْنِ الماضِي، وَمَعَهُ انْتِشارُ هَذا البَرِيدِ الجَدِيدِ، بَقِيَ عَلى الدَوامِ أَضْيَقَ نِطاقًا مِن انْتِشارِ الهَواتِفِ الخَلَوِيّةِ الذِي زامَنَهُ وَما تُتِيحُهُ هَذِهِ الهَواتِفُ مِنْ تَبادُلٍ لِلرَسائِل النَصِّيّة.

هَذا وَقَدْ أَفْضى اعْتِمادُ ما سُمِّيَ بِالهَواتِفِ الذَكِيّةِ، فِي هَذِهِ السَنَواتِ الأَخِيرةِ، إلى كَسْرِ الاحْتِكارِ الذِي كانَ مَعْقُودَ اللِواءِ لِلْحاسُوبِ الشَخْصِيِّ لِمَزايا الاتِّصالِ بِالإِنْتِرْنِتِّ وَما يُتِيحُهُ هَذا الاتِّصالُ مِنْ مُمْكِناتٍ مِنْ بَيْنِها البَرِيدُ الإِلِكْتِرُونِيّ. مَعَ ذَلِكَ بَقِيَتْ الغَلَبةُ لِلرَسائِلِ النَصِّيّةِ عَلى المُراسَلةِ الإِلِكْتِرُونِيّةِ فِي التَواصُلِ الكِتابِيِّ بِوَساطةِ هَذا الجِيلِ مِن الهَواتِف. وَما يَعْنِي اللُغةَ مِنْ هَذا الأَمْرِ أَنَّ الأُبَّهةَ الحافّةَ بِفِعْلِ الكِتابةِ وَلُغَتِها قَدْ تَبَدَّدَتْ وَزالَ التَحَفُّظُ عَن التَراسُلِ بِالعامِّيّاتِ أَوْ كادَ.

عَلى أَنَّ الرَسائِلَ النَصِّيّة كانَتْ وَلا تَزالُ تَقَعُ، عَلى وجْهِ الإجْمالِ، فِي نِطاقِ الخُصُوصِيّ. وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّ لَها وَجْهَ اسْتِعْمالٍ إعْلامِيًّا أَوْ إعْلانِيًّا يَمْنَحُ الرِسالةَ صِفةً جَماعِيّةً وَقَد ازْدادَ انْتِشارُهُ فِي الأَعْوامِ القَلِيلةِ الماضِية. وَالوَصْفُ نَفْسُهُ يَصِحُّ عَلى البَرِيدِ الإلِكْتِرُونِيِّ وَعَلى مَجْمُوعاتِ الدَرْدَشةِ، عَلى الرُغْمِ مِن الوَظِيفةِ الإعْلانِيّةِ التِي ازْدادَتْ حُضُورًا فِي الأَوَّلِ وَمِن الصِفةِ الجَماعِيّةِ لِلثانِيةِ وَهِيَ تبقى مَحْدودةً عادةً. وَقَدْ تَبْتَغِي المُدَوَّناتُ أَنْ تَضَعَ مَوادَّها فِي مُتَناوَلِ العُمُوم. وَلَكِنَّ اكْتِسابَ المُطالِعِينَ لِلْمُدَوَّنةِ يَقْتَضِي جُهْدًا مَنْهَجِيًّا، عادةً، يُبْذَلُ فِي التَشْبِيكِ وَفِي الإعْلانِ وَإشْعارِ المُسْتَهْدَفِين. وَهَذا فَوْقَ الجُهْدِ الذِي يَقْتَضِيهِ تَجْدِيدُ المَضامِينِ مَعَ رِعايةِ النَوْعِيّةِ المُناسِبة.

ثَوْرةُ الفَسْبَكة: تَوَجُّهُ العُمُومِ إلى العُمُومِ بِلِسانِ العُمُوم

وَأَمّا المَزْجُ ما بَيْنَ تَوْسِيعِ الحَقِّ إلى العُمُومِ فِي مُخاطَبةِ العُمُومِ وَتَعْمِيمِ الحَقِّ فِي الإدْلاءِ كِتابةً بِالكَلامِ الشَفَوِيِّ الأَوْصافِ فَقَدْ تَوَسَّعَ وَرَسَخَ مَعَ شَبَكاتِ التَواصُلِ وَفِي رَأْسِها الفَيْسبُوك. فَهَهُنا يَتَحَصَّلُ خُرُوجٌ مَبْدئِيٌّ مِن احْتِكارِ الكَلامِ العُمُومِيِّ الذِي لَبِثَ قائِمًا، عَلى ما رَأَيْنا، فِي الخَطابةِ السِياسِيّةِ أَو الدِينِيّةِ وَفِي التَدْرِيسِ، إلخ.، بَعْدَ أَنْ أُقْصِيَت الفُصْحى عَنْ هَذِهِ الدَوائِرِ أَوْ كادَتْ وَاسْتَقَرَّ اللُجُوءُ فِيها إلى لُغةِ العُمُومِ أَيْ إلى هَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِن العامِّيّات.

فِي الفَيْسبُوك، يُمْنَحُ صاحِبُ الصَفْحةِ الحَقَّ فِي تَحْدِيدِ جُمْهُورِه بَدْءًا بِالاقْتِصارِ عَلى مُناجاةِ نَفْسِهِ وَوُصولًا إلى ما يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيهِ «المَلَأَ»

أَوْ العُمُوم. وَبَيْنَ هاتَيْنِ المَنْزِلَتَيْنِ مَنازِلُ لَمْ تَزَلْ تَـتَكاثَرُ سَنةً بَعْدَ سَنةٍ مِنْ عُمْرِ الشَبَكَة. وتَدْخُل طَبِيعةُ المادّةِ فِي تَحْدِيدِ الناشِرِ لِلْجَماعةِ المُسْتَهْدَفةِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِيها أَيْضًا التَحَسُّبُ مِنْ رُدُودِ فِعْلٍ غَيْرِ مُسْتَحَبَّةٍ إذا عُرِضَتْ المادّةُ عَلى كارِهِينَ لِما فِيها. غَيْرَ أَنَّهُ لا يُعْتَدُّ بِعَدَدِ الأَصْحابِ فِعْلًا لِتَقْرِيرِ الصِفةِ العُمُومِيّةِ لِلتَوَجُّه. فَإِنَّ الفارِقَ فِي هَذا الصَدَدِ، بَيْنَ مَنْ لَهُ مائَةُ صاحِبٍ وَعِشْرُونَ مُتابِعًا وَمَنْ لَهُ خَمْسةُ آلافِ صاحِبٍ وَأُلُوفٌ أُخْرى مِن المُتابِعِينَ لا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ فارِقًا فِي الدرَجة. وَذاكَ أَنَّ مِثْلَ هَذا الفارِقِ مَعْهُودٌ بَيْنَ الصُحُفِ، مَثَلًا، وَلا يَصِحُّ، مَعَ ذَلِكَ، اعْتِبارُ الضَيِّقةِ الانْتِشارِ مِنْها خُصُوصِيّةً وَالأُخْرى عُمُومِيّة. وَإِنَّما تُعْتَبَرُ كُلُّها عُمُومِيّةً بِحَقّ.

ثَمَّةَ إذَنْ أَمْرٌ ثَوْرِيٌّ فِي شَبَكاتِ التَواصُلِ هَذِهِ هُوَ تَعْمِيمُ الحَقِّ فِي الكَلامِ العُمُومِيّ. هَذا يُعَدُّ كَسْرًا لاحْتِكارٍ تارِيخِيٍّ وَكَسْبًا لا سابِقَ لَهُ لِلْمَبْدإِ الدِيمُقْراطِيّ. يَسْتَحِقُّ هَذا الكَسْبُ وذاكَ الكَسْرُ أَنْ يُحْتَفى بِهِما أَيَّما احْتِفاء. نُسَجِّلُ هَذا أَوَّلًا. نُسَجِّلُهُ قَبْلَ الدُخُولِ فِي غابةِ التَحَفُّظاتِ وَالاسْتِثْناءاتِ التِي تُظْهِرُ أَنَّ هَذا الحَقَّ الجَدِيدَ لا يُبْطِلُ أَيًّا مِنْ أَصْنافِ «التَفاوُتِ بَيْنَ البَشَرِ» ـ إنْ كانَ لَنا أَنْ نَسْتَعِيرَ عِبارةَ رُوسُّو ـ بِما فِي ذَلِكَ التَفاوُتُ فِي القُدْرَةِ عَلى الكَلامِ، بِمَعْنى القُدْرةِ عَلى إحْكامِ الكَلامِ وَإجادَتِهِ وَوَفائِهِ بِأَغْراضِه. وَلَـكِنَّهُ ـ أَي الحَقَّ ـ يَفْتَحُ أَبْوابًا كَـثِيرةً لِلصِراعِ عَلى الكَلامِ السَيِّدِ لَمْ تَـكُنْ مَفْتُوحةً مِنْ قَبْلُ. بِهَذا المَعْنى تُشْبِهُ المُساواةُ فِي هَذا الحَقِّ فِي التَفَوّهِ بِكَلامٍ عُمُومِيٍّ ما يُسَمِّيهِ «الإِعْلانُ العالَمِيُّ لِحُقُوقِ الإِنْسانِ» مُساواةً بَيْنَ البَشَرِ أَوْ ما تُسَمِّيهِ دَساتِيرُ مُعْظَمِ الدُوَلِ «مُساواةً» بَيْنَ المُواطِنِين. فَنَحْنُ، فِي هَذِهِ الحالاتِ كُلِّها، حِيالَ مُساواةٍ فِي المَبْدَإِ أَوْ فِي الحَقِّ لا فِي الواقِع.

وَهِيَ، عَلى الرُغْمِ مِنْ ذَلِكَ، مُساواةٌ لا تُسْتَحَبُّ خَسارَتُها وَلا يَصِحُّ التَفْرِيطُ بِها بِأَيِّ حال. إذِ الخاسِرُ أَوْ المُفَرِّطُ يُلْفِي نَفْسَهُ مُتَرَدِّيًا فِي حَضِيضٍ مُطْلَقٍ وَمُفْتَقِرًا إلى سُبُلِ النُهُوضِ مِنْه.

العالَمُ الافْتِراضِيُّ وَالسُلُطاتُ: حُدُودُ المُساواةِ وَالحُرِّية

وَلنَدْخُلْ فِي غابةِ التَحَفُّظاتِ وَالاسْتِثْناءاتِ مِن الحَقِّ المَذْكُورِ وَمِنْ مَفاعِيلِه. وَالمَدْخَلُ إلى هَذِهِ الغابةِ هُوَ أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ العالَمَ الافْتِراضِيَّ أَو الحَياةَ الافْتِراضِيّةَ، عَلى النَحْوِ الذِي يَعْرِضانِ لَنا فِيهِ عَلى الفَيْسبُوك، خُصُوصًا، إنَّما هُما عالَمٌ وَحَياةٌ مُشابِهانِ، مِنْ وُجُوهٍ رَئيسةٍ، لِلْعالَمِ وَالحَياةِ الواقِعِيَّيْن. مُشابِهانِ هُما لا مُطابِقان. وَأَوْسَعُ وُجُوهِ الشَبَهِ نِطاقًا أَنَّ أَنْواعًا مِن التَفاوُتِ فِي المَكانةِ وَالقُدْرةِ تُسْتَعادُ هَهُنا مِن الحَياةِ الواقِعِيّةِ وَتَضْطَلِعُ اللُغةُ، بِمَعْنى الكَلامِ، فِي رَسْمِ مَعالِمِها وَتَرْسِيخِها، بِدَوْرٍ حَيَوِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُنْقَطِعًا عَنْ غَيْرِه. لا نَنْسَ أَنَّ الصُوَرَ وَالأَشْرِطةَ مُنافِسٌ خَطِيرٌ، عَلى الفَيْسبُوك، لِلْمَنْشُورِ الكَلامِيّ. بَلْ إنَّ الخِبْرةَ الفَرْدِيّةَ، ناهِيكَ بِالإحْصاءاتِ، تُشِيرُ إلى تَقَدُّمٍ لا يَزالُ يَتَنامى لِلصُوَرِ هُنا، فِي المَكانةِ، عَلى المَنْشُوراتِ الكَلامِيّة.

لا نَنْسَ أَيْضًا أَنَّ السُلْطةَ، عَلى اخْتِلافِ أَنْواعِها، تَنْطَوِي أَنْظِمَتُها الرَمْزِيّةُ عَلى عَناصِرَ أَوْ مُكَوِّناتٍ غَيْرِ كَلامِيّة. فَلا يُفْتَرَضُ فِي الزَعِيمِ، بِالضَرورَةِ، أَنْ يَكُونَ الأَفْصَحَ وَإِنْ تَكُن الفَصاحةُ (فِي تَجَلِّيها الخَطابِيِّ عَلى الخُصُوصِ) تَنْفَعُهُ كَثِيرًا إذا تَحَصَّلَتْ لَه. وَلا تَفْتَرِضُ سُلْطةُ الأَبِ ذَرابةَ اللِسان وَجَلاءَ البَيانِ بِالضَرُورة. وَلَكِنَّ تَوَفُّرَهُما فِي الإبْنِ قَدْ يُمَثِّلُ عامِلَ اخْتِلالٍ فِي السُلْطةِ

الأَبَوِيّة. هَذِهِ المُكَوِّناتُ الرَمْزِيّةُ غَيْرُ اللُغَوِيّةِ لِلسُلْطةِ (وَمِنْها المَظْهَرُ الشَخْصِيُّ وَما يُدْعى «لُغةَ الجَسَدِ»، مَثَلًا) قَدْ يَظْهَرُ شَيْءٌ مِنْها فِي المادّةِ الفَيْسبُوكِيّة وَقَدْ لا يَظْهَر. قَدْ لا تَنْقُلُها اللُغةُ هَهُنا وَقَدْ لا تَنْقُلُها الصُوَرُ أَيْضًا. وَإذا هِيَ نَقَلَتْها فَالراجِحُ أَلّا يَخْلُوَ النَقْلُ مِنْ تَحْوِير...

وَما دُمْنا قَدْ عُدْنا إلى ذِكْرِ السُلْطةِ فِي هَذا المَعْرِضِ فَلْنُشِرْ إلى حالِ الرَقابةِ عَلى ما يُنْشَرُ عَلى الشَبَكة. لا رَيْبَ أَنَّ قَدْرًا مِن التَفَلُّتِ مِنْ رَقابةِ السُلْطةِ السِياسِيّةِ وَذِراعَيْها الأَمْنِيّةِ وَالقَضائِيّةِ يَتَحَصَّلُ لِمُسْتَخْدِمِي الفَيْسبُوك وَتْوِيتِرْ مَثَلًا. وَلَـكِنَّ تَعَرُّضَ مُسْتَخْدِمِي الشَبَكاتِ لِلْقَمْعِ قَدْ ثَبَتَ إمْكانُهُ تَـكْرارًا وَلا تَزالُ تُثْبِتُهُ، عَلى اخْتِلافِ دَرَجاتِه، حالاتٌ كَـثِيرةٌ شَتّى. وَيَتَفَلَّتُ مُسْتَخْدِمُو الشَبَكاتِ نِسْبِيًّا أَيْضًا مِنْ رَقابةِ وَسائِطِ النَشْرِ المُعْتادةِ، من مَقْرُوءةٍ وَسَمْعِيّةٍ/بَصَرِيّة. فَهَذِهِ قَدْ تَضِيقُ سِياسةُ النَشْرِ فِيها بِمادّةٍ يَرْغَبُ فُلانٌ مِن الناسِ فِي نَشْرِها. هَذا فِيما تُبْدِي الصَفْحةُ الفَيْسبُوكِيّةُ، مَثَلًا، رَحابةً لا يَحِدُّ مِنْها سِوى الشَكْوى المُحْتَمَلةِ مِنْ جانِبِ المُتَصَفِّحِينَ إذْ تَسْتَنْفِرُ هَذِهِ الشَكْوى، إذا بَلَغَتْ دَرَجةً مُقَرَّرةً مِن التَواتُرِ، أَنْواعًا مِن الرَقابةِ الآجِلةِ تَـتَوَلّاها إدارةُ الشَبَكة. يَتَراوَحُ مَفْعُولُ هَذِهِ الرَقابةِ بَيْنَ حَجْبِ الصَفْحةِ الواحِدةِ عَنْ مُتَصَفِّحٍ واحِدٍ وإغْلاقِ صَفْحةٍ بِرُمَّتِها.

فَضْلًا عَنْ رَقابةِ السُلُطاتِ العامّةِ، تَبْقى الرَقابةُ الاجْتِماعِيّةُ ماثِلةً، بِصِيَغِها كافّةً، عَلى الشَبَكات. وَأَهَمُّ وُجُوهِها الرَقابةُ الذاتِيّةُ التِي تَحْمِلُ ناشِرَ المادّةِ عَلى وَضْعِ صُورَتِهِ وَمَوْقِعِهِ الاجْتِماعِيَّيْنِ نَصْبَ عَيْنَيْهِ عِنْد تَحْدِيدِهِ سِياسةَ نَشْرٍ لِنَفْسِه. وَلَـكِنَّ المُتَصَفِّحِينَ أَيْضًا لا يَنْدُرُ أَنْ يُبادِرُوا إلى «رَدْعِ» مَنْ يَعُدُّونَهُ مُخالِفًا لِمَشْرَبِهِم. وَما يَسْتَثِيرُ الرَغْبةَ فِي الرَدْعِ هُوَ

الخِلافُ فِي السِياسةِ، أَوَّلًا، وَلَـكِنَّ هَذِهِ الخاصّةَ لَيْسَتْ حَكْرًا لَه. وَيَبْلُغُ الرَدْعُ أَقْصاهُ فِي اعْتِمادِ العُنْفِ الذِي يَبْقى لَفْظيًّا إذا اقْتُصِرَ عَلى البَذاءةِ وَلَـكِنَّهُ قَدْ يَتَصاعَدُ لِيَصِلَ إلى التَوَعُّدِ بِأَنْواعٍ أُخْرى مِن الأَذى تَلْمِيحًا أَوْ تَصْرِيحًا.

لُغةٌ لِعالَمٍ يَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْء

أَمّا وَأَنّنا قَدْ حَصَرْنا هَمَّنا فِي تَـتَبُّعِ أَوْضاعِ العَرَبِيّةِ فِي شَبَكاتِ التَواصُلِ، فَنَحْنُ لا نَتَناوَلُ الصُوَرَ وَلا الأَشْرِطةَ وَما تُمَثِّلُهُ هَذِهِ وتِلْكَ (وَقَدْ أَشَرْنا إلى تعاظُمِ أَهَمِّيَّتِهِ) فِي مَوازِينِ شَبَكاتِ التَواصُلِ، وَالفَيْسبُوك مِنْها عَلى التَخْصِيص. لا نُجاوِزُ الإشارةَ أَيْضًا إلى طاقِمِ الرُسُومِ الرَمْزِيّةِ الدالّةِ عَلى الانْفِعالاتِ إذْ تُمثِّلُ مُخْتَصَراتٍ لِلْكَلامِ أَوْ بَدائِلَ مِنْهُ، وَهِيَ تَهْبِطُ بِهِ إلى سَوِيّةِ المُشْتَرَكِ مِنْ أَوَّلِيّاتِ التَعْبِيرِ... بَلْ هِيَ كَـثِيرًا ما تَشِي بِالقُصُورِ فِي الأَداءِ الكَلامِيِّ عِنْدَ مُعْتَمِدِيها. وَقَدْ كُنّا نَوَّهْنا فِي كَلامٍ سابِقٍ بِاسْتِواءِ الصَفْحةِ الفَسْبُوكِيّةِ وَسِيلةَ إعْلامٍ شَخْصِيّةً جامِعةً لِوَسائِطِ الإعْلامِ المَأْلُوفةِ كُلِّها. فَكَأَنَّما هِيَ جَرِيدةٌ شَخْصِيّةٌ دائِمةُ القابِلِيّةِ لِلتَجَدُّدِ إذا نَحْنُ لَمْ نَنْظُرْ مِنْها إلّا إلى الكَلامِ وَالصُوَر. وَكَأَنّما هِيَ إذاعةٌ أَيْضًا إذا نَحْنُ نَظَرْنا إلى ما يُمْكِنُ نَشْرُه عَلَيْها مِن التَسْجِيلاتِ الصَوْتِيّةِ، عَلى اخْتِلافِ الأَغْراض. وَكَأَنَّما هِيَ قَناةُ تَلْفَزةٍ إذا لاحَظْنا ما تُتِيحُهُ مِنْ نَشْرٍ لِأَشْرِطةِ الفِيدِيُو، إلخ.

هَكَذا يُنْشِئُ الفَيْسبُوك عالَمًا مُوازِيًا يَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ نَعْرِفُهُ فِي العالَمِ الواقِعِيِّ تَقْرِيبًا وَيَسَعُ، عَلى الخُصُوصِ، وَظائِفَ الكَلامِ كُلَّها. وَلَـكِنَّ كُلَّ

مُزاوَلةٍ لِوَظِيفةٍ مِنْ هَذِهِ الوَظائِفِ رَهْنٌ بِكَفاءةِ المُزاوِلِ وَبِأَهْلِيّةِ لُغَتِهِ عَلى الأَخَصّ. يَتَّسِعُ الفَيْسبُوك لِلْكَلامِ الحَمِيمِ وَلِلْمُجامَلاتِ اتِّساعَهُ لِلرَأْيِ المُعَلَّلِ أَوْ لِلْهَذْرِ أَيْضًا فِي مَسْأَلةٍ عامّةٍ. وَيَتَّسِعُ لِلشَتِيمةِ السُوقِيّةِ اتِّساعَهُ لِلشِعْرِ الرَقِيق. وَيَتَّسِعُ لِبَسْطِ المَعْرِفةِ فِي مَوْضُوعٍ عِلْمِيٍّ أَوْ تارِيخِيٍّ اتِّساعَهُ لِلتَحْرِيضِ العَصَبِيِّ فِي نِزاعٍ بَيْنَ مَواقِفَ أَوْ مَذاهِب. إلخ.، إلخ.

وَمَعْنى اتِّساعِهِ لِهَذِهِ الأَغْراضِ فِي الكَلامِ أَنَّهُ يَتَّسِعُ لِلُغاتِها. وَلا يَكْفِي التَمْيِيزُ بَيْنَ الفُصْحى وَالعامِّيّاتِ هَهُنا لاسْتِنْفادِ ما نَقْصِدُهُ بِـ«اللُغات». بَلْ يُمْكِنُ الوُصُولُ بِالتَفْرِيعِ إلى وَصْفِ المُسْتَوَياتِ اللُغَوِيّةِ وَمَعاجِمِ المُصْطَلَحاتِ أَو المَعاجِمِ الفَرْعِيّةِ وَالأَسالِيب. وَلَـكِنَّ هَذا التَفْرِيعَ لا يُخْتَصُّ بِاسْتِدْعائِهِ الكَلامُ الفَسْبُوكِيَّ إذْ هُوَ لا يَخْتَلِفُ نَوْعًا عَنْ ذاكَ الذِي تَسْتَدْعِيهِ المُقارَنةُ بَيْنَ النُصُوصِ فِي أَيِّ مَجْمُوعٍ يَتَّصِفُ بِالقَدْرِ المُناسِبِ مِن التَنَوُّع.

وَلا يُقْتَصَرُ اتِّساعُ الكَلامِ الفَسْبُوكِيِّ عَلى الوَظائِف. فَهُوَ يَتَّسِعُ لِلْمَراتِبِ كُلِّها أَيْضًا وَفِيهِ، بِمَعْنًى ما، حاكِمُون وَمَحْكُومُون. يَسَعُ المُثَقَّفِينَ، عَلى اخْتِلافِ التَخَصُّصاتِ، أَنْ يَعْرِضُوا تَفَوُّقَهُمْ: أَيْ تَبَوُّؤَ كَلامِهِمْ مَرْتَبَةً فِي حَقْلِهِ لا تَـتَيَسَّرُ لِلْكافّةِ مِنْ مُطالِعِيه. وَهُمْ قَدْ يُعْلِنُونَ هَذا التَفَوُّقَ بِإِنْشاءِ صَفَحاتٍ لَهُمْ بِصِفَتِهِمْ «وُجُوهًا عامّة». فَيُدْرِجُون عَلى هَذِهِ الصَفَحاتِ أَعْمالَهُمْ مِنْ مَقالاتٍ وَمُقابَلاتٍ وَما إلَيْها. وَلا رَيْبَ أَنَّ السِياسةَ تَحْتَلُّ هَهُنا مَكانةً مَرْمُوقةً وَمَعَها مُثَقَّفُوها. وَهِيَ تَسْتَدْرِجُ السِياسِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ إلى الشَبَكاتِ فَضْلًا عَن اسْتِدْراجِها المُثَقَّفِين. وَالسِياسِيُّونَ «وُجُوهٌ عامّةٌ» بِالسَلِيقةِ، إنْ جازَت العِبارة. وَلَـكِنَّ لِلْكُتّابِ وَالفَنّانِينَ قِسْطَهُمْ مِنْ هَذِهِ الصَفَحاتِ أَيْضًا. وَلا نَنْسَ الهَيْئاتِ أَو الجَماعاتِ عَلى اخْتِلافِها وَالقَضايا عَلى أَنْواعِها...

هَذا وَالسِياسةُ، بِما لَها مِنْ غَلَبةٍ هَهُنا، مَيْدانُ نِزاعٍ، عَلى جارِي العادةِ، تُلْحَظُ فِيهِ مُسْتَوَياتُ التَعْبِيرِ كُلُّها: مِن المَقالةِ الرَصِينةِ التِي يُعادُ نَشْرُها أَو التَصْرِيحِ «الرَسْمِيِّ» إلى الشَتائِمِ التِي يُمَثِّلُ حَقْلُ «التَعْلِيقاتِ»، فِي الفَيْسبُوك، مِضْمارَها الأَثِير. هَذِهِ الأَخِيرةُ تَسْتَوي أداةَ قَمْعٍ وَلَيْسَت، عَلى الأغْلَبِ، مُجَرَّدَ طَرِيقةٍ فِي إظْهارِ الاسْتِياء. هِيَ تُسْتَخْدَمُ هُنا، كَما فِي الطَبْعاتِ الإلِكْتِرُونِيّةِ مِن الصُحُفِ وَفِي القَنَواتِ الفَضائِيّةِ، عَلى كُلِّ حالٍ، سِلاحًا، لا لِلتَنْكِيلِ المَوْضِعِيِّ بِصاحِبِ الرَأْيِ وَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا لِحَمْلِهِ، إذا بَلَغَ مِنْهُ الغَثَيانُ كُلَّ مَبْلَغٍ، عَلى مُغادَرةِ الفَيْسبُوك بِرُمَّتِهِ أَوْ، فِي الأَقَلِّ، عَلى هَجْرِ الكَلامِ السِياسِيِّ فِي الشَبَكة.

جَدِيدٌ فِي دِيمُقْراطِيّةِ الكَلام

مَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، لا يُبْطِلُ التَفاوُتُ فِي القُدْرةِ الكَلامِيّةِ، إذْ يَظْهَرُ مَثَلًا فِي كُلٍّ مِنْ أَغْراضِ الفَسْبَكةِ التِي أَحْصَيْنا بَعْضَها، ما تُمَثِّلُهُ الشَبَكاتُ ــ وَالفَيْسبُوك مِنْها عَلى الأَخَصِّ ــ مِنْ فُرَصِ تَحَقُّقٍ لإمْكانِ المُساواةِ الدِيمُقْراطِيّة. فَإنَّ نَشْرَ الرَأْيِ، أَوْ ما جَرى مَجْراهُ مِنْ مَوادَّ، عَلى الفَيْسبُوك يَضَعُهُ، عَلى الفَوْرِ، فِي مَهَبِّ أَحْكامٍ يَسَعُ مَنْ يَطَّلِعُونَ عَلَيْهِ أَنْ يُدْلُوا بِها. يَتَحَكَّمُ صاحِبُ المَنْشُورِ، إلى حَدٍّ، بِحُدُودِ الجُمْهُورِ الذِي يَتَوجَّهُ إلَيْهِ مَنْشُورُهُ، وَقَدْ سَبَقَت الإشارةُ إلى ذَلِكَ. وَلَـكِنَّ اخْتِيارَ صاحِبِ المَنْشُورِ، مِنْ جِهةٍ، وَحُدُودَ تَحَكُّمِهِ، مِن الجِهَةِ الأُخْرى، يَجْعَلانِ لِلْمَنْشُورِ، مُقْتَرِنَيْنِ، شَيْئًا قَلِيلًا أَوْ كَـثِيرًا مِنْ نَكْهةِ المُغامَرة. فيُقْدِمُ عَلى التَعْلِيقِ أَحْيانًا مَنْ هُمْ أَقْرانٌ لِصاحِبِهِ وَقَدْ يُقْدِم عَلَيْهِ أَيْضًا مَنْ هُمْ أَقَلُّ دُرْبةً فِي حَقْلِهِ وَقَدْ يُجاوِزُ تَعْلِيقُهُمْ حَدَّ النَقْدِ إلى حَدِّ الأَذِيّة. هَذا يَفْتَرِضُ، أيًّا يَكُنْ مَصِيرُ

المُجادَلةِ التِي تُفْتَـتَحُ، تَحَصُّلَ نَوْعٍ مِن المُساواةِ المَبْدَئيّةِ بَيْنَ المُشارِكِينَ فِيها كافّةً تُتِيحُهُ الشَبَكة.

يَبْقى أَنَّ ما يُمَيِّزُ الفَيْسبُوك لِجِهَةِ اللُغةِ، وَمَعَهُ ما جَرى مَجْراهُ مِن الشَبَكاتِ، إنَّما هُوَ أَمْرانِ: (١) اعْتِمادُ العامِّيّةِ لُغةً مَكْتُوبةً عَلى نِطاقٍ يَجْعَلُهُ اتِّساعُهُ واقِعةً جَسِيمةً فِي تَطَوُّرِ العَلاقةِ بَيْنَ الفُصْحى وَالمَحْكِيّات. (٢) اعْتِمادُ الفُصْحى، عَلى نِطاقٍ أَضْيَقَ بِكَـثِيرٍ مِنْ ذاكَ المُتاحِ لِلْعامِّيّاتِ، وَلَـكِنَّهُ جَدِيرٌ جِدًّا بِالاعْتِبارِ، لُغةً لِأَنْواعٍ مِن الحِوارِ الفَوْرِيّ كانَتْ تُخْتَصُّ بِها العامِّيّات فِي الأَعَمِّ الأَغْلَب.

تَطْغى العامِّيّاتُ عَلى مُحْتَوَياتِ الفَيْسبُوك الكَلامِيّةِ وَتَحْمِلُ إلى هَذِهِ المُحْتَوَياتِ مُشْكِلاتِها المَأْلُوفة. تُورِثُ العامِّيّاتُ أَوَّلًا مَوْقِفَ إهْمالٍ لِسَلامةِ العِبارةِ شَكْلًا وَمَضْمُونًا. فيُعْرِضُ المُتَكَلِّمُ، مَثَلًا، عَنْ تَصْحِيحِ الخَطَإ الطِباعِيِّ إذا وَقَعَ فِيهِ ما لَمْ يَجِدْ لذَلِكَ ضَرُورةً مِنْ قَبِيلِ تَجْنِيبِ القارِئِ سُوءَ الفَهْمِ أَوْ عَدَمَه. وَيَكْثُرُ التَرَدُّدُ فِي كِتابةِ اللَفْظِ الواحِد. وَالسَبَبُ الأَوَّلُ لِلتَرَدُّدِ ما يُمَثِّلُهُ الأَصْلُ الفَصِيحُ لِلَّفْظِ مِنْ إغْراءٍ بِاعْتِمادِهِ عَلى الرُغْمِ مِن اخْتِلافِ النُطْقِ بِهِ بِالعامِّيّة. يَنْقادُ الكاتِبُ إلى هَذا الإغْراءِ، فِي العادةِ، حِينَ يَكُونُ الأَصْلُ الفَصِيحُ قَرِيبًا نَوْعًا... وَلا يَنْقادُ إلَيْهِ حِينَ يَكُونُ هَذا اللَفْظُ بَعِيدًا أَوْ غَيْرَ مَوْجُود. فَيَجُرُّ هَذا التَبايُنُ بَيْنَ قاعِدَتَيْنِ إلى مُعامَلةٍ مُتَبايِنةٍ لِلْحَرْفِ الواحِدِ فِي النَصِّ الواحِدِ تَبَعًا لِاعْتِمادِ الأَصْلِ الفَصِيحِ أَو اللَفْظِ العامِّيّ. فَتَـكْتُبُ مَثَلًا «تْقِيلْ» إذا كُنْتَ تَصِفُ، بِعامِّيّةِ بِلادِ الشامِ، طَرْدًا عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِلَه. هَذا فِيما يَكْتُبُ الشاعِرُ مُحَمَّد العَبْد الله «تَقُولُ: ابْتَعِدْ يا سَئِيلْ» عَلى لِسانِ صَبِيّةٍ أرادَت وَصْفَ المُتَحرِّشِ بِها بِثِقَلِ الظِلّ. وَاللَفْظانِ فِي الأَصْلِ لَفْظٌ واحِد.

هَذا وَلا تَعْرِفُ العامِّيّةُ المِصْرِيّةُ هَذا الازْدِواج. فَيَسَعُ رَبَّ العائِلةِ أن يَقُول: «أَنا حِمْلي تْقِيلْ» وَيَسَعُ سُعاد حُسْنِي أن تَقُولَ: «يا... يا وادْ يا تْقِيلْ»... وَقَدْ نَكْتُب: «تْئيلْ» فِي الحالَتَيْن. مَعْلُومٌ، مِنْ بَعْدُ، أَنَّ تَبْدِيلَ القافِ هَمْزةً لا يَضْطَرِدُ فِي العامِّيّات. إذ اللَهَجاتُ (وَكذَلِكَ فُرُوعُ اللَهْجةِ الواحِدةِ) تَـتَغايَرُ فِي هَذا الصَدَدِ، وَبَعْضُها يُقَرِّبُ القافَ مِن الجِيمِ المِصْرِيّة...

مِثالٌ آخَرُ: لكَ أَنْ تَـكْتُبَ «وِشّ» أَوْ «وِجّ» أَوْ «وِجْهْ» مُنْصاعًا لا إلى ما يُمْلِيهِ النُطْقُ، بِالضَرُورةِ، بَلْ إلى دَرَجةِ مُقاوَمَتِكَ لِتَرْكِ مَرْجِعيّةِ الفُصْحى جانِبًا. لا بُغْيةَ لَنا هُنا، أَيًّا يَكُن الأَمْرُ، فِي اسْتِقْصاءِ وُجُوهِ الخَلَلِ الإمْلائِيِّ فِي الكِتابةِ العامِّيّة. فَهِيَ كَـثِيرةٌ وَلا تُخْتَصُّ بِها نُصُوصُ الفَيْسبُوك أَوْ غَيْرِهِ مِنْ شَبَكاتِ التَواصُلِ الاجْتِماعِيّ. نَكْتَفِي بِالتَشْدِيدِ عَلى أَنَّ تَعَدُّدَ اللَهَجاتِ الفَرْعِيّةِ فِي العامِّيّةِ الواحِدةِ ــ فَضْلًا عَنْ تَعَدُّدِ العامِّيّاتِ، بِطَبِيعةِ الحالِ ــ يَجِبُ أَنْ يُبْرَزَ إلى جانِبِ إغْراءِ الإمْلاءِ الفَصِيح، عَلى أَنَّهُ سَبَبٌ رَئِيسٌ لِما نُلاحِظُهُ مِنْ تَرَدُّدٍ وَتَعَدُّدٍ فِي إمْلاءِ اللَفْظةِ الواحِدة.

هَذا وَلا يُقْتَصَرُ التَراخِي فِي التَعْبِيرِ بِالعامِّيّةِ كِتابةً عَلى الإمْلاء. بَلْ يَتَرَدَّدَ المُتَكَلِّمُ الواحِدُ ــ فَضْلًا عَن اخْتِلافِ اللَهَجاتِ ــ فِي أَداءِ المُرَكَّبِ الواحِد. فأَنْتَ تارةً تَـكْتُبُ «عَمْ يْقُولْ» وَطَوْرًا «عَمْ بِيقُولْ» وَأَحْيانًا «عَبِيقُولْ». وَأَنْتَ تَضَعُ الشَيْءَ الواحِدَ أَحْيانًا «عَالطاوْلة» وَأَحْيانًا «عَلى الطاوْلة». وَهَذا إلى كَوْنِ الصُورةِ المَكْتُوبةِ لِلطاوِلةِ لا تَثْبُتُ عَلى حال. فَهِيَ قَدْ تَسْتَبْقِي تاءَها المَرْبُوطةَ وَقَدْ تُبَدِّلُها هاءً ساكِنةً وَقَدْ تَقْلِبُها ياءً إذا عَنَّ لِزَجّالٍ لُبْنانِيٍّ أَنْ يَقُولَ:

يا حِلْوة الحِلْوين أُوعِي تْحاوْلِي تْشِيلِي صَحْن الفْرِيك عَنْ هالطاوْلِي

هَذا إلى اسْتِعادةِ «الطاوْلة» تاءَها إذا أُضِيفَتْ إلى اسْمٍ أَوْ ضَمِيرٍ كَما فِي «طاوِلْتَكْ» أَوْ فِي «طاوْلِةْ سُفْرَة» وَإلى تَغَيُّرِ وَضْعِ الحَرْفِ السابِقِ لِلتاءِ مِن الكَسْرِ عِنْدَ الإضافةِ إلى اسْمٍ إلى التَسْكِينِ عِنْدَ الإضافةِ إلى ضَمِيرٍ مُذَكَّرٍ مُفْرَدٍ، وَهُوَ تَحَوُّلٌ لا عَهْدَ بِمِثْلِهِ، فِي الفُصْحى، لِلْأَسْماءِ المُؤَنَّثةِ بِالتاءِ... إلخ.

هَذا كُلُّهُ يُظْهِرُ التَعْقِيدَ الذِي تُفاجِئُنا بِهِ العامِّيّةُ حالَما نُحاوِلُ تَقْعِيدًا لِحالَةٍ مِنْ حالاتِها. وَهُوَ تَعْقِيدٌ لا يُقْتَصَرُ عَلى الإمْلاءِ بَلْ نَراهُ، عِنْدَ التَقَصِّي، مُمْتَدًّا إلى نَحْوِ العامِّيّةِ وَصَرْفِها... وَلَـكِنَّ هَذا حَدِيثٌ يَطُول. ولَيْسَ يَعْنِينا مِنْهُ هُنا سِوى أَنَّ امْتِيازَ العامِّيّةِ عَلى الفُصْحى لَيْسَ فِي يُسْرٍ تَـتَّسِمُ بِهِ قَواعِدُها. وَإنَّما هُوَ فِي اسْتِوائِها لُغَةً لِلْحَياةِ مُضْطَرّةً إلى الاسْتِجابةِ لِحاجاتِ الحَياةِ فِي كُلِّ لَحْظة. وَلا غَرْوَ أَنَّها لا تُدَرَّسُ فِي المَدارِس. وَهِيَ لَوْ دُرِّسَتْ لاحْتاجَتْ إلى التَقْعِيدِ وَلَأَظْهَرَ تَقْعِيدُها ما فِي قَواعِدِها مِنْ تَعْقِيدٍ وَتَرَدُّدٍ يَجْعَلانِ دِراسَتَها أَعْسَرَ مِنْ دِراسةِ الفُصْحى. فَقَدْ خَضَعَتْ هَذِهِ الأَخِيرةُ لِتَطْبيعٍ أَمْلَتْهُ سِيادتُها المُعَمَّرةُ عَلى الكَلامِ المَكْتُوبِ وَلِتَوْحِيدٍ وَمُجانَسةٍ مُتَمادِيَيْن. هَذا كُلُّهُ لَمْ تَخْضَعْ لِمِثْلِهِ العامِّيّاتُ مِنْ قَبْلُ. فلَبِثَ فِي قَواعِدِها ما لَبِثَ مِنْ صُنُوفِ الاضْطِراب. وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّ الصُعُوبةَ تَدْخُلُ إلى قَواعِدِ العامِّيّةِ مِنْ أَبْوابٍ (وَهِيَ، عَلى الخُصُوصِ، أَبْوابُ النُطْقِ وَالإمْلاءِ وَالتَرْكِيب) هِيَ غَيْرُ تِلْكَ التِي يُداخِلُ العُسْرُ منها قَواعِدَ الفُصْحى (الإعْرابِ، تَعْيينِ الوَزْنِ الصَرْفِيِّ، عَيْنِ الفِعْل...) وَإنَّما تَخْفى مُشْكِلاتُ تَعْلِيمِ العامِّيّاتِ لِأَنَّها إنَّما تُتَعَلَّمُ بِالمُزاوَلةِ اليَوْمِيّة. وَهَذِهِ كَفِيلةٌ بِتَعْلِيمِ المُحْتاجِينَ أَيَّةَ لُغةٍ بِقَطْعِ النَظَرِ عَنْ دَرَجةِ الصُعُوبةِ فِي قَواعِدِها.

وَإذْ تُلزِمُ الشَبَكاتُ عامِّيّاتِنا بِالاسْتِواءِ لُغاتٍ مَكْتُوبةً تُعَرِّضُها، عَلى الأَرْجَحِ،

لِعَمَلِ تَطْبيعٍ وَتَقْعِيدٍ مُتَدَرِّجَيْنِ تَفْرِضُهُما الكِتابة. وَيُفْتَرَضُ أَنْ يُفْضِيَ هَذا العَمَلُ إلى تَوْحِيدِ القاعِدَةِ المُتَعَلِّقةِ بِكُلِّ حالةٍ مِنْ حالاتِ الاسْتِعْمالِ اللُّغَوِيِّ، عَلى اخْتِلافِ صُعْدانِه. وَيُفْتَرَضُ أَنْ يُفْضِيَ العَمَلُ نَفْسُهُ إلى أَنْواعٍ مِن التَقْرِيبِ بَيْنَ العامِّيّاتِ المُخْتَلِفةِ يُزَكِّيها أَيْضًا ما تُتِيحُهُ الشَبَكاتُ مِنْ فُرَصٍ لِما يَسَعُنا أَنْ نُسَمِّيهِ «التَعارُفَ» بَيْنَ العامِّيّات. وَهَذا تَعارُفٌ كانَت السِينَما وَالإذاعةُ وَالتَلْفَزةُ قَدْ أتاحَتْ أَنْواعًا سَلْبِيّةً مِنْه. فَكانَتْ إحْدى العامِّيّاتِ تَحْتَلُّ فِيهِ مَسْرَحَ الفِعْلِ فِيما كانَت الأُخْرَياتُ تُلْزَمُ بِالاسْتِماعِ أَوْ بِالتَفَرُّج. هَذا فِيما تَتَيَسَّرُ فِي الشَبَكاتِ أَنْواعٌ مِن التَفاعُلِ الحِوارِيِّ تَتَّسِمُ بِقَدْرٍ مِن التَكافُؤِ أَوْ بِآخَر. وَكانَت الفُصْحى، بِلَهَجاتِها المُخْتَلِفةِ (فَضْلًا عَمّا أَشَرْنا إلَيْهِ بِصَدَد قَواعِدِها) قَدْ تَعَرَّضَتْ، فِي ما مَضى، تَحْتَ وَطْأَةِ الكِتابةِ وَضَرُوراتِها أَيْضًا، لِما يُشْبِهُ ما نُنَوِّه بِهِ، بِصَدَد العامِّيّاتِ، مِنْ تَطْبِيعٍ وَتَوْحِيد. فَقَدْ كانَت الفُصْحى قَدْ اعْتُمِدَتْ لُغَةً لِدِين. وَكانَ هَذا الدِينُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، كِتابًا نَشَأَتْ مِنْهُ كُتُب.

الفَيْسبُوك بَيْنَ تَرَدُّدِ العامِّيّاتِ وَالتَرَدُّدِ بَيْنَها

حالةٌ أُخْرى تُكْمِلُ، بَعْدَ هَذا الاسْتِطْرادِ، ما كُنّا بِصَدَدِهِ مِنْ تَرَدُّدٍ إمْلائِيٍّ لا يَزالُ يَطْبَعُ العامِّيّاتِ: يَعُودُ إلَيْكَ أَنْ تَكْتُبَ «رَفَعْتُو» بِواوٍ فِي آخِرِها مُتَقَيِّدًا بِلَفْظِها العامِّيِّ أَوْ أَنْ تَحْتَفِظَ بِالهاءِ فِي آخِرِها مُلْتَزِمًا إمْلاءَها الفَصِيحَ تارِكًا لِقارِئِكَ أَنْ يُحَوِّلَ نُطْقَهُ بِها بِمُقْتَضى السِياقِ العامِّيّ. هَذا تَرَدُّدٌ يَتَجاوَزُ المُفْرَداتِ التِي عَرَّجْنا عَلى حالتِها إلى المُرَكَّبات. وَأَمْثِلَتُهُ كَثِيرةٌ أَيْضًا فِي العامِّيّاتِ وَلا تُخْتَصُّ بِهِ نُصُوصُ الشَبَكاتِ الاجْتِماعِيّةِ بِطَبِيعةِ الحال. فَإذا نَحْنُ أَضَفْنا إلى

تَراخِي القَواعِدِ كُلِّها (لا قَواعِدِ الإمْلاءِ وَحْدَها) فِي كُلٍّ مِن العامِّيّاتِ ما يُوجَدُ بَيْنَ العامِّيّاتِ المُخْتَلِفةِ مِنْ فَوارِقَ جَسِيمةٍ، عَلى كُلِّ صَعيدٍ، (بِما فِي ذَلِكَ الفَوارِقُ بَيْنَ اللَهَجاتِ الفَرْعِيّةِ فِي كُلٍّ مِن العامِّيّاتِ) اكْتَمَلَتْ صُورةُ الكِتابةِ بِالعامِّيّاتِ عَلى الشَبَكاتِ فِي المَرْحَلةِ التِي لا تَزالُ فِيها، حَتّى تارِيخِهِ: وَهِيَ مَرْحَلةٌ يَجِبُ اعْتِبارُها مَرْحَلةَ انْطِلاقٍ لا يُصادِرُ احْتِمالاتِ المُسْتَقْبَل.

لا يُصْلِحُ الفَيْسبُوكُ وَما جَرى مَجْراهُ إذَنْ مِنْ قابِلِيّةِ العامِّيّاتِ لِلاسْتِواءِ لُغاتٍ مَكْتُوبة. لا يُصْلِحُها عَلى الفَوْرِ وَلا بِالضَرورة. وَإنَّما هِيَ تَصِلُ إلى الشَبَكاتِ وَمَعَها وُجُوهُ اللَبْسِ وَالخَلَلِ المُلازِمةُ لَها حِينَ يُؤَدّى الكَلامُ بِها كِتابةً. وَلَـكِنْ لا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَبْعِدَ ما أَشَرْنا إلى احْتِمالِهِ مِنْ إصْلاحٍ مُتَدَرِّجٍ لِلْكِتابةِ بِالعامِّيّةِ يَأْتِي بِهِ طُولُ المُمارَسةِ وَكَثافَتُها. فَإنَّ نَوْعًا مِن التَواطُؤِ يَفْرِضُ نَفْسَه عَلى الأَفْرِقاءِ المُتَباعِدِينَ فِي تَبادُلِ الكَلامِ المَكْتُوبِ يَنْتَهِي شَيْئًا فَشَيْئًا إلى تَقَبُّلِهِمْ قَواعِدَ ضِمْنِيّةً مُشْتَرَكَةً لِبَعْضِ ما يَعْرِضُ فِي كَلامِهِمْ مِنْ حالاتٍ إنْ لَمْ يَكُنْ لِكُلِّه.

إلى هَذا عَزَّزَ الاسْتِخْدامُ الحِوارِيُّ لِلْعامِّيّاتِ عَلى الشَبَكاتِ، أَيْ ما كانَ مِنْهُ دَرْدَشةً أَوْ تَعْليقاتٍ، عَلى الخُصُوصِ، شَهِيّةَ العامِّيّاتِ لِتَبَنِّي الأَلْفاظِ الأَجْنَبِيّة. وَقَبْلَ ذَلِكَ، شاعَ، عَلى الشاشاتِ، مَنْظَرُ النُصُوصِ العَرَبِيّةِ القَصِيرةِ مَطْبوعةً بِالحُرُوفِ اللاتِينِيّة. وَقَدْ زِيدَتْ أَعْدادٌ مِنْ جَدْوَلِ الأَعْدادِ المَعْرُوفِ بِالعَرَبِيِّ إلى الجَدْوَلِ الأَلِفْبائِيِّ اللاتِينِيِّ لِيُؤَدّى بِكُلٍّ مِنْها حَرْفٌ عَرَبِيٌّ هُوَ أَقْرَبُ الحُرُوفِ شَبَهًا بِه. فاعْتُبِرَ العَدَدُ ٢ هَمْزةً والعَدَدُ ٣ عَيْنًا والعَدَدُ ٥ خاءً والعَدَدُ ٧ حاءً والعَدَدُ ٨ غَيْنًا. وَلَمْ تُذَلِّلْ هَذِهِ الاسْتِعارةُ جَمِيعَ الصُعُوباتِ الناشئةِ مِنْ أَداءِ الكَلامِ العَرَبِيِّ كِتابةً بِالأَلِفْباءِ اللاتِينِيّ. وَلَـكِنَّها ذَلَّلَتْ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الصُعُوباتِ وَبَيْنَها أَكْثَرَها إثارةً لِلَّبْس.

نُسِبَ إلى هَذِهِ الطَرِيقة فِي الكِتابةِ خَطَرٌ لا تَنْطَوِي عَلَيْه. فَهِيَ، فِي أَقَلِّ الحالاتِ عَدَدًا، عَلى الأَرْجَحِ، مَلْجَأٌ لِمَنْ لا يُحْسِنُونَ الكِتابةَ بِالعَرَبِيّةِ وَيَعْتَمِدُونَ فِي المُشافَهةِ لُغَةً أَجْنَبِيّةً أَوْ خَلِيطًا مِن العَرَبِيّةِ وَلُغةٍ أُخْرى. وَلَـكِنَّ مُنْطَلَقَ هَذِهِ الطَرِيقةِ كانَ الافْتِقارَ عَلى الهَواتِفِ (وعَلى الحَواسِيبِ أَحْيانًا) إلى لَوْحةِ مَفاتيحَ عَرَبِيّة. وَما يَزالُ هَذا الأَمْرُ وارِدًا فِي حالةِ الحَواسِيبِ عِنْدَ المُقِيمِينَ فِي بِلادٍ غَيْرِ عَرَبِيّةٍ، عَلى الخُصُوص. لِذا يَصِحُّ اعْتِبارُ الظاهِرةِ كُلِّها هامِشِيّةً فَلا يَنْبَغِي لَها أَنْ تَصْرِفَ الأَنْظارَ عَن الأَمْرِ الرَئِيسِ وَهُوَ اتِّخاذُ العامِّيّةِ لُغَةَ كِتابةٍ وَلا عَن الشُيُوعِ الذَرِيعِ لأَخْطاءِ الإمْلاءِ سَواءٌ أَكانَت الكِتابةُ بِعامِّيّةٍ مِن العامِّيّاتِ أَمْ بِالفُصْحى.

تَبْقى فِي صَدَدِ الكِتابةِ العَرَبِيّةِ بِالحُرُوفِ اللاتِينِيّةِ مُلاحَظَتانِ أَوْ عِبْرَتانِ نُسَجِّلُهُما: أُولاهُما أَنَّ الفَوارِقَ بَيْنَ العامِّيّاتِ تَلْبَثُ جَلِيَّةً فَلا تَنْحُو هَذِهِ الطَرِيقةُ نَحْوَ تَعْزِيزٍ ما لِلتَجانُسِ بَيْنَ العامِّيّات. وثانِيَتُهُما، وَهِيَ الأَهَمُّ، أَنَّ شَيْئًا مِن اعْتِيادِ النُصُوصِ المَكْتُوبةِ بِهَذِهِ الطَرِيقةِ يَجْعَلُ ضَبْطَ القِراءةِ، وَالفَهْمَ بِالتالِي، أَقْرَبَ إلى المُتَناوَلِ مِمّا هُوَ فِي حالةِ النُصُوصِ العَرَبِيّةِ المَكْتُوبةِ بِحُروفٍ عَرَبِيّةٍ غَيْرِ مُحَرَّكة. وَلَيْسَ فِي هَذا ما يُفاجِئُ إذْ هُوَ يَرُدُّنا إلى مُشْكِلةٍ مَعْرُوفةٍ هِيَ الناشِئةُ مِن الغِيابِ المَأْلُوفِ لِلصَوائِتِ القَصِيرةِ فِي الكَلامِ العَرَبِيِّ المَكْتُوب. فَإِنَّ هَذا الغِيابَ يَفْرِضُ عَلى القارِئِ أَنْ يُحْسِنَ فَهْمَ الجُمْلةِ أَو العِبارةِ لِيَضْمَنَ إحْسانَ لَفْظِهِ لِلْمُفْرَدات. ثُمَّ إنَّ الغِيابَ نَفْسَهُ يَـتْـرُكُ «اكْتِشافَ» حَرَكاتِ الإعْرابِ وَالمَوازِينِ الصَرْفِيّةِ لِلْمُفْرَداتِ عَلى هِمّةِ القارِئِ. فَيُخْطِئُ هَذا الأَخِيرُ أَوْ يُصِيبُ ما شاءَتْ له مَوازِينُ مَعْرِفَتِهِ وَجَهْلِهِ أَنْ يُخْطِئَ وَيُصِيب. هَذا فِيما تَضْمَنُ الكِتابةُ

بِالحُرُوفِ اللاتِينِيّةِ أن يُحْسِنَ القارِئُ القِراءةَ إذا كانَ الكاتِبُ قَدْ أَحْسَنَ الكِتابة ...

لا تُفْضِي هَذِهِ المُلاحَظاتُ بِنا إلى إحْياءٍ ما لِلدَعْوَةِ المَعْلُومةِ إلى اعْتِمادِ الأَلِفْباءِ اللاتِينِيِّ فِي مَحَلِّ العَرَبِيّ. نَحْنُ بَعِيدُونَ جِدًّا عَن الأَخْذِ بِدَعْوةٍ تَنْتَهِي، فَضْلًا عَمّا تَسْتَثِيرُه مِن مَواجِدَ مُتَعَلِّقةٍ بِالهُوِيّةِ، إلى إعْدامِ تُراثٍ أَثْمَرَتْهُ المَطْبَعةُ العَرَبِيّةُ فِي نَحْوٍ من ثَلاثةِ قُرُون. وَلَـكِنَّنا نُزَكِّي اللُجُوءَ، فِي طِباعةِ الكُتُبِ وَالدَوْرِيّات، عَلى الخُصُوصِ، إلى نِظامٍ لِضَبْطِ المُفْرَداتِ بِالشَكْلِ ضَبْطًا قَدْ يَكُونُ تامًّا وَقَدْ يُتَّبَعُ فِيهِ نِظامٌ مُخْتَصَرٌ يَقْصُرُ هَمَّهُ عَلى تَدارُكِ اللَبْسِ أَوْ الخَطَأ حَيْثُ يُحْتَمَلُ الوُقُوعُ فِيهِ. فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ هَذا الإجْراءِ ـ وَهُوَ مُتَّبَعٌ فِي حالَةِ القُرْآنِ وَفِي حالاتٍ أُخْرى قَدِيمةٍ وَحَديثةِ العَهْدِ ـ أَنْ يَقْطَعَ الطَرِيقَ عَلى الخَطَإِ فِي القِراءةِ (وَإنْ يَكُنْ هَذا مَشْرُوطًا بِاسْتِبْعادِ الخَطَإِ فِي تَحْرِيكِ النَصِّ المَطْبُوع).

وَأَمّا الطَرِيقةُ المُعْتَمَدةُ، عَلى الأَعَمِّ، فِي الطِباعةِ العَرَبِيّةِ، أَيْ الاقْتِصارُ مِن الأَلْفاظِ عَلى الحُرُوفِ الصَحِيحةِ وَحُرُوفِ المَدِّ أَو العِلّةِ وَإغْفالُ الحَرَكاتِ التِي تُمَثِّلُ الصَوائِتَ القَصِيرةَ المُعَيِّنةَ لِبناءِ المُفْرَدةِ وَلإعْرابِها، فَهِيَ تُشْبِهُ شَبَهًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُتَّخَذَ مَوْضُوعَ تَأَمُّلٍ، طَرِيقةَ «الاخْتِزالِ» (السْتينوغْرافِيا) بِصِيغَتِها المُعْتَمَدةِ فِي اللُغاتِ اللاتِينِيّةِ وَالأَنْكِلُوسَكْسُونِيّة. يَسْتَحِقُّ هَذا الشَبَهُ تَأَمُّلَنا لِأَنَّهُ يَدِلُّ عَلى ما يَعْتَوِرُ نُصُوصَنا المَطْبُوعةَ مِنْ بُعْدٍ عَنْ رِعايةِ حُقُوقِ العامّةِ فِي الفَهْمِ وَتَوَجُّهٍ إلى جُمْهُورٍ ضَيِّقٍ مِن المُخْتَصِّينَ هُوَ وَحْدَهُ القادِرُ عَلى القِراءةِ الصَحِيحةِ لِلنَصِّ المُخْتَزَل!

وَأَمّا ما نَقْتَرِحُهُ مِنْ عَوْدَةٍ إلى ضَبْطِ الكَلامِ المَطْبُوعِ بِالشَكْلِ، بِمُقْتَضَى نِظامٍ مُناسِبٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ نِظامٍ واحِدٍ، فَبَيْنَ مَزاياهُ أَنَّهُ يُعَزِّزُ فُرَصَ التَعَلُّمِ المُسْتَمِرِّ لِنَحْوِ العَرَبِيّةِ وَصَرْفِها وَإمْلائِها إذْ يُحَوِّلُ القِراءةَ إلى مَدْرَسةٍ دائِمةٍ لِتَعْليمِ هَذا كُلِّه. وَهُوَ يُبْعِدُ، مِنْ ثَمّ، تُهْمةَ التَعْقِيدِ المُفْرِطِ عَنْ قَواعِدِ العَرَبِيّة. إذْ يَنْجُمُ مُعْظَمُ الشُعُورِ بِهَذا التَعْقِيدِ ــ فِي ما نَرى ــ مِن اقْتِصارِ السُبُلِ المُتاحةِ لِتَعَلُّمِ القَواعِدِ عَلى حِفْظِ هَذِهِ الأَخِيرة. هَذا فِيما يَبْقى الأَوْلى بِأَنْ يُتَّبَعَ هُوَ ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ تَعلُّمٍ لِلْقَواعِدِ، عَلى اخْتِلافِ فُرُوعِها، بِتَعَوُّدِها فِي النُصُوصِ المَسْمُوعةِ أَو المَقْرُوءةِ وَلَيْسَ بِحِفْظِها مُجَرَّدةً بِالضَرُورة.

لا يَغِيبُ هَمُّ ضَبْطِ القِراءةِ هَذا غِيابًا كُلِّيًّا عَنْ نَشْرِيّاتِ الفَسابِكة... وَإنْ يَكُن الغالِبُ هَهُنا هُوَ ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ تَراخٍ فِي التَصْحِيحِ وَجُنُوحٍ إلى تَرْكِ ما يَجْرِي بِهِ القَلَمُ (أَوْ مَفاتِيحُ اللَوْحةِ، بِالأَحْرى) عَلى حالِهِ الخام. البَعْضُ النادِرُ يَضْبِطُ بِالشَكْلِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا... وَقَدْ لا يُبْدِي هَذا البَعْضُ الحِرْصَ نَفْسَه عَلى الضَبْطِ فِي جَمِيعِ الحالات. وَالضَبْطُ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الحُضُورِ المُتَزامِنِ ــ بَل المُخْتَلِطِ ــ عَلى الشَبَكةِ لِأَحْوالِ اللُغَةِ جَمِيعًا: مِنْ فَصِيحٍ وَعامِّيٍّ، مِنْ مُرْهَفٍ وَسُوقِيٍّ، مِنْ صَوابٍ وخَطَإٍ، إلخ.، إلخ.

فِي جَذْرِ الاقْتِراض...

يَبْقى أَنَّ ما هُوَ أَهَمُّ بِكَثِيرٍ مِن الجُنُوحِ الأَقَلِّيِّ إلى كِتابةِ النَشْرِيّاتِ العَرَبِيّةِ عَلى الشَبَكةِ بِالحُرُوفِ اللاتِينِيّةِ ــ بَلْ وَمِن اسْتِخْدامِ لُغةٍ أَجْنَبِيّةٍ فِي النَشْرِيّاتِ هِيَ الإنْكِلِيزِيّةُ فِي الأَغْلَبِ ــ هُوَ الشَهِيّةُ لِلاقْتِراضِ مِن اللُغاتِ

الأَجْنَبِيّةِ وَهِيَ تَـتَفوَّقُ كَـثيرًا فِي العامِّيّاتِ عَلى ما هِيَ عَلَيْهِ فِي الفُصْحى. جَمَعَ نادِر سِراج، فِي كِتابِ حَديثِ الصُدُورِ، كَـثيرًا مِنْ هَذِهِ المُقْتَرَضاتِ وَصَنَّفَها فِي مَجامِيعَ بِحَسَبِ ما تَنْتَمِي إِلَيْهِ مِنْ أَبْوابٍ أَوْ فِئاتٍ مَوْضُوعِيّة. وَهَذا الجَمْعُ وَالتَصْنِيفُ حَصِيلةُ جُهْدٍ مَدِيدٍ بَذَلَهُ المُؤلِّفُ مُسْتَجِيبًا بِذَلِكَ لِحاجَتِنا المُؤَكَّدةِ إِلى ضَبْطِ المُعْطَياتِ التِي لا يُسْتَغْنى عَنْها حِينَ يُرادُ تَعَرُّفُ أَحْوالِ العَرَبِيّةِ المُعاصِرةِ فِي واقِعِ الاسْتِعْمال.

عَلى أَنَّ هَذا الباحِثَ جانَبَ، فِي ما يَبْدُو لَنا، أَصْلَ المُشْكِلةِ الفِعْلِيَّ، حِينَ جَعَلَ مِن الاقْتِراضِ، بِالدَرَجةِ الأُولى، سِمةً مِنْ سِماتِ ما سَمّاهُ «لُغةَ الشَبابِ» وَنَسَبَ إِقْبالَ الشَبابِ عَلَيْه، بِالدَرَجةِ الأُولى أَيْضًا، إِلى مَيْلٍ افْتَرَضَ وُجُودَهُ عِنْدَ الشَبابِ إِلى «الحَضارةِ الغَرْبِيّة». وَذاكَ أَنَّنا إِذا أَمْعَنّا النَظَرَ فِي لَوائِحِ المُقْتَرَضاتِ التِي يُثْبِتُها سِراج نَفْسُهُ نَجِدُ أَنَّ ما يُمْكِنُ نِسْبَتُهُ مِنْها إِلى الشَبابِ حَصْرًا لا يُمَثِّلُ سِوى هامِشٍ ضَيِّقٍ مِن المَجْمُوع. وَتَبْدُو مَوْضِعَ شَكٍّ أَيْضًا نِسْبةُ هَذا الهامِشِ بِمُعْظَمِهِ إِلى «مَيْلٍ» يُلاحَظُ عِنْد الشَبابِ إِلى الحَضارةِ الغَرْبِيّة... بَلْ تَجْدُرُ الإِشارةُ إِلى أَنَّ مَنْ يَتَّخِذُ اللُغَةَ الإِنْكلِيزِيّةَ أَو الفَرَنْسِيّةَ مَثَلًا لُغةَ مُراسَلةٍ أَوْ مَرْكَبًا لِما يَنْشُرُهُ عَلى الشَبَكاتِ يَسْتَخْدِمُ اللُغَةَ نَفْسَها أَيْضًا، فِي الأَغْلَبِ، لُغةَ عَمَلٍ أَوْ مَرْكَبًا لِكَلامِ الحَياةِ اليَوْمِيّةِ عُمُومًا وَهَذا بِقَطْعِ النَظَرِ عَنْ فِئَتِهِ العُمْرِيّة. فَلا يُوجَدُ ـ فِي ما نُرَجِّحُ ـ ما يُعَزِّزُ افْتِراضَ دَوْرٍ ذِي خَطَرٍ لِشَبَكاتِ التَواصُلِ فِي تَعْزِيزِ هَذا المَيْلِ عِنْدَ مَنْ لا يَكُونُ ظاهِرًا مِنْهُم فِي مَضامِيرَ أُخْرى.

حَقِيقةُ الأَمْرِ أَنَّ ظاهِرةَ الاقْتِراضِ أَوْسَعُ بِكَـثِيرٍ وَأَعْمَقُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ (كُلُّها أَوْ جُلُّها) فِي فِئةٍ عُمْرِيّة. حَقِيقةُ الأَمْرِ أَيْضًا أَنَّ العَلاقةَ التِي يَشِي بِها الاقْتِراضُ

لا يَسْتَنْفِدُها «مَيْلٌ» مِن المُيُولِ بَلْ هِيَ أَقْرَبُ إلى أَنْ تَـكُونَ نَوْعًا مِن الضَرُورةِ يَتَرَتَّبُ عَلى الإعْراضِ عَنْها (إذا افْتَرَضْنا إمْكانَهُ) أَضْرارٌ فادِحةٌ جِدًّا: أَضْرارٌ تُوشِكُ أَنْ تُزَلْزِلَ العَلاقةَ بِالعالَمِ المُعاصِرِ وَبِالحَياةِ فِيهِ مِنْ أَصْلِهِما. وَذاكَ أَنَّ الاقْتِراضَ يَتَناوَلُ جُمْلَةَ الأَلْفاظِ الدالّةِ عَلى ما يُسَمِّيهِ المُعْجَمِيّونَ المُعاصِرونَ «وَقائِعَ الحَضارة». وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَيَّنّا فِي مَقالةٍ قَدِيمةٍ كَيْفَ أَنَّ الدافِعَ الأَصْلِيَّ إلى التَوَسُّعِ فِي الاقْتِراضِ قَدْ أَصْبَحَ، فِي عَصْرِنا هَذا، كَوْنَ تَجْهِيزِ العالَمِ الذِي نُقِيمُ فِيهِ باتَ يَتَشَكَّلُ مِنْ أَشْياءَ جُلُّها وافِدٌ يَصِلُ إلَيْنا وَمَعَهُ اسْمُهُ فَلا تُبْدِي العامِّيّاتُ مُقاوَمةً تُذْكَرُ فِي مُواجَهةِ الاسْمِ الأَجْنَبِيِّ أَكانَ قابِلًا لِلتَعْرِيبِ المَضْبُوطِ أَيْ لِلرَدِّ إلى وَزْنٍ صَرْفِيٍّ عَرَبِيّ أَمْ لَمْ يَكُنْ. وَإنَّما تَـتَلَقَّفُهُ وَقَدْ تَعْمِدُ إلى تَطْوِيعِهِ قَلِيلًا أَوْ كَـثِيرًا لِتَقْرِيبِ لَفْظِهِ مِنْ نِظامِها الصَوْتِيِّ بِمِقْدارِ ما يَكُونُ ذَلِكَ لازِمًا لِتَيْسِيرِ نُطْقِ الاسْمِ عَلى الناطِقِينَ بِها. وَمِن السِماتِ التِي تُخالِفُ بِها العامِّيّاتُ الفُصْحى تَقَبُّلُها الْتِقاءَ الساكِنَيْنِ فِي المُفْرَدةِ وَبَدْءَ المُفْرَدةِ بِحَرْفٍ صَحِيحٍ ساكِنٍ. تَـتَقَبَّلُ العامِّيّاتُ هذين الأَمْرَينِ فِي الأَلْفاظِ العَرَبِيّةِ أَصْلًا رافِعةً بِذَلِكَ الحَظْرَ عَنْ أَلْفاظٍ أَجْنَبِيّةٍ يَتَحَقّقُ فِيها أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما. لا تُمانِعُ العامِّيّاتُ أَيْضًا فِي إضافةِ صُوَيْتاتٍ إلى اللائِحةِ العَرَبِيّةِ مِمّا يُوجَدُ فِي هَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِن اللُغاتِ الأُخْرى وَإنْ تَـكُنْ قَدْ تُحَوِّلُ الصُوَيْتَ الغَرِيبَ إلى آخَرَ مِنْ تَرْسانَتِها. هَذِهِ الطَواعِيةُ التِي لا تُبْدِي الفُصْحى مِثْلَها تُزَكِّي الإسْراعَ إلى اعْتِمادِ اللَفْظِ الأَجْنَبِيّ وَتَجْعَلُ المُقابِلَ الفَصِيحَ الذِي قَدْ يُقْتَرَحُ لَهُ يَصِلُ مُتَأَخِّرًا قَلِيلًا أَوْ كَـثِيرًا وَيَتَعَثَّرُ أَوْ يَكْبُو فِي دِفاعِهِ عَنْ لَياقَتِهِ وَضَرُورَتِه.

هَذا وَلا تَـتَلَقَّفُ العامِّيّاتُ مِنْ لُغاتِ المَنْشَإِ أَسْماءَ الأَشْياءِ المادِيّةِ التِي أَصْبَحَتْ تُمَثِّلُ التَجْهِيزَ الغالِبَ عَلى عالَمِنا وَحَسْبُ. هِيَ تَـتَلَقَّفُ تَبَعًا لِذَلِكَ

أَسْماءَ مُكَوِّناتِها وَتَـتَلَقَّفُ الأَفْعالَ المُعَيِّنة لوُجُوهِ اسْتِعْمالِها وصِيانَتِها أَوْ إصْلاحِها. إلى ذَلِكَ لا يُقْتَصَرُ الأَمْرُ عَلى الأَشْياءِ مِنْ قَبِيل «اللَمْبادِير» أَو «الرادْياتُور» أَوْ «الكُومْبْيُوتَر» وَ«السُوفْتْوِير» أَو «البِيتْزا» وَ«الهَمْبُورْغِر»... وَإنّما هُوَ يَتَعَدّى ذَلِكَ إلى المُعْجَمِ المُتَعَلِّقِ بِمُؤَسَّساتِ المُجْتَمَعِ عَلى اخْتِلافِها مِن الدَوْلةِ إلى الحِزْبِ وَمِن الجَمْعِيّةِ إلى العَشِيرةِ وَالعائِلة. لا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ المُؤَسَّساتِ (أَوْ جُلَّها، بِالأَحْرى) كانَ مَوْجُودًا أَوْ كانَ يُوجَدُ ما يُناظِرُهُ فِي مُجْتَمَعاتِنا قَبْلَ اتِّساعِ الأَثَرِ الغَرْبِيِّ إلى دَواخِلِ هَذِهِ المُجْتَمَعات. فَأَمْكَنَ أَنْ تُحْفَظَ لَها أَسْماؤُها أَوْ أَنْ تُوجَدَ مُقابِلاتٌ عَرَبِيّةٌ لَقِيَتْ قَبُولًا لِهَذِهِ الأَسْماء. مَعَ ذَلِكَ اسْتَقَرَّتْ فِي الاسْتِعْمالِ أَلْفاظٌ مِنْ قَبِيلِ «دِيمُقْراطِيّة» وَ«دِكْتاتُوريّة» وَ«بَرْلَمان» وَأَخَذَ يُقالُ حِزْبٌ «لِيبِرالِيّ» أو «فاشِيٌّ» وعائِلَةٌ «بُرْجُوازِيّةٌ»، إلخ.، إلخ. هَذا فِيما قُبِلَت «دَوْلةٌ» اسْمًا لِمُؤَسَّسةٍ أَصْبَحَتْ مُخْتَلِفةً عَمّا كانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ هَذا الاسْمُ فِي التارِيخِ الإِسْلامِيّ. وَاعْتُمِدَتْ «حِزْبٌ» وَ«جَمْعِيّةٌ» وَ«فَرِيقٌ» أَوْ «مُنْتَخَبٌ» وَ«أَمِينٌ عامٌّ» أَوْ «مُدِيرٌ»، إلخ.، لِمُسَمَّياتٍ كُلُّها جَدِيد. وَقُبِلَتْ أَوْصافٌ مِنْ قَبِيلِ «نَوَوِيّةٍ» وَ«إنْمائِيّةٍ» وَ«أَكْثَرِيٍّ»، وَهِيَ كُلُّها أَلْفاظٌ عَرَبِيّةٌ قابَلَتْ أُخْرى أَجْنَبِيّةً تَصِفُ العائِلَةَ والجَمْعِيّة والحِزْبَ تِباعًا.

وَما يُقالُ فِي المُؤَسَّساتِ يُقالُ فِي الأَنْظِمةِ الفِكْرِيّةِ التِي تَـتَوَلّى التَأْسِيسَ لَها وَخِدْمَتَها... أَوْ نَقْدَها والسَعْيَ إلى نَقْضِها أَيْضًا. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ سَمَّيْنا المَذاهِبَ السِياسِيّةَ وَيَسَعُنا أَنْ نُضِيفَ إلَيْها الفَلْسَفِيّةَ ومُصْطَلَحَها وأَشْيَعُها مَنْسُوبٌ إلى فَلاسِفةٍ أَفْرادٍ مِن الغَرْبِيِّين.

نَحْنُ إذَنْ حِيالَ ظاهِرةٍ قَدِيمةٍ وَلَـكِنَّها سَلَـكَتْ فِي مُنْعَطَفٍ حادٍّ مُنْذُ

اتَّسَعَ نِطاقُ ما أَطْلَقْنا عَلَيْه اسْمَ التَحْدِيث. وَلا بَأْسَ بِالإشارةِ إلى أَنَّ بَعْضَ المُقْتَرَضاتِ القَدِيمةِ نِسْبِيًّا أَصْبَحَت تَبْدو لِلسامِعِ عَرَبِيّةَ الأَصْلِ وَالفَصْلِ. مَنْ يَنْتَبِهُ اليَوْمَ، مَثَلًا، إلى كَوْنِ «بَطاطا» وَ«بَنَدُورةٍ» بَلْ و«صِراطٍ» أَيْضًا أَلْفاظًا مُقْتَرَضة؟ أَمْرٌ آخَرٌ تَحْسُنُ الإشارةُ إليه هُوَ أَنَّ المُقابِلَ العَرَبِيَّ الذِي تَعْتَمِدُهُ سُلْطةٌ وازِنةٌ وتَسْتَقِرُّ الحاجةُ إليه فِي تَداوُلِها اليَوْمِيِّ يَفْرِضُ نَفْسَه. مِنْ ذَلِكَ ما ذَكَرْناهُ فِي بَحْثٍ سابِقٍ من التَسْمِياتِ العَسْكَرِيّةِ مِنْ قَبِيلِ «مُجَوْقَلٍ» وَ«مُؤَلَّلٍ» وَ«طَوّافةٍ» أو «حَوّامةٍ». وَمِنْهُ أَسْماءُ مَناصِبِ الدَوْلةِ المَدَنِيّةِ وَهَيْئاتِها، إلخ. يَسْرِي هَذا أَيْضًا عَلى ما تَقْتَرِحُهُ جِهةٌ مَوْثُوقةٌ (صَحِيفةٌ رائِجةٌ، مَثَلًا) مِنْ أَلْفاظٍ وَصِيَغٍ جَدِيدةٍ أَوْ مُجَدَّدة.

هَذا وَيَسَعُ ما نُسَمِّيهِ «السُلْطةَ اللُغَوِيّةَ» مِنْ مَجامِعَ وَمَعاجِمَ أَنْ تَضْطَلِعَ بِدَوْرٍ فِي اجْتِراحِ الحُلُولِ الفُضْلى لِما يُطْرَحُ مِنْ مَسائِل. وَلَـكِنَّ فاعِلِيّةَ الدَوْرِ هَهُنا تَبْقى رَهْنًا بِما لِهَذِهِ السُلْطةِ مِنْ كَفاءةٍ وَمِنْ مَنْظُورِيّةٍ وَبِقابِلِيّةِ الجُمْهُورِ أَيْضًا أَيْ بِمِقْدارِ ما تُسْعِفُ عَصَبِيَّتُهُ اللُغَوِيّةُ فِي حَمْلِهِ عَلى التَجاوُب. مُلاحَظةٌ أَخِيرةٌ فِي الصَدَدِ نَفْسِهِ هِيَ أَنَّ مَيْلَ الجُمْهُورِ العَرَبِيِّ إلى الاقْتِراضِ قَد ازْدادَ مَعَ تَوَسُّعِ مَعْرِفَتِهِ بِاللُغاتِ الأَجْنَبِيّة. فَإِنَّ اللَفْظَ الأَجْنَبِيَّ حِينَ يُسْمَعُ مَعْزُولًا وَلا يَقْوى السامِعُ عَلى تَعْيِينِ مَوْقِعٍ لَهُ فِي حَقْلٍ مُعْجَمِيٍّ أَوْ دَلالِيٍّ وَلا عَلى إِدْراجِهِ فِي عِبارةٍ بِلُغةِ مَصْدَرِهِ يَكُونُ أَقَلَّ قُدْرةً عَلى فَرْضِ نَفْسِهِ مِنْ حالِهِ مَعَ إِمْكانِ هَذا كُلِّهِ أَوْ بَعْضِه.

خُلاصةُ القَوْلِ أَنَّ ما تَشْهَدُهُ شَبَكاتُ التَواصُلِ، وَأَهَمُّها الفَيْسبُوك، مِن اسْتِشْراءٍ لِلْمُصْطَلَحِ الأَجْنَبِيِّ إنَّما هُوَ ظاهِرةٌ مُتَّصِلةٌ بِاعْتِمادِ العامِّيّاتِ أَوِ الفُصْحى المُخالِطةِ لَها أَو المُتَقَبِّلةِ لِتَساهُلِها لُغاتٍ لِلْكِتابة. وَالظاهِرةُ

المَذْكُورةُ أَصْبَحَتْ قَدِيمةَ العَهْدِ فِي المُشافَهةِ العامِّيّةِ وَهِيَ لا تُخْتَصُّ بِسِنٍّ وَإِنْ تَـكُنْ بَعْضُ هَوامِشِها تَـتَفرَّعُ إلى مَجامِيعَ دَلالِيّةٍ يَتَعلَّقُ بَعْضُها بِجِيلٍ وَبَعْضٌ آخَرُ بِوَسَطٍ اجْتِماعِيٍّ أَوْ مِهْنِيٍّ، إلخ. وَكانَ مُنْتَظَرًا أَنْ تَزْدادَ الظاهِرةُ تَسارُعًا وَاتِّساعًا كُلَّما اشْتَدَّتْ سُرْعةُ التَغْيِيرِ الحَضارِيِّ أَوْ تَعرَّضَ التَجْهِيزُ المادِّيُّ وَالفِكْرِيُّ لِثَوْرةٍ جَدِيدةٍ لَمْ تَـكُن العَرَبِيّةُ لُغةً لَها وَلا أَسْهَمَ الناطِقُونَ بِالعَرَبِيّةِ بِشَيْءٍ يُذْكَرُ مِنْها. وَهُوَ ما حَصَلَ مَعَ انْتِشارِ الحاسُوبِ الشَخْصِيِّ ثُمَّ مَعَ الإِنْتِرْنِتّ وَما اسْتَنَدَ إِلَيْهِما أَو اتَّصَلَ بِهِما مِنْ لَوازِمَ أَوْ مِنْ تَطْبِيقاتٍ وَوُجُوهِ اسْتِعْمال.

مَلايِينُ تُخاطِبُ مَلايِينَ: آفاقٌ لِلْفُصْحى وَالعامِّيّات

يَتَعلَّقُ ما سَبَقَ، فِي مُعْظَمِهِ، بِاسْتِواءِ العامِّيّاتِ، مَعَ تَوَسُّعِ التَشْبِيكِ وَتَنَوُّعِهِ، لُغاتٍ يُكْتَبُ بِها. وَقَدْ جاءَت العامِّيّاتُ إلى هَذِهِ الوَظِيفةِ بِحُمولاتِها مِن الأَلْفاظِ المُقْتَرَضةِ وَمِن أَنْواعِ الخَلَلِ فِي الشَكْلِ الإِمْلائِيِّ وَالنَقْصِ فِي أَداءِ المَعانِي المُرادةِ وَمِن الانْحِطاطِ بِسَوِيّةِ التَعْبِيرِ نَحْوَ اجْتِرارِ الشائِعِ، أَحْيانًا، وَأَحْيانًا نَحْوَ السُوقِيّةِ وَالبَذاءة. وَلَـكِنَّ العامِّيّاتِ حَمَلَتْ إلى الكِتابةِ ما هِيَ قادِرةٌ عَلَيْهِ مِنْ مُطابَقةِ القَوْلِ العَفْوِيّةِ لِلْمُرادِ وَمِنْ صِدْقٍ وَمِنْ شِعْرٍ أَيْضًا. وَكانَ شائِعًا قَبْلَ ذَلِكَ ــ وَقَدْ مَرَّ الكَلامُ عَلَيْهِ ــ اسْتِعْمالُ العامِّيّاتِ فِي الحِوارِ الرِوائِيّ وَفِي ما هُوَ مُعَدٌّ لِلْإِلْقاءِ مِن النُصُوصِ المَكْتُوبةِ أَيْ فِي المَسْرَحِيّةِ وَالسِينارِيُو، عَلى الخُصُوص. وَلَـكِنَّ ما تَأْتِي بِهِ شَبَكاتُ التَواصُلِ شَيْءٌ بالِغُ الجِدّةِ: أَلا وَهُوَ حَمْلُ مَلايِينَ عَلى اجْتِراحِ نُصُوصٍ مَكْتُوبةٍ تُتاحُ قِراءَتُها لِمَلايِين.

وَتَحْتلُّ العامِّيّاتُ مَكانَ صَدارةٍ فِي هَذا العالَمِ الجَدِيدِ حاوَلْنا إبْرازَ مَعالِمِهِ وَلَـكِنَّ الفُصْحى يَبْقى لَها حُضُورُها فِيهِ وَلَوْ مَشْوبةً جِدًّا بِالرِكّةِ وَالأَخْطاء. تَبْقى الفُصْحى لُغةً لِنُصُوصٍ مِن الأَنْواعِ المُعْتادةِ لَها يُعادُ نَشْرُها عَلى الشَبَكاتِ أَوْ لِأُخْرى مُشابِهةٍ لِتِلْكَ تُعَدُّ لِلنَشْرِ عَلى الشَبَكةِ حَصْرًا. وَيَحْصُلُ أَنْ تَـتَناوبَ الفُصْحى وَالعامِّيّةُ فِي مَجْمُوعٍ واحِدٍ فيَنْشُرُ صاحِبُ الحائِطِ الفَسْبُوكيِّ كَلامًا فَصِيحًا وَتَـتَوَزَّعُ التَعْلِيقاتُ عَلَيْهِ بَيْنَ العامِّيّةِ وَالفُصْحى. أَوْ تَغْلِبُ العامِّيّةُ لُغةً مَرِحةً لِلتَهْنِئةِ بِحَدَثٍ سَعِيدٍ ما وَتَغْلِبُ الفُصْحى لُغةً لِلتَعْزِيةِ تُضْفِي عَلى العِباراتِ وَقارًا هُوَ الذِي تَقْتَضِيهِ المُناسَبة. إلخ. هَذا الوَقارُ لا يَعْدُو، فِي حَقِيقةِ أَمْرِهِ، أَنْ يَكُونَ تَجَلِّيًا مِنْ تَجَلِّياتِ الجِدِّ، بِما هُوَ رَغْبةٌ فِي السُمُوِّ عَن الرائِجِ وَفِي الانْفِصالِ عَنْ سَوِيّةِ المُعْتادِ، وَهُوَ المَوْقِفُ «النَفْسيُّ» أو «النَفْسُجْتِماعِيُّ» الذِي يُزَكِّي عِنْدَ القادِرِينَ اعْتِمادَ الفُصْحى فِي المُخاطَبة...

فِي تَعَرُّضِنا لِلنَوْعِ الذِي رَصَدْناهُ مِنْ مُشْكِلاتٍ تَـتَعرَّضُ لَها العَرَبِيّةُ، فِي عَصْرِ التَشْبِيكِ المُعَوْلَمِ، أَوْ مِنْ فُرَصٍ تَحْظى بِها (وَهِيَ مُشْكِلاتٌ وَفُرَصٌ واسِعةُ النِطاقِ وَبَعِيدةُ الغَوْرِ) عَوَّلْنا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَلى عِشْرَتِنا مُدّةَ سَنَواتٍ لِلْفَيْسبُوك وَعَلى بَعْضِ الإِلْمامِ بِغَيْرِهِ مِن الشَبَكات. وَلَمْ نَجْنِ فائِدةً تُذْكَرُ لِبَحْثِنا مِمّا بَدَأْنا بِهِ مِن اسْتِطْلاعٍ لِلْمَواقِعِ المُكَرَّسةِ لِخِدْمةِ العَرَبِيّةِ وَبَيْنَها صَفَحاتٌ وافِرةُ العَدَدِ عَلى الفَيْسبُوك. فَما تَقْصُرُ هَذِهِ المَواقِعُ وَالصَفَحاتُ هَمَّها عَلَيْهِ هُوَ تَفْرِيجُ كَرْبةِ اللائِذِينَ بِها مِنْ قُرّاءِ الفُصْحى أَوْ كُتّابِها حِينَ يَطْرَحُ أَحَدُهُم سُؤالًا يُرِيدُ بِهِ تَمْيِيزَ الخَطَإِ مِن الصَوابِ فِي حالَةٍ مِنْ حالاتِ الاسْتِعْمالِ اللُغَوِيّ. أيْ أَنَّ هَذِهِ المَواقِعَ وَالصَفَحاتِ تَحْصُرُ نَفْسَها فِي دائِرةِ قَواعِدِ اللُغة فتَبْحَثُ عَنْ هَذِهِ القَواعِدِ فِي مَظانِّها المَعْلُومةِ لِتَعُودَ إلى السائِلِ بِما يَفِي بِحاجَتِهِ مِنْها.

وَأَمّا الحَياةُ الحِسِّيّةُ لِلُّغةِ فِي مَيادِينِ اسْتِعْمالِها وَشِعابِها وَفِي ما يَطْرَحُهُ عَلَيْها العَصْرُ، بِجَدِيدِهِ المُتَدَفِّقِ، فَلا يَحْظى مِنْ هَذِهِ المَواقِعِ وَالصَفَحاتِ بِوَقْفةٍ أَوْ لَفْتة. وَإذا هِيَ اضْطُرَّتْ إلى الإشارةِ إلى شَيْءٍ مِنْهُ فِي مَعْرِضِ كَلامٍ آخَرَ، اقْتُصِرَ المَوْقِفُ عَلى ما هُوَ مَأْلُوفٌ مِنْ مَدْحِ الفُصْحى وَتَعْدادِ إمْكاناتِها وَمَزاياها وَلَمْ تَسْتَفِد الفُصْحى ــ وَدَعْ عَنْكَ العامِّيّاتِ ــ مَعْرِفةً بِالراهِنِ مِنْ أَحْوالِها تُسْعِفُها فِي الدِفاعِ عَنْ نَفْسِها حَيْثُ يَجِب.

وَأَمّا ما نُرِيدُ التَشْدِيدَ عَلَيْهِ، فِي الخِتامِ، فَهُوَ أَنَّ هَذا التَجاوُرَ الذِي اسْتَوْقَفَنا فِي حالةِ شَبَكاتِ التَواصُلِ بَيْنَ عامِّيّاتٍ مُخْتَلِفةٍ وَفُصْحى مُتَنَوِّعةِ الأَغْراضِ وَالمُسْتَوَياتِ وَلَـكِنَّها واحِدةٌ، مِنْ حَيْثُ الأَساسُ، لا يُمْكِنُ أن يَخْلُو مِنْ تَفاعُل. وَحِينَ يَكُونُ الحَدِيثُ حَدِيثَ اللُغةِ يَتَعَيَّنُ إبْقاءُ المَيْدانِ مُتَّسِعًا لِلْحياةِ كُلِّها: لِلشِعْرِ اللَمّاحِ وَالتَأَمُّلِ الثاقِبِ وَلِلْمُجامَلةِ المَأْلُوفةِ وَلِتَفاهةِ كُلِّ يَوْمٍ وَلِلْبَذاءةِ أَيْضًا... وَفِي هَذا كُلِّهِ، يَسَعُ التَفاعُلَ أَنْ يُثْمِرَ تَجْدِيدًا وَمَكاسِب. وَإذا نَحْنُ اخْتَرْنا أَنْ نَبْقى عَلى المُسْتَوى الأَعَمِّ فِي الرَصْدِ أَمْكَنَ أَنْ نُحْصِي ظاهِرَتَيْنِ نَرى لَهُما شَواهِدَ لا تُحْصى عَلى الفَيْسبُوك وَعَلى غَيْرِهِ مِن الشَبَكات. (١) تَنْحُو العامِّيّاتُ العَرَبِيّةُ إلى التَعارُفِ فِي ما بَيْنَها فَيَكْتَسِبُ كُلُّ مُطالِعٍ أَوْ مُحاوِرٍ مِنْ مُحاوِرِيهِ الأَبْعَدِينَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا مِن المَعْرِفةِ بِعامِّيّاتِهِم. وَهُوَ ما يَنْحُو إلى جَعْلِ العامِّيّاتِ نَفْسِها شَبَكةً لُغَوِيّةً حَيّةً تَنْبُضُ مِنْ زَواياها كافّةً وَيَصِلُ كُلُّ نَبْضٍ يَحْصُل فِي زاوِيةٍ مِنْها إلى الزَوايا الأُخْرى. (٢) تُطَوِّعُ الفُصْحى نَفْسَها لِأَغْراضِ التَبادُلِ الكَلامِيِّ اليَوْمِيِّ، عَبْرَ التَعَرُّضِ المُتَمادِي لِحالاتٍ مِنْهُ وَمُناسَباتٍ لَهُ لا حَدَّ لِوَفْرَتِها وَتَنَوُّعِها. وَهَذا فَضْلًا عَن احْتِفاظِها بِوَظائِفِها المَأْلُوفةِ فِي الكَلامِ المُعَدِّ أَصْلًا لِلْقالَبِ المَكْتُوب.

وَهَذا الأَخِيرُ تَمْنَحُهُ الشَبَكاتُ حُظُوظًا مُضافةً لِيُقْرَأَ وَلَو انَّهُ يُسْتَفادُ مِن الخِبْرةِ أَنَّ هَذِهِ الحُظُوظَ تَضْؤُلُ كُلَّما طالَ النَصُّ أَوْ مالَ إلى الجِدّ. هَذا وَالفُصْحى، فِي خِلالِ هَذا التَطْوِيعِ، تُخالِطُ العامِّيّاتِ عَلى أَنْحاءٍ غَيْرِ مَعْهُودةٍ سابِقًا وَبِكَثافةٍ وَتَكْرارٍ لا سابِقَ لَهُما أَيْضًا. هَذا التَطْوِيعُ الذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ مَلايِينُ مِن المُتَحاوِرِينَ يُباشِرُ بِلا رَيْبٍ نَوْعًا من التَذْلِيلِ النِسْبِيِّ لِلْحاجِزِ الماثِلِ بَيْنَ كُلٍّ مِن العامِّيّاتِ وَالفُصْحى التِي نَعْرِفُها لُغَةً لِلْكِتابة. وَهُوَ ما يُبْقِي الفُصْحى واسِطةَ عِقْدٍ فِي هَذِهِ الشَبَكةِ اللُغَوِيّةِ الحَيَّةِ التِي تُمَثِّلُ العامِّيّاتُ أَجْنِحةً خافِقةً لَها. يَزِيدُ مِنْ هَذا الإمْكانِ شُعُورُ المُتَكَلِّمِينَ عَلى الشَبَكاتِ، حِينَ يُغادِرُونَ حَلَقاتِ الدَرْدَشةِ المَحْصُورةِ، أَنَّهُم يَتَوَجَّهُونَ بِكَلامِهِمْ إلى جُمْهُورٍ، أَيْ أَنَّ لِهَذا الكَلامِ نَصِيبًا مِن العُمُومِيّةِ يَقْتَضِي القالَبَ الفَصِيحَ أَوْ ما يَمُتُّ إلَيْهِ بِنَسَبٍ قَرِيبٍ وَإنْ يَكُنْ عامِّيًّا.

لَيْسَ لَنا أَنْ نَطْمَحَ لِأَيٍّ مِنْ هَذَيْنِ المَسارَيْنِ (تَعارُفِ العامِّيّاتِ وَتَطْوِيعِ الفُصْحى لِلْحِوارِ وَلِأَغْراضِ الحَياةِ اليَوْمِيّةِ) أَنْ يُفْضِي بِنا إلى نِهايةٍ قَطْعِيّة. فَمِثْلُ هَذا لا يَحْصُل فِي المِضْمارِ اللُغَوِيِّ أَوْ يَحْتاجُ حُصُولُهُ إلى زَمَنٍ مَدِيدٍ جِدًّا. وَلَكِنْ هَذا شَيْءٌ حَسَنٌ يَحْصُلُ لِلْعَرَبِيّةِ وَيَدِلُّ حُصُولُهُ، وَلَوْ تَعَرَّجَ المَسارُ أَوْ تَقَطَّعَ، عَلى أَنَّ ما يَحُلُّ بِلُغَتِنا عَلى الشَبَكاتِ لا يَخْتَصِرُهُ غَزْوٌ أَجْنَبِيٌّ لَيْسَ عَلى الشَبَكاتِ مَسْؤُولِيّةٌ خاصّةٌ عَنْهُ وَلا يَسْتَنْفِدُهُ طُغْيانٌ لِلْعامِّيّاتِ مِنْ غَيْرِ ثَمَرةٍ طَيِّبةٍ تَجْنِيها العامِّيّاتُ وَالفُصْحى سَواءً بِسَواء.

وَمَهْما يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ تُفِيدُنا شَبَكاتُ التَواصُلِ بِما تَعْرِضُهُ مِنْ أَعْرافٍ لُغَوِيّةٍ بالِغةِ التَنَوُّعِ وَكَثِيرةِ المُسْتَوَياتِ، مُتَبايِنةِ الكَفاءةِ وَمُتَناضِحةِ الإمْكاناتِ، رازِحةٍ بِوُجُوهِ القُصُورِ وَغَنِيّةٍ بِالحُلُولِ، أَنَّ عَلَيْنا الإعْراضَ عَنْ تَصَوُّرٍ لا يَزالُ

مُسْتَوْلِيًا عَلى نُفُوسِنا لِلُّغةِ وَلِوَحْدَتِها. فَنَحْنُ نُقيمُ فِي وَهْمٍ يُوحِي إلَيْنا أَنَّ اللُغةَ كانَتْ، فِي وَقْتٍ مِن الأَوْقاتِ، مُسْتَقِرّةً فِي مُطابَقةٍ تامّةٍ لِنَفْسِها وَصُلْحٍ مُطْلَقٍ مَعَ نَفْسِها وَأَنَّ عَلَيْنا أَنْ نَعُودَ بِها إلى هَذا وَإلى تِلْكَ. ذاكَ وَهْمٌ يَتَّجِهُ بِنا إلى إرادةِ الخُروجِ بِاللُغةِ مِنْ تارِيخِها وَمِن التارِيخِ كُلِّهِ. وَهُوَ وَهْمٌ عَقِيمٌ وَخانِق. فَلَمْ تَكُن اللُغةُ قَطُّ وَلا هِيَ سَتَكُونُ فِي يَوْمٍ مِن الأَيّامِ آلةً راسِخةَ الوَحْدةِ، طَيِّعةً سَلَفًا لِكُلِّ غَرَضٍ يُرادُ لَها تَناوُلُه. بَلْ اللُغةُ حُقُولٌ وَمُسْتَوَياتٌ مَفْتُوحةٌ عَلى مُشْكِلاتٍ وَأَوْجُهِ قُصُورٍ تُمْلِيها إلْزاماتُ تارِيخِها فِي مُعاطاتِها وَصْفَ التَغْيِيرِ المُسْتَمِرِّ لِلْعالَم.

وَما مِنْ رَيْبٍ فِي أَنَّ ما شَهِدَهُ العالَمُ مِنْ مَوْجاتِ تَغْيِيرٍ ثَوْرِيّةٍ لَمْ تَعِفَّ عَنْ شَيْءٍ فِي مَدى القَرْنَيْنِ الفائِتَيْنِ قَد امْتَحَنَ كَفاءةَ العَرَبِيّةِ لِاسْتِقْبالِ جَدِيدِ العالَمِ أيَّما امْتِحان. وَلَكِنَّنا نَظْلِمُ العَرَبِيّةَ كَثِيرًا حِينَ نُحَمِّلُها العِبْءَ المُتَمَثِّلَ فِي مُعالَجةِ قُصُورٍ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مَسْبُوقِ النِطاقِ وَالحِدّةِ وَلَكِنْ لا تَتَحَمَّلُ اللُغَةُ المَسْؤُولِيّةَ عَنْهُ بَلْ يَتَحَمَّلُها أَهْلُها أَوْ مَواقِعُهُم مِنْ جَدِيدِ العالَم. لا يَعْني هَذا ــ مَرّةً أُخْرى ــ أَنْ نَتَهاوَنَ فِي المُعالَجةِ اللُغَوِيّةِ لأَزْمةِ اللُغَة. وَإنَّما يَعْنِي أنْ نُدْرِكَ الحُدُودَ المَضْرُوبةَ لِهَذِهِ المُعالَجة. وَهُوَ يَعْنِي أَيْضًا أَلّا نَتَّخِذَ أَزْمةَ اللُغةِ قِناعًا لأَزْمةِ الحَضارة. هُوَ يَعْنِي، أَخِيرًا لا آخِرًا، أنْ نَتَقَبَّلَ اللُغَةَ، لا عَلى أَنَّها كُلٌّ ساكِنٌ أَوْ قابِلٌ لِلتَسْكِينِ، بَلْ عَلى أَنَّها شَبَكةٌ شاسِعةٌ، دائِمةُ التَوَسُّعِ وَالتَغَيُّرِ، مُتَعَدِّدةُ الحُقُولِ وَالطَبَقاتِ وَالبِنى، لا يَخْلُو حَقْلٌ مِنْ حُقولِها وَلا طَبَقةٌ مِنْ طَبَقاتِها وَلا مَنْظُومةٌ لِأَبْنِيَتِها مِنْ أَزْمةٍ أَوْ أَزْماتٍ تَمْتَحِنُ عَلاقاتِها فِي ما بَيْنَها أَوْ عَلاقاتِها بِالعالَم.

إذا اسْتَطَعْنا إلى هَذا التَغْيِيرِ فِي عَلاقَتِنا بِاللُغةِ وَفِي نَظْرَتِنا إلَيْها سَبِيلًا،

جازَ أنْ يَسْتَوِي العالَمُ الافْتِراضِيُّ بِما فِيهِ، عَلى الخُصُوصِ، شَبَكاتُ التَواصُلِ، قاعِدةً جَدِيدةً نَتَلَمَّسُ فِيها أَوْ نَبْنِي عَلَيْها خُطَطَ إصْلاحٍ تَحْتاجُ إلَيْها العَرَبِيّةُ وَأَهْلُها أَيَّما احْتِياج.

بَيْرُوت، شُباط ٢٠١٥

مَراجِعُ مُخْتارة

- بَيْضُون، أَحْمَد، «العَرَبِيّةُ وَعالَمِيّةُ الإبْداع: مِن اللُغَةِ-الكِنايةِ إلى إسْتِراتيجِيّةِ المُجانَبة»، في: **كَلَمُنْ: مِنْ مُفْرَداتِ اللُغةِ إلى مُرَكَّباتِ الثَقافة**، دارُ الجَدِيد، بَيْرُوت، ١٩٩٧، ص ٩٧-١١٣.

- بَيْضُون، أَحْمَد، «مِن 'الناطِقِينَ بِالضادِ'إلى"الكِرامِ الكاتِبِينَ": تَأَمُّلاتٌ فِي جَلاءِ الفُصْحى عَنْ مَناطِقِ المُشافَهة»، فِي: **مَعانِي المَبانِي: فِي أَحْوالِ اللُغةِ وَأَعْمالِ المُثَقَّفِين**، دارُ النَهارِ لِلنَشْرِ وَاللَجْنةُ الوَطَنِيّةُ اللُبْنانِيّةُ لِلْيُونِيسْكُو، بَيْرُوت، ٢٠٠٦، ص ١٩-٤١.

- بَيْضُون، أَحْمَد، **دَفْتَرُ الفَسْبَكة: نُتَفٌ مِنْ سِيرةِ البالِ وَالخاطِر**، شَرْقُ الكِتاب، بَيْرُوت، ٢٠١٣.

- خُضْر، مُحَمَّد زَكِي، «رَصْدُ واقِعِ اللُغةِ العَرَبِيّةِ عَلى الشابِكةِ (الإنْتِرْنِتّ) وَالهاتِفِ المَحْمُول»، ٩ تِشْرِين الثانِي ٢٠١٤، www.majma.org.jo/majma/res/data/seasons/32/32-7.doc

- سِراج، نادِر، **الشَبابُ وَلُغةُ العَصْر: دِراسةٌ لِسانِيّةٌ اجْتِماعِيّة**، الدارُ العَرَبِيّةُ لِلعُلومِ ناشِرُون وَمَرْصَدُ بَيْرُوت الحَضَرِيّ، بَيْرُوت، ٢٠١٢.

- عَبْدُ اللَطِيف، عِماد، بَلاغةُ الحُرِّيّة، مَعارِكُ الخِطابِ السِياسِيّ فِي زَمَنِ الثَوْرة، دارُ التَنْوِير، بَيْرُوت، ٢٠١٢.

- قَناوِي، مَنال، «اللُغةُ العَرَبِيّةُ أداةُ تَواصُلٍ فِي الشَبَكاتِ الاجْتِماعِيّةِ، دِراسةٌ مَيْدانِيّةٌ فِي واقِعِ اسْتِخْدامِ الجَزائِرِيِّينَ لِلُغةِ العَرَبِيّةِ فِي الفَيْسبُوك»، وَرَقةٌ مُقَدَّمةٌ فِي يَوْمٍ دِراسِيٍّ حَوْلَ المُحْتَوى الرَقْمِيِّ بِاللُغَةِ العَرَبِيّة: النَشْرُ الإلِكْتِرُونِيّ، 24/12/2012 www.academia.edu (uploaded by: Manal Ganaoui)

مَواقِعُ عَلى الشَبَكةِ لِبَعْضِ مَجامِعِ اللُغَةِ العَرَبِيّة

المَجْمَعُ السُورِيّ: www.arabacademy.gov.sy

المَجْمَعُ المِصْرِيّ: www.arabicacademy.org.eg

المَجْمَعُ الأُرْدُنِيّ: www.majma.org.jo

المَجْمَعُ العِراقِيّ: www.iraqacademy.iq

المَجْمَع الفِلَسْطِينِيّ: www.arabicac.com

المَجْمَعُ اليَمَنِيّ: www.ysla-yemen.org

المَكْتَبُ الدائِمُ لِتَنْسِيقِ التَعْرِيبِ بِالرِباط: www.arabization.org.ma

إلخ.

صَفَحاتُ فَيْسبُوك مُكَرَّسةٌ لِلُغةِ العَرَبِيّة:

إحْياءُ اللُغةِ العَرَبِيّةِ فِي القُلُوب، اللُغةُ العَرَبِيّة، اللُغةُ العَرَبِيّةُ بَيْنَ السائِلِ وَالمَسْؤُول، اللُغةُ العَرَبِيّةُ وَعُلومُها، رِفْقًا بِاللُغةِ العَرَبِيّة، قَواعِدُ اللُغةِ العَرَبِيّة، لُغَتُنا الجَمِيلة، لُغَتُنا العَرَبِيّةُ، النَحْوُ فِي الكَلامِ مِثْلُ المِلْحِ فِي الطَعام، مَجْمَعُ اللُغةِ العَرَبِيّةِ الجَزائِر، مَجْمَعُ اللُغةِ العَرَبِيّةِ عَلى الشَبَكةِ العالَمِيّة، المَجْمَعُ اللُغَوِيُّ المَقْدِسِيّ، نادي اللُغةِ العَرَبِيّة، إلخ.

مَنافِذُ إلى «قَضِيّةِ» العَرَبِيّة(*)

(أ) الكَلامُ بِما هُوَ تَلْحِينٌ لِلْوُجود...

مَغْنــاكِ مُلتَهِــبٌ وَكَأسُــكِ مُتْرَعَــهْ فَاسْقِي أَباكِ الخَمْرَ وَاضْطَجِعي مَعَهْ
لَمْ تُبْـقِ فِي شَفَتَيْــكِ لَـذّاتُ الدِما ما تَذْكُـرِينَ بِـهِ حَـلِيبَ المُـرْضِعَـهْ
قُومِي ادْخُلِي يا بِنْتَ لُوطَ عَلى الخَنى وَازْني فَـإِنَّ أَبــاكِ مَهَّـدَ مَضْجَعَـهْ
إنْ تُرجِـعِي دَمَــكِ الشَهِيَّ لِـنَبْعِــهِ كَـمْ جَدْوَلٍ فِي الأَرْضِ راجَـعَ مَنْبَعَـهْ

(إلخ.، إلخ).

لا أَعْرِفُ قَوافِيَ عَرَبِيَّةً تَفُوق شِدّتُها ما لِقَوافِي قَصِيدَةِ «سَدُومٍ» هَذِهِ لإلْياس أَبِي شَبَكة. العَيْنُ والهاءُ مَخْرَجاهُما مِن الحَلْق. فَيَكادُ يَصِحُّ القَوْلُ أَنَّهُما تَخْرُجان مِن الأَحْشاء... العَيْنُ هُنا مَفْتُوحةٌ عَلى أَقْصاها وَالهاءُ ساكِنةٌ يَنْقَطِعُ بِها النَفَسُ اللاهِثُ بَغْتةً. هَذا كُلُّهُ يُناسِبُ مُناخَ هَذِهِ القَصِيدةِ المُلَعْلِعةِ أَحْسَنَ مُناسَبة...

فِي هَذِهِ القافِيةِ، لَهْفةٌ أَوْ نُباحٌ لِلرَغْبةِ تُعَبِّرُ عَنْهُ العَيْنُ المَفْتُوحةُ وَالهاءُ الساكِنةُ وَتَـكْرارُهُما بِأَشَدِّ مِمّا تُعَبِّرُ الواوُ الجَوْفاءُ وَالهاءُ الساكِنةُ فِي «وَهْ وَهْ»، المَقْطَعِ المُعْتَمَدِ لمُحاكاةِ النُباح.

نَأْخُذُ بَيْتًا من قَصِيدةِ إلْياس أَبِي شَبَكة هَذِهِ، بِقافِيَتِها: العَيْنِ المَفْتوحةِ

(*) يَسْتَعِيدُ هـذا الفَصْلُ مَقـالاتٍ حَمَلَـتْ عَناوِينَـهُ الفَرْعِيّـةَ وَنُشِـرَتْ مُتَفَرِّقَـةً فِـي جَرِيـدةِ **القُدْسِ العَرَبِيّ** فِـي العامَيْـنِ ٢٠١٥ و٢٠١٦.

والهاءِ الساكِنةِ (عَهْ، عَهْ، عَهْ...):

سَكِرَتْ بِكِ الدُنْيا سَدُومُ فَكُلُّها　　　زُمَرٌ عَلى طُرُقِ الحَياةِ مُتَعْتَعَهْ

وَنَأْخُذُ بَيْتًا مِنْ قَصِيدةٍ مَشْهُورةٍ لابْنِ زُرَيْق البَغْدادِيِّ قافِيَتُها عَيْنٌ وَهاءٌ مَضْمُومَتانِ (عُهُ، عُهُ، عُهُ...):

أَسْتَوْدِعُ اللهَ فِي بَغْدادَ لِي قَمَرًا　　　بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ

لا يَفُوتُ الأُذُنَ المُدَرَّبَةَ أَنَّنا انْتَقَلْنا مِمّا يُوحِي بِاللُهاثِ الشَدِيدِ المُتَقَطِّعِ إلى ما يُوحِي بِصَوْتِ العَوِيل. حَصَلَ ذَلِكَ بِفِعْلِ اخْتِلافِ الصَوائِتِ (أَيْ ما يُسَمّى «الحَرَكاتِ») مَعَ بَقاءِ الصامِتَيْنِ (أَي الحَرْفَيْنِ «الصَحِيحَيْنِ» العَيْنِ وَالهاءِ) دُونَ تَغْيِير.

فِي هَذا إظْهارٌ لِأَهَمِّيّةِ الصَوائِتِ التِي لا نَعْتَبِرُها حُرُوفًا، فِي العادةِ، وَنَسْتَسْهِلُ الاسْتِغْناءَ عَنْها فِي الكِتابةِ، وَهِيَ، فِي حَقِيقةِ الأَمْرِ، أَهَمُّ الحُرُوفِ فِي نِظامِ العَرَبِيّةِ الصَرْفِيِّ، سَواءٌ أَكُنّا نَرْسِمُ الكَلامَ أَمْ نَلْفُظُه. يَبْقى، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ اقْتِرانَ العَيْنِ وَالهاءِ، بِما لَهُما مِنْ عُمْقِ المَخْرَجِ، هُوَ العُمْدةُ فِي الإشْعارِ بِالحالتَيْنِ: اللُهاثِ وَالعَوِيل. فَلا يَتَيَسَّرُ ذَلِكَ لِأَيِّ حَرْفَيْنِ صامِتَيْنِ يَعْتَمِدُهُما شاعِرٌ مِن الشُعَراءِ قافِيَةً لِقَصِيدة...

وَلْأَذْكُرْ هُنا، ما دُمْتُ قَدْ عَرَّجْتُ عَلى قَصِيدةِ ابْنِ زُرَيْق، أَنَّنِي «عارَضْتُها»، فِي ما مَضى، بِقَصِيدةٍ أَصْبَحَتْ قَدِيمةً وَمَطْلَعُها:

ساقِي الحُمَيّا وَهَلْ تُحْصى مَصارِعُهُ　　　ثاوٍ عَلى الرَمْلِ تَرْثِيهِ أَصابِعُهُ
ما كانَ يُمْسِكُ أَنْفاسًا مُرَوَّعَةً　　　لَوْلا بَقِيّةُ صَحْبٍ لا تُشَيِّعُهُ
صَحْبِ الكُؤوسِ إذا دارَتْ يَقُولُ لَهُم　　　نَفْسِي فِداءُ وَلِيٍّ لا أُشَفِّعُهُ

(إلخ.، إلخ).

تِلْكَ قَصِيدةٌ كانَتْ تُبارِي فِي العَوِيلِ قَصِيدةَ ابْنِ زُرَيْق. وَلا أَشُكُّ أَنَّهُ كانَ لِقافِيَتِهِ نَصِيبٌ مِنْ سَوْقِها إلى هَذا المُناخ. أَيْ أنَّ ثَمَّةَ هَهُنا تَفاعُلًا لا فِعْلًا من جِهةٍ واحِدة: لا يُمْلِي المُناخُ النَفْسِيُّ، مِنْ جِهَتِهِ، قافِيَةَ القَصِيدةِ وَسِماتٍ أُخْرى لِبِنْيَتِها الصَوْتِيّةِ العامّةِ وَحَسْبُ وَإنَّما تَسْتَدْرِجُ القافِيَةُ وَالسِماتُ المُشارُ إلَيْها صُوَرًا وَتَعابِيرَ نَفْسِيّةً تُمْلِيها عَلى الشاعِرِ. فَيَشْتَرِكُ «الشَكْلُ» (إذا أَجَزْنا هَذا التَقابُلَ) فِي تَعْيِينِ «المَضْمُونِ» بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَد اسْتَجابَ لِهَذا الأَخِير.

•

هَذِهِ المُلاحَظةُ الأَخِيرةُ تَرُدُّنِي إلى جِدالٍ كَبِيرٍ يَتَعَدّى نِطاقَ الشِعْرِ إلى نِطاقِ اللُغةِ أَوْ إلى ما قَدْ تَجُوزُ تَسْمِيَتُهُ الشاعِرِيَّةَ اللُغَوِيّة. نَعْرِفُ بِدايةً لِهَذا الجِدالِ عِنْدَ أَفْلاطُون الذِي تَـتَواجَهُ فِي حِوارِهِ المُسَمّى «كْراتيلُوس» نَظَرِيّتانِ فِي أَصْلِ اللُغةِ تَرى الأُولى مِنْهُما فِي الكَلِماتِ أَشْباحًا أَوْ صُوَرًا صَوْتِيّةً لِلْمَوْجُوداتِ وَتَرى الثانِيَةُ فِي الكَلِماتِ ثَمَراتِ اصْطِلاحٍ وَتَواطُؤٍ أَوْ تَواضُعٍ فِي الجَماعةِ اللُغَوِيّةِ بِحَيْثُ يَتَحَدَّدُ لِكُلِّ دالٍّ مَدْلُولُهُ مِنْ غَيْرِ افْتِراضِ مُحاكاةٍ لِلأَخِيرِ مِنْ جِهةِ الأَوَّل. وَقَدْ كانَ أَفْلاطون مِنْ أَصْحابِ الرَأْيِ الأَوَّلِ إذْ هُوَ الرَأْيُ المُوافِقُ لِنَظَرِيّةِ «المُثُلِ» بِافْتِراضِهِ أَنَّ الكَلِماتِ إنَّما تَلْتَمِسُ الشَبَهَ، لا بِالأَشْياءِ، بَلْ بِالماهِيّاتِ التِي تُجَسِّدُها المُثُلُ فِي عالَمِها العُلْوِيّ... وَأَمّا لُغَوِيُّو العَرَبِيّةِ فَقَدْ ذَهَبُوا بِهَذا الجِدالِ نَفْسِهِ مَذْهَبًا دِينِيًّا فَقالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِالاصْطِلاحِ وَالتَواضُعِ وَرَأى فَرِيقٌ آخَرُ فِي اللُغةِ «وَحْيًا» وَ«تَوْقِيفًا» يَهْتَدِي بِهِما الناطِقُونَ بِها إلى المُواءَمةِ المَرْغُوبِ فِيها ما بَيْنَ الدالّاتِ وَمَدْلُولاتِها...

لَمْ تَـكُنْ بِنْتَ يَوْمِها، إذَنْ، نَظَرِيّةُ السِوِيسرِيِّ فَرْدِينانْ دُو سُوسُّور الذِي

اعْتُبِرَ مُنْطَلَقًا لِلْمَدْرَسةِ البِنْيَويّةِ كُلِّها، فِي مَيْدان اللُغةِ وفي مَيادِينَ أُخْرى كَثيرةٍ، لِإرْسائِهِ نَظَرِيّةَ العَلامةِ اللُغَوِيّةِ عَلى ما سَمّاهُ «التَحَكُّمِيّةَ» أَيْ عَلى اسْتِبْعادِ الشَبَهِ، إجْمالًا، ما بَيْنَ اللَفْظةِ، بِما هِيَ سِلْسِلةٌ صَوْتِيّةٌ، وَمَدْلُولِها، بِما هُوَ تَصَوُّر. ذاكَ مَبْدأٌ مِن اثْنَيْنِ ثانِيهِما ما سَمّاهُ سُوسُّور «خَطِّيّةَ الدالِّ» وَهُوَ لا يَنْطَوِي عَلى نَظِيرٍ لِلشِحْنةِ الجَدَلِيّةِ التِي فِي الأَوَّل. وَأَمّا «التَحَكُّمِيّةُ» تِلْكَ فَهِيَ ما يُبِيحُ اعْتِبارَ مَتْنِ اللُغَةِ ــ أَيْ مُعْجَمِها ــ «نِظامًا» لِلْفَوارِقِ يَتَحَدَّدُ كُلٌّ مِنْ عَناصِرِهِ، لا بِذاتِهِ، بَلْ بِمَوْقِعِهِ فِيهِ، أَيْ بِالحَيِّزِ الذِي تُفْسِحُ لَهُ فِيهِ شَبَكةُ العَلاقاتِ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَناصِرَ أُخْرى تَـتَوَسَّعُ دَوائِرُها بِاطِّرادٍ حَتّى تَشْتَمِلَ عَلى اللُغَةِ كُلِّها. ذاكَ تَصَوُّرٌ لِمَتْنِ اللُغَةِ نَسَجَهُ سُوسُّور عَلى مِنْوالِ النِظامِ الذِي رَآهُ مُتَمَثِّلًا فِي بِنْيةِ أَصْواتِ اللُغَة. فَهُوَ قَدْ وَجَدَ أنَّ هَذِهِ الأَصْواتَ إنَّما يَتَحَدَّدُ كُلٌّ مِنْها بِالفارِقِ الذِي يَرْسِمُ لَهُ مَوْقِعَهُ فِي فئتِهِ مِنْ بَيْنِها، أَوَّلًا، وَفِي جُمْلَتِها، بِما هِيَ مَنْظُومةٌ، عَلى الأَعَمّ.

كانت السُوسُّورِيّةُ حِينَ فَرَضَتْ نَفْسَها نَمُوذَجًا احْتُذِيَ، عَلى أَنْحاءٍ مُخْتَلِفةٍ، فِي عُلومِ الإنْسانِ والمُجْتَمَعِ كُلِّها وَفِي الفَلْسَفةِ، تَجِدُ الحُجَّةَ الأَوْثَقَ التِي تُسْنِدُ إلَيْها مَبْدأَ «تَحَكُّمِيّةِ العَلامةِ» فِي واقِعةِ تَعَدُّدِ اللُغاتِ بِما هُوَ بَدِيهةٌ حِسِّيةٌ نِطاقُها عالَمُ البَشَرِ كُلُّه... فَيَتَعَذَّرُ نُكْرانُها أَو التَجاوُزُ عَن البَحْثِ فِي دَلالَتِها. فَإذا كانَ الدالُّ، بِما هُوَ سِلْسِلةٌ صَوْتِيّةٌ، «يُحاكِي» مَدْلُولَهُ (عَلى ما افْتَرَضَ أَفْلاطُون مَثَلًا) فَكَيْفَ جازَ أَنْ تَـتَكاثَرَ الدالاّتُ لِلْمَدْلُولِ الواحِدِ هَذا التَكاثُرَ كُلَّهُ وَأَنْ تَخْتَلِفَ هَذا الاخْتِلافَ البَيِّنَ كُلَّهُ مِنْ لُغةٍ إلى أُخْرى... فَلا يَظْهَرُ شَبَهٌ، لِجِهَةِ التَشْكِيلِ الصَوْتِيِّ، ما بَيْنَ أَسْماءِ البَقَرةِ، مَثَلًا، فِي كُلٍّ مِن اللُغاتِ العَرَبِيّةِ وَالإنْكِلِيزِيّةِ وَالفَرَنْسِيّة؟

هَذا السُؤالُ بَذَلْتُ مُحاوَلةً مَنْشورةً لِلْمُجادَلةِ فِيهِ قَبْلَ نَحْوٍ مِنْ أَرْبِعينَ سَنةً. وَإلى فَحْوى هَذِهِ المُحاوَلةِ أَعُودُ فِي فِقْراتٍ لاحِقة. وَاليَوْمَ يُعْتَبَرُ المَنْحى البِنْيَويُّ ذاوِيًا أَوْ مَتْرُوكًا بَعْدَ عِزٍّ. فَهُوَ قَدْ راحَ يَفْقِدُ نُفُوذَهُ بِسُرْعةٍ قَبْلَ أَرْبَعةِ عُقُودٍ أَوْ خَمْسةٍ، وَإنْ يَكُنْ لا يَزالُ يَجُرُّ هُنا وَهُناكَ أَذْيالًا لِما بَناهُ مِنْ أَمْجادٍ مُتَوَسِّلًا فِي ذَلِكَ صُمُودَ أَعْمالٍ كُبْرى لِلَّذِينَ اعْتَمَدُوهُ أَو اسْتَوْحُوهُ، لا فِي عُلُومِ اللُغةِ عَلى التَخْصِيصِ، بَلْ فِي الأُنْثْرُوبُولُوجِيا وَالتارِيخِ، عَلى الأَخَصِّ، وَفِي غَيْرِهِما مِنْ عُلومِ الإنْسانِ وَالمُجْتَمَع.

ذاكَ مَجالٌ رَحْبٌ لا أُجاوِزُ هُنا الرَغْبَةَ فِي إثارةِ شَهِيّةِ القارِئِ لِلْإلْمامِ بِهِ إنْ كانَ مِنْ غَيْرِ المُلِمِّين. عَلى أَنْ أَعُودَ إلى بَعْضِ مَسائِلَ اضْطَرَبَتْ بِها جَنَباتُهُ فِي وَقْفةٍ تالِية. وَما ابْتِداءُ كَلامِنا هَذا مِن الشِعْرِ وَقَوافِيهِ وَتَخَلُّصُنا مِنْ هُناكَ إلى مَسْأَلةِ العَلامةِ اللُغَوِيّةِ إلّا إشارةٌ إلى تَوَزُّعِ المَواقِفِ فِي تِلْكَ المَسائِلِ، عَلى تَنَوُّعِها، وَفِي النَظْماتِ المَعْرِفِيّةِ التِي تَـتَداوَلُها، ما بَيْنَ طَرَفَيْ إشْكالٍ أَصْلِيٍّ واحِد...

(ب) اللُغةُ أَيْضًا: ما وَراءَ «التَوْقِيفِ» وَ«الاصْطِلاح»

حِينَ نَفْتَحُ **مُعْجَمَ مَقايِيسِ اللُغةِ** لِابْنِ فارِس عَلى مادّةٍ مِن المَوادِّ التِي تَـتَعاقَبُ فِيهِ مُعالَجَتُها (أَيْ عَلى ما أَصْبَحْنا نُسَمِّيهِ «جَذْرًا» مِنْ جُذُورِ اللُغةِ)، نَقَعُ فِيهِ عَلى شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ عَمّا اعْتَدْنا الوُقُوعَ عَلَيْهِ فِي المَعاجِمِ القَدِيمةِ الأُخْرى. فَهُوَ لا يَبْدَأُ مُعالَجَتَهُ المادّةَ بِتَعْرِيفِ المَصْدَرِ أَو الفِعْلِ الوَحِيدِ أَو الأَشْهَرِ مِنْ بَيْنِ الأَفْعالِ المَأْخُوذةِ مِنْها أَو الاسْمِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِن المُشْتَقّات.

وَإِنَّما يَعْمِدُ أَوَّلًا إلى تَعْريفِ المادّةِ نَفْسِها مُبْتَدِئًا بِتَعْدادِ حُرُوفِها الثَلاثةِ (إنْ كانَتْ ثُلاثِيّةً) دُونَ إِدْراجِ هَذِهِ الحُرُوفِ فِي لَفْظٍ بِعَيْنِهِ وَمُتَخَلِّصًا مِنْ هُناكَ إلى تَعْيِينِ مَعْنًى عامٍّ واحِدٍ (أَوْ مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ فِي بَعْضِ الحالاتِ) تَعْرِيفًا لِلْمادّةِ يُفْتَرَضُ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ أَثَرٌ مُحَقَّقٌ فِي مُشْتَقّاتِها كافّةً.

وَيُشِيرُ عَبْدُ السَلام هارُون، مُحَقِّقُ **المَقاييس**، فِي تَقْدِيمِهِ لِهَذا المُعْجَمِ إلى اعْتِمادِ ابْنِ دُرَيْد (وَهُوَ مَعْدُودٌ بَيْنَ شُيُوخِ ابْنِ فارِس) خُطّةً مُشابِهةً لِخُطّةِ هَذا الأَخِيرِ وَذَلِكَ فِي كِتابِهِ المَشْهُورِ **الاشْتِقاق**. وَلَـكِنَّ كِتابَ **الاشْتِقاقِ** هَذا مُؤَلَّفٌ فِي أَعْلامِ الرِجالِ وَالقَبائِلِ وَما مَتَّ إِلَيْها بِصِلةٍ، عَلى التَخْصِيصِ، يَبْتَغِي تَأْصِيلَها فِي العَرَبِيّةِ، وَلَيْسَ مُؤَلَّفًا فِي مَتْنِ اللُغَةِ عُمُومًا...

وَفِي زَمَنِ ابْنِ فارِسٍ، ارْتَأى ابْنُ جِنِّيّ (وَهُوَ مِنْ مُجايِلِيهِ) أَنْ يُوَسِّعَ نِطاقَ البَحْثِ عَن المَعْنى المُشْتَـرَكِ أَو الأَعَمِّ مِن المادّةِ الواحِدةِ إلى جُمْلةِ «التَقالِيبِ» التِي تَحْتَمِلُها الحُرُوفُ الثَلاثةُ لِهَذِهِ المادّةِ (إنْ كانَتْ ثُلاثِيّةً)... فَخَلَصَ فِي كِتابِهِ **الخَصائِص** إلى وُجُودِ مَعْنًى مُشْتَـرَكٍ لِلتَقالِيبِ السِتّةِ التِي تَحْتَمِلُها حُرُوفُ الكافِ وَاللامِ وَالمِيمِ مَثَلًا، يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي مَعانِي سائِرِ الأَلْفاظِ التِي تُشْتَقُّ مِنْ تِلْكَ التَقالِيبِ أَيْ مِنْ «ك ل م» وَ«ك م ل» وَ«م ل ك» وَ«ل ك م»، إلخ. وَقَدْ أَطْلَقَ اسْمَ «الاشْتِقاقِ الأَكْبَر» عَلى هَذا التَوْلِيدِ لأَلْفاظِ اللُغةِ، لا مِنْ تَوالٍ بِعَيْنِهِ لِحُرُوفِ المادّةِ أَو الجَذْرِ، بَلْ مِنْ كُلِّ تَوالٍ تَحْتَمِلُهُ هَذِهِ الحُرُوفُ نَفْسُها فتَـتَشَكَّلَ مِنْها، قَبْلَ الأَلْفاظِ المُتَحَقِّقةِ فِي الاسْتِعْمالِ، جُمْلةٌ مَحْدُودةٌ مِن المَوادِّ المُوَلِّدةِ لِتِلْكَ الأَلْفاظ. عَلى أَنَّ ابْنَ جِنِّيّ الذِي كانَ يُتابِعُ آخَرِينَ سَبَقُوه فَيَبْسُطُ ما جاؤُوا بِهِ مُوجَزًا مُتَناثِرًا وَيُنَظِّمُهُ، لَمْ يَفْتَرِضْ الاطِّرادَ فِي وُجُودِ مَعْنًى

مُشْتَرَكٍ مُجَرَّدٍ يَنْتَظِمُ فِيهِ كُلُّ مَجْمُوعٍ من مَجامِيعِ المَوادِّ تِلْكَ. وَإِنَّما كانَ حَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي اللُغة.

تَرامَتْ هَذِهِ الأَطْوارُ فِي نَظَرِيّةِ تَكَوُّنِ اللُغةِ عَلى مَدى القَرْنِ الرابِعِ لِلْهِجْرةِ: مِنْ كِتابِ **الاشْتِقاقِ** فِي أَوائِلِ القَرْنِ (أَوْ فِي أَواخِرِ الثالِثِ) إلى **مُعْجَمِ مَقاييسِ اللُغَةِ** وكِتابِ **الخَصائِصِ** فِي أَواخِرِه... وَفِي عَصْرِنا الحاضِرِ، أَقْدَمَ لُغَوِيٌّ مُجَدِّدٌ هُوَ عَبْدُ اللهِ العَلايِليّ عَلى تَجاوُزِ القَوْلِ بِوُجُودِ مَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَ مُشْتَقّاتِ المادّةِ الواحِدةِ أَوْ أَيْضًا بَيْنَ المَوادِّ المُتَوَلِّدةِ مِنْ تَقْلِيبِ الحُرُوفِ المُشَكِّلةِ لِأَيٍّ مِنْها... تَجاوَزَ العَلايِليّ هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ إلى القَوْلِ بِوُجُودِ مَعْنًى يُمْكِنُ تَعَرُّفُهُ لِكُلٍّ مِنْ حُرُوفِ الجَدْوَلِ الهِجائِيِّ بِمُفْرَدِهِ وَاسْتَخْرَجَ بِالفِعْلِ جَدْوَلًا لِمَعاني حُرُوفِ العَرَبِيّة . وَمَعَ أَنَّ قُدَماءَ اللُغَوِيِّينَ أَلَّفُوا فِي «مَعانِي الحُرُوفِ» فَإِنّهُمْ كانُوا يُرِيدُونَ «حُرُوفَ المَعاني» (العَطْفِ، الجَرِّ، إلخ...) فَيُرْشِدونَ إلى مَعانِيها لِلتَفادِي مِن الخَطَأِ فِي اسْتِعْمالِها. وَلَمْ يَكُنْ مُرادَهم القَوْلُ بِمَعْنًى مُطَّرِدٍ فِي اللُغةِ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الجَدْوَلِ الهِجائِيِّ وَلا القَوْلُ بِصِلةٍ ما بَيْنَ هَذا المَعْنى المُفْتَرَضِ وَمَخْرَجِ الحَرْفِ فِي آلةِ النُطْق.

وَما يَنْبَغِي التَنْبِيهُ إلَيْهِ هَهُنا هُوَ أَنَّ عَدَمَ اطِّرادِ الظاهِرةِ، سَواءٌ أَكانَتْ مَعْنًى قارًّا لِحَرْفٍ مُنْفَرِدٍ أَمْ مَعْنًى مُشْتَرَكًا لِمُشْتَقّاتِ مادّةٍ أَوْ لِجُمْلةِ مَوادَّ، لا يَطْعَنُ فِي دَلالَتِها إذا كَثُرَ التَكْرارُ بِحَيْثُ يُزَكّيها. كَذَلِكَ لا يَعْنِي إفْرادُ الحَرْفِ الواحِدِ بِمَعْنًى مُسْتَقِلٍّ أَنَّ إِدْراجَهُ المُنْتَظِمَ فِي بِنى الأَلْفاظِ المُخْتَلِفةِ لا يُعَدِّلُ مِنْ نَصيبِهِ فِي التَشْكِيلِ الصَوْتِيِّ لِدَلالةِ كُلٍّ مِنْها. بَلْ إنَّ المَعْنى المُفْرَدَ لِلْحَرْفِ، فِي هَذِهِ الحالةِ الأَخِيرةِ، يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ قَد استُنْبِطَ بِالتَدْرِيجِ مِنْ أَمْثِلةٍ كَثِيرةٍ متَنَوِّعةٍ اخْتَلَفَ فيها مَوْقِعُهُ وَحَرَكَتُهُ وَعَناصِرُ مُحِيطِه...

لَيْسَ هَذا، فِي كُلِّ حالٍ، مَقامَ الجِدالِ فِي صَوابِ المَنْحى الذِي رَسَمَتْهُ هَذِهِ المُحاوَلاتُ أَوْ بُطْلانِه. فهَذا جِدالٌ عَوِيصٌ لا تَسَعُهُ هَذِهِ العُجالة. وَإِنَّما نَبْتَغِي التَخَلُّصَ إلى ذِكْرِ مَصَبّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِهَذا الجِدال تَـتَنافَسُ فِي الخُطُورة. وَكانَ قَدْ ظَهَرَ مِنْها عِنْدَ اللُغَوِيِّينَ القُدَماءِ، الذِينَ لَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ، يَخْلُو مِنْ عِنايَةٍ بِالكَلامِ وَبِالفِقْهِ، مَصَبٌّ كَلاميّ. فَإِنَّ هَذا التَأَمُّلَ فِي نِظامِ العَلاقةِ بَيْنَ أَلْفاظِ اللُغةِ وَمَعانِيها (أَوْ بَيْنَ الدالّاتِ وَالمَدْلُولاتِ، عَلى ما أَصْبَحَ يُقالُ فِي أَيّامِنا) لا يَنْفَكُّ عِنْدَ القُدَماءِ مِنْ عُلَماءِ العَرَبِيّةِ عَنْ جِدالٍ آخَرَ عاصَرَهُ بَيْنَ «أَهْلِ التَوْقِيفِ» وَ«أهل الاصْطِلاحِ»، أَيْ بَيْنَ الذِينَ قالُوا بِأَنَّ اللُغةَ مَخْلُوقٌ أَنْشَأَهُ الذِي «عَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها» وَالذِينَ قالُوا بِأنَّها تَواضُعٌ وَاصْطِلاحٌ بَيْنَ البَشَر.

وَكانَ ابنُ فارِس، مَثَلًا، مِن القائِلِينَ بِالتَوْقِيفِ فِيما بَقِيَ ابْنُ جِنِّيّ يُصَرِّحُ بِتَرَدُّدِهِ بَيْنَ المَوْقِفَيْن. وَلا غَرْوَ أَنْ تَـكُونَ مَسْأَلةُ «خَلْقِ القُرْآن» الذِي قالَ بِهِ المُعْتَزِلةُ وَقالَ خُصُومُهُمْ مِن الأَشاعِرةِ بِخِلافِهِ فِي مَوْقِعِ القَلْبِ مِنْ هَذِهِ المُناظَرة. وَقَدْ كانَ ابْنُ جِنّيّ مَثَلًا ذا مَيْلٍ مُعْتَزِليّ. وَيُوحِي تَرَجُّحُهُ بَيْنَ مَوْقِفَيْ «الاصْطِلاحِ» وَ«التَوْقِيفِ» بِأَنَّ المَذْهَبَ الكَلامِيَّ لا يَحْسِمُ السُؤالَ المُتَعَلِّقَ بِأَصْلِ اللُغَةِ وَإِنْ يَكُنْ كُلٌّ مِنْهُما مُؤَثِّرًا فِي الآخَر.

لا يَتَخَلَّصُ البَحْثُ اللُغَوِيُّ هُنا مِن البَحْثِ الكَلامِيّ إذَنْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الأَخِيرُ كُلِّيَّ التَحَكُّمِ فِي مَآلاتِ الأَوَّل. وَقَدْ كانَ عَلَيْنا أَنْ نَنْتَظِرَ قُرُونًا لِنَرى اللِسانِيّاتِ الحَدِيثةَ تَـتَأَسَّسُ عَلى اعْتِبارِ اللُغَةِ مُعْطًى يُدْرَسُ بِحَدِّ نَفْسِهِ فَلا يَحْتاجُ دَرْسُهُ إلى البَدْءِ مِنْ أَصْلٍ يَتَأَسَّسُ فِيهِ: «خَلْقًا» وَ«تَوْقِيفًا» كانَ هَذا الأَصْلُ أَم اصْطِلاحًا وَتَواضُعًا بَشَرِيًّا. يُسَهِّلُ حَبْسُ اللُغَةِ فِي نَفْسِها، عَلى هَذِهِ الشاكِلَةِ، تَناوُلَ بِناها وَقَواعِدِها. وَلَـكِنَّهُ لا يُبْطِلُ القَلَقَ الفَلْسَفِيَّ المُتَعَلِّقَ بِنُشوئها وَلا الأَسْئلَةَ

الاجْتِماعِيّةَ المُتَعَلِّقَةَ بِأَدْوارِها فِي «سِياسةِ» العَلاقاتِ بَيْنَ الناطِقِينَ بِها وَبَيْنَ هَؤلاءِ وَعَوالِمِهِمْ. ذاكَ أُفُقٌ نُحاوِلُ اسْتِطْلاعَ مَعالِمِهِ فِي وَقْفَةٍ عَلى حِدة...

(ج) حُرِّيةُ المُخَيِّلةِ وَتَكَوُّنُ اللُغة

لِنُشِرْ بادِئَ بَدْءٍ إلى أَنَّ كَلامَ القُدَماءِ مِنْ لُغَوِيِّي العَرَبِيّةِ فِي «التَوْقِيفِ» وَ«الاصْطِلاحِ» إنَّما يَنْتَمِي إلى البَحْثِ فِي «أَصْلِ الكَلام». وَيَجُوزُ ــ وَلَوْ بِدَرَجةٍ مِن الجَزْمِ أَدْنى ــ أَنْ نُدْرِجَ فِي هَذا البابِ نَفْسِهِ افْتِراضَهُمْ مَعْنًى مُشْتَرَكًا لِلْأَلْفاظِ المُشْتَقّةِ مِن المادّةِ اللُغَوِيّةِ الواحِدة. وَكانَتْ «الجَمْعِيّةُ اللُغَوِيّةُ» فِي بارِيسَ قَدْ حَرَّمَتْ عَلى أَعْضائِها، سَنةَ ١٨٦٦، فِي المادّة الثانِيةِ من نِظامِها، نَشْرَ الأَبْحاثِ فِي مَسْأَلةِ «الأَصْلِ» هَذِهِ مُوحِيةً بِإِدْراجِ الدَفْقِ السابِقِ لِهَذا العَهْدِ مِن الأَبْحاثِ المُشارِ إلَيْها فِي بابِ اللَغْوِ العَقِيم. وَكانَ هَذا التَحْرِيمُ مُنْسَجِمًا تَمامَ الانْسِجامِ وَالمُناخَ «العِلْمَوِيَّ» لِتِلْكَ المَرْحَلة ...

حَتّى إذا عُدْنا إلى قَوْلِ فَرْدِينانْد دُو سُوسُّور بِـ«تَحَكُّمِيّةِ العَلامةِ» اللُغَوِيّةِ، وَهُوَ القَوْلُ الذِي اعْتُبِرَ مُؤَسِّسًا لِلِّسانِيّاتِ الحَدِيثةِ وَلِلْبِنْيَوِيّةِ، عَلى الأَعَمِّ، فِي آنٍ مَعًا، لَمْ يَسَعْنا أَنْ لا نَراهُ جارًّا ذُيُولَ هَذا التَحْرِيم. وَكانَ عَلَيْنا، فِي كُلِّ حالٍ، أَنْ نُلاحِظَ فارِقَيْنِ، عَلى الأَقَلِّ، بَيْنَ طَرْحِ سُوسُّور هَذا، وَهُوَ يُصَرِّحُ بِتَعَذُّرِ البَحْثِ فِي أَصْلِ الكَلامِ، وَطَرْحِ عُلَماءِ العَرَبِيّةِ القُدَماءِ، وَعَلى الأَخَصِّ مِنْهُمْ أَصْحابُ القَوْلِ بِالاصْطِلاحِ أَساسًا لِتَكْوِينِ اللُغَة. الفارِقُ الأَوَّلُ أَنَّ الهَمَّ اللاهُوتِيَّ غائِبٌ عَن اللِسانِيّاتِ المُعاصِرةِ وَأَنَّ الاصْطِلاحَ تَحْكُمُهُ الفَوارِقُ التِي تَنْتَظِمُ بِها الحُقُولُ الدَلالِيّة. وَالفارِقُ الثانِي أَنَّ

المَبْدَأ السُوسُّوريَّ يَضَعُ فِي الصَدارةِ واقِعةَ كَثْرةِ اللُغاتِ، وَهَذِهِ واقِعةٌ تَبْقى هامِشِيّةً، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، فِي طَرْحِ عُلَماءِ العَرَبِيّةِ مِن القُدَماءِ الذِينَ يُجيزُ لَهُم نَفَسُهُم الدِينِيُّ أَنْ يَفْتَرِضُوا وُجودَ أَصْلٍ واحِدٍ لِلُّغاتِ المُخْتَلِفةِ أَوْ لُغَةٍ لآدَم...

وَقَدْ كانَ عَلَيْنا حِينَ عرَضْنا (فِي عَمَلٍ قَدِيمٍ أَشَرْنا إِلَيْهِ سابِقًا) لِمُشْكِلِ العَلاقةِ بَيْنَ مَبانِي الأَلْفاظِ الصَوْتِيّةِ وَمَعانِيها، فِي حالَةِ العَرَبِيّةِ، أَنْ نُواجِهَ ما عَرَضَهُ لُغَوِيُّو العَرَبِيّةِ مِنْ وَقائِعَ لا يَجُوزُ الإعْراضُ عَنْها، بِلا إمْعانِ نَظَرٍ، كُرْمى لِلْمَبْدإِ السُوسُّورِيّ. وَقَدْ وَجَدْنا مَخْرَجًا لِواقِعةِ تَعَدُّدِ اللُغاتِ لا يَفْرِضُ إطْلاقَ القَوْلِ بِتَحَكُّمِيّةِ العَلاقةِ، أَيْ بِغِيابِ الشَبَهِ، بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُول. يُتِيحُ هَذا المَخْرَجَ إدْخالُ المُخَيِّلَةِ أَو «القُوّةِ الواهِمةِ» طَرَفًا رَئِيسًا فِي عَقْدِ الصِلةِ بَيْنَ بُعْدَي العَلامةِ هَذَيْن. وَذاكَ أَنَّنا لَمْ نَجِدْ سَبَبًا لاسْتِثْناءِ العَلامةِ اللُغَوِيّةِ مِنْ حُكْمِ الصِلةِ التِي تَغْلِبُ عَلى أَنْظِمةِ عَلاماتٍ غَيْرِ لُغَوِيّةٍ يَجْتَرِحُها البَشَرُ وَيَدْرُسُها ما أَطْلَقَ عَلَيْهِ المُحْدَثُونَ اسْمَ «العَلامِيّاتِ العامّةِ»، وَيُعْتَبَرُ سُوسُّور مُؤَسِّسًا لَهُ أَيْضًا.

فَهَلْ يَصِحُّ مَثَلًا افْتِراضُ التَحَكُّمِيّةِ فِي العَلاقةِ بَيْنَ الضَوْءِ الأَحْمَرِ، بِما هُوَ دالٌّ، وَفَرْضِ الوُقُوفِ بِما هُوَ مَدْلُول؟ أَمْ إنَّ نَوْعًا مِن الشَبَهِ قائِمٌ بَيْنَ تَصَوُّرِنا لَوْنَ النارِ وَالدَمِ، مِنْ جِهةٍ، وَتَصَوُّرِنا الخَطَرَ الذِي يَنْطَوِي عَلَيْهِ خَرْقُ نِظامِ السَيْرِ، مِن الجِهةِ الأُخْرى؟ وَإذا قِيلَ إنَّ الصِينَ الثَوْرِيّةَ جَعَلَت الأَحْمَرَ لَوْنًا يُجِيزُ مُواصَلَةَ السَيْرِ فَإنَّ ذَلِكَ يُؤَكِّدُ القاعِدةَ مَعَ التَشْدِيدِ عَلى ما تُبْدِيهِ المُخَيِّلةُ مِنْ خُصُوبةٍ فِي الْتِزامِها. وَذاكَ أَنَّ الأَحْمَرَ، فِي الصِينِ، لَوْنُ الثَوْرةِ، وَأَنَّهُ، بِهَذِهِ المَثابةِ، قَرِينٌ لا لِلْخَطَرِ بَلْ لِلْإقْدامِ ولِلسَلامةِ وَالحَصانة.

عَلَيْهِ لا يَكُونُ عَلَيْنا أَنْ نَعْتَبِرَ العَلامَةَ اللُّغَوِيّةَ تَحَكُّمِيّةً، بِمَعْنى الكَلِمةِ المُطْلَقِ، لِتَفْسِيرِ تَعَدُّدِ اللُّغات. بَلْ يَكُونُ عَلَيْنا أَنْ نَفْتَرِضَ لا الشَبَهَ بَلْ ما سَمَّيْناهُ «تَوَهُّمَ شَبَهٍ» بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُول. وَالحالُ أَنَّ التَوَهُّمَ، وَمَعَهُ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ تَـكْثِيرٍ لِلْخِياراتِ، لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعْرُوَ الشَبَهَ حِينَ يُطْلَبُ الشَبَهُ بَيْنَ سِلْسِلةٍ صَوْتِيّةٍ مَحْدُودةٍ هِيَ اللَفْظُ وَتَصَوُّرٍ تُسَمِّيهِ هَذِهِ السِلْسِلةُ وَلا يَكُونُ مُنْتَمِيًا إلى المَسْمُوعِ أَوْ لا يَكُونُ مُنْتَسِبًا إلى عالَمِ الحِسِّيّاتِ كُلِّها أَصْلًا. فِي هَذِهِ الحالاتِ ـ بَلْ فِي جَمِيعِ الحالاتِ، فِي الواقِعِ ـ يَنْتَمِي الشَبَهُ إلى دائِرةِ المَجازِ لا إلى دائِرةِ الحَقِيقة. وَهُوَ ما حَمَلَنا عَلى تَسْمِيَةِ الدَرْسِ الذِي يُفْتَرَضُ أَنْ يَتَناوَلَ العَلاقةَ بَيْنَ الدالاّتِ وَالمَدْلُولاتِ، فِي هَذا الإِطارِ النَظَرِيِّ الذِي نَقْتَرِحُ، «عِلْمَ المَجازِ الصَوْتِيّ».

وَلْنُكَرِّر القَوْلَ أَنَّهُ حَيْثُ يَدْخُلُ التَوَهُّمُ تُصْبِحُ المُمْكِناتُ غَيْرَ مَحْدُودةٍ وَيَتَيَسَّرُ لِكُلِّ لُغةٍ أَنْ تُدْرِجَ فِي نِظامِها ما تَـكْتَنِزَهُ مِنْ حالاتِ التَوَهُّمِ تِلْكَ وَيَغْدُو مُمْكِنًا تَكاثُرُ اللُغاتِ عَلى قَدْرِ ما تَسَعُ المُخَيِّلة. يَبْقى صَحِيحًا أَنَّ «تَوَهُّمَ الشَبَهِ» الذِي يَبْدُو واضِحًا فِي الأَلْفاظِ التِي تُسَمِّيها العَرَبِيّةُ «حِكايةَ صَوْتٍ»، مَثَلًا، لا تُدْرِكُهُ الأُذُنُ، فِي غَيْرِ هَذِهِ الفِئةِ مِن الأَلْفاظِ، دُونَ عَناءٍ فِي البَحْثِ، عَلى الأَغْلَبِ، وَلا يَتَـتَبَّعُهُ السامِعُ بِلا حَفْرٍ وَتَنْقِيب. وَذاكَ أَنَّ نُمُوَّ اللُغةِ وَتَحَوُّلاتِها تَـتَحَكَّمُ فِيها عَوامِلُ مُتَنَوِّعةٌ لَيْسَ «تَوَهُّمُ الشَبَهِ» سِوى واحِدٍ مِنْها وَأَنَّ هَذِهِ العَوامِلَ تَـتَغالَبُ وَيَطْغى بَعْضٌ مِنْها عَلى بَعْض. أَيْسَرُ مِثالٍ لِذَلِكَ ما يُسَمّى «الاسْتِثْقالَ» وَهُوَ يُفْضِي إلى إِبْدالِ صَوْتٍ بِصَوْتٍ فِي الكَلِمةِ المَنْطُوقةِ (وحَرْفٍ بِحَرْفٍ فِي المَكْتُوبةِ، تَبَعًا لِذَلِكَ) تَيْسِيرًا لِنُطْقِها. فَمِثْلُ هَذا لا يَدْخُل تَحْتَ عُنْوانِ «الاصْطِلاحِ»،

ناهيكَ بِأَنْ يَدْخُلَ تَحْتَ عُنْوانِ «التَحَكُّم». وَإنَّما يَنْتَمي إلى فِئةٍ أُخْرى مِنْ فِئات العِلَلِ التِي تَـتَحَكَّمُ فِي تَطَوُّرِ اللُغة. وَهَذِهِ فِئاتٌ عِدّةٌ يَتَشَكَّلُ مِن البَحْثِ فِيها وَتَـتَبُّعِ آثارِها المُتَشابِكةِ تارِيخُ اللُغات أَوْ ــ عَلى الأَحْوَطِ ــ تارِيخُ الأَلْفاظ.

بَقِيَ أَنْ نُشيرَ أَخِيرًا، وَلَوْ مُتَعَجِّلِينَ، إلى ما فِي هَذا كُلِّهِ مِنْ سِياسة. فَإِنَّ فَرْضِيّةَ «التَوْقِيفِ»، مَثَلًا، مُبْطِلةٌ لِلْحُرِّيةِ فِي العَلاقةِ ما بَيْنَ الناطِقِينَ بِاللُغةِ ولُغَتِهِمْ. وَكَذَلِكَ شَأْنُ التَقْيِيدِ الذِي يَفْتَرِضُ لُزُومَ شَبَهٍ وَحِيدِ الوَجْهِ ما بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُول. وَأَمّا ما يَرُدُّ الحُرِّيّةَ وَيَفْتَحُ أَبْوابَ الإبْداعِ عَلى مَصارِيعِها، مِنْ غَيْرِ مُعانَدةٍ لِوَقائعَ كَـثِيرةٍ تُزَكِّي مَبْدَأَ «الشَبَهِ» سَجَّلَها عُلَماءُ العَرَبِيّةِ، فَهُوَ إيكالُ أَمْرِ العَلاقةِ بَيْنَ الدالِّ والمَدْلُولِ إلى المُخَيِّلة. لا تَنْهَضُ كَـثْرةُ اللُغاتِ حُجّةً فِي وَجْهِ هَذا الخِيار. فَهُوَ لا يُبْطِلُ التَحَكُّمِيّةَ مِنْ أَصْلِها وَإنَّما يُبَدِّلُ مِنْ مَعْناها وَمِنْ طَبيعَتِها إِذْ يُبِيحُ تَقَبُّلَها ما تُوحِي السُوسُّورِيّةُ بِاعْتِبارِهِ نَقِيضًا لَها: أَيْ ضَرْبًا غَيْرَ مَحْدُودِ المُحْتَمَلاتِ مِن الشَبَهِ بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُولِ آلَتُهُ المُخَيِّلةُ وَعِمادُهُ حُرِّيّةُ التَخَيُّل... أَوْ أَنَّ هَذا ما اسْتَقَرَّ عَلَيْه بَحْثُنا المُتَواضِعُ، فِي الأَقَلّ...

(د) لُغَةٌ مُشْكِلةٌ أَمْ عالَمٌ مُشْكِل؟

هُنا أَوْ هُناكَ يَقَعُ واحِدُنا عَلى إشارةٍ (إنْ لَمْ يَقَعْ عَلى مُطالَعةٍ ضافِيةٍ) يَأْخُذُ صاحِبُها عَلى العَرَبِيّةِ عَجْزَها عَنْ مُجاراةِ ما يُسَمّى الحَضارةَ الحَدِيثةَ أَوْ المُعاصِرةَ، وَهَذِهِ، فِي واقِعِ الحالِ، حَضارات. يُقابِلُ وُجْهةَ النَظَرِ هَذِهِ

مَوْقِفٌ آخَرُ يَنْبَري لِلدِفاعِ عَنْ اللُغةِ بِإبْرازِ ثَرائِها الضَخْمِ بِالأَلْفاظِ وَالطَواعِيّةِ المُؤَكَّدةَ لِبناها وَتِمَكُّنِها، فِي ماضٍ مَضى، مِن الاسْتِواءِ مَرْكَبًا لِحَضارةٍ عَظِيمةٍ كانَ بُناتُها ناطِقِينَ بِالضادِ ومِنْ مُسايَرةِ انْفِتاحِهِمْ، نَظَرًا وَتَرْجَمةً، عَلى حَضاراتٍ عَظِيمةٍ أَيْضًا كانَتْ قَدْ سَبَقَتْ زَمانَهُمْ.

يُشَدِّدُ الأَوَّلُونَ عَلى الفَيْضِ مِن الأَلْفاظِ غَيْرِ العَرَبِيّةِ (بَلْ وَمِن التَراكِيبِ وَالبِنى الأَجْنَبِيّةِ أَيْضًا) مِمّا يزْخَرُ بِهِ كَلامُنا اليَوْمِيُّ وَيُبْرِزُونَ كَذَلِكَ ما يَلْقاهُ المُتَرْجِمُ العَرَبِيّ، لا فِي نَقْلِ النُصُوصِ العِلْمِيّةِ أَوْ الفَنِّيّةِ وَحَسْبُ، بَلْ فِي نَقْلِ أَعْمالٍ مِنْ قَبِيلِ النَثْرِ الروائِيِّ أَيْضًا. وَيَرُدُّ الآخَرُونَ بِمَدائِحَ يَخُصُّونَ بِها نِظامَ الاشْتِقاقِ العَرَبِيّ بِما يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ كَثْرةِ المَوازِينِ واخْتِصاصِ كُلٍّ مِنْها بِفِئةٍ مَعْنَوِيّةٍ بِحَيْثُ يَتَيَسَّرُ لِلْمُتَرْجِمِ أَنْ يَخْتارَ مِنْها ما يُناسِبُ اللَفْظَ أَوْ المُصْطَلَحَ الأَجْنَبِيَّ الذِي يَسْتَوْقِفُهُ وَأَنْ يَقْتَرِحَ لَهُ ما يَجِدُهُ حَسَنًا مِن الكَثِيرِ المَوْجُودِ أَوْ يَلْجَأَ إلى الوَضْعِ عِنْدَ الضَرُورة. وَيُضِيفُ هَؤلاءِ إلى الاشْتِقاقِ سُبُلًا أُخْرى مِنْ قَبِيلِ النَحْتِ، وَهُوَ الاجْتِزاءُ مِنْ لَفْظَيْنِ لِدَمْجِهِما فِي واحِدٍ جَدِيدٍ، أَوْ تَعْرِيبِ الأَلْفاظِ وَهُوَ تَبَنِّي اللَفْظِ غَيْرِ العَرَبِيّ بَعْدَ تَطْوِيعِهِ، إذا لَزِمَ الأَمْرُ، لِواحِدٍ مُناسِبٍ مِن الأَوْزانِ الصَرْفِيّة. إلخ.

عَلى أَنَّ هَذَيْنِ الفَرِيقَيْنِ مِن المُجادِلِينَ يُهْمِلُ كِلاهُما، فِي مُعْظَمِ الحالاتِ، مَسْأَلَتَيْنِ حَيَوِيَّتَيْنِ لِلْغايةِ لا مَسْؤُولِيّةَ لِلْفُصْحى عَنْهُما. أُولاهُما مَسْأَلةٌ غَيْرُ لُغَوِيّةٍ أَصْلًا، بِمَعْنى الكَلِمةِ الدَقِيقِ، هِيَ ما نَرى تَسْمِيَتَهُ «مَسْأَلَةَ أَصْلِ العالَمِ» الذِي باتَ الناطِقُونَ بِالعَرَبِيّةِ مُقِيمِينَ فِيه. وَأَمّا الثانِيةُ فَهِيَ مَسْأَلةُ العامِّيّاتِ وَاسْتِوائِها مَراكِبَ لِلتَعامُلِ الأَوَّلِ أَو المُباشَرِ مَعَ العالَمِ المَذْكُورِ وَأَثَرِ ذَلِكَ عَلى اسْتِعْدادِ الفُصْحى التِي يَصِلُ إِلَيْها طَلَبُ التَعامُلِ المُشارِ إِلَيْهِ

مُتَأَخِّرًا فِي الغالِب... يَصِلُ إِلَيْها بَعْدَ أَنْ تَكُونَ اسْتِجابةُ العامِّيّةِ (أو العامِّيّاتِ) قَدْ حَصَلَتْ وَفَرَضَتْ نَفْسَها واقِعةً يَتَعَذَّرُ تَجاهُلُها عَلى المُقارَبةِ الفُصْحى لِلتَحَدّي نَفْسِه. فَالحالُ أَنَّ الفُصْحى، بِما هِيَ نِظامٌ وَتُراثٌ، كَثِيرًا ما تَأْنَفُ مِن الحَلِّ الذِي تَرْتَضِيهِ وَتفْرِضُهُ عامِّيّةٌ مِن العامِّيّاتِ لِمَسْأَلةٍ جَدِيدةٍ مِنْ مَسائِلِ التَسْمِيةِ التِي تُطْرَحُ عَلى المُتَحَدِّثِ أَوْ تُطْرَحُ عَلى مُؤَلِّفٍ أَوْ مُتَرْجِمٍ.

وَما نُسَمِّيهِ مَسْأَلةَ «أَصْلِ العالَمِ» هَهُنا إِنَّما هُوَ الإِشْكالُ الناجِمُ عَنْ سُكْنانا عالَمًا باتَ مُسْتَوْرَدًا مِنْ أَلِفِهِ إِلى يائِهِ تَقْرِيبًا. لَيْسَ عَلَيْنا إِلّا التَلَفُّتُ حَوْلَنا لِنَتَحَقَّقَ مِنْ كَوْنِ الأَشْياءِ التِي تَحُفُّ بِنا مِنْ كُلِّ جانِبٍ إِنَّما هِيَ، فِي مُعْظَمِها، أَشْياءُ وَصَلَتْ إِلَيْنا مِنْ خارِجِ نِطاقِنا الحَضارِيِّ وَوَصَلَ مَعَها أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْ وُجُوهِ تَصَرُّفِنا بِها وَتَفاعُلِنا مَعَها. قَدْ تَكُونُ قِطْعةُ الأَثاثِ هَذِهِ صُنِعَتْ فِي مَعْمَلٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْ بَيْتِي. وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ جاءَ مِثالُها الأَوَّل؟ وَأَهَمُّ مِنْ هَذا، فِي ما يَعْنِينا هُنا، أَنْ نَسْأَلَ مِنْ أَيْنَ جاءَ اسْمُها. وَلا يُقْتَصَرُ الأَمْرُ عَلى الأَشْياءِ المَصْنُوعةِ التِي تَتَكَوَّنُ مِنْها بِيئةُ حَياتِنا. فَحَتّى المَزْرُوعاتُ التِي نَسْتَنْبِتُها وَنَعُدُّها مِنْ عَطايا الطَبِيعةِ وَفَدَ عَلَيْنا كَثِيرٌ مِنْها وَمَعَها أَسْماؤُها مِنْ دِيارٍ بَعِيدة. وَحَتّى مُؤَسَّساتُ المُجْتَمَعِ وَنُظُمُ الأَفْكارِ الجَدِيدةُ نُسِجَتْ عَلى مِنْوالاتٍ مُسْتَوْرَدةٍ هِيَ أَيْضًا. وَغَنِيٌّ عَنِ القَوْلِ أَنَّ ما يَحْمِلُ، فِي جُمْلَتِهِ، اسْمًا واحِدًا تَحْمِلُ أَجْزاؤُهُ أَوْ مُكَوِّناتُهُ أَسْماءً أُخْرى وتَلْزَمُ لاسْتِعْمالِهِ أَوْ لِلتَصَرُّفِ بِهِ أَفْعالٌ وَعِباراتٌ قَدْ يَكُونُ بَعْضُها وُضِعَ لَهُ، عَلى التَخْصِيصِ، أَوْ اعْتُمِدَ لِلْفِئةِ التِي يَنْتَمِي إِلَيْها فِي الأَقَلّ.

فَالحالُ أَنَّنا أَصْبَحْنا نُتَرْجِمُ مُعْظَمَ حَياتِنا وَالعالَمَ الذِي تَنْدَرِجُ فِيهِ هَذِهِ

الحَياةُ عَنْ عَوالِمَ أَجْنَبِيّةٍ ولُغاتٍ غَرِيبة. فَباتَ مُحالًا اعْتِبارُ التَرْجَمةِ أَمْرًا اسْتِكْمالِيًّا يَطْرَأُ عَلى دُنْيا تامّةِ الأَوْصافِ أَوْ هِيَ مُكْتَمِلةُ العَناصِرِ بِمَعْزِلٍ عَنْ حُصُولِه. وَأمّا مُنْطَلَقُ هَذِهِ الواقِعةِ الضَخْمةِ فَهُوَ أَنَّ الأَشْياءَ المُسْتَوْرَدَةَ تَفِدُ، فِي كَثِيرٍ مِن الحالاتِ، وَمَعَها أَسْماؤُها بِلُغاتِ المَنْشَإِ وَمَعَ الأَسْماءِ أَلْفاظٌ أُخْرى هِيَ لَوازِمُ الاسْتِعْمالِ وَالتَدَبُّر. وَهُوَ ما يُمَثِّلُ تَحَدِّيًا ضَخْمًا، بِمَعْنى الضَخامةِ الحَرْفِيِّ، لِلُغَةٍ مَنْ يَبْقى إسْهامُهُم فِي صُنْعِ عالَمِهِمْ ضَئيلًا فَتَبْقى سُلْطَتُهُم اللُغَوِيّةُ عَلَيْهِ مُخَرَّقةً هُنا مَهْزُوزةً هُناكَ مُتَهالِكةً هُنالِك. تِلْكَ هِيَ المَسْأَلةُ التِي سَمَّيْناها مَسْأَلةَ «أَصْلِ العالَم».

وَأَمّا دَوْرُ العامِّيّاتِ أَوالمَحْكِيّاتِ فِي مُفاقَمةِ المِحْنةِ التِي تُمَثِّلُها لِلْفُصْحى عَلاقَتُها بِهَذا العالَمِ المُمْعِنِ فِي التَغَيُّرِ دُونَ تَوَقُّفٍ فَهُوَ جَلِيّ. وَذاكَ أَوَّلًا أَنَّ العامِّيّاتِ مُتَساهِلةٌ لِلْغاية، مَفْتُوحةُ الشَهِيّةِ لِلَّفْظِ الوافِدِ، تُسْرِعُ إلى اعْتِمادِهِ وَإنْ يَكُنْ مُخالِفًا لِأَدْنى مَطالِبِ الفُصْحى وَشُرُوطِها. فَتَقْبَلُ العامِّيّةُ، فِي ما تَقْبَلُ، أَصْواتًا لُغَوِيّةً لا وُجُودَ لَها فِي العَرَبِيّةِ وَلا تَسْأَلُ عَنْ مُطاوَعةِ اللَفْظِ الجَديدِ لوَزْنٍ صَرْفِيٍّ عَرَبِيٍّ يُلائِمُ مَعْناهُ وَمَبْناهُ وَلا يُقْلِقُها أنْ يَبْدَأَ اللَفْظُ بِحَرْفٍ صَحِيحٍ ساكِنٍ، مَثَلًا، أَوْ أَنْ يَلْتَقِيَ فِيهِ ساكِنانِ، إلخ. ثُمَّ إنَّ العامِّيّاتِ كَثِيرةٌ وَيَحْصُل أَنْ تَأْخُذَ واحِدةٌ مِنْها بِحَلٍّ لِمَسْأَلةٍ مِنْ مَسائِلِ التَسْمِيةِ تُطْرَحُ عَلَيْها وتأخذَ الأُخْرى بِحَلٍّ آخَر...

وَأَمّا الفُصْحى فَتَصِلُ إلى ساحةِ الحُلُولِ مُتَأَخِّرةً فِي أَكْثَرِ الأَحْوال. وَهِيَ تَلْقى، إذْ تُواجِهُ ما تُرْسِيهِ العامِّيّاتُ، عَناءً فِي فَرْضِ ما تَراهُ مُناسِبًا لِذائِقَتِها وَلأُصُولِها عَلى الجُمْهُور. وَكَثِيرًا ما يَخِيبُ سَعْيُ الفُصْحى فَتُداخِلُ النُصُوصَ المَوْضُوعةَ فيها أَلْفاظٌ وَتَراكِيبُ لَمْ تَجِد اللُغةُ سَبِيلًا إلى نَبْذِها فِيما تُنْبَذُ

بَدائِلُ فَصِيحةٌ اقْتَرَحَها اللُغَوِيُّون. وَلا تَكادُ تُحْصى مُحْتَوَياتُ سَلَّةِ المُهْمَلاتِ اللُغَوِيّةِ مِنْ حُلُولٍ اقْتَرَحَها اللُغَوِيُّ وَاسْتَبْعَدَها الجُمْهُورُ، وَبَعْضُها مُمْتازٌ وَبَعْضُها أَمْسى مادّةً لِتَنَدُّرِ المُتَنَدِّرِين.

لا أَمَلَ فِي حَلٍّ شامِلٍ لِمُشْكِلةِ العَلاقةِ هَذِهِ بَيْنَ الفُصْحى وَالعالَمِ المُعاصِرِ ما دامَ أَهْلُ الفُصْحى لا يَجِدونَ سَبِيلًا إلى تَحْسِينِ مَوْقِعِهِمْ مِنْ هَذا العالَمِ وَتَعْظِيمِ نَصِيبِهِمْ مِنْ إنْشائِهِ المُتَواصِل. فَما يَخُصُّ اللُغَةَ نَفْسَها مِنْ هَذِهِ المُشْكِلةِ يَبْقى مَحْدُودًا، عَلى أَهَمِّيَّتِه. وَلا يُبْطِلُ هَذا ضَرُورةَ السَعْيِ المُعَزِّزِ لِتَيْسِيرِ الفُصْحى وَتَوْسِيعِ قابِلِيَّتِها لِمُنافَسةِ العامِّيّاتِ أَوْ مُسايَرَتِها فِي اسْتِقْبالِ كَلامِ العالَمِ المُتَجَدِّدِ وَالتَعْبِيرِ عَنْ حَفاوَتِها بِه. وَهَذِهِ مُهِمّةٌ عَرَضْنا، فِي أَعْمالٍ قَدِيمةٍ، لِمُقْتَضَياتِ القِيامِ بِأَعْبائِها وَلَكِنَّ الحاجَةَ إلى مُعاوَدةِ البَحْثِ فِيها مُؤَكَّدة.

(هـ) فِي السُلْطةِ اللُغَوِيّة مَرّةً أُخْرى...

يَحْسَبُ العَرَبُ مِنْ ذَوِي الاخْتِصاصِ، عَلى اخْتِلافِ الحُقُولِ، أَنَّ فِي وُسْعِهِمْ تَجْدِيدَ المُصْطَلَحِ، كُلٌّ فِي حَقْلِ اخْتِصاصِهِ، أَوْ الزِيادةَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ حاجةٍ إلى اسْتِشارةِ اللُغَوِيّ. وَقَدْ يُشارِكُهُمْ هَذا الظَنَّ صَحافِيُّونَ تُبِيحُ لَهُمْ مِهْنَتُهُمْ تَجْوالًا حُرًّا بَيْنَ حُقولٍ عِدّةٍ فَيَرُوحُونَ يَقْتَرِحُونَ عَلى العَرَبِيّةِ مُصْطَلَحاتٍ جَدِيدةً فِي أَكْثَرَ مِنْ حَقْلٍ واحِد. يَجْمَعُ الأَوَّلُونَ، عَلى الأغْلَبِ، مَعْرِفةً حَسَنةً بِحَقْلِ الاخْتِصاصِ إلى نَقْصٍ فِي الكَفاءةِ اللُغَوِيّةِ التِي يَفْتَرِضُها هَذا النَوْعُ مِن المُقْتَرَحات. وَيَقْرِنُ الأَخِيرُونَ، عَلى الأغْلَبِ أَيْضًا، نَقْصًا فِي الأَخِيرةِ إلى

نَقْصٍ فِي الأُولى. هَكَذا تَمْتَلِئُ حُقُولُ الاصْطِلاحِ المُخْتَلِفَةُ، مِنْ عِلْمِيّةٍ وَفَنِّيّةٍ، بِطَحالِبَ لُغَوِيّةٍ يُصْبِحُ الخَلاصُ مِنْها غايةً فِي الصُعُوبة.

وَيَزِيدُ مِنْ حِدّةِ هَذِهِ المُشْكِلةِ ما يُلازِمُ السُلْطَةَ اللُغَوِيّةَ مِنْ ضَعْفٍ فِي مَجالِ العَرَبِيّة. وَما نَسَمِّيهِ السُلْطةَ اللُغَوِيّةَ يَتَمَثَّلُ فِي مَجامِعِ اللُغة، أَوَّلًا، وَفِي مَراكِزَ صَرَفَتْ وَأَفْرادٍ صَرَفُوا جُهودًا مُرَكَّزةً لِوَضْعِ المَعاجِمِ الفَنِّيّةِ وَمَسارِدِ المُصْطَلَحاتِ عَلى اخْتِلافِها. وَقَدْ يَتَمَثَّلُ الجُهْدُ المَبْذُولُ فِي تَآلِيفَ قائِمةٍ بِرَأْسِها، مُكَرَّسةٍ لِلْمُصْطَلَح. وَقَدْ يُقْتَصَرُ عَلى مَسْرَدٍ لِلْمُصْطَلَحاتِ يُلْحِقُهُ المُتَرْجِمُ بِكِتابٍ نَقَلَهُ عَنْ لُغةٍ أُخْرى. وَلا يَجُوزُ أَنْ نَجْعَلَ التَقْصِيرَ عُنْوانًا لِتَقْوِيمِنا حَصِيلةَ هَذِهِ الجُهُودِ، فِي كُلِّ مَجال. بَل الأَرْجَحُ أَنَّ التَقْصِيرَ، إِذا وُجِدَ، فَهُوَ يَتَفاوَتُ بَيْنَ مَجالٍ وَآخَرَ وَلا يُبْطِل القِيمةَ العَظِيمةَ لِلْجُهودِ المَبْذُولةِ فِي كُلِّ حال. وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّ بَيْنَ المُتَرْجِمِينَ أَنْفُسِهِمْ مَنْ لا يُحْسِنُ الأُصُولَ الضابِطةَ لِوَضْعِ المُصْطَلَحِ أَوْ لِتَعْرِيبِهِ وَيُبْدِي تَساهُلًا غَيْرَ مَحْمُودٍ فِي حَقِّ اللُغةِ حِينَ يَقْتَرِحُ مُقابِلًا لِهَذا أَوْ ذاكَ مِن المُصْطَلَحاتِ التِي وَقَعَ عَلَيْها فِي النَصِّ غَيْرِ العَرَبِيّ.

عَلى أَنَّ مُشْكِلًا عَوِيصًا يَسْتَوْقِفُ الناظِرَ فِي هَذا الحَقْلِ هُوَ ذاكَ المُتَعَلِّقُ بِتَفَتُّتِ السُلْطةِ اللُغَوِيّةِ أَيْ بِوُجُودِ مَراكِزَ لَها، مُؤَسَّسِيَّةٍ وَفَرْدِيَّة، تَكادُ لا تُحْصى. وَلَكانَتْ هَذِهِ الكَثْرةُ تُعَدُّ نِعْمةً لَوْ وُجِدَ قَدْرٌ مِنْ تَراتُبِ السُلُطاتِ يَمْنَحُ واحِدًا مِن المَراكِزِ أَوْ عَدَدًا مَحْدُودًا مِنْها قُدْرةً عَلى التَحْكِيمِ عِنْدَ وُقُوعِ الخِلافِ الذي يَقَعُ فِعْلًا فِي كَثْرةٍ مِن الحالات. وَهَذا إِلى القُدْرةِ عَلى التَصْوِيبِ عِنْدَ وُقُوعِ الخَطَإِ اللُغَوِيِّ الصَرِيحِ وَهُوَ غَيْرُ نادِرِ الوُقُوعِ أَيْضًا.

هَذِهِ السُلْطةُ يُفْتَرَضُ أَنْ تَـكُونَ مَنُوطةً بِواحِدٍ مِنْ مَجامِعِ اللُغَةِ (وَمَجْمَعُ القاهِرةِ هُوَ الأَوْلى بِتوَلِّيها) أَوْ بِهَذِهِ المَجامِعِ كُلِّها (التي باتَ اتِّحادُ المَجامِعِ يَضُمُّ عَشَرةً مِنها) عَلى أَنْ يَنْشَأَ بَيْنَها تَنْسِيقٌ مُنْتَظِمٌ تَصِلُ نَتائِجُهُ إلى الجُمْهُور. وَالواقِع أَنَّ مَسْأَلةَ الوُصُولِ إلى الجُمْهُورِ هَذِهِ أَيْ مَسْأَلةَ المَنْظُورِيّةِ هِيَ المَسْأَلةُ العَوِيصةُ التِي تَبْدُو الجُهُودُ المَبْذُولةُ لِحَلِّها قاصِرةً لِلْغايةِ حَتّى الآن. فَإنَّ حَصادَ مَجْمَعِ القاهِرةِ، عَلى التَخْصِيصِ، مِن المَعاجِمِ الفَنِّيّةِ التِي هِيَ ثَمَراتُ جُهُودٍ مُتَّصِلةٍ مِنْ عُقُودٍ كَـثِيرةٍ، حَصادٌ وَفِيرٌ يَسْتَحِقُّ التَحِيَّة. وَهَذا ناهِيكَ بِقِيمةِ **المُعْجَمِ اللُغَوِيِّ الكَبِيرِ** الذِي يَنْكَبُّ المَجْمَعُ عَلى وَضْعِهِ وَلَوْ بِبِطْءٍ يَجِدُهُ المُهْتَمُّ مُمِضًّا. وَلَـكِنَّ هَذا كُلَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتاحٍ لِأَصْحابِ الحاجةِ إِلَيْهِ، بِاسْتِثْناءِ **المُعْجَمِ الوَسِيطِ** الذِي عَرَفَ انْتِشارًا وَلَـكِنَّهُ لا يَفِي بِما يَسْتَوْقِفُنا هَهُنا مِنْ حاجات. وَما يَدْعُو إلى مَزِيدٍ مِن الأَسَفِ أَنَّ ما تُتِيحُهُ الشَبَكةُ العَنْكَبُوتِيّةُ مِنْ إمْكاناتِ النَشْرِ وَتَيْسِيرِ الوُصُولِ بِالأَعْمالِ إلى الجُمْهُورِ وَالتَوَسُّعِ فِيهِ يُسْتَثْمَرُ اسْتِثْمارًا ضَيِّقًا وَكَـثِيرَ الثَغَراتِ مِنْ جانِبِ المَجامِعِ. فَإِنَّ مَواقِعَ المَجامِعِ لا تَفِي بِشَيْءٍ يُذْكَرُ مِمّا يُؤَمَّلُ مِنْها. فَتَبْقى أَزْمةُ المَنْظُورِيّةِ عَلى حالِها تَقْرِيبًا ويَبْقى بابُ الارْتِجالِ مُشْرَعًا أَمامَ مَنْ يَعْتَقِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ كَفاءةً هُمْ بَعِيدُونَ عَنْ حِيازَتِها.

ما أَنْواعُ الخَطَإِ وَالفَوْضى التِي يَتَوَجَّبُ عَلى السُلْطةِ اللُغَوِيّةِ أَنْ تُواجِهَها؟ هِيَ تِلْكَ التِي يَقَعُ فِيها مُرْتَجِلُو المُصْطَلَحاتِ ثُمَّ تَشِيعُ وَتَذِيع. وَتَقْتَضِي المُعالَجةُ اسْتِباقَ هَذا النَوْعِ مِن الخَطَإِ أَوْ مُواجَهَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرّ. وَيَفْتَرِضُ النَجاحُ فِي أَداءِ هَذِهِ المُهِمّةِ تَوَفُّرَ ما نُسَمِّيهِ «السُلْطةَ» عَلى الصَوْتِ المَسْمُوع. وَلِإِسْماعِ الصَوْتِ وَإِذاعةِ الكَلِمةِ وَسائِلُ مَعْلُومة. وَلَـكِنَّ الثِقةَ

بِأَصْحابِ الصَوْتِ، أَيْ حِيازَتَهُمْ ما يَكْفِي مِنْ رَأْسِ المالِ الرَمْزِيِّ المُتَمَثِّلِ فِي ثِقةِ الجُمْهُورِ بِهِمْ وَأُنْسِهِ إلى آرائِهِمْ، هِيَ الشَرْطُ الشارِطُ لِجَعْلِ الصَوْتِ المَسْمُوعِ نِداءً مُجابًا فَلا يَبْقى جَعْجَعةً بِلا طَحْن.

(و) فِي المُصْطَلَحِ الجَدِيدِ وَضْعًا وَتَعْرِيبًا

لا نَمْلِكُ هَهُنا أَنْ نُجاوِزَ الإشارةَ السَرِيعةَ إلى أَنْواعِ الخَطَإِ التِي يَقَعُ فيها مُرْتَجِلُو المُصْطَلَحاتِ ثُمَّ تَشِيعُ وَتَذِيع. فَالمُصْطَلَحُ الجَدِيدُ، سَواءٌ أَكانَ اسْمًا لِتَصَوُّرٍ فَلْسَفِيٍّ أَم اسْمًا لِجِهازٍ جَدِيدٍ أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ يَدْخُلُ اللُغَةَ إمّا بِالوَضْعِ وَإمّا بِالتَعْرِيب. وَمَعْنى الوَضْعِ أَنْ يُوجَدَ مِنَ العَرَبِيّةِ نَفْسِها مُفْرَدَةٌ أَوْ مُرَكَّبٌ يُعْتَمَدُ مُقابِلًا لِلْمُصْطَلَحِ المُرادِ نَقْلُه. وَمَعْنى التَعْرِيبِ أَنْ يُعْتَمَدَ المُصْطَلَحُ الأَجْنَبِيُّ بِصُورَتِهِ الصَوْتِيَّةِ نَفْسِها بَعْدَ تَطْوِيعِ هَذِهِ الصُورَةِ بِحَيْثُ تُراعِي قَواعِدَ الصَرْفِ العَرَبِيّ نُطْقًا وَتُؤَدِّيها حُرُوفُ العَرَبِيّةِ كِتابةً.

وَيُفْتَرَض فِي الواضِعِ أَنْ يَكُونَ مُلِمًّا بِالذَخِيرَةِ الضَخْمةِ التِي تَرَكَها القُدَماءُ لَنا فِي حُقُولٍ كَثِيرةٍ وَأَكْثَرُها مُثْبَتٌ فِي كُبْرَياتِ المَعاجِمِ القَدِيمةِ مِنْ لُغَوِيّةٍ وَفَنِّيّة. وَيُفْتَرَضُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عارِفًا أَيْضًا بِما قَدْ يَكُونُ المُحْدَثُونَ اقْتَرَحُوهُ حَتّى لا يَزِيدَ طِينَ التَفَتُّتِ بِلّةً مِنْ غَيْرِ داعٍ يُسَوِّغُ لَهُ ذَلِكَ. وَيُفْتَرَضُ فِيهِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ عارِفًا أُصُولَ الاشْتِقاقِ وَالنَحْتِ العَرَبِيّةِ وَمَعانِيَ الوِزاناتِ الصَرْفِيّةِ فَلا يَضَعَ اسْمَ مَفْعُولٍ، مَثَلًا، لمُصْطَلَحٍ لَهُ مَعْنى الفاعِلِ.

هَذِهِ المَعارِفُ نَفْسُها تُفْتَرَضُ فِي المُعَرِّبِ الذِي لا يَجُوزُ لَهُ الجُنُوحُ إلى التَعْرِيبِ أَصْلًا إلّا بَعْدَ التَثَبُّتِ مِنْ تَعَذُّرِ الوَضْعِ المُناسِبِ لِلْحاجة. فَمَعَ أنَّ

دُخُولَ الأَلْفاظِ الأَجْنَبِيّةِ حَرَمَ العَرَبِيّةِ أَمْرٌ قَدِيمٌ قِدَمَ اللُغةِ، مُحَقَّقٌ فِي حالةِ القُرْآنِ نَفْسِه، وَأَنَّ هَذِهِ الرَحابةَ لا تُعَدُّ مَأْخَذًا، فَإِنَّ الاسْتِكْثارَ مِن التَعْرِيبِ بِلا داعٍ وَجِيهٍ يَنْتَهِي إلى إخْلالٍ جَمالِيٍّ غَيْرِ مَحْمُود.

بَقِيَ أَنْ نَضْرِبَ مَثَلًا أَو اثْنَيْنِ عَلى ما رَمَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ المُلاحَظات. ظَهَرَ الهاتِفُ الجَوّالُ المُسَمّى «سَلُّولَرْ»... فَفَهِمَ صَحافِيٌّ ما أَنَّ الأَمْرَ يَتَعلَّقُ بالـ«سَلّ» أَي الخَلِيّة. وَما كانَ مِنْهُ إلّا أَنْ قالَ «خِلْيَويّ»، مُفْتَرِضًا أَنَّ لَهُ أَنْ يَنْسِبَ إلى «فَعِيلة» بِـ«فِعْيَليّ». وحِينَ وَصَلَ اللُغَوِيُّ، الذِي لَمْ يَكُنْ قَد اسْتُشِيرَ، لِيَقُولَ أَنَّ الصَوابَ «خَلَوِيٌّ» عَلى «فَعَلِيٍّ»، كانَ الأَوانُ قَدْ فاتَ تَقْرِيبًا. وَالحالُ أَنَّ اللُغَوِيَّ كانَ حَقُّهُ وَواجِبُهُ أَنْ يَكُونَ المُبادِرَ إلى الفَتْوى وَكانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِتَصَرُّفِهِ مِنْ وَسائِلِ النَشْرِ وَالإعْلانِ ما يَجْعَلُ صَوْتَهُ الأَعْلى. وَلَـكِنْ هَيْهات!

هَذا فِي الوَضْع. مَثَلٌ آخَرُ يَدْخُلُ فِي بابِ التَعْرِيب. قَبْلَ سِنِينٍ، اقْتَرَحَ مِعْمارٌ عَرَبِيّ ذائِعُ الشُهْرةِ عَلى اسْتِحْقاقٍ، فِي بَعْضِ مُؤَلَّفاتِه، أَنْ يُنْقَلَ المُصْطَلَحُ الإِنْكليزِيُّ/الفَرَنْسِيُّ «أوبْتِيمال» بلَفْظِهِ إلى العَرَبِيّةِ فَنَقُولَ «أُبتِمالِيّ». وَفي مُراجَعةٍ لِلْكِتابِ الذِي حَمَلَ هَذا المُقْتَرَحَ وَغَيْرَهُ مِنْ صِنْفِهِ، لاحَظْتُ أَنَّ «أُبْتِماليّ» تَشْكُو عِلَّتَيْنِ، عَلى الأَقَلِّ: الأُولى أَنَّها لا تَـتَوَقَّفُ عِنْدَ مُقابِلٍ عَرَبِيّ لا يَبْدُو فِيهِ عَيْبٌ، وَهُوَ «أَمْثَل». فهَذِهِ صِفةٌ تُفِيدُ مَعْنى المُقابِلِ الأَجْنَبِيِّ بِالضَبْط. وَلَنا أَنْ نَأْخُذَ مِن الصِفةِ اسْمًا مَنْسُوبًا أَوْ مَصْدَرًا صِناعِيًّا هُوَ «أَمْثَلِيّة» مُقابِلًا «أوبْتِيمالِتي». فَإِذا سَلَّمْنا جَدَلًا بِأَنَّ عَلَيْنا الجُنوحَ إلى التَعْرِيبِ، عِوَضَ الوَضْعِ، وَجَبَ الالْتِفاتُ إلى العِلّةِ الثانِيةِ فِي «أُبْتِماليّ» وَهِيَ شَفْعُ اللاحِقةِ الأَجْنَبِيّة «أَلْ» التِي تُفِيدُ النِسْبةَ بِياءِ النِسْبةِ العَرَبِيّةِ،

فَتُصْبِحَ الصِفةُ مَنسوبةً مَرَّتَيْن! وَهُوَ إخْلالٌ بالأَناقةِ وَهَدْرٌ لا يُسَوِّغُهُ غَيْرُ السَهْوِ عَنْ أُصُولِ التَصْرِيفِ فِي اللُغَتَيْنِ مَعًا. فَكانَ الصَوابُ، إِنْ أَصْرَرْنا ــ مَرّةً أُخْرى ــ عَلى التَعْرِيبِ، أَنْ يُقالَ «أَبْتَمِيّ» وَ«أَبْتَمِيّة» لا «أُبْتِمالِيّ» وَ«أُبْتِماليّة».

وَلَـكِنْ، لا حَوْلَ...

وَقَدْ نَلْتَقِي مَنْ يَدْعُونا إلى التَسامُحِ حِيالَ هَذا النَوْعِ (أَوْ هَذِهِ الأَنْواعِ) مِن الأَخْطاءِ وإلى إِلْزامِ اللُغةِ بِتَقَبُّلِها عَلى سَبِيلِ التِيسِير. وَلا غُبارَ عَلى مَبْدَإِ التِيسِير. وَلَـكِنَّ ما يَبْدُو تَيْسِيرًا لِأَوَّلِ وَهْلةٍ قَدْ يَتَكَشَّفُ، عِنْدَ المُفْتَرَقِ الأَوَّلِ، عَنْ تَعْسِيرٍ يُضافُ إلى قَواعِدِ اللُغة. فَإِنَّ عَلَيْنا أَنْ نَلْتَفِتَ دائِمًا إلى مُتَعَلِّمِي اللُغةِ وَقَواعِدِها فَلا نَزِيدَ هُمُومَهُمْ ثِقْلًا وَنَحْنُ نَحْسَبُ أَنَّنا نُجارِي العامّةَ بِالسُكُوتِ عَنْ خَطَإٍ يَشِيعُ وَيَذِيع. وَذاكَ أَنَّ الاسْتِكْثارَ مِمّا يَشُذُّ عَنْ قاعِدةٍ مِنْ قَواعِدِ اللُغةِ إِنَّما يَزِيدُ تَعَلُّمَ اللُغةِ عُسْرًا لَيْسَ مَعَهُ يُسْر. لا مَناصَ إِذَنْ مِن اسْتِدْعاءِ السُلْطةِ اللُغَوِيّةِ لا لِلتَنْكِيلِ بِمُسْتَخْدِمي اللُغةِ بَلْ للتَخْفِيفِ مِنَ العِبْءِ عَلى مُتَعَلِّمِيها. وَما هَؤلاءِ سِوى أُولَئِكَ أَوْ بَعْضِهِم.

وَذاكَ أَنَّ اسْتِلْهامَ العامِّيّاتِ وَإِحْسانَ الاسْتِقْبالِ لِلْوافِدِ مِن الحاجاتِ يَجِبُ أَنْ يَكُونا فِي رَأْسِ ما تَعْتَمِدُهُ تِلْكَ السُلْطةُ ــ إذا وُجِدَتْ! ــ مِنْ سُبُلٍ إلى التَيْسِير. وَهُما، فِي كُلِّ حالٍ، شَرْطانِ لِفاعِلِيَّتِها إِذْ هِيَ، بِخِلافِ سُلُطاتٍ أُخْرى نَعْرِفُها، لا تَمْلِكُ وَسِيلةً لِلْفِعْلِ غَيْرَ الدَعْوةِ وَالنَصِيحة. وَهَذا مِنْ حُسْنِ حَظِّها وَحَظِّ اللُغةِ إذا هِيَ أَرادَتْ أَنْ تَحْصُلَ مِن الناسِ عَلى قَدْرٍ مِن الإِصْغاءِ لا عَلى الإِعْراض. فَإِنَّ الإِعْراضَ يَبْقى فِي أَيْدِيهِمْ إذا هُمْ آنَسُوا مِنْ

هَذِهِ السُلْطةِ المُقْتَصَرِ سِلاحُها عَلى الإغْراءِ رَجْعِيّةً وَمَيْلًا إلى التَشَنُّجِ وَإلى أَخْذِ العامّةِ بِالعُنْف.

(ز) فِي الحاجةِ إلى مَوارِدِ التَعْبِير

لا يَجُوزُ تَصْحِيحُ أَخْطاءِ النَحْوِ فِي رَسائِلِ الغَرامِ فَهِيَ بَعْضُ فِتْنَتِها. وَقَدْ يُسْتَحَبُّ لِلشاعِرِ أَوْ لِلْأَدِيبِ المُتَشاعِرِ أَنْ يَسْعى فِي المُزاوَجةِ، عَلى نَحْوٍ ما، بَيْنَ عِبارَتِهِ، أَبْنِيَةً وَأَلْفاظًا، وَما فِي المَوْضُوعِ الذِي يُقارِبُهُ مِنْ نَقْصٍ وَتَعَثُّر.

وَقَدْ يَكُونُ المَسْرَحُ بِلا زِيادةٍ أَبْرَزَ «مَسْرَحٍ» يُدْرِكُ فِيهِ اسْتِلْطافُ الانْحِرافِ عَن الجادّةِ اللُغَوِيّةِ أَقْصى شَرْعِيَّتِهِ وَيُسْتَطابُ فِيهِ ثَأْرُ الخَطَإ مِن الصَواب.

يَصِحُّ هَذا، عَلى الخُصُوصِ، حَيْثُ يَمِيلُ المُخرِجُ وَكاتِبُ النَصِّ إلى ما يُعْرَفُ بِاسْمِ البارُودِيا...

وَأَمّا حالَةُ الناقِدِ أَو المُحَلِّلِ فَمُخْتَلِفةٌ جِدًّا. إِذْ هُوَ مُحْتاجٌ إلى أَقْصى المُسْتَطاعِ مِن الإحْكامِ وَالغِنى فِي العِبارةِ لِيَسْبُرَ ما يُسْفِرُ عَنْهُ التَشابُكُ بَيْنَ عُدَّتِهِ النَظَرِيّةِ وَالوَقائعِ مِنْ صُوَرِ اللَبْسِ وَالتَرَدُّدِ، وَمِن العِيِّ وَالإلْغازِ وَلِيَجْلُوَ أَبْعادَ ذَلِكَ وَدَلالاته.

وَلْنُضِفْ هَهُنا أَنَّ مَعْرِفةَ اللُغةِ (وَنَقْصِدُ العَرَبِيّةَ، عَلى التَخْصِيصِ) أَبْعَدُ شَيْءٍ عَنْ أَنْ تُخْتَصَرَ فِي مَعْرِفةِ الإعْرابِ أَوْ مَعْرِفةِ إمْلاءِ الكَلِمات. فَمَعَ أَنَّ الخَطَأَ فِي عَلامةِ الإعْرابِ، فِي القِراءةِ أَوْ فِي الكِتابةِ، خَطَأٌ، لا رَيْبَ

فِي ذَلِكَ، ما دامَ يَسُوقُ إلى الخَلْطِ فِي وَظائِفِ الأَلْفاظِ فِي الجُمْلَةِ، أَيْ، مَثَلًا، إلى وَضْعِ الإِبْرِيقِ فِي مَوْضِعِ كاسِرِ الإِبْرِيقِ... فَإِنَّ هَذا لَيْسَ أَسْوَأَ ما فِي نَقْصِ المَعْرِفةِ بِاللُغة. وَقَدْ أَوْصى لُغَوِيُّونَ بِالاسْتِغْناءِ عَن الإِعْرابِ لِأَنَّ ما يُفِيدُهُ الإِعْرابُ يُدْرِكُهُ السامِعُ أَو القارِئُ بِالحَدْسِ فِي أَكْثَرِ الحالات. وهَذِهِ وُجْهةُ نَظَرٍ جَدِيرةٌ بِالاعْتِبارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سائِغًا، عَلى الأَرْجَحِ، أَنْ تُعْتَمَدَ بِرُمَّتِها بِلا إِمْعانِ نَظَرٍ فِي الحالات.

لا يُرَدُّ صُلْبُ المَعْرِفةِ بِالعَرَبِيّةِ أَيْضًا إلى القُدْرةِ عَلى اجْتِنابِ الخَلْطِ، فِي الكِتابةِ أَوْ فِي النُطْقِ، ما بَيْنَ السِينِ وَالصادِ وَلا إلى إِتْقانِ القَواعِدِ المَعْلُومةِ لِكِتابةِ الهَمْزة. لِهَذا وَلِما كانَ مِنْ بابِهِ اعْتِبارُهُ، بِطَبِيعةِ الحالِ، وَلَـكِنَّهُ يَنْتَمِي إلى أَوَّلِيّاتِ المَعْرِفةِ بِالفُصْحى وَمَبادِئِها ولَيْسَ إلى لُبابِ هَذِهِ المَعْرِفة. وَأَمّا هَذا اللُبابُ فَيَتَمَثَّلُ فِي أُمُورٍ أُخْرى مِنْ قَبِيلِ نَحْوِ الجُمَلِ وَما يُتِيحُهُ التَقْدِيمُ وَالتَأْخِيرُ فِي عَناصِرِ الجُمْلةِ مِنْ لَعِبٍ بِمَوازِينِ الدَلالةِ وَما تُوَفِّرُهُ عِشْرةُ المَعاجِمِ وَكِبارِ المُنْشِئِينَ مِنْ مَعْرِفةٍ بِالفُرُوقِ الدَلالِيّةِ بَيْنَ المُتَرادِفاتِ وَما تُتِيحُهُ هَذِهِ المَعْرِفةُ مِنْ إِحْكامٍ وَمُرُونةٍ فِي التَعْبِيرِ هُما ــ لا التَمَحُّلُ وَلا «المُحَسِّناتُ»، عَلى اخْتِلافِها ــ ما يَسْتَحِقُّ اسْمَ البَلاغة. هَذا وَتَزْدادُ الحاجةُ إلى الغَزارةِ فِي مَوارِدِ التَعْبِيرِ وَالدِقَّةِ فِيهِ كُلَّما كانَ المُرادُ قَوْلُهُ أَقْرَبَ إلى الاحْـتِمالِ وَتَشابُهِ الوُجُوهِ وَإِبْطانِ الشَكِّ مِنْهُ إلى اليَقِينِ الفَجِّ أَو المُباشَر.

وَإِذْ يَبْتَكِرُ أَهْلُ النَظَرِ مُصْطَلَحًا لَهُمْ وَلا يَزالُونَ يَزِيدُونَ فِيهِ وَيَجْهَدونَ لِإِرهْافِهِ فَلِأَنَّ اللُغةَ لا تَـكْفِيهِمْ وَلَيْسَ لِاستِغْنائِهِمْ عَنْ تَعَلُّمِ اللُغة. فَلا يَسْتَقِيمُ تَحْلِيلٌ لِمَرْحَلةٍ تارِيخِيّةٍ أَوْ لِحَرَكةٍ اجْتِماعِيّةٍ أَوْ لِأَزْمةٍ نَفْسِيّةٍ بِعُدّةٍ

لُغَوِيّةٍ تُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِ حِذاءٍ بالٍ. وَهَذا مَعَ أَنَّ الأَزْمةَ النَفْسِيّةَ، مَثَلًا، قَدْ تَتَّخِذُ مَظْهَرًا لَها العَجْزَ عَن الكَلام!

هَذِهِ الحاجةُ إلى ثَرْوةٍ لُغَوِيّةٍ وَإلى تَمَكُّنٍ مِنْ أُصُولِ التَعْبِيرِ شَرْطًا لِلإحْكامِ فِي أَداءِ المَعارِفِ تَجْعَلُ مِن الفَصْلِ بَيْنَ ما يُسَمّى «أَدَبًا»، عَلى اخْتِلافِ الأَنْواعِ، وَما يُسَمّى «تَحْلِيلًا سِياسِيًّا» أَوْ «مَعْرِفةً اجْتِماعِيّةً» أَوْ «رِوايةً تارِيخِيّةً» أَمْرًا يَجِبُ النَظَرُ فِي إمْكانِهِ، لا إلى صَعِيدِ مَتانةِ العِبارةِ وَجَمالِها، بَلْ إلى ضَوابِطَ أُخْرى مُعْتَمَدةٍ لِكُلِّ نَوْع. فَإِنَّ النَظَرَ عَنْ كَثَبٍ فِي أَعْمالِ المُؤَرِّخِينَ، مَثَلًا، يُظْهِرُ أَنَّ كِبارَهُمْ، مِن ابْنِ خَلْدُون إلى فُوكُو، كانُوا مُنْشِئِينَ كِبارًا مُعْتَنِينَ بِنَضارةِ عِبارتِهِمْ وَبِأَلَقِها وَحُسْنِ سَبْكِها. وَهَذِهِ أَيْضًا حالُ «نَفْسِيِّينَ» وَ«اجْتِماعِيِّينَ» نَذْكُرُ مِنْ بَيْنِهِمْ فْرُويْد وَلِيفِي سْتْرُوس وَحالُ فَلاسِفةٍ لَيْسَ أَوّلَهُمْ دِيكارْت وَلا آخِرَهم سارْتْر الذِي قَرَنَ البَحْثَ الفَلْسَفِيَّ بِالرِوايةِ وَالمَسْرَحِيّةِ، إلخ.

لِذا كانَ مُسْتَهْجَنًا أَنْ يُرْمى الباحِثُ فِي الفَلْسَفةِ أَوْ فِي عُلُومِ الإنْسانِ وَالمُجْتَمَعِ بِـ«البَلاغةِ» كَأَنَّها تُهْمةٌ وَأَنْ يُنْسَبَ إلى «الأَدَبِ» لا لِسَبَبٍ إلّا لِجَمالِ عِبارتِهِ وَأُسْلُوبِهِ، وَأَنْ تُعَدَّ هَذِهِ النِسْبةُ حَطًّا مِنْ مَوْقِعِ الباحِثِ وَشَأْنِهِ فِي الحَقْلِ المَعْرِفِيِّ الذِي يَنْتَمِي إلَيْه. وَهَذا النَوْعُ مِن «المَآخِذِ» شائِعٌ فِي دِيارِنا وَهُوَ يَؤُولُ إلى تَخَلُّصِ «الناقِدِ» مِنْ عِبْءِ التَدَبُّرِ المُتَرَوِّي لِما يَقْرَأُ أَوْ يَسْمَع.

ذاكَ أَنَّ البَلاغةَ هِيَ ضَبْطُ الكَلامِ بِالمَقْصُودِ وَهِيَ بِالتالِي أَبْعَدُ الأَشْياءِ عَن الكَلامِ الفارِغ. هَذا مِنْ جِهة...

ذاكَ أَيْضًا أَنَّ الأَدَبَ يَسْتَدْعِي التَخَيُّلَ، فِي الأَعَمِّ، وَلَكِنْ لِيَمْضِيَ بِتَوَسُّطِهِ

شَوْطًا أَبْعَدَ فِي اسْتِقْصاءِ الحَقائِق. وَهَذا شَوْطٌ قَدْ لا يُفْلِحُ فِي قَطْعِهِ الكَلامُ الغَرِيبُ عَن الأَدَبِ وَلَوْ كانَ يُنْسَبُ إلى العِلْم. الأَدَبُ عالَمٌ كَلامِيٌّ مُغايِرٌ جِدًّا، بِالتالي، لِعالَمِ الكَلامِ الفارِغ.

في هَذا المَعْرِضِ نَفْسِهِ، يَحْسُنُ التَذْكِيرُ بِأَنَّ لَفْظَ الأَدَبِ يُسْتَعارُ أَيْضًا لِسُموِّ الخُلُق. فَيُقالُ فُلانٌ مُؤَدَّبٌ أَوْ أَدِيب. وَهُوَ ما يُشِيرُ إلى أَنَّ الأَدَبَ، بِعُمُومِ مَعْناهُ، مَشْرُوطٌ بِالبُعْدِ عَن الكَذِبِ وَعَن السَفالة.

لِذا كانَ الاكْتِفاءُ مِن النَقْدِ بِالقَوْلِ «هَذا أَدَبٌ وَبَلاغةٌ» هُوَ، لا غَيْرُهُ، الكَلامُ الفارِغ. إذْ هُوَ يَقُومُ عَلى جَهْلَيْنِ: جَهْلِ مُعْتَمِدِيهِ بِما هُما الأَدَبُ وَالبَلاغةُ وَجَهْلِهِمْ بِكَيْفِيّةِ الرَدِّ المُقْنِعِ (أَي البَلِيغِ!) عَلى رَأْيٍ لَمْ يَوافِقْ رَأْيَهُمْ.

يُسْتَحْسَنُ التَنْبِيهُ، أَخِيرًا، إلى أَنَّ الكَلامَ، أَيّةً كانَتْ سَوِيّتُهُ، يُعَبِّرُ، تِلْقائِيًّا، عَنْ شَيْءٍ فِي قائِلِهِ، ظاهِرٍ أَوْ خَفِيٍّ، يُدْرَكُ مُباشَرةً أَوْ يُسْتَخْلَصُ بِالتَحْلِيل. وَهَذا لا يَحْتاجُ، بِصُورَتِهِ العامّةِ، إلى بَراعةٍ اسْتِثْنائِيّةٍ مِنْ أَيِّ نَوْع. وَأَمّا التَعْبِيرُ المُتَعَمَّدُ بِالكَلامِ عَنْ حَقِيقةٍ ذاتِيّةٍ أَوْ مَوْضُوعِيّةٍ فَهُوَ مُحْتاجٌ إلى دُرْبةٍ وَتَمَكُّن. فَلا يَزْدادُ الكَلامُ تَعْبِيرًا عَنْ حَقائِقِ الأُمُورِ كُلَّما ازْدادَ تَلَعْثُمًا فِي الصِياغةِ أَوْ فَقْرًا فِي المَوارِدِ اللُغَوِيّةِ أَو البَيانِيّةِ أَوْ سُوقِيّةً فِي الأَلْفاظِ: أَيْ كُلَّما ازْدادَ بُعْدًا عَن الأَدَبِ والبَلاغة. بَلْ إنَّ هَذَيْنِ أفْعَلُ ما تُدْرَكُ بِهِ تَأْتَأةُ العالَمِ وَأَصْدَقُ ما تُتَرْجَمُ بِه.

لَيْسَ عَلى أَحَدٍ ــ إنْ صَحَّ هَذا ــ أَنْ يَعْتَذِرَ عَنْ بَلاغَتِهِ وَأَدَبِه. بَلْ الأَوْلى تَمَنِّي الازْدِيادِ مِنْ هَذا ومِنْ تِلْكَ وَبذْلُ الجُهْدِ فِي سَبِيلِه.

يَبْقى أَنَّ عَلَيْنا التَسْلِيمَ بِأَنَّ البَلاغةَ وَالأَدَبَ لَيْسَا واجِبَيْنِ عَلى مَنْ لا يُرِيدُهُما.

فَإِنَّ كُلًّا مِن البَشَرِ حُرٌّ فِي اعْتِمادِ «الأُسْلوبِ» الذِي يُلائِمُهُ أَوْ ذاكَ الذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ: فِي الكَلام وَفِي غَيْرِهِ مِنْ أَشْكالِ السُلوك.

وَلَـكِنْ لَيْسَ لِأَيٍّ كانَ أَنْ يَعْتَبِرَ البَلاغةَ وَالأَدَبَ سُبّةً لِغَيْرِهِ مِن الناسِ وَمَطْعَنًا يُسَفِّهُهُ بِهِ، وَلَوْ مُتَظاهِرًا بِالمَدْحِ أَحْيانًا، أَيَّ رَأْيٍ يَراهُ هَذا الغَيْر. هَذا بَيْنَما يُغَطِّي المُنْتَقِدُ، بِهَذا الاعْتِبارِ، عَجْزَهُ أَوْ تَكاسُلَهُ عَنْ جَلاءِ مَآخِذِه.

مُصْطَلَحا «طائِفة» وَ«طائِفيّة»:
تَرْسِيمٌ لِنَسَبِهِما الدَلالِيِّ عَلى نِيّةِ المُتَرْجِمِين[*]

«الطائِفةُ» فِي اللُغةِ وَفِي المُصْطَلَح

تَبْدُو كَلِمةُ «طائِفة»، فِي أَصْلِ مَعْناها المُثْبَتِ فِي المَعاجِمِ اللُغَوِيّةِ، كَلِمةً ذاتَ مَفْهُومٍ فَقِيرٍ لِلْغايةِ وَذاتَ ماصَدَقٍ شاسِعٍ لِلْغايةِ بِالتالي وَمُتَشَعِّب. فَأَظْهَرُ مَعانِيها أَنَّها «القِطْعةُ» مِنْ أَيِّ شَيْءٍ أَوْ مِنْ أَيِّ مَجْمُوع. عَلَيْهِ لا تُشْتَرَطُ نِسْبةُ الطائِفةِ إلى العاقِل. فَإِنَّما يَسَعُها أَنْ تَكُونَ «طائِفةً مِن اللَيْلِ» وَيَسَعُها أَنْ تَكُونَ «طائِفةً مِن الحُكَماء». وَهِيَ، حِينَ تَمِيلُ إِلى مَعْنى المَجْمُوعِ، يُجِيزُ لَها هَذا المَيْلُ أَنْ تَكُونَ، مَثَلًا، «طائِفةً مِنْ شَجَرِ الصَفْصافِ» أَوْ «طائِفةً مِنْ بَناتِ آوى». وَالجامِعُ بَيْنَ «الطائِفةِ»، بِهَذا المَعْنى، وَ«الطَوافِ» هُوَ، عَلى الظاهِرِ، مَعْنى الاقْتِرابِ وَالمُحايَثةِ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلى مَعْنى الدَوَرانِ حَوْلَ شَيْءٍ واحِدٍ وَمَعْنى الخُرُوجِ مِن الذاتِ نَحْوَ هَذا الشَيْءِ أَوْ المَوْضِع. فَيُصْبِحُ «طَوافُ» المُعْتَمِرِ بالبَيْتِ الحَرامِ أَوْ طَوافُ الخاطِرةِ بِالبالِ نَوْعًا مِن الإلْمامِ يَنْطَوِي عَلى طَلَبِ انْتِسابٍ إِلى المَطوفِ بِهِ مِن الطائِفِ أَوْ عَلى طَلَبِ قُبولٍ لِهَذا فِي ذاكَ. وَيُصْبِحُ مَفْهومًا أَنَّ «الطَوَفانَ» هُوَ إحاطةُ المِياهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وطُغْيانُها عَلى ما هُوَ خارِجَها.

---

[*] وَرَقةٌ أُعِدّتْ لِنَدْوةِ «تَرْجَمةُ المُواطَنة» التي انْعَقَدَتْ فِي الجامِعةِ الأُرْدُنِيّةِ، عَمّان، فِي ٨ و٩ تِشْرِينٍ الأَوَّلِ ٢٠١٢.

وَخِلافًا لِما يَتَبادَرُ، مِنْ جَرّاءِ الاسْتِعْمالِ المُحْدَثِ لِلْكَلِمةِ، لا يُشْتَرَطُ فِي «الطائِفةِ» أَنْ تَـكُونَ جَماعةً أَوْ مَجْمُوعًا داخِلًا فِي جَماعة. فَفِي بَعْضِ المَعاجِمِ القَدِيمةِ، يَسَعُ «الطائِفةَ» أَنْ تَـكُونَ فَرْدًا واحِدًا إلى أَلْف. عَلى أَنَّ هَذا لا يُبْطِلُ ما تَدِلُّ عَلَيْهِ أَقْدَمُ النُصُوصِ التِي بَيْنَ أَيْدِينا مِنْ غَلَبةٍ لِمَعْنى «الجَماعةِ» أَوْ «القِسْمِ مِن الجَماعةِ» عَلى هَذِهِ الكَلِمة. مِثالُ ذَلِكَ فِي التَنْزِيلِ: «وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفةٌ مِنَ المُؤْمِنِين» (النُور، ٢). فَكَأَنَّما الطائِفةُ هُنا جَماعةٌ داخِلةٌ فِي جَماعةِ المُؤْمِنِينَ أَيْ فِئةٌ مِنْهُم. وَفِي الحَدِيثِ: «لا تَزالُ طائِفةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِيَن لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتّى تَقُومَ الساعة» (سُنَنُ ابْنِ ماجة، كِتابُ المُقَدِّمة، ٦). فَالطائِفةُ هُنا جَماعةٌ مِنْ أَصْلِ الأُمّةِ أَيْ قِسْمٌ أَوْ فِئةٌ أَوْ فَرِيقٌ مِنْ هَذِهِ الأَخِيرةِ أَيْضًا. غَيْرَ أَنَّ لُزُومَ المَعْنى اللُغَوِيِّ لكَلِمةِ «طائِفة» قَدْ لا يَصِحُّ اعْتِبارُهُ عامًّا فِي القُرْآنِ الذِي وَرَدَتْ فِيهِ اللَفْظةُ (مُفْرَدةً أَوْ مُثَنّاةً) عِشْرِينَ مَرّةً. وَقَدْ يُوجَدُ فِي الحَدِيثِ ما يُخَطِّئُ هَذا الاعْتِبارَ نَفْسَهُ أَيْضًا. هَذا مُحْتاجٌ إلى فَضْلِ تَحْقِيق. فَمَنْ يَتْلُ الآيةَ «وَدَّتْ طائِفةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُون» (آلُ عِمْران، ٦٩)، أَوْ الآيةَ الأُخْرى «أَنْ تَقُولُوا إنَّما أُنْزِلَ الكِتابُ عَلى طائِفتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإنْ كُنّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِين» (الأنعام، ١٥٦)، يَرْجَحْ عِنْدَهُ أَنَّ «الطائِفةَ» هُنا جَماعةٌ مُعَرَّفةٌ بِمُعْتَقَدِها الدِينيِّ عَلى غِرارٍ قَرِيبٍ مِمّا هِيَ عَلَيْهِ فِي عُرْفِنا أَوْ فِي اصْطِلاحِنا اليَوْم. وَفِي الحَدِيثِ، قارَبَ المائِةَ عَدَدُ المَرّاتِ التِي وَرَدَ فِيها هَذا اللَفْظُ نَفْسُه. وَالحالاتُ هُنا، عَلى صَعِيدِ المَعْنى، تَبْدُو أَكْثَرَ تَنَوُّعًا مِمّا هِيَ عَلَيْهِ فِي القُرْآنِ، وَهُوَ ما تَـكْفِي لِتَفْسِيرِهِ، عَلى الأَرْجَحِ، كَـثْرةُ عَدَدِها النِسْبِيّة. وَلَـكِنَّها تَبْقى مُوَزَّعةً، عَلى وَجْهِ الإجْمالِ، بَيْنَ مَعْنى

«الجَماعةِ»، بعُمومِ مَفْهُومِهِ، ومَعْنى «القِطْعةِ» أَوْ القِسْم. وفي الحالَيْنِ تَـكُونُ «الطائِفةُ» مُشْتَمِلًا عَلَيْها فِي ما هُوَ أَكْبَرُ مِنْها أَوْ أَوْسَع. وَفِي العَدَدِ الأَقَلِّ مِن الأَحادِيثِ (ومِنْهُ الحَديثُ الذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ) نَشْعُرُ أَيْضًا بِقُرْبِ المَقْصُودِ مِنْ مَعْنى الطائِفةِ الدِينيّةِ المُمَيَّزةِ بِمُعْتَقَدٍ أَوْ بِمَسْلَكٍ خاصٍّ بِها. وَلَـكِنْ يَبْقى مُمْكِنًا أَلّا يَعْدُوَ هَذا القُرْبُ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ اتِّفاق.

غَلَبةُ «الفِرْقة»

وعَلى الرُغْمِ مِنْ مُثُولِ مَعْنى الافْتِراقِ فِي الطائِفةِ، أَي التَمَيُّزِ بِحالٍ مِن الأَحْوالِ أَوْ بِفِعْلٍ مِن الأَفْعالِ، فَإِنَّ هَذا الاسْمَ لَمْ يَفْرِضْ نَفْسَهُ، فِي التُراثِ الإِسْلامِيِّ، اسْمًا اصْطِلاحِيًّا لِلْـ«فِرَقِ» التِي يَتَفَرَّقُ بَيْنَها أَهْلُ المِلَلِ بِما فِيها الإِسْلامُ نَفْسُه. وَإِنَّما بَقِيَ غالِبًا عَلى اللَفْظةِ، فِي هَذا الحَقْلِ الدَلالِيِّ، مَعْناها اللُغَوِيُّ وَهُوَ المَعْنى المُرادُ فِي الآيةِ وَفِي الحَديثِ أَعْلاهُ، وَهَذا لا يَسْتَبْعِدُ إِضْمارَ صِفةِ «الدِينِيّةِ» لِلطائِفةِ المَعْنِيّةِ أَوْ إِضْمارَ غَيْرِها أَوْ ما جَرى مَجْراها مِن الصِفات. وَأَمّا المُصْطَلَحاتُ التِي غَلَبَتْ فِي حَدِيثِ «الفِرَقِ» فَهِيَ تِلْكَ المَذْكُورةُ فِي عَناوِينِ كُتُبٍ ذائِعةِ الشُهْرةِ لِأَمْثالِ ابْنِ حَزْمٍ والشَهْرَسْتانِيِّ وَالبَغْدادِيِّ أَي «المِلَلُ» وَ«النِحَلُ» وَ«الأَهْواءُ» فَضْلًا عَنْ «الفِرَق». وَ«المِلّةُ» مُصْطَلَحٌ قرآنيٌّ وَ«الفِرْقةُ» وارِدةٌ بِمَعْناها الاصْطِلاحِيِّ أَيْضًا، أَيْ بمَعْنى الجَماعةِ المُتَفَرِّعةِ مِن المِلّةِ، مُنْذُ حَديثِ «الفِرْقةِ الناجِيَةِ» المَشْهُور، وَاسْتِعْمالُها بِهَذا المَعْنى مُتَواتِرٌ فِي ما يُسَمّى، عَلى وَجْهِ التَحْدِيدِ، «كُتُبَ الفِرَق». وَلا نَعْلَمُ أَنَّ «الطائِفةَ» يَتَواتَرُ اسْتِعْمالُها، فِي هَذِهِ الكُتُبِ نَفْسِها، بِذاكَ المَعْنى نَفْسِه. يَبْقى أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ غَيْرَ المُسْلِمينَ سَبَقُوا المُسْلِمينَ،

عَلى الأَرْجَحِ، إلى اعْتِمادِ «الطائِفَةِ» اعْتِمادًا مُنْتَظِمًا اسْمًا لِلْجَماعةِ مِنْ جَماعاتِهِمْ الدِينيّةِ أَوْ المَذْهَبِيّة. فهَذا مَثَلًا ما نَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ البَطْرِيَـرْكِ إسْطفانُوس الدُوَيْهيِّ فِي أَواخِرِ القَرْنِ السابِعَ عَشَر. هَذا فِيما اعتَمَدَت السُلْطةُ العُثْمانِيّةُ، فِي تِلْكَ العُهُودِ نَفْسِها، اسْمَ «المِلَلِ»، لا الطَوائِفِ، اسْمًا لِغَيْرِ المُسْلِمينَ مِمَّنْ وَضَعَتْ لَهُمْ نِظامًا خاصًّا يَرْعى شُؤُونَهُمْ وَعَلاقَتَهُمْ بِها. وَهَذِهِ، فِي كُلِّ حالٍ، مُلاحَظَةٌ يُزَكِّيها اطِّلاعُنا الشَخْصِيُّ، بِحُدُودِهِ، وَأَمّا الاسْتِيثاقُ التامُّ مِنْ صِحَّتِها فَيَقْتَضِي تَحْقِيقًا شاقًّا لَمْ نَتَكَلَّفْ مَؤُونَةَ القِيامِ بِهِ وَلا نَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ غَيْرَنا قَدْ أَجْراه.

«الطائِفةُ» بَيْنَ المُصْطَلَحِ الدِينيِّ وَغَيْرِ الدِينيّ

وَإِنَّما كانَ لِلـ«طائِفةِ» ولِلـ«طَوائِفِ»، عَبْرَ تارِيخِ الاجْتِماعِ الإِسْلامِيِّ، مَعانٍ أُخْرى اصْطِلاحِيّةٌ تُدْرِجُها فِي حُقولٍ دَلالِيّةٍ مُخْتَلِفةٍ بَعْضُها مُتَّصِلٌ بِالدِينِ وَبَعْضُها مُتَّصِلٌ بِتَقْسِيمِ العَمَلِ الاجْتِماعِيِّ وَبَعْضُها الأَخِيرُ يُدْخِلُها فِي مُصْطَلَحِ السِياسةِ وَالسُلْطان. وَفِي جَمِيعِ هَذِهِ الحالاتِ، تَـكْتَسِبُ الكَلِمةُ صِفَتَها الاصْطِلاحِيّةَ مِنْ إضافَتِها، عَلى التَصْرِيحِ أَوْ عَلى التَقْدِيرِ، إلى اسْمٍ آخَر. فَفِي مِضْمارِ الدِينِ، كانَتْ تُطْلَقُ عَلى شُيُوخِ التَصَوُّفِ عِبارةُ «طائِفةِ القَوْمِ». وَ«القَوْمُ» هُنا قَوْمُ اللهِ وَالمُتِصَوِّفةُ طائِفتُهُمْ أَيْ جَماعَتُهُم. وهَذِهِ صِفةٌ ظَلُّوا يَتَداوَلُونَها قُرُونًا كَـثِيرةً ابْتِداءً مِن الثالِثِ الهِجْرِيِّ مُؤَكِّدِينَ بِها تَمَيُّزَهُمْ عَن العامّةِ مِنْ أَهْلِ المِلّة. وَكانُوا يُشِيرُونَ إلى أَنْفُسِهِمْ أَوْ يُشارُ إِلَيْهِمْ باسْمِ «الطائِفةِ» مُعَرَّفًا بِحَيْثُ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ عَلَمٌ عَلَيْهِم. وَفِي مَجالِ الصِناعاتِ وَالمِهَنِ، عُرِفَ المُنْتَظِمونَ فِي كُلِّ حِرْفةٍ بِاسْمِ «الطائِفةِ» أَيْضًا أَيْ

طائفةِ الحِرْفةِ أَوْ جَماعَتِها وَهُوَ ما تَجاوَزَ مِضْمارَ الحِرَفِ إلى مِضْمارِ «الفُتُوَّةِ» المُحايِثِ لَه. وَكانَ يُطْلَقُ عَلى «طَوائِفِ الحِرَفِ» تِلْكَ اسْمَ «الأَصْنافِ» أَيْضًا، والكَلِمَتانِ هُنا بمَعْنًى واحِد.

بَقِيَتْ عِبارةُ «مُلُوكِ الطَوائِفِ»، وَهِيَ تُوحِي حِينَ تُسْتَعْمَلُ فِي سِياقِ الراهِنِ مِنْ أَحْوالِنا بِأَنَّ مُلُوكَ العَهْدِ الأَنْدَلُسِيِّ المُمْتَدِّ عَلى طُولِ القَرْنِ الحادِي عَشَرَ المِيلادِيِّ كانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُوَلّى حُكْمَ جَماعةٍ مُمَيَّزةٍ بمَذْهَبٍ خاصٍّ بِها فِي الدِينِ أَوْ بِسِمَةٍ أُخْرى، فِي الأَقَلِّ، لَها قُوّةُ إفْرادٍ وَتَمْيِيزٍ تُشابِهُ ما لِلْمَذْهَبِ الدِينِيِّ وَتُقَرِّبُ الطائِفةَ المَعْنِيّةَ مِن المَفْهُومِ الذِي نَعْرِفُهُ لِلطَوائِفِ اليَوْم.

عَلى أَنَّنا نُفاجَأُ عِنْدَ التَحْقِيقِ بِأَنَّ هَذِهِ «الطَوائِفَ» لَمْ تَكُنْ إلّا وَحَداتٍ جُغْرافِيّةً أَيْ قِطَعًا مِنْ بِلادِ الأَنْدَلُسِ تَوَزَّعَها هَؤُلاءِ المُلُوكُ وَحَمَلَتْ أَسْماءَ مُدُنٍ مِنْ قَبِيلِ المَرِيّةِ وَغَرْناطةٍ وَسَرَقُسْطة، إلخ. وَكانَتْ «الطائِفةُ» مِنْها تَضُمُّ، إلى الكَثْرةِ المُسْلِمةِ، قِلَّةً مِن المَسِيحِيِّينَ وَأُخْرى مِن اليَهُود! فَيَكُونُ مَعْنى الطائِفةِ هُنا «القِطْعَةَ» أَوْ الجُزْءَ وَلَيْسَ «الجَماعةَ»، وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّ المَعْنَيَيْنِ لا تَعارُضَ بَيْنَهُما، إلاّ أَنَّهُما يَخْتَلِفانِ فِي زاوِيةِ النَظَر.

وَقَدْ رَأَيْنا أَنَّ مَعْنى «القِطْعةِ» هَذا أَصِيلٌ (بَلْ قَدْ يَصِحُّ اعْتِبارُهُ مُقَدَّمًا) عَلى الصَعِيدِ اللُغَوِيّ. ذاكَ، فِي الأَقَلِّ، ما تُوحِي بِهِ المَعاجِمُ القَدِيمة. وَيُفِيدُنا صاحِبُ المَقالةِ المُكَرَّسةِ لِـ«مُلُوكِ الطوائِفِ» فِي **المَوْسُوعةِ الإسْلامِيّة** (وَهُوَ د. ج. فاسِرْشْتايْن D. J. Wasserstein) أَنَّ هَذا اللَقَبَ لَمْ يَسْتَأْثِرْ بِهِ حُكّامُ الأَنْدَلُسِ العَرَبِيّةِ فِي مَرْحَلةِ تَبَعْثُرِها تِلْكَ بَيْنَ سُقوطِ الدَوْلةِ المَنْصُورِيّةِ وتَغَلُّبِ دَوْلةِ المُرابِطِين. وَإنّما سَبَقَهُمْ إلَيْهِ مُلُوكٌ سادُوا عَلى

«القِطَعِ» التِي آلَتْ إلَيْها الإمْبَراطُورِيّةُ الفارِسِيّةُ بَيْنَ هَزِيمةِ دارْيوس أَمامَ الإسْكَنْدَرِ الأَكْبَرِ وَنُشُوءِ الدَوْلةِ الساسانِيّةِ، أَيْ ما يَزِيدُ عَنْ خَمْسةِ قُرُون. هَذِهِ «الحالةُ» الفارِسِيّةُ هِيَ، عَلى ما يَبْدُو، ما فَرَضَ نَفْسَهُ عَلى مُخَيِّلةِ الأَنْدَلُسِيِّينَ أَوْ المُؤَرِّخِينَ لَهُمْ عَلى أَنَّهُ سابِقةٌ لِما انْتَهَتْ إلَيْهِ بِلادُهُمْ، بَعْدَ قُرُونٍ كَثِيرةٍ، فِي العَهْدِ المُشارِ إلَيْه.

هَيْمَنةُ الصِفةِ الدِينيّة

عَلَيْهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ المَفاهِيمَ المُتَعاقِبةَ أَوْ المُتَزامِنةَ لِكَلِمةِ «طائِفةٍ» العَرَبِيّةِ وَلِجَمْعِها «طَوائِفَ» قَد اتَّسَمَتْ بِأَكْثَرَ ما يُمْكِنُ تَخَيُّلُهُ مِن اخْتِلاطٍ وَتَشَعُّبٍ فِي مَدى عُمْرِها الطَوِيل. وَلَـكِنْ باتَتْ تُقَدَّرُ لَها فِي عَصْرِنا صِفةُ الدِينِيّةِ فِي الكَـثْرةِ الكاثِرةِ مِنْ حالاتِ اسْتِعْمالِها وأَصْبَحَ هَذا المَعْنى غالِبًا جِدًّا عَلَيْها. فلَيْسَ يَسْهُلُ أَنْ نَقَعَ فِي نَصٍّ مِنْ أَيّامِنا عَلى عِبارةٍ مِنْ قَبِيلِ «طائِفة مِن الأَرانِبِ» أَوْ مِنْ قَبِيلِ «طائِفة مِن الشَهْرِ» ناهِيكَ بِما هُوَ مِنْ قَبِيلِ «طائِفة دُبَي» أَوْ «طائِفة البَحْرَيْنِ» مَثَلًا. وَفِي البِلادِ العَرَبِيّةِ، وَهِيَ بِلادٌ يَغْلِبُ عَلَيْها الإسْلامُ غَلَبةً ساطِعةً، تَشْعُرُ الكَـثْرةُ السُنِّيّةُ مِن السُكّانِ بِضِيقٍ مُسْتَمِرٍّ مِنْ نَعْتِ جَماعَتِها فِي هَذِهِ الدَوْلةِ أَوْ تِلْكَ بِـ«الطائِفةِ السُنِّيّةِ». وَهَذا ضِيقٌ مُتَحَدِّرٌ مِنْ عُهُودِ الدَوْلةِ الإسْلامِيّةِ الجامِعةِ التِي سَقَطَ آخِرُ تَجْسِيدٍ لَها (وَهُوَ العُثْمانِيُّ) غَداةَ الحَرْبِ العالَمِيّةَ الأُولى. فَقَدْ كانَ «أَهْلُ السُنّةِ»، فِي تِلْكَ العُهُودِ هُمْ أَهْلَ المِلّةِ وَأَصْحابَ الدَوْلةِ أَي المُسْلِمينَ لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ وَلَمْ يَكُنْ يَناسِبُهُمْ أَنْ يَعُدُّوا أَنْفُسَهُمْ أَوْ أَنْ يَعُدَّهُمْ غَيْرُهُمْ «طائِفةً» مِن الطَوائِف. وَإنَّما كانَ الأَغْيارُ أُولَئِكَ هم

«الطَوائِفَ»، بمَعْنى الكَلِمةِ المَضْبُوطِ، وَهَذا فِي عُرْفِ المُسْلِمينَ وَفِي عُرْفِهِمْ هُمْ أَنْفُسِهِم.

وَقَدْ بَقِيَتْ بَقِيّةٌ مِنْ هَذِهِ الصُورةِ، بِشِقَّيْها، فِي «الدُوَلِ الوَطَنِيّةِ» أَيْ فِي دُوَلِنا اليَوْم. وَلَكِنَّ مَنْطِقَ هَذِهِ الدَوْلةِ قَضى بِالمَيْلِ إلى التَناظُرِ فِي الاعْتِبارِ المَعْنَوِيِّ... وَفِي التَشْرِيعِ أَيْضًا، إلى حَدٍّ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الحالاتِ، وَلَو افْتُقِدَ التَناظُرُ فِي الواقِعِ العَمَلِيِّ، بَيْنَ الجَماعاتِ المُكَوِّنةِ لِلْمُجْتَمَعِ، أَيْ بَيْنَ الطَوائِفِ قَبْلَ غَيْرِها حَيْثُ تُوجَدُ وَتَحْظى بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ مِنْ صَراحةِ الحُضُور. بَلْ إنَّهُ يُمْكِنُ القَوْلُ أنَّ التَناظُرَ مَوْرُوثٌ مِنْ مَوارِيثِ الحَداثةِ العُثْمانِيّةِ سَبَقَ عَهْدَ «الدُوَلِ الوَطَنِيّةِ» وَمَهَّدَ لَه. لِذا باتَ وارِدًا، اليَوْمَ، أَنْ يُسَمّى أَهْلُ السُنّةِ طائِفةً فِي بَغْدادَ أَوْ فِي بَيْرُوتَ وَلَو أَنَّهُمْ ما زالُوا لا يَقْبَلُونَ هَذِهِ الصِفةَ إلّا عَلى مَضَضٍ. وَحَيْثُ تُلابِسُ خُطُوطُ الفَصْلِ بَيْنَ الطَوائِفِ، إلى حَدٍّ يَفْرِضُ نَفْسَهُ عَلى الإِدْراكِ وَيَتَعَذَّرُ المِضِيُّ قُدُمًا فِي إنْكارِهِ، جَبَهاتِ الصِراعِ عَلى السُلْطةِ وَعَلى لَواحِقِها المادِّيّةِ، تَتَخَفّى «النُخَبُ» المُتَصارِعةُ وَراءَ أَسْماءٍ مُسْتَعارةٍ لِلطَوائِفِ مِنْ قَبِيلِ «العائِلاتِ الرُوحِيّةِ» أَوْ تَأْخُذُ فِي كَيْلِ النُعُوتِ المَرْغُوبةِ بَعْضُها لِبَعْضٍ تَمْوِيهًا لِحَقِيقةِ العَلاقاتِ بَيْنَها وَحِفْظًا لِخُطُوطِ رَجْعةٍ قَدْ لا يَكُونُ مِنْها بُدّ. وَفِي الكَلامِ السِياسِيِّ اللُبْنانِيِّ، عَلى التَخْصِيصِ، لا تُحْصى الأَمْثِلةُ الواشِيةُ بِهَذا المَيْل. وَقَدْ لاحَظَ مُعَلِّقُونَ فِي الشُهُورِ الأَخِيرةِ أَنَّ نَعْتَ العَلَوِيِّينَ السُورِيِّينَ بِـ«الطائِفةِ العَلَوِيّةِ الكَرِيمةِ» ارْتَفَعَتْ وَتائِرُهُ كَثِيرًا بَيْنَما كانَ بُؤْسُ العَلاقاتِ الطائِفيّةِ يَتَكَشَّفُ فِي سُورِيّة وَيَزْداد. فَمِثْلُ هَذا دَلِيلٌ عَلى سُوءِ الحالِ غالِبًا وَنَذِيرٌ بِشُرُورٍ مَهُولةٍ، حاصِلةٍ أَوْ مُقْبِلة.

فُتُوّةُ «الطائِفِيّة»

وَمِن «الطائِفةِ» اشْتُقَّت «الطائِفِيّة». وَهَذِهِ الكَلِمةُ يَتَرَجَّحُ اعْتِبارُها بَيْنَ أَنْ تُعَدَّ مَصْدَرًا صِناعِيًّا وَأَنْ تُعَدَّ صِفةً مَنْسُوبةً جَرَتْ مَجْرى الاسْمِ المُسْتَغْنِي عَنْ مَوْصُوف. وَتُرَجَّحُ دَلالَتُها السِياقِيّةُ، بِالتالي، عَلى غِرارِ غَيْرِها مِنْ أَسْماءِ المَذاهِبِ فِي الفِكْرِ والفَنِّ أَوْ فِي السُلوكِ وَالتَنْظِيم. وَاللافِتُ أَنَّ المَقالةَ المُكَرَّسةَ لِلـ«طائِفِيّةِ» فِي **المَوْسُوعةِ الإسْلامِيّة** مُكَرَّسةٌ بِتَمامِها لِلنِظامِ الاجْتِماعِيِّ/السِياسِيِّ فِي لُبْنان. وَكَأَنَّ كاتِبَها لَمْ يَجِدْ فِي أَيّةِ بِلادٍ أُخْرى ما هُوَ جَدِيرٌ بِالتَناوُلِ تَحْتَ هَذا العُنْوان. وَهُوَ ما يَحْمِلُ عَلى التَساؤُلِ إنْ كانَ أ. رِيِيك (A. Rieck) (هَذا هُوَ اسْمُهُ) سَيَعْتَمِدُ هَذا الحَصْرَ لَو انَّهُ كَتَبَ مَقالَتَهُ اليَوْمَ وَلَيْسَ قَبْلَ اليَوْمِ بِعَشْرِ سَنَواتٍ أَوْ تَزِيد. وَ«الطائِفِيّةُ»، بما هِيَ مَصْدَرٌ صِناعِيٌّ أَوْ صِفةٌ مَنْسُوبةٌ جارِيةٌ مَجْرى الاسْمِ المُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ، كَلِمةٌ جَدِيدةٌ نِسْبِيًّا فِي العَرَبِيّةِ، بِخِلافِ أُمِّها «الطائِفة» التِي رَصَدْنا حُضُورَها فِي القُرْآنِ وَالسُنّةِ وَهَذانِ لَمْ يَخْتَرِعاها بِطَبِيعةِ الحالِ، فَهِيَ بِالضَرُورةِ سابِقةٌ لِظُهُورِهِما فِي الزَمان.

وَنَرْمِي مِنْ تَعْلِيقِنا الآنِفِ عَلى مَقالَةِ رِيِيك إلى التَشْدِيدِ عَلى كَوْنِ الطائِفِيّةِ لا تَنْجُمُ عَنْ مُجَرَّدِ وُجُودِ الطَوائِفِ فِي مُجْتَمَعٍ مِن المُجْتَمَعاتِ وَلا تَـكُونُ عَلى حالٍ واحِدةٍ فِي هَذا المُجْتَمَعِ وَفِي ذاكَ وَلا فِي هَذِهِ المَرْحَلةِ وَفِي تِلْك. فَإنَّما هِيَ وَلِيدةٌ لِتارِيخِ المُجْتَمَعِ الذِي تَنْشَأُ فِيهِ وَتَنْمُو، بِما فِي ذَلِكَ ما يَقَعُ عَلى هَذا المُجْتَمَعِ مِنْ أَفْعالِ الخارِجِ وَما يُوقِعُهُ هُوَ مِنْ أَفْعالٍ فِي خارِجِه. وَتَجْتازُ الطائِفِيّةُ أَطْوارًا فَتَكُونُ شَبَكةَ مُيُولٍ مَكْتُومةٍ وَقَواعِدَ نَظَرٍ وَعَمَلٍ وتَصَرُّفٍ لا تُطِيقُ أَنْ تُشْهَرَ وَتَـكُونُ فَلْسَفةً مُعْلَنَةً لِلنِظامِ الاجْتِماعِيِّ

السياسِيِّ كُلِّهِ، كَما هِيَ حالُها فِي لُبْنانَ، فَتَجِدَ مَنْ يَتَوَلّى صَوْغَ حُجَجِها وَأَشْكالِ تَطْبِيقِها وَلَوْ بَقِيَتْ مُعارَضَتُها ماثِلَةً أَيْضًا وَبَقِيَ مُعْظَمُ أَهْلِها وَالمُنافِحِينَ عَنْها أَنْفُسِهم خَجِلِينَ بِها، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، رَدْحًا طَوِيلًا مِن الزَمَنِ، مُعْتَذِّينَ لِتَسْوِيغِ دِفاعِهِمْ عَنْها بِكَوْنِها بِنْتَ الضَرُورَةِ المَكْرُوهة. هَذِهِ الظاهِرَةُ (أَيْ إِظْهارُ التَبَرُّمِ بِالنِظامِ الطائِفِيِّ مَعَ التَمَسُّكِ المُؤَكَّدِ بِهِ) أَطْلَقْنا عَلَيْها، فِي كِتابٍ قَدِيمٍ، اسْمَ «خَجَلِ الطَوائِف» أَيْ «حِشْمَتِها» أَوْ «خَفَرِها» وَوَجَدْنا فِيها مَجالًا تُخْلِيهِ هَذِهِ الأَخِيرَةُ لِنُشُوءِ دَوْلَةٍ تَشْعُرُ بِالحاجَةِ إِلَيْها وَتَـتَحَسَّسُ التَعارُضَ بَيْنَ مُقْتَضَياتِ اسْتِقْرارِها والفَلْسَفةِ الطائِفيّة. عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ بِدْعًا أَلّا يَقَعَ رِيِيك عَلى الطائِفيّةِ إلّا فِي لُبْنان فِيما هِيَ مَوْجُودةٌ هُنا وَهُناكَ وَهُنالِكَ فِي مُجْتَمَعاتِ المَشْرِقِ، وَلَـكِنَّها كانَتْ فِي هَذِهِ المُجْتَمَعاتِ الأُخْرى غَيْرَ ما كانَتْهُ فِي لُبْنان حِينَ كَتَبَ رِيِيك مَقالَتَه. ثُمَّ إذا بِنا نَشْعُرُ اليَوْمَ بِمُيُولٍ مُنْتَشِرةٍ فِي المُحِيطِ إلى اللَبْنَنة... فَيَرُوحُ الكاتِبُ أَو المُتَرْجِمُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ عَمّا يَعْنِيهِ بِالضَبْطِ حِينَ يَقُولُ «طائِفِيّة».

هَذا وَما نُرَجِّحُهُ (وَلا نَمْلِكُ القَطْعَ بِصِحَّتِهِ) أَنَّ اشْتِقاقَ «الطائِفيّةِ» مِن «الطائفةِ» حَصَلَ فِعْلًا فِي لُبْنان وأَنَّهُ لا يَرْقى إلى ما هُوَ أَسْبَقُ مِن المَخاضِ الذِي أَفْضى، عَبْرَ مَرْحَلةٍ مِن التَنازُعِ وَالفِتَنِ، إلى إِرْساءِ الصُورةِ الأُولى لِلنِظامِ الطائِفيِّ فِي جَبَلِ لُبْنان، وَهُوَ مَخاضٌ اسْتَغْرَقَ مُعْظَمَ الثُلُثِ الثانِي مِن القَرْنِ التاسِعَ عَشَر. ولَعَلَّ المُصْطَلَحَ لَمْ يَظْهَرْ إِذْ ذاكَ بِصُورتِهِ اللَفْظِيّةِ هَذِهِ وَإنَّما بِصِيَغٍ أُخْرى مُرَكَّبةٍ تُفِيدُ مَعْناهُ أَوْ تُقارِبُ إفادَتَه. وَقَدْ يَكُونُ التَناضُحُ اللُغَوِيُّ مَعَ هَذا أَوْ ذاكَ مِن الأَلْسِنةِ الأُورُوبِّيّةِ، وَهُوَ تَناضُحٌ راحَتْ وَتائِرُهُ تَـتَسارَعُ فِي تِلْكَ المَرْحَلةِ نَفْسِها، هُوَ الذِي حَفَزَ إلى تَوْلِيدِ هَذا المُصْطَلَح. أَيْ أَنَّ أَهْلَ

البِلادِ قَدْ يَكُونُونَ تَرْجَمُوا عَنْ لُغَةٍ أَجْنَبِيّةٍ تَسْمِيَتَهُمْ لِما كانَ يَحْصُلُ عِنْدَهُمْ أَوْ لَهُمْ. وَهَذا لَيْسَ بِالأمْرِ النادِرِ فِي بِلادِنا وَفِي غَيْرِها. فَإذا صَحَّ تَرْجِيحُنا كانَت «الطائِفيّةُ»، أَوْ ما هُوَ بِمَثابَتِها، قَدْ بَرَزَتْ إلى ساحاتِ الكَلامِ فِي العَهْدِ نَفْسِه الذِي عَلا فِيهِ النِداءُ بِـ«الوَطَنِيّةِ» عَلى لِسانِ المُعَلِّمِ بُطْرُس البُسْتانِيّ. وَكانَ لا بُدَّ مِنْ هَذِهِ لِمُواجَهةِ تِلْك. وَقَدْ بَقِيَتْ هَذِهِ المُواجَهةُ راهِنةً مُذّاكَ فِي ما يَتَعَدّى السَعْيَ المُتَقَطِّعَ مِنْ بَعْضِ المُتَكَلِّمِينَ لِإثْباتِ عَدَمِ التَعارُضِ بَيْنَ هَذَيْنِ القُطْبَيْنِ أَوْ لِاجْتِراحِ صِيغةٍ ما لِإجْراءِ الصُلْحِ بَيْنَهُما.

«طائِفِيّتانِ»: أَمِيرِكِيّةٌ وَفَرَنْسِيّة...

نَقُولُ هَذا وَلا نَسْهُو عَنْ كَوْنِ الاسْمِ الأَجْنَبِيِّ confessionalism, confessionnalisme الذِي اعْتُمِدَ أَوَّلًا لِظاهِرةِ الطائِفيّةِ كانَ غَيْرَ خالٍ مِن التَرَدُّد. فَهُوَ قَدْ وَصَلَ إلى الطائِفةِ عَبْرَ «المَذْهَب». وَهُوَ قَدْ جاءَ مُحَمَّلًا أَثْقالًا مِنْ مَدْلُولِ المَذْهَبيّةِ فِي تارِيخِ المَسِيحِيّةِ الغَرْبِيّةِ لَمْ تَكُنْ مُتَضَمَّنةً فِي المَدْلُولِ الشَرْقِيِّ الذِي اقْتُرِحَتْ لَهُ الكَلِمة. وَهُوَ ما جَعَلَ المُخْتَصِّينَ يُسْرِعُونَ إلى اسْتِبْدالِ الكَلِمةِ حالَما لاحَتْ فِي الحَقْلِ أُخْرى بَدَتْ لَهُمْ أَوْفَقَ لِلْمَقْصُودِ وَهِيَ communautarism, communautarisme. وَذاكَ أَنَّهُمْ لاحَظُوا أَنَّ الطائِفِيّةَ لا تَتَعَلَّقُ بِالمَذْهَبِ بَلْ بِجَماعةِ المُنْتَمِينَ إِلَيْه. غَيْرَ أَنَّ الكَلِمةَ الجَدِيدةَ هَذِهِ جاءَتْ أَشَدَّ رُزُوحًا تَحْتَ أَثْقالِها الغَرْبِيّةِ مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ سابِقَتُها. كانَتْ الكَلِمةُ الغَرْبِيّةُ المُحِيلةُ إلى المَذْهَبِ هِيَ ما جَرَتْ بِهِ أَقْلامُ كُتّابٍ لُبْنانِيِّينَ مِنْ قَبِيلِ مِيشال شِيحا فِي الثَلاثِيناتِ وَالأَرْبَعِيناتِ مِن القَرْنِ الماضِي. مَعَ ذَلِكَ يُؤَرِّخُ مُعْجَمُ

لُو رُوبِير الصَغِيرُ مِيلادَها بِسَنَةِ ١٩٨٤. وَهُوَ ما يَدُلُّ، فِي أَرْجَحِ الظَنِّ، عَلى نَدْرةِ اسْتِعْمالِها قَبْلَ ذَلِكَ فِي النُصُوصِ الفَرَنْسِيّةِ المَنْشُورةِ فِي فَرَنْسا. وَيُشارُ هُنا إلى أَنَّ الناطِقِينَ بِالإنْكِلِيزِيّةِ اعْتَمَدُوا لِلْكَلِمةِ نَفْسِها مُرادِفًا تَقْرِيبِيًّا هُوَ sectarianism وهَذِهِ كَلِمةٌ لَقِيَتْ تَفْضِيلًا عِنْدَ مُنْتَقِدِي الطائِفِيّة. وَيَصْعُبُ مَدُّ هَذا التَرادُفِ إلى sectarisme الفَرَنْسِيّةِ إذْ يَشْتَدُّ المَيْلُ كَثِيرًا فِي هَذِهِ الأَخِيرةِ إلى تَحْقِيرِ مُسَمّاها وَيُسْتَبْعَدُ اسْتِعْمالُها فِي التَناوُلِ المُحايِدِ لِلظاهِرةِ المُسَمّاة.

وَأَمّا الكَلِمةُ المُحِيلةُ إلى «الطائِفةِ» أَوْ إلى «الجَماعةِ» ,communauté community فَوُلِدَتْ فِعْلًا فِي أَواسِطِ الثَمانِيناتِ مِن القَرْنِ الماضِي وأَصْبَحَتْ، بُعَيدَ وِلادَتِها، مُتَنازَعةً بَيْنَ مُحِيطَيْنِ أَمِيرِكِيٍّ وَفَرَنْسِيّ فَرَضا عَلى مَدْلُولِها اسْتِقْطابًا داخِلِيًّا وَإغْراءً بِمَوْقِفَيْنِ مُتَخالِفَيْنِ إلى حَدٍّ مُعْتَبَرٍ مِن الظاهِرةِ التِي تُسَمِّيها الكَلِمة. فبَيْنَما تَحْمِلُ اللَفْظةُ الأَمِيرِكِيّةُ مَعْنى الدَعْوةِ العامّةِ إلى الاعْتِرافِ بِأَسْبَقِيّةِ الجَماعةِ عَلى الفَرْدِ وَبِحُقُوقِ تِلْكَ عَلى هَذا، تَنْحُو اللَفْظةُ الفَرَنْسِيّةُ مَنْحًى تَنْدِيدِيًّا بِالتَبايُنِ فِي تَعْرِيفِ حُقُوقِ الأَفْرادِ تَبَعًا لِانْتِمائِهِمْ إلى هَذِهِ الجَماعةِ أَوْ تِلْكَ وَبِإلْزامِ الفَرْدِ إلْزامًا مُكَبِّلًا بِـ«جَماعَتِهِ» الدِينِيّةِ أَو القَوْمِيّةِ أَو اللُغَوِيّةِ وَإنْكارِ حَقِّهِ فِي الخُرُوجِ عَلى ما يُمْلِيهِ انْتِسابُهُ إلى الجَماعةِ وَحَتّى فِي تَغْيِيرِ هَذا الانْتِسابِ مِنْ أَصْلِه. غَيْرَ أَنَّ الكَلِمةَ اكْتَسَبَتْ أَيْضًا مَعْنًى أُورُوبِيًّا يُقابِلُ «السِيادِيّةَ» souverainisme فَأَصْبَحَتْ تَدُلُّ عَلى المَنْحى المُؤَيِّدِ لِتَوْطِيدِ «الجَماعةِ» الأُورُوبِيّةِ، مُمَثَّلةً بِمُؤَسَّساتِ «الاتِّحادِ»، وَلِتَوْسِيعِ صَلاحِيّاتِها فِي وَجْهِ الدُوَلِ الوَطَنِيّةِ وَالمُنافِحِينَ عَنْ حُقوقِها السِيادِيّة. وهَذا، بِطَبِيعةِ

الحالِ، مَعْنًى لِلْكَلِمةِ غَيْرُ «طائِفِيٍّ» البَتّةَ وَيَقْتَضِي البَحْثَ عَنْ مُقابِلٍ عَرَبِيٍّ يُفِيدُهُ فِي جِهةِ «الجَماعةِ» أَوْ «الاتِّحاد». فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، تَبْسُطُ الكَلِمةُ الجَدِيدةُ ظِلَّها عَلى أَنْواعٍ مِن الجَماعاتِ فِيها اللُغَوِيُّ وفِيها القَوْمِيُّ ولَيْسَ الدِينِيُّ إلّا واحِدًا مِنْها فلا تُفْتَرَضُ لَهُ غَلَبةٌ عَلى سِواهُ، بِالضَرُورة. ذاكَ تَنَوُّعٌ أَصْبَحَتْ «الطائِفِيّةُ» العَرَبِيّةُ ضَيّقةً عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ ضَمَرَ، فِي الاسْتِعْمالِ المُعاصِرِ، مَجالُها وَتَعَدُّدُ إحالاتِها القَدِيمانِ فَباتَتْ تُوحِي حَصْرًا بِإِضْمارِ صِفةِ «الدِينِيّةِ» لمُسَمّاها.

وَفِي كُلِّ حالٍ، كانَ عَلى الصِفةِ «الطائِفِيّةِ»، بِلَفْظِها العَرَبِيّ هَذا، أَنْ تُسَمِّي، فِي العَهْدِ السابِقِ وَفِي العَهْدِ الجَدِيدِ، صِفَتَيْنِ غَرْبِيَّتَيْنِ لا واحِدةً، تَدُلُّ كُلٌّ مِنْهُما عَلى صِلةٍ بِـ«الطائِفةِ» أَوْ بِـ«المَذْهَبِ» مُخْتَلِفةٍ عَنْ تِلْكَ التِي تَدُلُّ عَلَيْها الأُخْرى. فَإِنَّ confessionnel وcommunautaire تَدُلّانِ عَلى النِسْبةِ المَوْضُوعِيّةِ مِنْ غَيْرِ الإفادةِ عَنْ مَوْقِفِ المَنْسُوبِ مِنْ نِسْبَتِهِ تِلْك. وَأَمّا اتِّصالُ اللاحِقةِ isme بِأَيٍّ مِنْهُما فَيُدْرِجُها فِي فِئةٍ مِن الصِفاتِ تُفِيدُ عَلى الإجْمالِ اسْتِبْطانَ المَنْسوبِ لِلنِسْبةِ وَمَيْلَهُ بِها إلى دائِرةِ العَصَبِيّةِ أَو الوَلاءِ أَوْ ما يَجْرِي مَجْراهُما. هَذا الازْدِواجُ الذِي لا تُفْلِحُ العَرَبِيّةُ فِي مُجاراتِه دائِمًا بَلْ تَكْتَفِي بِصِفةٍ واحِدةٍ لِلْحالَتَيْنِ كَثِيرُ الحُصولِ، كَثِيرُ الإِحْراجِ لِلْمُتَرْجِمِينَ، عَلى ما هُوَ مَعْلُومٌ، ولَيْسَت الحالةُ التِي نَتَناوَلُ هُنا إلّا واحِدةً مِنْ أَمْثِلَتِه. وَفِي عَدَدٍ مِن الحالاتِ، يُزالُ اللَبْسُ بِإِلْحاقِ أَلِفٍ وَنُونٍ بِالصِفةِ التِي تُفِيدُ المَيْلَ الذاتِيَّ أَو الوَلاءَ المَذْهَبِيّ. فَيُقالُ «عَقْلِيٌّ» حَيْثُ يُرادُ rationnel وَيُقالُ «عَقْلانِيٌّ» حَيْثُ يُرادُ rationaliste. إلّا أَنَّ العَرَبِيّةَ تَبْدُو، فِي حالاتٍ كَثِيرةٍ، غَيْرَ طَيِّعةٍ لهَذِهِ الرَغْبةِ فِي التَمْيِيز. ومِنْ

أَمْثِلةِ ذَلِكَ الصِفةُ «الطائِفيّةُ» التِي نَتَناوَلُ هَهُنا. فَلا أَحَدَ يَقُولُ «طائِفانِيٌّ» مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ نَظَرِيًّا، لا يَحُولُ دُونَهُ غَيْرُ الاسْتِثْقال. وَهَذا الأَخِيرُ حائِلٌ شَدِيدُ البَأْسِ فِي تَصارِيفِ اللِسانِ العَرَبِيّ وَلَو انَّهُ كَثِيرًا ما يَكُونُ ذَوْقِيًّا بَحْتًا فَلا يَفْعَلُ فِعْلَهُ امْتِثالًا لِقاعِدةٍ مُقَرَّرة. لا يَبْقى، فِي آخِرِ المَطافِ، غَيْرُ السِياقِ يُعْهَدُ إِلَيْهِ بِـ«حَلِّ» المُشْكِلِ المَطْرُوحِ عَلَيْنا وَنَظائِرِه.

«الجَماعةُ» أَنْواعٌ وَ«الأُمّةُ» جالِيةٌ: عَذابُ المُتَرْجِم...

صَفْوةُ القَوْلِ أَنَّ «الطائِفِيّةَ» العَرَبِيّةَ مُتَعَلِّقةٌ، لِحداثةِ سِنِّها النِسْبِيّةِ، بِرِكابِ «الطائِفةِ» بِالمَعْنى الذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ اللَفْظةُ حَدِيثًا وَهُوَ أَضْيَقُ بِكَثِيرٍ مِنْ ذاكَ الذِي حَفِظَتْهُ لَها مَعاجِمُ وَنُصُوصٌ قَدِيمة. وَهُوَ ما يَجْعَلُ confessionnalisme ، عَلى عِلاّتِها، مُقابِلًا لـ«طائِفيّةٍ» أَوْفَقَ وَأَبْعَدَ عَنْ الخَلْطِ بَيْنَ الأُمُورِ المُخْتَلِفةِ مِنْ communautarisme . وَهَذا عَلى الرُغْمِ مِنْ مَيْلِ الكُتّابِ والمُتَرْجِمِينَ، فِي العُقودِ الأَخِيرةِ، إِلى تَغْلِيبِ هَذِهِ الأَخِيرةِ وَاسْتِبْعادِ الأُخْرى. وَأَمّا المُقابِلُ العَرَبِيّ لِـ communautarisme فَإِنَّ البَحْثَ عَنْهُ أَنْجَعُ فِي جِهةِ الـ«جَماعةِ» العَرَبِيّةِ لا فِي جِهةِ الـ«طائِفة». وَقَدْ تَحْضُرُ «أُمّةٌ» حِينَ تُرادُ تَرْجَمةُ عِباراتٍ مِنْ قَبِيلِ «la nation maronite» و«la nation druze» وَهاتانِ عِبارَتانِ يَقَعُ عَلَيْهِما القارِئُ، عَلى سَبِيلِ المِثالِ، فِي الوَثائِقِ القُنْصُلِيّةِ الفَرَنْسِيّةِ المُتَعَلِّقةِ بِلُبْنانَ فِي القَرْنِ السابِعَ عَشَر. غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِي التَنْبِيهُ إِلى أَنَّ كَلِمةَ nation لَمْ تَكُنْ تَدُلُّ فِي ذَلِكَ العَهْدِ عَلى ما نُسَمِّيهِ «أُمّةً» فِي أَيّامِنا. فَنَحْنُ نَقَعُ، فِي الوَثائِقِ نَفْسِها، عَلى حَدِيثِ ما يُسَمّى ...la nation française فِي صَيْدا! وَ«الأُمّةُ» المَذْكُورةُ

عِبارةٌ عَنْ قُنْصُلٍ وَبِضْعةِ تُجّارٍ وَمُرْسَلِينَ يَتَّسِعُ خانُ الإفْرَنْجِ لِمُعْظَمِهِمْ إنْ لَمْ يَتَّسِعْ لَهُمْ جَمِيعًا. وَهُوَ ما يَجْعَلُ عِبارةَ «الجالِيةِ الفَرَنْسِيّةِ» هِيَ الأَقْرَبَ هُنا إلى أَداءِ المَعْنى المُراد. وَهُوَ أَيْضًا ما يَجْعَل البِناءَ عَلى هَذِهِ العِباراتِ لِلْقَوْلِ بِتارِيخٍ «قَوْمِيٍّ» لِلطَوائِفِ (يَجْرِي تَأْسِيسُ وُجودٍ «قَوْمِيٍّ» عَلَيْهِ لِهَذِهِ الأَخِيرةِ فِي عَصْرِنا هَذا) أَمْرًا يَخْتَلِطُ فِيهِ التَعَصُّبُ وَالجَهْلُ: الجَهْلُ لا بِتارِيخِ القَوْمِيّةِ وَحْدَهُ بَلْ أَيْضًا، فِيما يَعْنِينا هُنا، بِتارِيخِ الأَلْفاظ. تَبْقى إشارةٌ أَخِيرةٌ، بِهَذا الصَدَدِ، إلى أَنَّ «الأُمّةَ» وَ«الجَماعةَ» تَنْتَمِيانِ كِلْتاهُما إلى المُصْطَلَحِ الإِسْلاميِّ وَيَتَلابَسُ مَدْلُولُهُما فِيهِ تَلابُسًا بَيِّنًا وَإنْ لَمْ يَبْلُغْ حَدَّ التَطابُق. غَيْرَ أَنَّ اسْتِعْمالَهُما المُعاصِرَ فِي الكَلامِ السِياسِيِّ وَالاجْتِماعِيِّ جَعَلَ ماصَدَقَيْهُما يَفِيضانِ، فِي كَثْرةٍ مِن الحالاتِ، عَن النِطاقِ الدِينِيّ.

كانَ فِي ماضِي كَلِمةِ «طائِفةٍ» مِنْ سَعةِ المَدْلُولِ ما يَفِي بِالحاجةِ (أَوْ يَزِيدُ) لِإباحةِ التَقابُلِ، فِي التَرْجَمةِ، بَيْنَها وَبَيْنَ كَلِمةِ communauté. وَلَكِنَّ ماصَدَقَ هَذِهِ الكَلِمةِ العَرَبِيّةِ راحَ يَضْمُرُ فِي الاسْتِعْمالِ مَعَ المَيْلِ إلى الغَلَبةِ الشَدِيدةِ لِلصِفةِ الدِينِيّةِ عَلى مَدْلُولِها. وَهُوَ ما لَمْ يَحْصُلْ لِلْكَلِمةِ الغَرْبِيّةِ التِي مالَ ماصَدَقُها إلى التَوَسُّعِ وَالتَفَرُّع. وَقَدْ كانَ هَذا التَطَوُّرُ دالًّا عَلى تَنامِي الظاهِرةِ الطائِفِيّةِ وَتَضاؤلِ التَمايُزِ الاجْتِماعِيِّ السِياسِيِّ وَذَواءِ أَنْواعٍ مِنْهُ وَاعْتِمادِ أَنْواعٍ أُخْرى صُوَرًا غَرْبِيّةَ المَنْشَأ اعْتُمِدَتْ لَها أَسْماءٌ عَرَبِيّةٌ ذاتُ حُمُولةٍ تارِيخِيّةٍ مُغايِرةٍ، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، لِحُمُولةِ أَسْمائِها الغَرْبِيّة. وَقَدْ وَقَعَتْ الواقِعةُ نَفْسُها تَقْرِيبًا حَيْثُ أُرِيدَ اجْتِراحُ مُقابِلاتٍ غَرْبِيّةٍ تُسَمِّي وَقائِعَ عَرَبِيّةً أَوْ إسْلامِيّة. وَلا يَسُوقُنا ذَلِكَ سِوى إلى أَمْرٍ مَعْلُومٍ يَتَعَلَّقُ بِمُهِمّةِ التَرْجَمة. وَهُوَ أَنَّ لِلْكَلِمةِ فِي كُلِّ لُغةٍ مَعْنًى أَوْ أَكْثَرُ مِنْ مَعْنًى، لُغَوِيٍّ أَو

اصْطِلاحِيٍّ، يَتْبَعُ تارِيخُهُ تارِيخَ الذِهْنِيّاتِ وَالمُجْتَمَعات. وَلا يُجاوِزُ ما قُمْنا بِهِ هُنا أَنَّنا قَدَّمْنا مِثالًا لِذَلِكَ انْطَلَقَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ عَرَبِيّتَيْنِ هُما «طائِفةٌ» وَ«طائِفيّةٌ» ومِن المُقابِلات التِي اقْتُرِحَتْ لَهُما أَوْ اقْتُرِحَتا لَها فِي اثْنَتَيْنِ مِنْ أَوْسَعِ اللُغاتِ الغَرْبِيّةِ انْتِشارًا. وَلا يَعْدُو كَلامُنا كُلُّهُ حَدَّ الإشارةِ الخَجْلى إلى ما يَنْبَغِي أن يَكُونَ عَلَيْهِ الإعْدادُ المُسْتَمِرُّ لِحِرْفةِ التَرْجَمةِ وَإلى وَجْهٍ مِنْ عَذابِ المُتَرْجِمِ يَزْدادُ ظُهُورًا لَهُ كُلَّما ازْدادَ تَعَلُّقًا بِأُصُولِ حِرْفَتِهِ وَتَقَدَّمَ إعْدادُهُ لِمُزاوَلَتِها.

بِنْتُ جُبَيْل، أَيْلُول ٢٠١٢

اسْتِراحة

النُجُومُ الشُهُبُ:
صُوَرٌ شَخْصِيّةٌ مِنْ لُبْنان لِثَقافةِ مِصْر المُعاصِرة(*)

ما الذاتِيّةُ «مِنْ حِلْمٍ بِمانِعةٍ»!

لَمْ أَجِدْ تَحْقِيقًا حِسِّيًّا أَوْ «مَوْضُوعِيًّا» أُعَوِّلُ عَلَيْهِ لِأَسُوقَ حَدِيثًا مُوَثَّقًا فِي العَلاقاتِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ لُبْنان وَمِصْر: فِي حاضِرِ هَذِهِ العَلاقاتِ وَفِي ماضِيها غَيْرِ البَعِيد. لا رَقْمَ يُفِيدُ، مَثَلًا، عَنْ تَوْزِيعِ الرواياتِ المِصْرِيّةِ فِي السُوقِ اللُبْنانِيّةِ أَوْ عَنْ دَرَجةِ اهْتِمامِ المِصْرِيِّينَ بِأَغانِي فَيْرُوز. لا مَعْلُوماتِ عَمّا آلَتْ إلَيْهِ مُشاهَدةُ الأَفْلامِ المِصْرِيّةِ فِي صالاتِ بَيْرُوت بِالقِياسِ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ فِي سِتِّيناتِ القَرْنِ العِشْرِينَ، مَثَلًا. لا شَيْءَ مِنْ هَذا وَلا مِنْ قَبِيلِهِ وَجَدْتُهُ فِي مُتَناوَلِي. فارْتَأَيْتُ، مُضْطَرًّا وَلَكِنْ فَرِحًا بِهَذِهِ الضَرُورةِ، أَنْ أَسْتَوْحِيَ نِصْفَ قَرْنٍ مِنْ عُمْرِي أَوْ يَزِيدُ أَقَمْتُ فِيهِ عَلى عَلاقةٍ دائِمةٍ وَلَكِنْ مُتَقَلِّبةٍ بِما كانَتْ مِصْر تُهْدِيهِ إلَيَّ: سَواءٌ أَكانَ ذَلِكَ كِتابًا فَذًّا فِي بابِه أَمْ أُغْنِيةً تافِهة. وَقَدْ وَجَدْتُنِي عارِفًا أَنَّ حالَتِي لَمْ تَكُنْ فَرِيدةً وَإنَّما كانَتْ حالةَ شَطْرٍ مِنْ جِيلِي وَقَدَّرْتُ أَنَّنِي لا أَخْلُو مِنْ مَعْرِفةٍ بِما كانَتْ عَلَيْهِ مَواقِفُ شُطُورٍ أُخْرى مِن الجِيلِ نَفْسِهِ وَلا بِما هِيَ مَواقِفُ لُبْنانِيِّينَ مِنْ أَهْلِ اليَوْمِ،

(*) وَرَقةٌ أُعِدَّتْ لِنَدْوةٍ انْعَقَدَتْ يَوْمَ ٣٠ تِشْرِينِ الثاني/نُوفَمْبَر ٢٠١٠ فِي المَجْلِسِ الأَعْلى لِلثَقافةِ فِي القاهِرة حَوْلَ العَلاقاتِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ مِصْر وَلُبْنان، وَذَلِكَ فِي نِطاقِ «الأَيّامِ الثَقافِيّةِ اللُبْنانِيّةِ» فِي مِصْر.

عَلى اخْتِلافِ السِنِّ وَالمَنْبِتِ، يَتَّفِقُ أَنْ أُعايِنَ رُدُودَ أَفْعالِهِمْ عَلى عَمَلٍ مِن الأَعْمالِ الثَقافِيّةِ المِصْريّة. هَذا كُلُّهُ لا يَمُتُّ بِصِلةٍ، طَبْعًا، إلى التَحْقِيقِ أَو القِياسِ الاجْتِماعِيِّ بِما يَقْتَضِيهِ مِنْ ضَوابِطَ مَعْلُومة. حَتّى أَنَّنِي أَعْزُفُ هُنا عَنْ تَحْدِيدِ مَعالِمَ لِهَذا الشَطْرِ مِن الجِيلِ اللُبْنانيّ الذِي أُصَرِّحُ بِانْتِمائِي إلَيْهِ وَعَنْ كُلِّ مُحاوَلةٍ لِتَقْدِيرِ حَجْمِهِ أَوْ دَرَجاتِ الشَبَهِ بَيْنَ عَناصِرِه. ما أَعْلَمُهُ هُوَ أَنَّهُ شَطْرٌ مِنْ شُطُور. وَلَـكِنْ حِينَ يُدْرَجُ المَوْقِفُ الفَرْدِيُّ مِنْ عَمَلٍ ثَقافِيٍّ بِمَسارٍ شَخْصِيٍّ إجْمالِيٍّ وَبِحَبْكةٍ اجْتِماعِيّةٍ تارِيخِيّةٍ ارْتَسَمَ هَذا المَسارُ عَبْرَ فُصُولِها، يُصْبِحُ الإفْضاءُ إلى مَعْرِفةٍ ذاتِ قِيمةٍ بِتَحَوُّلاتِ العَلاقاتِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ البِلادَيْنِ أَمْرًا غَيْرَ مُسْتَبْعَدٍ وَلَوْ بَقِيَ مَحْفُوفًا بِالتَحَفُّظات. بَلْ إنَّ وُجُوهًا مِنْ هَذِهِ المَعْرِفةِ غَيْرَ خالِيةٍ مِنْ إسْنادٍ جُزْئِيٍّ وَلَو انَّها تَقُومُ عَلى الحَدْسِ أَساسًا قَدْ تَـتَفَوَّقُ عَلى ما يَنْتَهِي إلَيْهِ التَحْقِيقُ «العِلْمِيّ». فَهِيَ قَدْ تَـكْشِفُ، عَلى نَحْوٍ ما، ما يَصِحُّ اعْتِبارُهُ لُبَّ المَسْأَلةِ وَمَنْطِقَ المَسار.

شَيْخُوخةُ النُجُوم

يَنالُ مِصْر وَيَنالُ لُبْنان رَشاشٌ مُعْتَبَرٌ مِنْ أَزْمةِ النُجُومِيّةِ الثَقافِيّةِ فِي عالَمِ اليَوْم. هُنا وَهُناك، يَتَعَثَّرُ بُزُوغُ النُجُومِ فِي سَماءِ الثَقافةِ، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ إذا نَحْنُ قارَنّا الحالَ اليَوْمَ بِما كانَتْ عَلَيْهِ الحالُ قَبْلَ نَحْوٍ مِنْ نِصْفِ قَرْن. وَلِقائِلٍ أَنْ يَقُولَ: لَيْتَ هَذِهِ كانَت الأَزْمةَ الوَحِيدةَ، فِي مِصْر أَوْ فِي لُبْنان أَوْ فِي كِلَيْهِما، إذَنْ لَهانَ الخَطْبُ وَاطْمَأَنَّت النُفُوسُ وَلَراحَ الناسُ يُهَنِّئُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا بِسَلامةِ العَواقِب. فَهَلْ تُعَدُّ أَزْمةً فِعْلًا أَنْ نَنْظُرَ حَوْلَنا فَنَرى أَنَّ القِيَمَ المُسْتَقِرّةَ فِي الشِعْرِ المِصْريِّ اليَوْمَ تُوشِكُ أَنْ تَـكُونَ هِيَ نَفْسَها

التي كانَتْ مُسْتَقِرّةً قَبْلَ ثَلاثِينَ سَنةً أَوْ أَرْبَعِينَ وَأَنَّ وَفْرةَ ما نُشِرَ، فِي هَذِهِ المُدّةِ، وَهِيَ وَفْرةٌ مُؤَكَّدةٌ، لَمْ تَفْرِضْ خَلِيفةً أَوْ خُلَفاءَ مُكَرَّسِينَ فِي المَجالِ العَرَبِيِّ وَلَيْسَ فِي المَجالِ المِصْرِيِّ وَحْدَهُ، لِصَلاح عَبْدِ الصَبُور أَوْ لِأَحْمَد عَبْدِ المُعْطِي حِجازِي؟ فِي الشِعْرِ العامِّيِّ أَيْضًا لَمْ تَصِلْ إلى بَيْرُوتَ، حَتّى اليَوْمِ، أَصْواتٌ مِصْرِيّةٌ يُحِلُّها اللُبْنانِيُّ المُهْتَمُّ، بَعْدَ أن طالَت المُدّةُ، فِي مَصافِّ صَلاح جاهِين أَوْ فِي مَصافِّ أَحْمَد فُؤاد نَجْم وَرَفِيقِهِ الشَيْخ إمام أَوْ فِي مَصافِّ عَبْدِ الرَحْمَن الأَبْنُودِي أَوْ سَيِّد حِجاب.

وَلأُسارِعْ إلى القَوْلِ إِنَّ الحالَ فِي الروايةِ هُنا وَهُناكَ هِيَ غَيْرُها فِي الشِعْر. فَإنَّ الرِوايةَ فِي لُبْنان أَكْثَرُ ازْدِهارًا وَأَرْفَعُ سَمْتًا مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ نِصْفِ قَرْن. وَقَدْ تَمْنَعُ حالةُ نَجِيب مَحْفُوظ أَنْ نَقُولَ الشَيْءَ نَفْسَهُ عَنْ مِصْر. وَلَـكِنْ يَبْقى صَحِيحًا أَنَّ خِلافةَ مَحْفُوظ هِيَ اليَوْمَ فِي مِصْر أَوْثَقُ عُرْوةً وَأَمْتَنُ سَنَدًا مِنْ خِلافةِ جِيلِ السِتّيناتِ وَالسَبْعِيناتِ مِن القَرْنِ العِشْرينَ فِي مَضامِيرِ الشِعْر. وَفِي لُبْنان يَلْفِتُ ازْدِهارٌ مُؤَكَّدٌ لِلروايةِ فِي رُبْعِ القَرْنِ المُنْصَرِمِ وَتَلْفِتُ قُوّةُ الحُضُورِ النِسائِيِّ بَيْنَ كُتّابِها. وَلا فائِدةَ تُرْجى مِنْ ذِكْرِ أَسْماءٍ إذْ لَسْتُ هُنا فِي لَبُوسِ الناقِدِ الأَدَبِيِّ بَلْ فِي مَعْرِضٍ آخَرَ هُوَ مَعْرِضُ النَظَرِ فِي كَيْفِيّاتِ التَلَقِّي الاجْتِماعِيِّ لِلْأَعْمالِ الثَقافِيّةِ وَفِي مَوازِينِ هَذا التَلَقِّي.

وَقَدْ بَدَأْتُ بِذِكْرِ أَزْمةِ النُجُومِيّة. مَرّةً أُخْرى: هَلْ هَذِهِ أَزْمةٌ حَقًّا؟ الأَرْجَحُ أَنَّ اسْتِعْصاءَ بُزُوغِ النَجْمِ ثُمَّ تَعَذُّرَ اسْتِقْرارِهِ فِي فَلَـكِه، إذا هُوَ بَزَغَ، ناتِجانِ فِي هَذا العَهْدِ الأَخِيرِ عَنْ نَوْعٍ مِن «الدِيمُقْراطِيّة» فَرَضَ نَفْسَهُ فِي عَوالِمِ الثَقافة. وَمُصْطَلَحُ الدِيمُقْراطِيّةِ أَسْتَعْمِلُهُ هُنا بِمَعْنًى كَمِّيٍّ أَوَّلًا يُرادِفُ، مِن الجِهةِ الأُولى، اتِّساعَ الانْتِشارِ أَوْ، فِي الأَقَلِّ، تَضَخُّمَ الطَلَبِ المَبْدَئِيِّ وَيُرادِفُ

بِالتالِي، مِن الجِهَةِ الأُخْرى، مَزِيدًا مِن الغَزارةِ فِي المُنْتَجاتِ الثَقافِيّةِ المَعْرُوضةِ وَمَزِيدًا مِن التَنَوُّعِ فِيها أَيْضًا. وَهَذا المَزِيدُ الأَخِيرُ، أَيْ مَزِيدُ التَنَوُّعِ، مُتَّصِلٌ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، بِالصُورةِ: بِالتَضَخُّمِ المَهُولِ فِي إنتاجِ الصُوَرِ وَبِالتَيْسِيرِ المَهُولِ لِتَعْمِيمِها أَيْضًا وَبِكَثْرةِ الوَسائِطِ وَالصِيَغِ التِي باتَتْ مُتاحةً لعَرْضِها وَبِنُفُوذِها الكاسِحِ كَذَلِكَ.

وَفْرةٌ فِي الأُمِّيةِ وَغَزارةٌ فِي الثَقافة

وَأَمّا الغَزارةُ فِي إِنْتاجِ أَجْناسٍ أُخْرى مِن الأَعْمالِ الثَقافِيّةِ هِيَ الأَجْناسُ التِي كانَتْ مَأْلُوفةً فِي الفِكْرِ وَالآدابِ وَالفُنُونِ قَبْلَ طُغْيانِ الصُورةِ وَبَقِيَتْ مَأْلُوفةً بَعْدَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّها، بِالدَرَجةِ الأُولى، إلى ما يُسَمّى «دِيمُقْراطِيّةَ التَعْلِيم». وَهَذِهِ «دِيمُقْراطيّةٌ» اتَّخَذَتْ، فِي نِصْفِ القَرْنِ الأَخِيرِ، صُورةَ المَدِّ الذِي لا يُغْلَبُ وَفَرَضَتْ وَقائِعَها التِي تَشْهَدُ بِضَخامَتِها الأَرْقامُ فِي مِصْر كَما فِي لُبْنان. وَهِيَ دِيمُقْراطِيّةٌ كَثَّرَتْ مُسْتَهْلِكِي الأَعْمالِ الثَقافِيّةِ المُحْتَمَلِينَ تَكْثِيرًا جَسِيمًا وَكَثَّرَتْ أَيْضًا مُنْتِجِي هَذِهِ الأَعْمال... وَلا يَنْقُضُ هَذا الواقِعَ عِنادُ ظاهِرةِ الأُمِّيةِ فِي المَدى العَرَبِيِّ، وَهُوَ عِنادٌ تُصْدِي لَهُ الأَرْقامُ الفاضِحةُ التِي تُعَمِّمُها تَقارِيرُ التَنْمِيةِ البَشَرِيّةِ أَوْ إِحْصاءاتُ اليُونِيسْكُو. هَذِهِ الأَرْقامُ بالِغةُ الخَطَرِ، طَبْعًا، خُصُوصًا حِينَ يُضافُ إلى ما يَتَعَلَّقُ مِنْها بِالأُمِّيةِ بِمَعْنى امْتِناعِ القِراءةِ وَالكِتابةِ ما يَتَعَلَّقُ بِأُمِّيةِ الحاسُوبِ وَما يَتَعَلَّقُ بِقِراءةِ الصُحُفِ وَالكُتُبِ وَبِالوُصُولِ إلى الإِنْتِرْنِتّ وَبِالعَناوِينِ المُتَرْجَمةِ مِن اللُغَةِ العَرَبِيّةِ وَإِلَيْها، إلخ. وَهَذا كُلُّهُ باتَ مُتَداوَلًا يَتَيَسَّرُ الاطِّلاعُ عَلَيْهِ وَإِنْ تَكُنْ مُعالَجةُ البَعْضِ مِنْ وُجُوهِهِ الخَطِيرةِ تَبْدُو وَكَأَنَّها تَزْدادُ اسْتِعْصاءً. لَمْ تَمْنَعْ كَثْرةُ

الأُمِّيِّينَ تكاثُرَ الدَكاتِرةِ، مَثَلًا. بَلْ إنَّ اسْتِشْراءَ هَذا اللَقَبِ شاهِدٌ عَلى وَجاهةِ ما نَقُولُهُ فِي صَدَد «الدِيمُقْراطِيّةِ الثَقافِيّة». حِينَ كانَ يُقالُ فِي العِشْرِيناتِ أَوْ فِي الثَلاثِيناتِ «الدُكْتُور طَهَ حُسَيْن» كانَ لِلَّقَبِ رَنّةٌ غَيْرُ الرَنّةِ التِي لِقَوْلِنا اليَوْمَ «الدُكْتُور أَحْمَد بَيْضُون». وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِن النُقّادِ أَوْ غَيْرِهِمْ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُكَرِّمُ طَهَ حُسَيْن إذا هُوَ جَرَّدَهُ مِنْ لَقَبِه. وَأَمّا المُثَقَّفُ الطَمُوحُ اليَوْمَ (وَلَيْسَ المُثَقَّفُ المُتَواضِعُ كَما قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُنا) فَهُوَ يَدَعُ هَذا اللَقَبَ جانِبًا، إذا كانَ قَدْ اقْتَناهُ، وَيَسْعى إلى جَعْلِ اسْمِهِ، مُجَرَّدًا، جَوازَ سَفَرٍ مِن التَنْكِيرِ إلى التَعْرِيف.

فِي ما وَراءَ وَقائِعِ الأُمِّيّةِ وَما جَرى مَجْراها إذَنْ، يَبْقى مُؤَكَّدًا حُصُولُ تَضَخُّمٍ مُطْلَقٍ وَنِسْبِيٍّ مَعًا، فِي العُقُودِ الأَخِيرةِ، فِي الجُمْهُورِ الراغِبِ فِي اسْتِهْلاكِ ما نُطْلِقُ عَلَيْهِ اسْمَ الأَعْمالِ الثَقافِيّةِ، عَلى اخْتِلافِها، وَكَذَلِكَ حُصُولُ تَيْسِيرٍ إجْمالِيٍّ جَسِيمٍ لِهَذا الاسْتِهْلاك. يَبْقى مُؤَكَّدًا تَحَقُّقُ هَذا الاسْتِهْلاكِ، بِالتالِي، عَلى نِطاقٍ اجْتِماعِيٍّ وَبِتَنَوُّعٍ فِي الوَسائِطِ وَالصِيَغِ لَمْ يَسْبِقْ لَهُما مَثِيل. وَما مِنْ رَيْبٍ فِي أَنَّ هَذا النَوْعَ مِن «الدِيمُقْراطِيّةَ» يَدْخُلُ فِي مُغالَبةٍ مَعَ نَوْعِيّةِ المُنْتَجاتِ وَيُغْرِي بِشِدّةٍ بِاعْتِمادِ السُهُولةِ وَبِالتَساهُلِ فِي المَعايِير، لِغَيْرِ صالِحِ الجُودةِ بِالضَرُورةِ، عَلى صَعِيدِ الإنْتاج. وَهَذِهِ الحالُ هِيَ نَفْسُها التِي تُفْضِي إلَيْها «دِيمُقْراطِيّةُ التَعْلِيمِ» إذْ هِيَ قَدْ وَسَّعَتْ كَثِيرًا جُمْهُورَ المُتَعَلِّمِينَ وَلَكِنَّها أَسْفَرَتْ عَنْ تَراجُعٍ فِي جُودةِ التَحْصِيلِ وَعَنْ تَرَدٍّ أَشَرْنا إلَيْهِ تَوًّا فِي قِيمةِ الشَهاداتَ وانْحِطاطٍ فِي فاعِلِيّةِ المُؤَهِّلات. وَكَثِيرًا ما يُقْرَنُ أَمْرُ الثَقافةِ وَأَمْرُ التَعْلِيمِ فِي الأَحْكامْ التِي تُطْلَقُ بِصَدَدِ العَمَلِيّةِ التَرْبَوِيّةِ فِي جُمْلَتِها فَيُقالُ أَنَّ التَعْلِيمَ انْتَشَرَ وَتَوَسَّعَ وَلَكِنْ ضَعُفَت الثَقافةُ

التِي تَنْشَأُ مِنْهُ وَبِفَضْلِه. وَحِينَ يَصِلُ الحَدِيثُ إلى المُنْتَجاتِ الثَقافِيّةِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كانَتْ، يُقالُ مَثَلًا أَنَّ الرواياتِ كَـثُرَتْ أَعْدادُ ما يَصْدُرُ مِنْها كُلَّ سَنةٍ وَلَـكِنَّ الجَيِّدَ نادِرُ الوُجُودِ بَيْنَها بَلْ هُوَ مَعْدُوم الوُجودِ فِي حَصادِ البَعْضِ مِن السِنِين. وَلا حاجةَ إلى القَوْلِ أنَّ الرِواياتِ مِثالٌ لا أَكْثَرُ هُنا وَأَنَّ القَوْلَ نَفْسَهُ يُقالُ فِي الشِعْرِ وَفِي السِينَما وَفِي النَقْدِ وَفِي البَحْثِ الاجْتِماعِيّ، إلخ.

ما شَأْنُ هَذا كُلِّهِ بِالعَلاقاتِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ مِصر وَلُبْنان؟ هَذا لَهُ شَأْنٌ أَوّلًا بِمَسْأَلةِ النُجُومِيّة. النُجُومُ فِي مِصْر وَفِي لُبْنان يَمُوتُونَ أَوْ يَشِيخُون... قُلْنا أنّنا اعْتَدْنا أَسْماءَهُمْ، فِي مَجالاتٍ مُخْتَلِفةٍ، لِعَشَراتٍ مِن السِنِين. اعْتَدْناها هِيَ نَفْسَها واعْتَدْنا أَلّا يَحِلَّ مَحَلَّهُمْ أَحَدٌ، فِي أَفْلاكِهِمْ هِيَ نَفْسِها، أَيْ فِي المَقامِ الذِي مَلَأَهُ كُلٌّ مِنْهُمْ، حِينَ يَشِيخُونَ أَوْ عِنْدَما يَمُوتُون. وَالأَرْجَحُ أَنَّ الحالَ لَمْ تَـكُنْ عَلى هَذا المِنْوالِ، فِي مِصْر وَفِي لُبْنان، قَبْلَ نِصْفِ قَرْنٍ مَثَلًا أَوْ قَبْلَ ثَلاثةِ أَرْباعِ القَرْن. كانَ النُجوم نادِرِينَ طَبْعًا، هُنا وَهُناكَ، فِي تِلْكَ الأَيّامِ، فَهَذِهِ هِيَ حالُهُمْ دائِمًا. وَلَـكِنَّ العُبُورَ مِنْ جِيلٍ إلى جِيلٍ مِنْهُمْ كانَ يَحْصُلُ بِقَدْرٍ مِن السَلاسةِ يَسْتَبْعِدُ الفَراغَ أَوْ يَجْعَلُهُ شُذُوذًا أَوْ يَسْتَبْعِدُ تَمادِيه، فِي الأَقَلّ.

النَجْمُ بِما هُوَ شِهاب

وَالحالُ أَنَّ النُجُومَ هُم الذِينَ يَعْبُرُونَ الحُدُودَ مِنْ بِلادٍ إلى أُخْرى لِيَنْشَأَ بِأَعْمالِهِمْ هَذا الذِي نُسَمِّيهِ عَلاقاتٍ ثَقافِيّةً، بِالمَعْنى الضَيِّقِ الذِي نَعْتَمِدُهُ هُنا لِمُصْطَلَحِ الثَقافةِ وَهُوَ المَعْنى الذِي يَحْصُرُ الثَقافةَ فِي أَعْمالِ المُثَقَّفِين.

قَدْ يُوجَدُ جُمْهُورٌ فِي بِلادِ المَنْشَأ لِأَسْماءٍ فِي مَيادِينِ الثَقافةِ غَيْرِ عالِيَةِ الجَرْس. وَأَمّا سَعَةُ المَيْدانِ وَبُعْدُ المَدى فَتَنْفَرِدُ بِهِما، بِطَبِيعةِ الحالِ، أَسْماءٌ وَوُجُوهٌ وَأَصْواتٌ مَلَأَتْ ساحاتِها أَوَّلًا وَضاقَتْ بِها هَذِهِ الساحات. هَذِهِ قاعِدةٌ تَحْتَمِلُ الشَواذَّ التِي تُؤَكِّدُها إذْ لا يُعَدُّ مُحالًا، فِي الواقِعِ، أَنْ يَبْزُغَ النَجْمُ فِي سَماءٍ غَيْرِ سَماءِ مَوْطِنِهِ الأَصْلِيِّ وَلا يُعَدُّ مُحالًا أَنْ تَلْفِظَهُ سَماءُ مَوْطِنِهِ الأَصْلِيِّ، إلخ. أَمْرٌ آخَرُ يَجِبُ تَسْجِيلُهُ هُنا هُوَ أَنَّ النُجُومِيّةَ لا تَضْمَنُ، بِالضَرُورةِ، حِيازةَ صاحِبِها وَأَعْمالِهِ قِيمةً مُتَفَوِّقةً تُقِرُّ تَفَوُّقَها المَقايِيسُ العامّةُ، الثابِتةُ نِسْبِيًّا، مِمّا يُناطُ بِهِ تَقْدِيرُ قِيمةِ الأَعْمالِ وَمَقاماتِ الأَشْخاصِ فِي هَذا النَوْعِ أَو الفَنِّ مِنْ فُنُونِ الثَقافةِ وَأَنْواعِها. فَقَدْ يَحْظى بِنُجُومِيّةٍ عابِرةٍ مَنْ تُعَدُّ أَعْمالُه ساقِطةً بِحُكْمِ المَقايِيسِ المُشارِ إلَيْها. وَقَدْ يَبْقى مَغْمُورًا فِي حَياتِهِ وَلا يُنْصَفُ إلّا بَعْدَ الوَفاةِ أَوْ الانْكِفاءِ مَنْ يَأْتِي بِأَعْمالٍ عَظِيمةٍ وَلَـكِنَّها مُجافِيةٌ لِلذائِقةِ الغالِبةِ عَلى ساحَتِه. غَيْرَ أَنَّ المَقايِيسَ تَـكُونُ قَدْ سَلَّمَتْ بِقِيمةِ الأَعْمالِ وَصاحِبِها حِينَ يَطُولُ الزَمَنُ بِنُجُومِيّتِهِ وَيُصْبِحُ ما يُسَمّى بِالتَـكْرِيسِ أَمْرًا مُتَحَقِّقًا بِضَمانٍ مِن السُلُطاتِ المُحَكَّمةِ فِي النَوْعِ المَعْنِيِّ مِن الأَعْمالِ الثَقافِيّةِ وَمِن الجُمْهُورِ المَعْنِيِّ بِهَذِهِ الأَعْمال. النَجْمُ هَهُنا شِهابٌ بِمَعْنَيَيْنِ مُتَبايِنَيْنِ إذَنْ: بِمَعْنى العُبُورِ مِنْ أُفُقٍ إلى أُفُقٍ وَبِمَعْنى قابِلِيّةِ الخُمُودِ وَالتَرَمُّد.

فِي كُلِّ حالٍ، لا نَصِلُ بِالضَرُورةِ إلى تَرادُفٍ تامٍّ ما بَيْنَ نُجُومِيّةِ النَجْمِ الثابِتةِ وَالقِيمةِ الثابِتةِ لِأَعْمالِه. الروائِيُّونَ المِصْرِيُّونَ الذِينَ جاؤوا بَعْدَ مَحْفُوظ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَدُّ تِلْمِيذًا لَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَرادَ نَفْسَهُ مُؤَسِّسًا لِمَنْحًى يُخالِفُ مَنْحاهُ، عَلى التَخْصِيصِ، لَمْ يَجْتاحُوا الحُدُودَ الرَمْزِيّةَ بَيْنَ مِصر وَلُبْنان، عَلى

غِرارِ مَحْفُوظ، بَلْ بَقِيَ وُصُولُهم إلى المُطالِعِينَ اللُبْنانِيِّينَ أَشْبَهَ بِالتَسَلُّل. فَهُمْ لَيْسُوا مَوْضُوعَ دِراسةٍ عِنْدَنا وَلا يُنْسَبُ إلَيْهِمْ تَلامِذةٌ مِنْ بَيْنِ روائِيِّينا وَلا تَنْشَغِلُ بِهِمْ كَثِيرًا الصَفَحاتُ الثَقافِيّةُ مِنْ جَرائِدِ بَيْرُوت. وَهَذا مَعَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَطَعَ فِي الشَيْخُوخةِ شَوْطًا طَوِيلًا وَأَصْبَحَ بَعْضُهُم الآخَرُ واقِفًا عَلى أَعْتابِها. أُشِيرُ، بِالدَرَجةِ الأُولى، إلى إدْوار الخَرّاط، إلى إبْراهِيم أَصْلان، إلى بَهاء طاهِر، إلى صُنْع الله إبْراهِيم، إلى جَمال الغِيطاني، إلى يُوسُف القَعِيد... عالِمًا أَنَّنِي أُشِيرُ إلى قِيَمٍ مَرْمُوقةٍ جِدًّا فِي مَسارِ الرِوايةِ المِصْرِيّة. مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسَعْ أَيًّا مِنْ هَؤُلاءِ أَنْ يُنْشِئَ بِالقُرّاءِ اللُبْنانِيِّينَ عَلاقةً تُكافِئُ تِلْكَ التِي أَنْشَأَها، لا مَحْفُوظ وَحَسْبُ بَلْ حَتّى إحْسان عَبْدُ القُدُّوس وَيُوسُف السِباعيّ فِي أَيّامِهِما. وَهَذانِ كانا نَجْمَيْنِ وَلَو انَّ النُقّادَ لا يَعُدُّونَهُما، عَلى الأَرْجَحِ، مِن الأَساطِينِ المُسْتَقِرّةِ فِي مَجْدِ الفَنِّ الروائِيِّ فِي مِصْر. فِي تِلْكَ المَرْحَلةِ نَفْسِها، اضْطُرَّت **الأَرْضُ** رِوايةُ عَبْدِ الرَحْمَن الشَرْقاوِي أَنْ تَنْتَظِرَ يُوسُف شاهِين وَالسِينَما سِنِينَ كَثِيرةً حتَّى تَتَمَكَّنَ مِنْ فَرْضِ نَفْسِها عَلى انْتِباهِ جَمْهَرةٍ مُعْتَبَرةٍ مِن القُرّاءِ اللُبْنانِيِّين.

اليَوْمَ يَسْبِقُ الخَرّاطَ وَأَصْلانَ وَطاهِرَ وَإبْراهِيمَ وَالغِيطاني وَسِواهُمْ إلى نُورِ مَصابِيحِ القِراءةِ اللُبْنانِيّةِ نَجْمٌ جَدِيدٌ نِسْبِيًّا لِلروايةِ المِصْرِيّةِ هُوَ عَلاء الأَسْوانِي. وَهُوَ رَجُلٌ مُخْتَلَفٌ بَيْنَ النُقّادِ، مِنْ مِصْرِيِّينَ وَغَيْرِ مِصْرِيِّينَ، فِي قِيمةِ أَعْمالِهِ، وَهَذِهِ القِيمةُ لَيْسَتْ ما يَهُمُّنا هُنا فِي أَيِّ حال. ما يَهُمُّنا هُوَ أَنَّ الروائِيَّ النَجْمَ، وَقَدْ أَسْعَفَتْهُ فِي ذَلِكَ السِينَما ــ مَرّةً أُخْرى ــ أَيَّما إسْعافٍ، قَدْ أَدّى وَظِيفَتَهُ مَرّةً أُخْرى فَاسْتَوى خَيْطًا مِنْ خُيُوطِ الشَبَكةِ التِي يَسَعُنا أَنْ نُسَمِّيها العَلاقاتِ الثَقافِيّةَ بَيْنَ لُبْنان وَمِصْر. مِنْ حَيْثُ الأَساسُ لَيْسَتْ حالُ

هَذا النَجْمِ مُخْتَلِفةً عَنْ حالِ النُجُومِ فِي فُنُونٍ أُخْرى يُسْتَعْمَلُ فِيها مُصْطَلَحُ النُجُومِيّةِ بِمَزِيدٍ مِن التَواتُرِ أَيْ مَثَلًا عَنْ حالِ عَبْدِ الحَلِيم حافِظ أَوْ سُعاد حُسْنِي فِي مِضْمارَي الغِناءِ وَالسِينَما.

لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَن الحُظْوةِ التِي يَمْنَحُها القُرّاءُ المِصْرِيُّونَ لِلروائِيِّين اللُبْنانِيِّينَ اليَوْمَ، وَبَعْضُ هَؤُلاءِ أَصْبَحَ مُنْتَشِرًا، كَما هِيَ حالُ عَلاء الأَسْوانِي، بِلُغاتٍ عِدّة. وَلَـكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ مُغَنِّيَةً لُبْنانِيَّةً شابّةً أَصْبَحَتْ عَرِيضةَ الصِيتِ وَغامِرةَ الحُضُورِ عَلى الفَضائِيّاتِ هِيَ نانْسِي عَجْرَم دانَتْ بِبَعْضِ نَجاحِها لاعْتِمادِها اللهْجةَ المِصْرِيّةَ فِي أَغانِيها. وَهَذا أَمْرٌ يُوحِي أَنَّ طَلَبَ الاعْتِرافِ المِصْرِيِّ بِأَيِّ مُنْتَجٍ ثَقافِيٍّ عَرَبِيٍّ لا يَزالُ ذا أَوْلَوِيّةٍ مُؤَكَّدةٍ عِنْدَ صاحِبِ المُنْتَج. وَهُوَ يُوحِي أَيْضًا أَنَّ ما حَصَلَ وَما زالَ يَحْصُلُ مِنْ تَعارُفٍ بَيْنَ العامِّيّاتِ العَرَبِيّةِ بِفَضْلِ التِلِفِزْيُون لَمْ يُبْطِلْ كَوْنَ العامِّيّةِ المِصْرِيّةِ تَبْدُو أَشْبَهَ بِـ«فُصْحى العامِّيّاتِ» أَيْ بِالعامِّيّةِ الجامِعةِ بَيْنَ أَجْنِحةِ المُسْتَمِعِينَ أَوْ المُشاهِدِينَ العَرَبِ شَأْنَ العَرَبِيّةِ الفُصْحى بَيْنَ أَجْنِحةِ قُرّائِهِمْ. فَإِنَّ تَمَصُّرَ نانْسِي عَجْرَم لا يُغَرِّبُها قَيْدَ أُنْمُلةٍ عَنْ بَيْرُوت. إِذْ يَبْقى لِحِفْظِ الأُلْفةِ بَيْنَها وَبَيْنَ الجُمْهُورِ اللُبْنانِيِّ نَحْوُ قَرْنٍ مِن اعْتِيادِ اللُبْنانِيِّينَ سَماعَ الغِناءِ المِصْرِيِّ وَمِنْ تَرَنُّمِهِمْ بِهِ أَيْضًا، مُطْرِبِينَ كانُوا أَمْ مُجَرَّدَ مُتَنَزِّهِين.

فِي مَجالٍ مُخْتَلِفٍ جِدًّا، أَسْهَمَتْ بَيْرُوت، بِصِحافَتِها وَبِصِناعةِ النَشْرِ فِيها وَبِجُمْهُورٍ مِنْ مُسْتَمِعِيها أَيْضًا، فِي صُنْعِ نَجْمٍ مِصْرِيٍّ آخَرَ هُوَ نَصْر حامِد أَبُو زَيْد. كانَت الوُعُورةُ التِي يَتَّسِمُ بِها حَقْلُ أَبْحاثِهِ تَسْتَبْعِدُ أَنْ يَسْتَوِيَ الرَجُلُ نَجْمًا تُشَدُّ الرِحالُ إِلى مُحاضَراتِه. وَلَـكِنَّ بَيْرُوت تَلَقَّت المِحْنةَ التِي أَطْبَقَتْ عَلى أَبُو زَيْد فِي القاهِرة فَراحَتْ تَطْبَعُ كُتُبَهُ وَتُجادِلُ فِيها

وَتَجْمَعُ لَهُ المُسْتَمِعين... إلى أَنْ شَهِدَت العَرْضَ الأَوَّلَ لِفيلمٍ عَنْهُ أَخْرَجَهُ باحِثٌ سُورِيٌّ هُوَ مُحَمَّد عَلي الأَتاسِي، وَقَد احْتَشَدَ لِلْفِيلمِ جُمْهُورٌ فَرَضَ عَرْضَهُ بَعْدَ أَنْ تَرَدَّدَ أَنَّهُ سَيُمْنَع. أَنْزَلَتْ بَيْرُوت عَلى الرَحْبِ نَصْر حامِد أَبُو زَيْد إذَنْ وَهَذا حَقُّه. عَلى أَنَّ بَيْرُوت لا تَعْرِفُ شَيْئًا، عَلى الأَرْجَحِ، عَنْ مِصْريِّينَ أَصْحابِ أَعْمالٍ وَعْرةٍ أَيْضًا وَلَـكِنَّها سامِيةُ المَكانةِ وَالقِيمةِ فِي أَبْوابِها. تَعْرِفُ بَيْرُوت مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ نَوال السَعْداوِي، وَيَتَرَدَّدُ فِيها أَحْيانًا اسْمُ جَمال حَمْدان أَوْ يَزُورُها (قادِمًا مِنْ بارِيس) مُصْطَفى صَفْوان، وَلَـكِنَّ بَيْرُوت لا تَعْرِفُ شَيْئًا، عَلى الأَرْجَحِ، عَنْ أَحْمَد أَبُو زَيْد وَلا عَنْ سَيِّد عُوَيْس وَلا عَنْ رَمْزِي زَكِي...

مِن الفَرْدِ إلى المُجْتَمَع:
فِي فَضْلِ البِلادِ عَلى نُجُومِها

النَجْمُ فَرْدٌ، فِي كُلِّ حالٍ. بَلْ هُوَ فَرْدٌ شَدِيدُ التَفَرُّدِ يَصْنَعُ نُجُومِيَّتَهُ بِالانْفِرادِ عَنْ غَيْرِهِ وَلَو انَّهُ يَكُونُ مَدِينًا بِنُجُومِيَّتِهِ نَفْسِها أَيْضًا لِهُواماتِ هَذا الغَيْرِ، لِما يَوَدُّ الغَيْرُ لَو انَّهُ كانَهُ أَوْ لَو انَّ أَحَدًا فِي مُحِيطِهِ القَرِيبِ أَو البَعِيدِ حَقَّقَهُ لَه. وَالنَجْمُ، عَلى ما رَأَيْنا، مِرْسالٌ يَصِلُ بِتَوَسُّطِهِ شَيْءٌ مِن الحَياةِ الثَقافِيّةِ فِي بِلادِهِ إلى البِلادِ الأُخْرى. بَلْ إنَّهُ يَصِحُّ، فِي بَعْضِ الحالاتِ، اعْتِبارُهُ وَسِيطًا لِشُخُوصٍ وَلِأَعْمالٍ فِي ثَقافةِ بِلادِهِ تُعْوِزُهُمْ (أَوْ تُعْوِزُها) النُجُومِيّة. فَهُوَ يُثِيرُ فُضُولًا عامًّا، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، حِيالَ القِطاعِ الثَقافِيِّ الذي يَنْتَمِي إلَيْهِ فِي بِلادِهِ وَحِيالَ ثَقافةِ بِلادِه، عَلى التَعْمِيم. المُغَنِّي المِصْريُّ الشَهِيرُ يَلْفِتُ المُسْتَمِعِينَ إلَيْهِ، عَلى اخْتِلافِ الأَقْطارِ، إلى سائِرِ الغِناءِ وَسائِرِ المُغَنِّينَ فِي

مِصْر وَإلى المُوسِيقى المِصْرِيّةِ حُكْمًا. وَيُؤَدّي الشاعِرُ أَو المَسْرَحِيُّ اللُبْنانِيُّ دَوْرًا مُوازِيًا فِي إثارةِ الاهْتِمامِ بِبَعْضِ الثَقافةِ اللُبْنانِيّةِ، إذا اتَّسَعَتْ شُهْرَتُهُ وَانْتَشَرَ الإعْجابُ بِهِ فِي خارِجِ بِلادِه.

وَلَقَدْ جَعَلْتُ حَدِيثِي فِي العَلاقاتِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ مِصْر وَلُبْنان مُقْتَصِرًا، حتّى الآنِ، عَلى الأَفْرادِ: عَلى هَؤُلاءِ الأَفْرادِ الحادِّي التَفَرُّدِ الذِينَ نُطْلِقُ عَلَيْهِمْ لَقَبَ النُجُوم. وَأُحِبُّ الآنَ أَنْ أَنْطَلِقَ مِن الإشارةِ التِي سَلَفَتْ إلى مَكانةِ اللَهْجةِ المِصْرِيّةِ فِي الآفاقِ العَرَبِيّةِ بِما هِيَ «فُصْحى» العامِّيّاتِ لِأَقُولَ كَلِمةً فِي فَضْلِ كُلِّ بِلادٍ، سَواءٌ أَكانَتْ مِصْر أمْ لُبْنان أَمْ سِواهُما، عَلى مُثَقَّفِيها لِجِهَةٍ مُحَدَّدةٍ هِيَ كَوْنُها، بِنُجُومِيّتِها المُتَحَقِّقةِ فِي مَرْحَلةٍ مِن المَراحِلِ، سَبَبًا أَوَّلَ لِنُجُومِيّةِ أَبْنائِها. وَهَذا يَعْنِي أَنَّ انْكِفاءَ الإشْعاعِ العامِّ لِلْبِلادِ يَمْتَحِنُ مُثَقَّفِيها بِمَزِيدٍ مِنْ صُعُوبةٍ فِي إثْباتِ المَكانةِ وَفِي تَصَدُّرِ الحَقْلِ الذِي يَشْتَغِلُ كُلٌّ مِنْهُمْ فِيهِ وَلَوْ كانَ الواحِدُ مِنْهُمْ مُسْتَحِقًّا. وَالحَقُّ أَنَّنا نُثِيرُ هُنا مَسْأَلةً لا تَخْلُو مِن التَعْقِيد. فَإنَّ وُجُودَ البِلادِ فِي مِحْنةٍ قَدْ يُسْهِمُ أَيْضًا فِي إبْرازِ مُثَقَّفِيها الذِين يُفْلِحُونَ فِي نَشْرِ أَصْداءٍ أَوْ صُوَرٍ مُمَيَّزةِ الصِدْقِ وَالقِيمةِ وَالجَمالِ لِمِحْنةِ بِلادِهِمْ. وَمَعْنى هَذا أَنَّ البِلادَ قَدْ تُفْلِحُ فِي الإعْلاءِ مِنْ شَأْنِ مُثَقَّفِيها، لا بِقُوَّتِها وَازْدِهارِها وَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا بِبُؤْسِها وَاضْطِرابِ مَوازِينِها، فِي بَعْضِ الحالات. وَلَعَلَّ الانْسِحابَ إلى الظِلِّ وَخُبُوَّ الأَضْواءِ وَنُصُولَ الأَلْوانِ التِي تَـتَقَدَّمُ بِها صُورةُ البِلادِ إلى الخارِجِ، سَواءٌ أَكانَتْ هَذِهِ السِماتُ دَلِيلَ تَطامُنٍ وَراحةٍ أَمْ دَلِيلَ تَعاسةٍ لا تَجِدُ عِباراتِها بَعْدُ، إنَّما هِيَ أَقَلُّ الأَحْوالِ مُواتاةً لِإسْهامِ بِلادٍ ما فِي إبْرازِ ثَقافَتِها وَمُثَقَّفِيها وَنَشْرِ ما عِنْدَها مِنْ هَذا القَبِيلِ إلى خارِجِ حُدُودِها.

وَلْأَذْكُرْ فِي هَذا الصَدَدِ حالَتَيْنِ قِيادِيَّتَيْنِ لِلْبِلادِ، إحْداهُما لُبْنانِيّةٌ وَالثانِيةُ مِصْرِيّةٌ، جَعَلَتْ لِكُلٍّ مِن القُطْرَيْنِ تَأْثِيرًا ثَقافِيًّا مُمَيَّزًا فِي الآخَرِ، فِي أَثْناءِ مَرْحَلةٍ مِنْ تارِيخِنا غَيْرِ البَعِيدِ بِعَيْنِها. وَالمِثالانِ واضِحانِ وَمَعْلُومانِ، تُغْنِي فِي شَأْنِهِما الإشارةُ عَن الإطالة. فِي الحالَتَيْنِ، بَدَت البِلادُ ــ مِصْر أَوْ لُبْنان ــ حامِلةً رِسالةً بِعَيْنِها مُحْتاجةً إلى الانْتِشارِ فِي مُحِيطٍ بِعَيْنِهِ أَوْ مُعَدّةً أَصْلًا بِحَيْثُ تَـكُونُ غايَتُها هَذا الانْتِشارَ وَما يَلِيهِ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي أَوْضاعٍ وَأَحْوالٍ مُخْتَلِفة.

رِيادةٌ لُبْنانِيّةٌ... وَقِيادةٌ مِصْرِيّة

أَمّا حالةُ القِيادةِ اللُبْنانِيّةِ (أَو الرِيادةِ، بِالأَحْرى) فَنَجَمَتْ فِي الثُلُثِ الأَخِيرِ مِن القَرْنِ التاسِعَ عَشَرَ وَفِي أَوائِلِ القَرْنِ العِشْرِينَ مِنْ تَصَدُّرِ المَسِيحِيِّينَ اللُبْنانِيِّينَ حَرَكةَ تَغْيِيرٍ فِي الشَرْقِ كانَ لَها شِقٌّ دِيمُقْراطِيٌّ يَتَعَلَّقُ بِالمُساواةِ بَيْنَ المُواطِنِينَ وَشِقٌّ قَوْمِيٌّ يَتَعَلَّقُ بِالاسْتِقْلالِ السِياسِيِّ أَوْ، فِي بَعْضِ الصِيَغِ المُخَفَّفةِ التِي اعْتَمَدَها مُسْلِمُونَ، عَلى الأَغْلَبِ، بِاللامَرْكَزِيّةِ وَبدَرَجةٍ ما مِن الاسْتِقْلالِ الذاتِيِّ فِي الإطارِ العُثْمانِيّ. وَكانَتْ مِصْر الخاضِعةُ، فِي مُعْظَمِ هَذِهِ المُدّةِ، للاحْتِلالِ البَرِيطانِيِّ مُتَفَلِّتةً مِن السَطْوةِ العُثْمانِيّةِ وَقابِلةً لِتَعَهُّدِ حَرَكاتٍ مِنْ قَبِيلِ تِلْكَ التِي باشَرَها مَسِيحِيُّو المَشْرِقِ وَجاراهُمْ فِيها مُواطِنُونَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ المَسِيحِيِّينَ لِأَسْبابٍ مُخْتَلِفةٍ أَوْ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفة. عَلَيْهِ أَفْرَدَتْ مِصْر مَقاعِدَ فِي صَدارةِ حَياتِها الثَقافِيّةِ لِأُولَئِكَ «الشُوامِ» مِنْ أَمْثالِ سَلِيم وَبِشارة تَقْلا وَجِرْجِي زَيْدان وَفارِس نِمْر وَيَعْقُوب صَرُّوف وَفَرَح أَنْطُون وَشِبْلِي الشُمَيِّل... مِمَّنْ أَنْشَأُوا مَنابِرَ وَأَشاعُوا أَفْكارًا كانَ لَها وَقْعٌ فِي النَهْضةِ

المِصْرِيّةِ المُزامِنةِ أَو اللاحِقةِ، أَيًّا يَكُنْ تَقْوِيمُنا اليَوْمَ وَتَقْوِيمُ المِصْرِيِّينَ لِعُجَرِ هَذِهِ النَهْضةِ وَبُجَرِها.

وَحِينَ اتَّفَقَ أَنْ وُجِدَ مُسْلِمٌ بَيْنَ هَؤُلاءِ الناشِطِينَ «الشُوامِ»، وَلَعَلَّ حالةَ رَشِيد رِضا هِيَ الحالةُ الأَبْرَزُ، فِي هَذا البابِ، أَوْ لَعَلَّها الوَحِيدةُ التِي يُعْتَدُّ بِها فِعْلًا، بَدا أَنَّ مِصْر، بِتَيّارِ التَجْدِيدِ فِي أَزْهَرِها وَبِتَقالِيدِها العِلْمِيّةِ الإِسْلامِيّةِ، تُعْطِي المُسْلِمَ اللُبْنانِيَّ أَوْ الشامِيَّ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمّا يُعْطِيها. وَهَذا لا يُبْطِلُهُ عِلْمُنا بِمَكانةِ رِضا وَمَجَلّتِهِ وَأَعْمالِهِ مِن الحَرَكةِ الإِسْلامِيّةِ اللاحِقةِ فِي مِصْر وَمِنْ تَوَجُّهِها السِياسِيِّ عَلى الخُصُوص... كانَ رِضا، فِي مِصْر، تِلْمِيذَ مُحَمَّد عَبْدُه قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ابْنَ طَرابُلُس الشام. هَذا فِيما كانَ المَسِيحِيُّ اللُبْنانِيُّ يَحْمِلُ إلى القاهِرةِ مَسائِلَ جَدِيدةً فِعْلًا مُسْتَقاةً مِنْ خِبْرةٍ تارِيخِيّةٍ مُغايِرة. صَفْوةُ القَوْلِ أَنَّ المَوْقِعَ الرِيادِيَّ آنذاكَ فِي المَشْرِقِ لِلْجَماعةِ المَسِيحِيّةِ اللُبْنانِيّةِ حَمَلَ أَفْرادًا مِنْ هَذِهِ الجَماعةِ لِيُبَوِّئَهُمْ أَمْكِنةً فِي صَدارة الحَياةِ الثَقافِيّةِ لِبِلادٍ عَرِيقةِ التَقالِيدِ هِيَ مِصْر وَلِمُجْتَمَعٍ ضَخْمٍ، بِالقِياسِ إلى مُجْتَمَعِ لُبْنانَ، هُوَ المُجْتَمَعُ المِصْرِيّ.

فِي مَرْحَلةِ ما بَيْنَ الحَرْبَيْنِ ثُمَّ فِي المَرْحَلةِ الناصِرِيّةِ، بَدا أَنَّ مِصْر وَجَدَتْ سُبُلًا لِتَفْعِيلِ وَزْنِها فِي الثَقافةِ العَرَبِيّةِ عَلى أَنْحاءٍ واكَبَتْ تَفْعِيلَ هَذا الوَزْنِ فِي السِياسةِ الشَرْقِيّةِ أَو العَرَبِيّةِ فِي خِلالِ تِلْكَ المَرْحَلةِ الطَوِيلةِ نَفْسِها. وَقَدْ بَدَتْ آثارُ هَذا التَفْعِيلِ بَيِّنةً فِي الدَوْرِ المَرْجِعِيِّ أَو التَوْجِيهِيِّ الذِي أَخَذَ يَتَبَوَّأُهُ مُثَقَّفُونَ مِصْرِيُّونَ فِي الحَياةِ الثَقافِيّةِ اللُبْنانِيّة. كانَ لُبْنان قَدْ أَصْبَحَ لُبْنان الكَبِيرَ وَباتَ انْقِسامُهُ الطائِفِيُّ يَتَحَكَّمُ شَيْئًا ما فِي تَصَرُّفِ أَجْنِحتِهِ حِيالَ تَيّاراتِ الفِكْرِ وَصِيَغِ الذَوْقِ

المُقْبِلةِ مِنْ مِصْر. وَلَـكِنْ كانَ فِي مِصْر، عَلى الدَوامِ، مَنْ يَتَأَلَّقُ بِخُرُوجِهِ عَلى إجْماعٍ ما فَيُصْبِحُ التَمَثُّلُ بِهِ مُغْرِيًا لِأَقَلِّيّاتٍ تَخْشى حالاتِ الإجْماعِ الكاسِحة. باكِرًا نِسْبِيًّا، ذَهَبَ أَحْمَد شَوْقِي إلى لُبْنان مُصْطَحِبًا مَعَهُ مُحَمَّد عَبْد الوَهّاب وَباكِرًا أَيْضًا دَخَلَ الأُدَباءُ اللُبْنانِيُّونَ فِي المُفاضَلةِ بَيْنَ شَوْقِي وَحافِظ ثُمَّ تابَعُوا مُناظَرَةَ القَرْنِ التِي أَطْلَقَها كِتابُ فِي **الشِعْرِ الجاهِلِيّ** لِطَهَ حُسَيْن وَتِلْكَ التِي أَطْلَقَها، فِي المُدّةِ نَفْسِها، كِتابُ عَلِيّ عَبْد الرازِق **الإِسْلامُ وَأُصُولُ الحُكْمِ** وَدَخَلُوا أَيْضًا فِي الجِدالِ الذِي أَثارَهُ **الدِيوانُ** لِعَبّاس مَحْمُود العَقّاد وَتَـتَبَّعُوا «عَبْقَرِيّاتِــه». ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَعَرَّفُوا نَجِيب مَحْفُوظ وَأَدْرَجُوا المِصْرِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ مُجَدِّدِي الشِعْرِ العَرَبِيِّ المُعاصِرِ فِي كَوْكَبةٍ واحِدةٍ ضَمَّتْ سُورِيِّينَ وَعِراقِيِّينَ وَضَمَّتْ لُبْنانِيِّينَ بِطَبِيعةِ الحال.

قَبْلَ بُلُوغِنا الحِلْمَ، كانَ عِنْدَنا كامِل كِيلانِي لِلسَلْوى وَالمَوْعِظةِ وَمُصْطَفى لُطْفِي المَنْفَلُوطِيّ لِلْبُكاءِ وَلِأُسْلُوبٍ فِي الإنْشاءِ طالَ بِهِ العُمْرُ بَيْنَ خُطَبائِنا مِنْ ذَوِي الأُصُولِ الرِيفِيّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهُ إلى يَوْمِنا هَذا بَقايا مُعْتَبَرةٌ، مُنْتَشِرةٌ بَيْنَ الوَصْفِ وَالرِثاء. ثُمَّ راحَ المُراهِقُونَ مِنْ جِيلِي يَتَوَزَّعُونَ فِي الخَمْسِيناتِ حِزْبَيْنِ: أَحَدُهما لِمُحَمَّد عَبْد الوَهّاب وَالآخَرُ لِفَرِيد الأَطْرَش. كانَتْ فُرَصُ السَماعِ لا تَزالُ ضَئِيلة. وَمَعَ ذَلِكَ كانَ الصِياحُ يَعْلُو بَيْنَ الأَتْرابِ فِيما كانَ الرَجُلانِ يَسْهَرانِ بِسَلامٍ مَعًا، عَلى الأَرْجَحِ، فِي مَلْهًى ما مِنْ مَلاهِي القاهِرة أَوْ فِي مَنْزِلٍ مِنْ مَنازِلِها. وَأَمّا أُمُّ كُلْثُوم فَكانَتْ قَدْ أَصْبَحَتْ مَشاعًا عَرَبِيًّا وَأَيْقُونةً لا تُمَسُّ وَلَو انَّ غِناءَها بَقِيَ يَسْتَغْلِقُ عَلى لُبْنانِيِّينَ كَـثِيرِينَ فَلا يُفْلِحُونَ فِي تَذَوُّقِهِ أَوْ يَأْخُذُونَ عَلَيْهِ ما قَدْ

يَأْخُذُونَهُ عَلى نَمَطِ الطَرَبِ الشَرْقِيِّ كُلِّهِ وَلَيْسَ عَلى أُمِّ كُلْثُومٍ وَحْدَها. فِي ما يَتَخَطّى هَذِهِ المَآخِذَ، بَقِيَ الغِناءُ العَرَبِيُّ، فِي عُرْفِ أَبْناءِ جِيلِي مِن اللُبْنانِيِّينَ (وَكانَ فِي عُرْفِ الجِيلِ الذِي سَبَقَنا أَيْضًا)، هُوَ الغِناءَ المِصْرِيَّ أَوَّلًا وَبَقِيَتْ المُوسِيقى الشَرْقِيّةُ هِيَ المُوسِيقى المِصْرِيّة. لا يَزالُ هَذا صَحِيحًا اليَوْمَ وَلَو انَّ الغِناءَ اللُبْنانِيَّ قَدْ أَرْسى تَقالِيدَ تَصْنَعُ ذَوْقًا وَكَوَّنَ تُراثًا يَمْلَأُ ذاكِرة. يَسَعُ المُتَبَحِّرَ اللُبْنانِيَّ اليَوْمَ أَنْ يَكُونَ مُلِمًّا بِالغِناءِ العِراقِيِّ أَوْ ذَوّاقةً لِلْمُوسِيقى الإيرانِيّةِ أَو التُرْكِيّةِ وَلَـكِنَّ الخَزِينَ الذِي تَـتَشَكَّلُ عَلَيْهِ هُوِيّتُهُ المُوسِيقِيّةُ أَوْ الغِنائِيّةُ، بِما هُوَ مُسْتَمِعٌ شَرْقِيٌّ، إنّما هُوَ خَزِينٌ مِصْرِيٌّ/لُبْنانِيّ.

وَفِي المُدّةِ نَفْسِها التِي كانَ مُحَمَّد عَبْد الوَهّاب وَفَرِيد الأَطْرَش يَشُقّانِ فِيها صَفًّا بِأَناقةٍ وَلُطْفٍ، أَوْ بَعْدَها بِقَلِيلٍ، فَرَضَتْ ثُلاثِيّةُ نَجِيب مَحْفُوظ نَفْسَها عَلى مُخَيِّلةِ قُرّاءٍ لُبْنانِيِّينَ كَـثِيرِينَ عَلى أَنَّها الغايةُ التِي يَعْصى تَجاوُزُها عَلى الرِوايةِ العَرَبِيّة. وَهَذا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْنَعَ ذَلِكَ طُلّابَ الانْفِعالِ السَهْلِ مِنْ تَيْمِيمِ شَطْرِ السِباعِيّ أَوْ عَبْدِ القُدُّوس، عَلى ما سَبَقَ بَيانُه. وَأَمّا فِي السِينَما ــ وَكانتْ قَدْ أَصْبَحَتْ بَيْتَ قَصِيدٍ فِي مِيزانِ الصِلةِ الثَقافِيّةِ بَيْنَ بِلادٍ وأُخْرى ــ فَكانَت الأَفْلامُ المِصْرِيّةُ أَيْضًا هِيَ الأفلامَ التِي يَسَعُ أَمْثالِي مِن اللُبْنانِيِّينَ أَنْ يَنْتَسِبوا إلَيْها عَلى أَنَّها سِينَماهُمْ سَواءٌ أَأَعْجَبَتْهُمْ أَمْ لَمْ تُعْجِبْهُمْ. هَذا بَيْنَما كانَت الأَفْلامُ الأَمِيرِكِيّةُ أَو الأُورُوبِيّةُ تَبْدُو خارِجَ مُتَناوَلِ الراغِبِ اللُبْنانِيِّ فِي حَسَبٍ وَنَسَبٍ سِينَمائِيَّيْنِ مَهْما يَبْلُغْ مِن الإعْجابِ بِها. وَما يَسْتَوْقِفُ فِي الإقْبالِ اللُبْنانِيِّ عَلى الثَقافةِ المِصْرِيّةِ وعَلى تأَثُّرِها أَو الانْفِعالِ بِها أَعْلامًا وَقِيَمًا هُوَ، عَلى وَجْهِ

التَحْدِيدِ، اشْتِمالُ الإِقْبالِ المَذْكُورِ عَلى الغَثِّ وَالسَمِينِ فِي هَذِهِ الثَقافة. فِي الذائِقَةِ اللُبْنانِيّةِ (وهَذِهِ ذائِقَةٌ قَدْ يَكُونُ اعْتِبارُها واحِدةً مِنْ قَبِيلِ المُصادَرةِ عَلى المَطْلُوبِ أَوْ المصادَرةِ عَلى غَيْرِ المَطْلُوبِ)، كانَ ثَمّةَ مَوْضِعٌ لِثَوْرةِ طَهَ حُسَيْن البَعِيدةِ الغَوْرِ فِي النَظْرةِ إلى الذاتِ وَإلى مِيزانِ القِيمةِ بَيْنَ مَوْرُوثِها وَمُسْتَحْدَثِها وَكانَ ثَمّةَ مَوْضِعٌ أَيْضًا لِعَوِيلِ فَرِيد الأَطْرَش أَوْ لِخُزَعْبِلاتِ إسْماعِيل يَسِين.

وَالبَيِّنُ أَنَّ كُلًّا مِنْ هَذِهِ الأَمْثِلةِ إنَّما يَحْضُرُني لِسَبَبٍ يَخُصُّنِي شَخْصِيًّا. فَقَدْ كُنْتُ، فِي المُدّةِ التِي أَصْبَحْتُ فِيها مُواظِبًا عَلى التَرَدُّدِ إلى دُورِ السِينَما، أَيْ فِي نِهايةِ الخَمْسِيناتِ مِن القَرْنِ الماضِي إلى أَوائِلِ السِتِّيناتِ، واحِدًا مِنْ مُشاهِدِي الأَفْلامِ المِصْرِيّةِ المِكْثارِينَ، مُتَعَلِّقًا بِعِدّةٍ مِنْ نُجُومِها وَغَيْرَ مَيّالٍ إلى التَدْقِيقِ فِي قِيمتِها الفَنِّية. ثُمَّ جَنَحْتُ، فِي العُقُودِ اللاحِقةِ، إلى مَسْلَكٍ مُخالِفٍ، فأَصْبَحْتُ لا أُشاهِدُ مِنْ هَذِهِ الأَفْلامِ إلّا ما طارَ لَهُ صِيتٌ اسْتِثْنائِيٌّ أَوْ أحاطَهُ النَقْدُ بِهالةِ تَقْدِيرٍ غَيْرِ مُعْتادة. إلى أَنْ دَخَلْنا عَهْدَ الفَضائِيّاتِ فَعُدْتُ إلى الإكْثارِ مِن المُشاهَدةِ وَإلى شَيْءٍ مِن التَراخِي فِي مَعايِيرِ الاخْتِيار. وَأَمّا طَهَ حُسَين فَكُنْتُ قَدْ جَدَّدْتُ العَهْدَ بِأَعْمالِهِ، فِي أَواخِرِ الثَمانِيناتِ، لِأَخُصَّ المُناظَرةَ التِي تَمادَتْ فِي صَدَدِ كِتابِهِ بِدِراسةٍ طَوِيلةٍ نِسْبِيًّا لِأَطْوارِها وَلِلدَلالاتِ المُسْتَفادةِ مِنْ تَمادِيها...

«لَقِينا مَحْفَظة!»

وَعَلى وَفْرةِ الصُحُفِ المُتَناسِلةِ مِنْ شُقُوقِ بَيْرُوت، كانَ بَعْضُ الصِحافةِ

المِصْرِيّةِ أَيْضًا يَجِدُ مَكانًا لَهُ فِي الفَضاءِ المُكْتَظِّ بِهُمُومِ شَبابِنا السِياسِيّة. كُنّا نَقْرَأُ مُطَوَّلاتِ مُحَمَّد حَسَنَيْن هَيْكَل التِي راحَتْ **الأَنْوارُ** البَيْرُوتِيّةُ تَنْشُرُها مَع **الأَهْرام**. وَلَـكِنَّ أُسْبُوعِيّاتِ القاهِرة هِيَ ما كانَ رَفِيقَنا الظَرِيفَ فِي اسْتِراحاتِ المَقاهي. فِي **صَباح الخَيْر** أَوْ فِي **رُوز اليُوسُف**، كُنّا نَذْهَبُ تَوًّا إلى الرُسُومِ الكارِيكاتُورِيّةِ... إلى نَزِيلٍ مِنْ نُزَلاءِ «قَهْوةِ النَشاطِ» يَقُولُ لِجَلِيسِهِ: «يا حَلاوة! لَقِينا مَحْفَظة! نادِ الجَرْسُونْ يْجِيبْهالْنا!» أَوْ إلى زَوْجٍ أَيْقَظَهُ البَرْدُ مِنْ نَوْمِهِ يَنْتَهِرُ زَوْجَتَهُ صائحًا فِي ذُرْوةِ الحَمْلةِ الحُكُومِيّةِ لِتَحْدِيدِ النَسْلِ: «يا وِليّهْ! فِينْ الوادْ اللِي كُنْتِ بَسْتَغَطّى بِيه؟» لا أَذْكُرُ، بَعْدَ نِصْفِ قَرْنٍ مَضى أَوْ كادَ، إنْ كانَ هَذا صَلاح جاهِين أَم البَهْجُورِي. وَلَـكِنْ لَمْ يَفْرِضْ شَيْءٌ نَفْسَهُ عَلى ذاكِرتِي بِهَذا العِنادِ مِنْ كُلِّ ما طالَعْتُهُ مِنْ رُسُومٍ فِي الصِحافةِ اللُبْنانِيّةِ طَوالَ نِصْفِ قَرْن!

كان هَذا فِي أَوائِلِ السِتِّيناتِ إذَنْ. فِي أَواسِطِها، كُنّا قَدْ أَخَذْنا نَجْفُو عَبْدَ الناصِر. ثُمَّ راحَ يَسْتَحْوِذُ عَلى فُضُولِنا النَزْرُ القَلِيلُ الذِي كانَ يَصِلُ إلى عِلْمِنا مِنْ أَخْبارِ الحَرَكةِ الشَعْبِيّةِ فِي مِصْر، العُمّالِيّةِ حِينًا وَالطُلّابِيّةِ حِينًا، وَقَدْ كُنّا نَراها فِي أَمانِينا حَرَكةً واحِدة. فِي هَذِهِ المَرْحَلةِ، اسْتَجابَتْ لِرَغْبَتِنا فِي تَعَرُّفِ المُجْتَمَعِ المِصْرِيِّ مَجَلّةُ **الطَلِيعة** التِي أَصْدَرَها لِبِضْعِ سَنَواتٍ لُطْفِي الخُولِي وَرِفاقٌ لَهُ. كُنّا نَجِدُ فِيها بَعْضَ زادٍ كانتْ حاجَتُنا إلَيْهِ ماسّةً يَتَعَلَّقُ بِمِصْر وَقَضاياها وَبِمَوْجاتِ الرَفْضِ المُعْتَمِلةِ فِي مُجْتَمَعِها وَلَـكِنْ يَتَعَلَّقُ أَيْضًا بِجِهاتٍ أُخْرى مِن الكُرةِ كانَتْ تَزْدادُ جَذْبًا لَنا كُلَّما ازْدادَتْ بُعْدًا عَنّا: مِنْ فِيِتْنام إلى بُولِيفِيا. لَمْ تَـكُنْ عَلاقَتُنا بِـ **الطَلِيعة** وَبِمُحَرِّرِيها عَلاقةَ تَسْلِيمٍ بَلْ كُنّا نَرى أَنْفُسَنا فِي حالِ جِدالٍ مَعَهُمْ وَحَذَرٍ مِنْ صِيغةِ التَعايُشِ

الرَجْراجةِ التِي خَلَصْنا إلى افْتِراضِها بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الجِهازِ الحاكِم. كُنّا نُؤْثِرُ شَرِيطًا نَتَلَقّاهُ لِنَجْم وَإمام عَلى عَدَدٍ يَصِلُ إلَيْنا مِن **الطَلِيعة**. مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مُطالَعةِ **الطَلِيعة**.

وَفِي سَنةِ ١٩٧١ أَوْ حَوالَيْها، كُنْتُ مَسْؤُولًا فِي بَيْرُوت عَنْ طِباعةِ نَشْرةٍ «سِرِّيةٍ» كانَ اسْمُها **المَسِيرة** وَكانَ الماوِيُّونَ المِصْرِيُّونَ يُعِدُّونَها بَيْنَ بارِيسَ وَالقاهِرة. وَمِن البَوّابةِ البارِيسِيّةِ أَيْضًا كانَ قَدْ وَصَلَ إلى أَيْدِينا كِتابانِ (بِالفَرَنْسِيّةِ) أَحَدُهُما لِأَنْوَر عَبْد المَلِك وَالثانِي لِسَمِير أَمِين الذِي وَقَّعَهُ بِاسْمِ حَسَن رِياض... لَمْ أقْرَأْ كِتابَ عَبْدِ المَلِك قَطّ. وَأَمّا كِتابُ أَمِين **مِصْرُ الناصِرِيّة** فَمَثَّلَ لِي وَلِآخَرِينَ مِنْ رَعِيلِي أَوَّلَ لَوْحةٍ غَنِيّةٍ بِعَناصِرَ حِسِّيّةٍ مَلَأْنا بِها نَوْعًا مِن الضِيقِ شِبْهِ الفارِغِ بِنِظامِ عَبْدِ الناصِر كانَ قَدْ أَخَذَ يَسْتَبِدُّ بِنا فِي أَثَرِ انْهِيارِ الوَحْدةِ المِصْرِيّةِ السُورِيّة. وَهَذا انْهِيارٌ كانَ وَقْعُهُ جَلَلًا عَلى جِيلِنا. حَتّى أَنَّ وَقْعَ هَزِيمةِ ١٩٦٧ لَمْ يَكُنْ سِوى تَوْكِيدٍ لِوَقْعِ هَذا الزِلْزالِ الأَوَّلِ عَلَيْنا وَلَمْ تَـكُن الهَزِيمةُ أَوَّلَ زِلْزالٍ يَضْرِبُ عَلاقةَ جِيلِنا مِن المَشْرِقِيِّينَ بِالناصِرِيّةِ كَما راحَ يَتَراءى لِبَعْضِ مُسْتَذْكِرِي الحَوادِثِ لاحِقًا. أَمَدَّنا كِتابُ سَمِير أَمِين إذَنْ بِمَلامِحِ الوَجْهِ المِصْرِيِّ لِلْخَرابِ الذِي كُنّا قَدْ عايَنّاهُ أَوْ سَمِعْنا أَخْبارَهُ فِي العَلاقةِ المِصْرِيّةِ السُورِيّة. لاحِقًا (فِي مَطْلَعِ السَبْعِيناتِ) نَقَلْتُ وَنَصِير مُرُوّة إلى العَرَبِيّةِ كِتابًا لِمُؤَلِّفَيْنِ مِصْرِيَّيْنِ اثْنَيْنِ هُما عادِل رِفْعَت وَبَهْجَت النَدِي وَقَّعاهُ باسْمٍ مُسْتَعارٍ أَقاما عَلى التَوْقِيعِ بِهِ مُذّاكَ وَهُوَ مَحْمُود حُسَيْن. كانَ عُنْوانَ الكِتابِ **الصِراعُ الطَبَقِيُّ فِي مِصْر**. وَقَدْ وَقَّعْنا التَرْجَمةَ أَنا وَنَصِير بِاسْمَيْنِ مُسْتَعارَيْنِ أَيْضًا. عَلى أَنَّ كِتابَ مَحْمُود حُسَيْن كانَ أَكْثَرَ مَيْلًا إلى الإغْراقِ فِي التَرْسِيماتِ النَظَرِيّةِ المُفْتَرَضةِ لِلصِراعِ

المُشارِ إلَيْهِ فِي عُنْوانِه وَأَقَلَّ حَفاوةً بِمَلامِحِ الصِراعِ الحِسِّيّةِ وَوَقائِعِهِ مِنْ كِتابِ سَمِير أَمِين الذِي ظَهَرَ قَبْلَهُ بِبِضْعِ سَنَوات. وَقَدْ عَجِبْتُ لِقَوْلِ شارْل بِتِلْهايْم ما يُوحِي بِعَكْسِ ذَلِكَ فِي تَقْدِيمِهِ لِلْكِتابِ وَلَمْ أَتَوَرَّعْ عَنْ نَقْلِ عَجَبِي إلى أَحَدِ المُؤَلِّفَيْنِ حِينَ الْتَقَيْتُه. كانَ انْحِيازِيَ (المُتَرَدِّدُ جِدًّا) إلى ماوِيّةِ بِتِلْهايْم وَتِلْمِيذَيْهِ المِصْرِيَّيْنِ (فِي وَجْهِ الناصِرِيّةِ وَفِي وَجْهِ الشُيُوعِيِّينَ «التَحْرِيفِيِّينَ» مَعًا) هُوَ ما ساقَنِي إلى هَذِهِ التَرْجَمةِ وَإلى طِباعةِ **المَسِيرة**. فَدَخَلَتْ فِي هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ تُواكِبُنِي شُكُوكٌ بَعْضُها مُعْلَنٌ وَبَعْضُها مَكْتُومٌ فِي قِيمةِ المَضامِينِ التِي وَقَعْتُ عَلَيْها فِي الكِتابِ وَفِي النَشْرة.

يَبْقى أَنَّ **الطَلِيعةَ**، بِما كانَتْهُ لَنا، فِي مُدّةِ عُمْرِها القَصِيرِ نِسْبِيًّا، لَمْ تَخْلُ مِنْ شَبَهٍ بِما كانَتْهُ **الرِسالةُ**، مَجَلّةُ أَحْمَد حَسَن الزَيّات، لِبَعْضِ المُثَقَّفِينَ مِنْ جِيلِ آبائِنا. كانَ الفارِقُ بَيْنَ المَجَلَّتَيْنِ يَرْسِمُ انْزِلاقَ الاهْتِمامِ المُثَقَّفِ، بَيْنَ جِيلِ آبائِنا وَجِيلِنا، مِنْ مَسائِلِ الثَقافةِ الثَقافِيّةِ، أَيْ مَسائِلِ اللُغةِ وَالأَدَبِ وَما إلَيْهِما، إلى مَسائِلِ المُجْتَمَعِ وَالسِياسةِ، وَقَد اسْتَحْوَذا عَلى الثَقافةِ أَوْ كادا. وَفِي كُلِّ حالٍ، لا أَزالُ أَحْتَفِظُ إلى اليَوْمِ بِمَجْمُوعةٍ شِبْهِ كامِلةٍ مِنْ أَعْدادِ **الطَلِيعة**. وَلَكِنْ إذْ أَنْظُرُ اليَوْمَ إلى هَذِهِ الأَعْدادِ (التِي يَتَراءى فِي اهْتِمامِي بِجَمْعِها هَذا الانْزِلاقُ فِي عَلاقةِ جِيلِي بِمَوارِدِ الثَقافةِ المِصْرِيّةِ) أَرانِي لا أَدْرِي إنْ كانَ يُوجَدُ فِيها ما قَدْ يُغْوِي فِتْيانًا لُبْنانِيِّينَ أَوْ مِصْرِيِّينَ بَلَغُوا رُشْدَهُمْ بَعْدَ انْهِيارِ الاتِّحادِ السُوفِياتِيِّ وَمُلْحَقاتِه: مِنْ دُوَلٍ وَحَرَكاتٍ وَمِنْ صُحُفٍ أَيْضًا.

مِنْ سِنِينٍ كَثِيرةٍ، أَصْبَحْتُ لا أَقْرَأُ الصُحُفَ المِصْرِيّةَ إلّا ما حَصَلَ اتِّفاقًا. هَذا إهْمالٌ مِنِّي وَلَكِنَّنِي أَرى فِيهِ (مِنْ غَيْرِ رَغْبةٍ فِي تَسْوِيغِهِ وَلا إنْكارٍ لِنِسْبَتِهِ

إلى شَخْصِي) عَلامةً تَتَعَدّانِي مِنْ عَلاماتِ التَغْيِيرِ فِي العَلاقةِ الثَقافيّةِ ـ وَفِي العَلاقاتِ السِياسِيّةِ أَيْضًا ـ لِشَطْرٍ مِن اللُبْنانِيِّينَ بِمِصْر وَبِالحَياةِ المِصْرِيّة. ثَمّةَ ما زادَ فِي هَذِهِ العَلاقةِ وَثَمّةَ ما نَقَصَ مِنْها. ثَمّةَ تَغَيُّرٌ واكَبْتُهُ، عَبْرَ عُقُودٍ، وَهُوَ ما أُحاوِلُ أَنْ أَجْلُوَ مِنْ مَلامِحِهِ، فِي هَذا الحَدِيثِ، ما تَأْذَنُ بِجَلائِهِ خِبْرَتِي الشَخْصِيّة.

اسْتِقْلالٌ ثَقافِيٌّ فِي جُمْهُورِيَّتَيْن؟

إلامَ أَتَخَلَّصُ مِنْ هَذا كُلِّه؟ ما دُمْتُ قَدْ أَجَزْتُ لِنَفْسِي اعْتِبارَ الفَتى الذِي كُنْتُهُ فِي أَواخِرِ الخَمْسِيناتِ وَأَوائِلِ السِتِّيناتِ مِن القَرْنِ العِشْرِينَ شاهِدًا يَصِحُّ الاعْتِدادُ بِشَهادتِه، فَلَنْ أَتَرَدَّدَ فِي القَوْلِ أَنَّ أُمَراءَ الثَقافةِ العَرَبِيّةِ المُعاصِرةِ، بِجَمِيعِ فُروعِها تَقْرِيبًا، مِنْ بَيْنِ الأَحْياءِ آنَذاكَ، كانُوا، فِي عُرْفِنا، مِن المِصْرِيِّين. حِينَ كُنّا نُسْأَلُ مَن الأَدِيبُ العَرَبِيُّ الأَهَمُّ (بِالمَعْنى الأَعَمِّ لِلأَدَبِ بِما فِيهِ نَظَرِيّةُ الأَدَبِ أَيْضًا) كُنّا نُجِيبُ بِلا تَرَدُّدٍ: طَه حُسَيْن. وَكانَ نَجِيب مَحْفُوظ بَطَلَنا مِنْ بَيْنِ الروائِيِّينَ وتَوْفِيق الحَكِيم سَيِّدَ كُتّابِ المَسْرَحِ فِي عُرْفِنا وَبَقِيَ مَحْمُود تَيْمُور مَلِكَ القِصّةِ القَصِيرةِ عِنْدَنا إلى أَن اكْتَشَفْنا يُوسُف إدْرِيس. وَلِسِنِينٍ كَثِيرةٍ لَبِثَتْ أَعْمالُ أَحْمَد أَمِين هِيَ أَوَّلَ ما يَتَبادَرُ إلى الذِهْنِ حالَما يُطْرَحُ سُؤالٌ يَتَعَلَّقُ بِتارِيخِ الإِسْلام. وَلَمْ يَكُن التَرَدُّدُ يُساوِرُنا إلّا فِي صَدَدِ الشِعْر. لَمْ نكن نَجِدُ صَلاح عَبْد الصَبُور أَدْنى مَرْتَبَةً مِن السَيّابِ أَوْ مِنْ أَدُونِيس مَثَلًا. أَبَدًا. وَإِنَّما كُنّا نَرى هَؤُلاءِ سَوِيّةً وَنَفَرًا مَعَهُم قافِلةً واحِدةً راحَتْ تُجَدِّدُ الشِعْرَ فِي الشَرْقِ العَرَبِيّ. وَكانَ تَفْضِيلُ واحِدٍ مِنْهُمْ عَلى الآخَرِينَ مَسْأَلَةَ ذَوْقٍ شَخْصِيٍّ يَخْتَلِفُ جوابُها مِنْ فَرْدٍ مِنّا إلى آخَر. وَأَمّا

فِي الشِعْرِ الذِي أَخَذْنا نَعُدُّهُ تَقْلِيدِيًّا فَكانَ أَحْمَد شَوْقِي قَدْ أَصْبَحَ وَراءَنا (وَلَو أَنَّنِي، شَخْصِيًّا، كُنْتُ أَحْفَظُ **مَصْرَعَ كِلْيُوباتْرَة** وَ**مَجْنُونَ لَيْلى** عَنْ ظَهْرِ قَلْب). كُنّا قَدْ أَصْبَحْنا مُتَنازِعِينَ ما بَيْنَ الجَواهِرِيّ وَسَعِيد عَقْل وَبَدَوِيِّ الجَبَلِ وَلَمْ نَكُنْ نَجِدُ بَدَوِيًّا مِصْرِيًّا نَضُمُّهُ إلى هَؤُلاءِ وَلا أَرْضانا انْتِخابُ مُواطِنِنا بِشارة الخُورِي المَعْرُوفِ بِالأَخْطَلِ الصَغِيرِ، بُعَيْدَ ذَلِكَ، خَلِيفةً لِشَوْقِي. أَصْلًا، حَصَلَ هَذا الانْتِخابُ فِي وَقْتٍ كانَتْ فِيهِ القِيَمُ الجُمْهُورِيّةُ قَدْ بَلَغَتْ أَوْجَ غَلَبَتِها وَجَعَلَتْ مِنْ تَنْصِيبِ الأُمَراءِ وَتَتْوِيجِ المُلُوكِ فِي الثَقافةِ أمْرًا يَعْسُرُ هَضْمُهُ... وَكانَ مِنْ تَعابِيرِ غَلَبَتِها، فِي الثَقافةِ أَيْضًا، هَذا الذِي عايَنّاهُ عَلى أَنَّهُ عُسْرٌ فِي وِلادةِ النُجُومِ، وَقَدْ راحَ يَتَفاقَمُ مِنْ عَقْدٍ إلى عَقْد.

وَفِي تَرْجِيحِي أَنَّنا إذا نَظَرْنا اليَوْمَ فِي أَمْرِ شابٍّ لُبْنانِيٍّ ما فِي حَوالَي العِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ، سَنَجِدُ أَنَّ كُتّابَهُ المُفَضَّلِينَ مِن العَرَبِ، فِي مُعْظَمِ هَذِهِ الفُرُوعِ، هُمْ مِن اللُبْنانِيِّينَ وَأَنَّهُ إذا غامَرَ بِالتَغَرُّبِ إلى آدابِ الأَقْطارِ العَرَبِيّةِ الأُخْرى سَيُوَزِّعُ أَفْضَلِيّاتِهِ ما بَيْنَ عِدّةٍ مِنْها وَلَنْ يَجِدَ فِي مِصْرَ وَلا فِي غَيْرِها، بِالضَرُورةِ، بِدايةً وَنِهايةً لِمَطافِه. أَقُولُ هَذا مَعَ عِلْمِي بِما فِي تَيّاراتِ الأَذْواقِ اللُبْنانِيّةِ مِنْ كُسُورٍ وَبِأَنَّ ما بَيْنَ فَتًى لُبْنانِيٍّ وَآخَرَ فِي مِضْمارِ المُيُولِ الثَقافِيّةِ قَدْ يَكُونُ ما صَنَعَ الحَدّاد. وَلَـكِنْ هَلْ يَعْنِي اخْتِلافُ المَسْلَكِ الذِي قَدْ يَسْلُكُهُ الشابُّ اللُبْنانِيُّ اليَوْمَ عَمّا كانَهُ فِي جِيلٍ سَبَقَ أَنَّ مُنْتَجاتِ الثَقافةِ المِصْرِيّةِ فِي سائِرِ الفُرُوعِ قَدْ أَصْبَحَت اليَوْمَ أَقَلَّ جَوْدةً؟ لا، أَبَدًا! لا أَفْتَرِضُ لِلثَقافةِ المِصْرِيّةِ (وَلا لِلثَقافةِ اللُبْنانِيّةِ) عَهْدًا ذَهَبِيًّا وَأَمِيلُ إلى الاعْتِقادِ أَنَّ التَأَمُّلَ المُتَأَنِّي مِنْ شَأْنِه أَنْ يُظْهِرَ الزَيْفَ فِي ذَهَبِ العُهُودِ الذَهَبِيّةِ وَأَنَّنا نَخْتَرِعُ هَذِهِ العُهُودَ، عادةً، لِأُمُورٍ فِينا وَلَيْسَ لِأُمُورٍ فِيها.

ما أَراهُ إذَنْ هُوَ أَنَّ لِهَذا التَغَيُّرِ فِي مَسْلَكِ الشابِّ اللُبْنانِيِّ المُعادِلِ لِذاكَ الذِي كُنْتُهُ قَبْلَ بِضْعةِ عُقُودٍ مَعانِيَ أُخْرى. أَوَّلُها أَنَّ الثَقافةَ اللُبْنانِيّةَ قَد ازْدادتْ كَثافةً فَازْدادَتْ قُدْرَتُها عَلى اسْتِغْراقِ أَهْلِها. وَلِوَفْرةِ الإنْتاجِ التِي هِيَ وَجْهٌ مِمّا سَمَّيْناهُ «دِيمُقْراطِيّةً» ثَقافِيّةً شَأْنٌ مُؤَكَّدٌ فِي ذَلِك. وَلِلْمِحَنِ التِي عَبَرَها المُجْتَمَعُ اللُبْنانِيُّ فِي السِنِينِ الأَرْبَعِينَ الماضِيةِ شَأْنٌ فِي الظاهِرةِ نَفْسِها. فَإنَّ هَذِهِ المِحَنَ رَكَّزَت انْتِباهَ اللُبْنانِيِّينَ عَلى مُجْتَمَعِهِمْ وَعَلى مُشْكِلاتِهِ، أَوْ هِيَ حَبَسْتْ هَذا الانْتِباهَ، إلى حَدٍّ ما، فِي هَذا النِطاق. وَقَدْ يَكُونُ عَلَيْنا أَنْ نَسْتَثْنِيَ مِنْ هَذا التَرْكِيزِ عَلى إنْتاجِ الداخِلِ ما كانَ مَتاعًا لِلتَيّاراتِ الدِينِيّةِ الحاضِرةِ وَلِما تَطْرَحُهُ هَذِهِ التَيّاراتُ عَلى نَفْسِها وَعَلى مُناهِضِيها أَيْضًا مِنْ مُشْكِلاتٍ تَبْدَأُ بِالسُلُوكِ الفَرْدِيِّ، بِسائِرِ مَجالِيهِ، لِتَطُولَ إلى المُجْتَمَعِ وَإلى الدَوْلة... فَما يُسْتَهْلَكُ مِنْ هَذا القَبِيلِ أَضْعَفُ صِلةً مِنْ مُنْتَجاتٍ ثَقافِيّةٍ أُخْرى بِالمَنْبِتِ الوَطَنِيِّ لِمُنْتِجِيهِ وَحَتّى بِالعَصْرِ الذِي أُنْتِجَ فِيه. وَإذا نَحْنُ تَوَقَّفْنا عِنْدَ المَسائِلِ المُنْتَمِيةِ إلى نَظَرِيّةِ المَعْرِفةِ وَإلى نَظَرِيّةِ التارِيخِ وَالسِياسةِ، وَجَدْنا أَنَّ المَغارِبةَ، لا اللُبْنانِيِّينَ ولا المِصْرِيِّينَ، كانُوا مُتَصَدِّرِينَ، فِي العُقُودِ الأَخِيرةِ، بَيْنَ الباحِثِينَ العَرَبِ فِي هَذِهِ المَسائِلِ وَفِي صَيْرُورةِ المُجْتَمَعاتِ العَرَبِيّةِ عَلى ضَوْئِها.

مَنْ يَحْتاجُ إلى قائِدٍ أَوْ رائِد؟

خُلاصةُ القَوْلِ أَنَّ فِي الجِهةِ اللُبْنانِيّةِ مُقَوِّماتٍ أَوْفَرَ لِنَوْعٍ مِن الاسْتِقْلالِ الثَقافِيِّ يَنْتَهِي إلى قَدْرٍ مِن الامْتِناعِ عَنْ تَسْلِيمِ القِيادِ الفِكْرِيِّ أَو الذَوْقِيِّ لِمُثَقَّفِي مُجْتَمَعٍ آخَر. وَأَمّا مِن الجِهَةِ المِصْرِيّةِ، فَهَذا الاسْتِقْلالُ حاصِلٌ مِنْ

عُهُودٍ أَطْوَلَ وَلَـكِنَّهُ اقْتَرَنَ فِي العُقُودِ الأَخِيرةِ نَفْسِها، بانْكِفاءِ «الرِسالَةِ» السِياسِيّةِ التِي دَأَبَت البِلادُ عَلى نَشْرِها فِي أَرْجاءِ مُحِيطِها القَوْمِيِّ وَما كانَ يَلِي هَذِهِ الرِسالةَ مِنْ ظَواهِرَ ثَقافِيّة. هَذِهِ الرِسالةُ كانَتْ تَـتَوَلّى نَشْرَها مِصْر كُلُّها، سِياسةً وَثَقافةً، وَلَيْسَ ثَقافةُ مِصْرَ وَحَسْبُ. هَلْ تَوَطُّدُ الاسْتِقْلالِ الثَقافِيِّ، فِي الحالةِ اللُبْنانِيّةِ، نِعْمةٌ وَهَل انْكِماشُ المَنْحى الرِسالِيِّ، فِي الحالةِ المِصْرِيّةِ، نَقْمة؟ لا أَظُنّ. حِينَ لا يُوجَدُ، فِي هَذِهِ الحالةِ ولا فِي تِلْكَ، إغْلاقٌ لِلأَبْوابِ وَلا حِصارٌ، يَصِحُّ القَوْلُ أَنَّ الحالَتَيْنِ تَفْتَرِضانِ تَرْكِيزًا عَلى أَحْوالِ المُجْتَمَعَيْنِ وَعَلى أَحْلامِهِما وَمَطالِبِهِما أَيْضًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ تَرْحِيب. وَالحالُ أَنَّهُ لا تُوجَدُ بَيْنَ لُبْنان وَمِصْر أَيّةُ أَبْوابٍ مُغْلَقةٍ وَإِنْ بَقِيَتْ تُسْتَحْسَنُ زِيادةُ الأَبْوابِ المَفْتُوحةِ دائِمًا. جُلُّ ما فِي الأَمْرِ أَنَّنا لا نَلْحَظُ رِيادةً تُشْبِهُ ما كانَتْ عَلَيْهِ حالُ المُهاجِرِينَ إلى القاهِرةِ مِنْ مَسيحِيِّي لُبْنانَ، قَبْلَ قَرْن مِن الزَمانِ أَوْ يَزِيد. وَلا نَلْحَظُ قِيادةً شَأْنَ ما كانَ عَلَيْهِ نُفُوذُ المُثَقَّفِينَ المِصْرِيِّينَ فِي لُبْنانَ، قَبْلَ نِصْفِ قَرْنٍ مِن الزَمانِ تَقْرِيبًا، أَيْ فِي المَرْحَلةِ الناصِرِيّة: مَرْحَلةِ الفَوْرةِ القَوْمِيّةِ وَالفَوْرةِ الاشْتِراكِيّةِ وَمَرْحَلةِ نَقْدِهِما وَرَفْضِهِما أَيْضًا. هَلْ نَحْتاجُ، فِي الثَقافةِ، إلى مَنْ يَقُودُ أَوْ إلى مَنْ يَرُودُ، أَمْ نَحْتاجُ إلى تَواصُلِ الإِبْداعِ بِما يَفْتَرِضُهُ مِنْ تَحَرُّرٍ لِلْعَقْلِ وَلِلذَوْق؟ فِي السِياسةِ، قَدْ لا يُوجَدُ بُدٌّ مِن القِيادةِ وَالرِيادة. وَأَمّا فِي الثَقافةِ فَالحاجةُ هِيَ إلى الحُرِّيّةِ وَإلى مُقَوِّماتِها قَبْلَها. فَفِي هَذا حَصانةٌ مِنْ مُغْرِياتِ الاتِّباعِ وَمِنْ مُحَسِّناتِ الانْصِياعِ لِما لا تَنِي تَـتَفَتَّقُ عَنْهُ السُلْطةُ الحاكِمةُ وَالسُلُطاتُ الأَهْلِيّةُ وَثَقافةُ أَهْلِ السُلْطةِ وَطُلّابِها مِنْ صُنوفِ التَضْلِيلِ وَالطُغْيانِ وَالعُنْف.

بَيْرُوت، تِشْرِين الثانِي ٢٠١٠

أَسالِيب

أُسْلُوبُ غَسّان تُوَيْنِي(*)

أَحْيانًا كانَ غَسّان تُوَيْنِي يَتَذَمَّرُ مِنْ أَنَّ الصِحافةَ التِي اتَّخَذَها مِهْنةً حالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الاسْتِواءِ باحِثًا أَوْ «مُفَكِّرًا» مُتَفَرِّغًا وَهُوَ ما بَدا أَنَّ إعْدادَهُ الأَكادِيمِيَّ كانَ يَعِدُ بِه. كانَ يَوَدُّ لَوْ تَيَسَّرَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَجْرى اليَوْمِيّاتِ لِيَنْصَرِفَ إلى تآلِيفَ طَوِيلةِ النَفَس. وَلَقَدْ كانَ لِهَذِهِ الحَسْرةِ مِنْ عُمْقِ الأَثَرِ، فِي ما يَظْهَرُ، أَنْ دَفَعَتْهُ مِرارًا إلى التَمَلُّصِ جُزْئيًّا مِنْ عَمَلِهِ الصِحافِيِّ أَوْ إلى مُجافاتِهِ كُلِّيًّا إلى أَجَلٍ تَـتَبايَنُ مُدّةُ انْقِضائِهِ مِنْ مَرّةٍ إلى مَرّةٍ لِيَعُودَ فِي خِتامِ غَيْبَتِهِ (الجَسَدِيّةِ أَحْيانًا) عَنْ جَرِيدتِهِ بِكِتابٍ «بِمَعْنى الكَلِمةِ» التامِّ أي بِما يَتَعَدّى مَجْموعَ الافْتِتاحِيّاتِ وَيَفُوقُهُ شَأْنًا.

وَفِي آخِرِ المَطافِ كانَ تُوَيْنِي قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ مُزاوَلةِ أَنْواعٍ عِدّةٍ تَوَزَّعَتْ بَيْنَ حَدَّي الافْتِتاحِيّةِ التِي تُكْتَبُ فِي جَلْسةٍ واحِدةٍ وَالتَأْلِيفِ الكَبِيرِ المُحْكَمِ البُنْيانِ وَالحَسَنِ التَوْثِيق. نَدِينُ لَهُ، عَلى الخُصُوصِ، بِجُمْلةٍ كَبِيرةٍ مِن المُحاضَرات جُمِعَ بَعْضُها فِي كِتابٍ وَصَدَرَ بَعْضٌ آخَرُ فِي كُتَيِّبات. وَكانَتْ إجادتُهُ الحِوارَ المُتَلْفَزَ قَدْ أَصْبَحَتْ مَعْلُومةً حِينَ صَدَر سِرُّ المِهْنةِ وَأَسْرارٌ أُخْرى وَهُوَ رائِعةٌ مِنْ رَوائِعِ السِيرةِ الذاتِيّةِ تَلَبَّسَتْ بِلَبُوسِ الحِوارِ يُجِيبُ

(*) فَصْلٌ وُضِعَ بِالفَرَنْسِيّةِ أَصْلًا إسْهامًا فِي كِتابٍ تَذْكارِيٍّ صَدَرَ عن دارِ النَهارِ، بَيْرُوت، فِي سَنةِ ٢٠١٤.

فِيهِ غَسّان تُوَيْنِي عَنْ أَسْئلةٍ يَطْرَحُها مُحاوِرُوهُ يَتَطَرَّقُ بَعْضُها إلى مَسِيرَتِهِ فِي الصِحافةِ وَبَعْضٌ آخَرُ إلى مُغامَراتِهِ فِي مَيْدانِ السِياسةِ وَالدِبْلُوماسِيّةِ وَبَعْضٌ أَخِيرٌ إلى مَسارِ حَياتِه الخاصّةِ وَهُوَ الذي تَتابَعَتْ فِيهِ مَحَطّاتٌ فاجِعة.

وَلَقَدْ أَعادَ تُوَيْنِي الكَرّةَ، بَعْدَ نَحْوٍ مِنْ عَقْدٍ، حِينَ اشْتَرَكَ فِي مُؤَلَّفٍ آخَرَ، حِوارِيٍّ أَيْضًا وَلَـكِنَّهُ مُخْتَلِفٌ جِدًّا عَنْ سابِقِه. ذاكَ هُوَ **قَرْنٌ بِلا ثَمَرَة** الذِي صَدَرَ بِالفَرَنْسِيّةِ حامِلًا تَوْقِيعَهُ وَتَوْقِيعَيْ جان لاكُوتُور وَجِيرار خُورِي. وَفَيهِ يَتْرُكُ الحِوارُ صِيغةَ السُؤالِ وَالجَوابِ لِيَتَمَثَّلَ سَلاسِلَ مِن المُداخَلاتِ يَتَعاقَبُ المُتَحاوِرُونَ فِيها لِيُفَصِّلُوا مَوْضُوعًا أَوْ لِيُحِيطُوا بِمَرْحَلة. وَأَمّا **لِنَدْفُن الحِقْدَ وَالعُنْفَ**، وَقَدْ صَدَرَ بِالفَرَنْسِيّةِ أَيْضًا، فَيَبْقى فِيهِ الجانِبُ الحِوارِيُّ مَكْتُومًا وَيَنْتَمِي كُلَّ الانْتِماءِ إلى فَنِّ السِيرةِ الذاتِيّةِ مُغْلَقًا، قُبَيْلَ صَمْتِ الشَوْطِ الأَخِيرِ، هَذِهِ السِلْسِلةَ مِنْ أَعْمالِ تُوَيْنِي وَهِيَ التِي يُبرِزُ فيها حُضُورُ صَوْتٍ آخَرَ (أَوْ أَكْثَرَ مِنْ صَوْتٍ واحِدٍ) ما يَرْتَئي تُوَيْنِي أَنْ يُدْلِيَ بِه.

فِي هَذِهِ الباقةِ مِن الأَنْواعِ التِي زاوَلَها تُوَيْنِي، عَلَيْنا أَنْ نُدْرِجَ أَدَبَ الرَسائِلِ أَيْضًا. وَلَعَلَّ **رَسائِلُ إلى الرَئِيسِ سَرْكِيس**، وَهِيَ نُصُوصٌ مُسْتَعادةٌ مِنْ بَرِيدِ تُوَيْنِي الدِبْلُوماسِيِّ فِي المَرْحَلةِ التِي كانَ فِيها مَنْدُوبًا لِلُبْنانَ فِي الأُمَمِ المُتَّحِدةِ، لا تَـكُونُ إلّا باكُورةً تَتْبَعُها مَجامِيعُ أُخْرى يَتَوالى صُدُورُها بَعْدَ أَنْ رَحَلَ الكاتِب. أَخِيرًا نَقَعُ بَيْنَ أَعْمالِ تُوَيْنِي، وَهِيَ التِي يُهَيْمِنُ عَلَيْها، لا رَيْبَ، نِتاجُه الصِحافِيُّ، عَلى عُنْوانٍ واحِدٍ، فِي الأَقَلِّ، يَسَعُهُ أَنْ يَنْتَمِيَ مُسْتَحِقًّا إلى فِئةِ الكِتابِ الطَوِيلِ النَفَسِ، وَهِيَ الفِئةُ التِي أَشَرْنا إلى أَسَفِ

تُوَيْنِي لِإِخْفاقِهِ فِي تَـكْرِيسِ الجانِبِ الأَعْظَمِ مِنْ جُهُودِهِ الكِتابِيّةِ لِأَعْمالٍ تَنْتَسِبُ إِلَيْها. ذاكَ كِتابُهُ **حَرْبٌ مِنْ أَجْلِ الآخَرِينَ**، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ يَنْهَضُ عَلى قاعِدةٍ وَثائِقِيّةٍ مَكِينةٍ كانَ الكاتِبُ مُنْفَرِدًا بِحِيازةِ جانِبٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ مَوادِّها.

يَتَناوَلُ الكِتابُ النِصْفَ الأَوَّلَ مِنْ حَرْبِ لُبْنانَ وَلا يَزالُ يُعَدُّ إلى اليَوْمِ عَمَلًا مِن الأَعْمالِ التِي يُعَوَّلُ عَلَيْها بِصَدَد تِلْكَ الحَرْب. وَهُوَ، إلى ذَلِكَ، الكِتابُ الذِي اسْتَقرَّتْ دَعْواهُ الرَئِيسةُ (وَيُقَدِّمُ عُنْوانُ الكِتابِ صِيغةً عَجُولةً لَها كَـثِيرًا ما أُسِيءَ فَهْمُها) فِي مَوْقِعِ القَلْبِ مِنْ مُجادَلاتٍ لا تُحْصى، بَعْضُها انْفِعالِيٌّ وَبَعْضُها مُتَّزِنٌ، تَـتَناوَلُ «طَبِيعةَ» الحَرْبِ المُشارِ إلَيْها.

•

هَلْ تُوافِقُ هَذِهِ الباقةُ مِن الأَنْواعِ التِي زاوَلَها تُوَيْنِي تمَكُّنًا مُكافئًا لَها عِنْدَهُ مِن الأَسالِيبِ المُناسِبةِ لَها، وَهِيَ مُتَنَوِّعةٌ بِالضَرورة؟ تَقْتَضِي الإجابةُ المُتَأَنِّيةُ عَنْ هَذا السُؤالِ تَحْلِيلًا مُتَتابِعًا لِعَيِّناتٍ تَأْتِي مُمَثِّلةً، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، مُدوَّنةً اتَّفَق أَنَّها وُضِعَتْ بِلُغاتٍ ثَلاث. وَهِيَ تَقْتَضِي أَيْضًا بَحْثًا فِي أَنْماطِ التَعْبِيرِ التِي اعْتَمَدَتْها الشَخْصِيّةُ التُوَيْنِيّةُ، وَهِيَ شَخْصِيّةٌ لابَسَتْ دِينامِيّةً ذاتَ مَحَطّاتٍ كَـثِيرًا ما كانَتْ مُضْطَرِبةً، وَلَـكِنَّها استبْقَتْ، مَعَ ذَلِكَ، وَحْدةً أَساسِيّةً لا تُخْطِئُها العَيْن. لا تُبِيحُ لَنا حُدُودُ هَذا العَمَلِ (وَلا حُدُودُ كَفاءَتِنا، عَلى الأَرْجَحِ) رُكُوبَ هَذا المَرْكَبِ الصَعْب. فَنَكْتفي إذَنْ بِتَفَحُّصٍ إجْمالِيٍّ شَيْئًا ما لِأُسْلُوبِ غَسّان تُوَيْنِي كَما يَتَقدَّمُ إلَيْنا فِي الفَنِّ الذِي مارَسَهُ الرَجُلُ مُدّةَ مَسِيرةٍ مِهْنِيّةٍ نَيَّفَتْ عَلى سِتِّينَ سَنةً وَهُوَ فَنُّ الافْتِتاحِيّة. بَلْ إنَّ كَلِمةَ

«تَفَحُّص» كَبِيرةٌ عَلى ما نَحْنُ بِصَدَدِه. فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْنا آلافًا عِدّةً مِن المَقالاتِ وَهِيَ عَلى تَشَتُّتٍ فِي المَوْضُوعاتِ يُعانِدُ السَعْيَ إلى تَصْنِيف... فَلا يَبْقى لَنا سِوى أَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّ ما نَبْغِي الخُلُوصَ إِلَيْهِ لا يَعْدُو مُلاحَظاتٍ مُتَناثِرةً بَعْضَ التَناثُرِ مُسْتَنَدُها إلى قِراءةٍ لِعَيِّنةٍ مِن المَقالاتِ نَعْرِفُ ضِيقَ نِطاقِها سَواءٌ لِجِهةِ عَدَدِ النَماذِجِ المُصْطَفاةِ أَمْ لِجِهةِ الْمُدَّة التِي نُشِرَت فِي خِلالِها.

وَلَقَدْ كُنّا وَجَدْنا، فِي مَساقٍ آخَرَ، مُناسَبةً للتَنْوِيهِ بِالدَهْشةِ التِي لا يَخْلُو أَنْ يَشْعُرَ بِها قارِئُ اليَوْمِ أَمامَ جَوْدةِ المَقالاتِ التِي راحَ غَسَّان تُوَيْنِي يَنْشُرُها افْتِتاحِيّاتٍ لِـ **النَهارِ** وَهُوَ لا يَزالُ فِي الثانِيةِ وَالعِشْرِينَ أَوْ الثالِثةِ وَالعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ فَتُوحِي بِخِبْرةٍ مَدِيدةٍ فِي مُزاوَلةِ هَذا النَوْع. عَلى أَنَّ هَذا الشُعُورَ الذِي يَبْعَثُهُ تَماسُكُ العُرُوضِ وَقُوّةُ وَقْعِها لا يُفِيدُ أَنَّ الأُسْلُوبَ كانَ قَدْ أَصْبَحَ هُوَ الأُسْلُوبَ التُوَيْنِيَّ بِفَرادتِهِ، فَهَذا لَنْ يَكْتَسِبَهُ صاحِبُهُ فِي الواقِعِ إِلَّا شَيْئًا بَعْدَ شَيْء. وَما سَنَجْعَلُهُ الآنَ مُسْتَنَدًا رَئِيسًا، دُونَ حَصْرٍ، لِمُلاحَظاتِنا يَتَشَكَّلُ مِنْ مَقالاتٍ اخْتَرْناها تَرْقى إلى ثَمانِيناتِ القَرْنِ الماضِي أَيْ إلى مَرْحَلةِ اسْتِقْرارٍ فِي نُضْجِ الكاتِبِ الأَدَبِيِّ وَلَـكِنَّها مَرْحَلةُ أَزْمةٍ شامِلةٍ لِلُبْنانَ: أَزْمةٍ كانَتْ مُسْتَأْثِرةً، بِطَبِيعةِ الحالِ، بِاهْتِمامِ الرَجُل.

•

وَالقاعِدةُ العامّةُ أَنَّ تُوَيْنِي كانَ يَبْسُطُ كَلامَهُ فِي مَراحِلَ ثَلاث. فِي الأُولى كانَ يَحْشُدُ الدَلائِلَ المُوضِحةَ **لِما يَراهُ طَبِيعةَ المُشْكِلِ الفِعْلِيّةَ**، وَهَذا فِي مُواجَهةِ كُلِّ دَعْوًى مُخالِفة. فَكانَ يُبْرِزُ أَبْعادَ المُشْكِلِ وَدَرَجةَ خَطَرِه. كان يُعَدِّدُ، عِنْدَ الاقْتِضاءِ، ما يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ أَخْطارٍ مُحْتَمَلةٍ تَدْبِيرٌ يَجْرِي البَحْثُ

فِي اتِّخاذِهِ مُنَدِّدًا بِكُلِّ نُزُوعٍ إلى الإنْكارِ يُعايِنُهُ أَوْ يُقَدِّرُ وُجُودَهُ فِي الصَفِّ المُواجِه. فِي المَرْحَلةِ الثانِيةِ، كانَ يَرْسِمُ **تَوْجِيهًا لِلْعَمَلِ** أَوْ يُعَيِّنُ، إذا اقْتَضى الأمْرُ، حَلًّا قَدْ يَقْتَرِحُهُ، حَيْثُ يُناسِبُ، فِي سِلْسِلةٍ مِن الإجْراءاتِ المُرَقَّمة. أَخِيرًا كانَ **يَعْمِدُ إلى التَحْذِيرِ** مِنْ أَيّةِ مُماطَلةٍ فِي جانِبِ المَسْؤُولِينَ فَيَضَعُ عَلى مَرْأًى مِنْهُمْ عَواقِبَ تَخاذُلِهِمْ، إنْ تَخاذَلُوا، وَما سَيَجُرُّهُ مِنْ حُكْمٍ عَلَيْهِمْ كُلُّ إهْمالٍ أَو اسْتِنْكافٍ يَظْهَرُ فِي صَفِّهِمْ: حُكْمٍ تُصْدِرُهُ السُلْطةُ العُلْيا ذاتُ الصلاحِيّةِ، أَي الشَعْبُ، مَثَلًا، أَو التارِيخ...

وَأَمّا أَكْثَرُ الصِيَغِ الخَطابِيّةِ أُلْفةً لِكاتِبِنا فَكانَتْ صِيغةَ **الزَجْر**. فَنَقَعُ عِنْدَهُ، فِي مُعْظَمِ الحالاتِ، عَلى نَبْرةٍ نَقْدِيّةٍ، هُجُومِيّةٍ أَحْيانًا وَساخِرةٍ عِنْدَ الحاجة. فَهُوَ قَلَّما يُوَزِّعُ وُرُودًا وَإذا صَحَّ عَزْمُهُ عَلى المَدْحِ لَمْ يُطْنِبْ فِيهِ وَضَيَّقَ نَصِيبَهُ مِن المَكان. بَلْ إنَّ مُجَرَّدَ الجَهْرِ باسْمِ مَسْؤُولٍ ما يَبْدُو خاضِعًا لِحِسابٍ حَتّى لَيَصِلَ الأَمْرُ إلى اعْتِبارِهِ نَوْعًا مِنْ إنْعامٍ خاصٍّ عَلى المُسَمّى وَمِنْ تَحِيّةٍ تُؤَدّى لِمَسْلَكِه. هَذا وَالحِيادُ فِي اللَهْجةِ نادِرٌ أَيْضًا هُنا. فَعَلى التَعْمِيمِ، لا يَجْنَحُ تُوَيْنِي إلى السَرْدِ المُجَرَّدِ إلّا حَيْثُ يَبْدُو مُوقِنًا أَنَّ كَلامَهُ سَيَبْقى عَدِيمَ الأَثَرِ فِي شُخُوصِ رِوايتِهِ: لِأَنَّ هَؤُلاءِ شَخْصِيّاتٌ مِن التارِيخِ، مَثَلًا، أَوْ لِأَنَّهُمْ ساسةٌ أَجانِب. كَذَلِكَ يَسَعُ العُبُورَ إلى المُقْتَرَحاتِ العَمَلِيّةِ أَنْ يَحْمِلَ الكاتِبَ أَحْيانًا عَلى الاسْتِغْناءِ، وَلَوْ جُزْئِيًّا، عَنْ **حُمُولَتِهِ مِن الأَلْفاظِ المَشْحُونةِ بِالانْفِعالِ وَمِنْ صِيَغِ الكَلامِ غَيْرِ المَأْلُوفة**. وَتُمَثِّلُ النَدْرةُ النِسْبِيّةُ لِأَسْماءِ الأَعْلامِ فِي مَقالاتِهِ إشارةً إلى **الرِفْعةِ** التِي يَرْغَبُ الصِحافِيُّ فِي البَقاءِ عَلَيْها. وَهِيَ تُتِيحُ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَجْتَنِبَ مُواجَهاتٍ تَهْبِطُ بِمُنازَلاتِهِ إلى صَعِيدِ المُناكَفةِ الشَخْصِيّة.

وَذاكَ أَنَّ الهَمَّ المُلازِمَ لِكاتِبِنا كانَ الرَفْعَ مِنْ مُسْتَوى الجِدالِ وَالتَسامِي

بِعِباراتِهِ وَمَداراتِه. فَهُوَ يَرْصُدُ، فِي ما يَتَعَدّى المُلِحَّ العابِرَ وَالمَسائِلَ التَفْصِيلِيّةَ ما يَراهُ جَوْهَرَ المَسْأَلةِ أَوْ أَساسَها. يُعْلِنُ مَثَلًا أَنَّهُ حِينَ يَكُونُ الشَأْنُ شَأْنَ «تَوْحِيدٍ» أَوْ «تَحْرِيرٍ» يَتَعَيَّنُ الإعْراضُ عَنْ أُسْلُوبِ «المُساوَمةِ» وَالسَعْيُ إلى تَجْدِيدِ طاقةِ «المِيثاقِ» وَ«السُلْطة». وَيُضِيفُ أَنَّهُ حِينَ يَكُونُ الشَأْنُ شَأْنَ الدِيمُقْراطِيّةِ فَلا بُدَّ لَها مِنْ أَنْ تَـكُونَ «اجْتِماعِيّةً» أَيْضًا وَإلّا أَمْسَت الحُقُوقُ السِياسِيّةُ خِلْوًا مِن المَعْنى وَمِن الضَمانات. فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، نَراهُ يَدْعُو إلى الاسْتِغْناءِ عَن التَسْمِياتِ التَقْلِيدِيّةِ لِلْوِزاراتِ وَالأَخْذِ بِلائِحةِ أَسْماءٍ جَدِيدةٍ لَعَلَّها أَقْصَرُ مِن اللائِحةِ المُعْتَمَدةِ وَلَـكِنَّها تُسَمِّي مَواضِعَ العُقَدِ الرَئِيسةِ لِما تَرْزَحُ بِهِ البِلادُ فِعْلِيًّا مِنْ مُشْكِلاتٍ: مِن الأَمْنِ إلى التُرابِ الوَطَنِيِّ إلى الاقْتِصادِ، إلخ. فَالحالُ أَنَّ الوُزَراءَ ــ عَلى ما نَقْرَأُ فِي مَقالةٍ لاحِقةٍ ــ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفُوقَ تَمْثِيلُهُمْ «المُشْكِلاتِ الحَقِيقِيّةَ» تَمْثِيلَهُم القُوى السِياسِيّةَ بِكَـثِير. عَلَيْهِ يَتُوقُ الكاتِبُ إلى إرْساءِ عَلاقةٍ «كِنائِيّةٍ» ــ إنْ جازَت العِبارةُ ــ ما بَيْنَ أَسْماءِ الحَقائِبِ الوِزارِيّةِ وَلائِحةِ المَسائِلِ الرَئِيسةِ المَطْرُوحةِ عَلى لُبْنانَ المُتَخَبِّطِ فِي أَزْمَتِه.

فِي غَمْرةِ هَذا التَعَلُّقِ بِـ«لُبابِ الأُمُورِ»، لَمْ يَكُنْ تُوَيْنِي لِيُمْسِكَ نَفْسَهُ عَن اقْتِراحِ خَطٍّ لِلسُلُوكِ أَوْ سِلْسِلةٍ مِن المُقَرَّراتِ عَلى «قِمّةٍ» عَرَبِيّةٍ ما. كانَ يُجِيزُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَّخِذَ «مَوْقِعًا» لَهُ مِن الرِفْعةِ ما يَكْفِي لِإِيلاءِ صاحِبِهِ هَذِهِ المُهِمّةَ: مُهِمّةَ المُسْتَشارِ الأَكْبَرِ... بَلْ أَيْضًا مُهِمّةَ مُوَجِّهِ الضَمائِر. فَاعْتَنى، مِنْ جِهةٍ أُخْرى، بِما هُوَ مُجَرِّبٌ خَبِيرٌ بِالحَقْلِ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ مُراقِبًا ذا حِنْكةٍ، بِبَسْطِ مَنْطِقِ السِياساتِ الدَوْلِيّةِ التِي تَعْنِيهِمْ لِلُّبْنانِيِّينَ وَلِلْعَرَبِ عَلى الأَعَمّ. كانَ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ «الوَحْدةَ» تَبْقى الشَرْطَ اللازِمَ لِيُحْسِنُوا اسْتِقْبالَ كُلِّ

مُبادَرةٍ دَوْلِيّةٍ تَرْمِي إلى التَشْجِيعِ عَلى اسْتِعادةِ السَلامِ بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ أَوْ إلى تَعْزيزِ فُرَصِهِمْ لِإحْقاقِ حُقُوقِهِم.

يَسَعُنا أَنْ نُدْرِجَ أَيْضًا فِي هَذا الإشْكالِ المُتَعَلِّقِ بِـ«مَوْقعِ المُتَكَلِّمِ» ذاكَ الحِرْصَ، مِنْ جانِبِ تُوَيْنِي، عَلى اسْتِعْمالِ «**النَحْنُ» اللُبْنانِيّةِ**، أَيّةً كانَت الحَوائِلُ، وَهَذا فِي وَقْتٍ كانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ يَبْدُو ضالِعًا فِي التَآمُرِ عَلَيْها. فَلَمْ يَقْبَلْ هَذا الكاتِبُ البَتّةَ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهَذِهِ الهُوِيّةِ المُعْلَنةِ غَيْرَها وَلَوْ إلى حِين. لَبِثَ هَذا المُنْتَمِي إلى مَذْهَبِ الرُومِ الأُرْثُوذُكْس، المُتَوَغِّلُ فِي الحَياةِ الداخِلِيّةِ لِطائِفتِهِ، لا يَجِدُ جاذِبًا فِي تِلْكَ «النَحْنُ» المَسِيحِيّةِ وَقَدْ أَصْبَحَتْ هِيَ الأَبْرَزَ بَيْنَ رَصِيفاتِها بِفِعْلِ الاسْتِقْطابِ الذِي شَهِدَتْهُ سِنيُّ الحَرْبِ، وَلا يَرى فِيها مَلْجَأً سِياسِيًّا مُتاحًا لَه. كانَ يَعِي كُلَّ الوَعْيِ عُمْقَ الأَزْمةِ التِي لَمْ تَفْتَأ «النَحْنُ» اللُبْنانِيّةُ تَـتَقَلَّبُ فِيها مِنْ عُقُود. وَلَـكِنَّهُ بَقِيَ يَنْسِبُ إلَيْها، بِاتِّخاذِها لِنَفْسِهِ دائِمًا، نَوْعًا مِن الوَحْدةِ الحَدْسِيّةِ أَباحَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْها فاعِلًا فِي أَحْوالٍ أَوْ أَفْعالٍ مَرْغُوبةٍ طَبْعًا وَلَـكِنَّ القَوْلَ بِحَقِيقَتِها ظَلَّ مُحْتاجًا إلى بُرْهان. هَكَذا بَقِيَ «لُبْنانُ الحَقيقَيُّ» أَوْ «لُبْنانُ الواقِعِيُّ» أَوْ «لُبْنانُ الناسِ وَالشَعْبِ» أَوْ، عَلى الخُصُوصِ، «نَحْنُ اللُبْنانِيِّينَ»، عِنْدَهُ، مَوْئلَ رَفْضٍ عارِمٍ لِلْعُنْف... وَبَقِينا «نُرِيدُ»، بِالتالِي، أَنْ نَضَعَ حَدًّا لِهَذا الأَخِير... هَذا فِيما كانَ «الآخَرُونَ» يَرْغَبُونَ فِي الإبْقاءِ عَلى تِلْكَ «الساحةِ» مُلْتَهِبةً طالَما بَقِيَ لَهِيبُها يُواتِي مُرادَهُمْ أَحْسَنَ مُواتاة.

•

عَلى صَعِيدٍ أَدْنى إلى الشَكْلِ، نَقَعُ عَلى فِقْراتٍ تَـتَأَلَّفُ الواحِدةُ مِنْها مِنْ

جُمْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ وَتَسْتَوِي، إنْ صَحَّت العِبارةُ، **بِنْيةً كُبْرى** لِلْمَقالةِ وَتُسْهِمُ أَيْضًا فِي مَنْحِها تِلْكَ الوَتِيرةَ اللاهِثةَ المُتَكَسِّرةَ التِي لا تَفُوتُ قارئَ تُوَيْنِي وَالتِي تُعَزِّزُها عَوامِلُ أُخْرى سَنَعُودُ إلَيْها، كُلٌّ مِنْها بِنَفْحَتِهِ الخاصّةِ بِهِ.

هَذا وَيَسْتَقِي مُعْجَمُ تُوَيْنِي أَلْفاظَهُ مِن السِجِلِّ المُتَداوَلِ لِلْعَرَبِيّةِ المُعاصِرة. فَلا تَنْطَوِي اللُغةُ السائِرةُ وَلا المُصْطَلَحُ السِياسِيُّ، بِالمَعْنى الدَقِيق، عِنْدَهُ، عَلى تَخَيُّرٍ زائِدٍ وَلا عَلى جُنُوحٍ ظاهِرٍ إلى التَخَصُّص. بَلْ إنَّ تُوَيْنِي لا يَسْتَبْعِدُ اللُجُوءَ إلى عِباراتِ العامّةِ لِلزِيادةِ فِي جُرْعةِ العَفْوِيّةِ التِي يُطْلِقُ بِها صَرْخةً أَوْ تَحْذِيرًا («رِزْقَ الله عَلى...»، «مِنْ غَيْر شَرّ!»). عَلى أَنَّ أَيَّ أَثَرٍ لِلسُوقيِّةِ لا يُلْحَظُ فِي إنشاءِ هَذا الصِحافِيِّ الذِي نَعْرِفُهُ مُسارِعًا إلى اتِّخاذِ مَوْقِع الانْتِقاد. بَلْ إنَّهُ يُواجِهُ، عَلى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، بَعْضَ العِباراتِ المُخِلّةِ بِالذَوْقِ، وَلَو انَّ كَثِيرِينَ يُجِيزُونَها لِأَنْفُسِهِمْ، بِالنَبْذِ الصارِخِ، وَهَذا حِينَ يَتَنَزَّلُ لِلْإِشارةِ إلَيْها: مِنْ ذاكَ، مَثَلًا، مُصْطَلَحُ «الإفْرازِ» الذِي يَتَرَدَّدُ اسْمًا لِهَذا أَوْ ذاكَ مِنْ مَفاعِيلِ عَمَلِيّةٍ سِياسِيّة. وَلا تَغُضُّ حالاتُ الاقْتِراضِ مِن الخِزانَتَيْنِ القُرْآنِيّةِ وَالتَوْراتِيّةِ وَلا مِنْ تُراثِ الشِعْرِ العَرَبِيِّ، بِأَيِّ حالٍ، مِنْ وُضُوحِ البَيانِ التُوَيْنِي. عَلى أَنَّ تُوَيْنِي لا يَنْأى بِنَفْسِهِ عَن العِبارةِ التَعْبَوِيّةِ أَوْ عَن اللَفْظِ الطَنّانِ حَيْثُ يَجِدُ فِيهِما ما يُجارِي مَيْلَهُ الثابِتَ إلى المُعارَكةِ وَإلى الاحْتِجاج. مَعَ ذَلِكَ يَبْقى إِدْراكُه المُدَرَّبُ لِحُدُودِ الحالةِ اللُبْنانِيّةِ، وَلِحُدُودِه، هُوَ نَفْسِهِ، بِالتالِي، رادِعًا لَهُ عَن الجُنُوحِ إلى التَفَلُّتِ الدِيماغُوجِيّ.

وَالحَقُّ أَنَّ **العِباراتِ**، لا الأَلْفاظَ، وَكَذَلِكَ **نَظْمُ الجُمَلِ**، هُما المَوْضِعانِ اللَذانِ يَتَعَيَّنُ البَحْثُ فِيهِما عَنْ سِرِّ الشُعُورِ الذِي يُساوِرُ قُرّاءَ تُوَيْنِي، بِضَرْبٍ مِن التَمَيُّزِ الراسِخِ بَلْ مِن التَفَرُّدِ يُعْرَفُ بِهِ أُسْلُوبُه. فَإنَّ مُزاوَجاتٍ غَيْرَ مَعْهُودةٍ

(وَلَـكِنَّها غَيْرُ عَشْوائِيّةٍ) بَيْنَ أَلْفاظٍ سائِرةٍ (بَيْنَ أَسْماءٍ وَصِفاتٍ مَثَلًا) تَـكْفِيهِ، بِما تَفْتَحُهُ مِنْ آفاقٍ مَعْنَوِيّةٍ، لِتُضْفِيَ عَلى المَقالةِ كُلِّها أَلْمَعِيّةً اسْتِثْنائِيّة. تَنْجُمُ هَذِهِ الأَلْمَعِيّةُ، فِي الواقِعِ، لا مِنْ تَمَيُّزِ المُزاوَجاتِ بَيْنَ الأَلْفاظِ بِحَدِّ ذاتِها بَلْ، عَلى الأَخَصِّ، مِن الحَبْكَةِ التِي تَنْطَوِي عَلى بَذْرةٍ لَها كُلُّ عِبارةٍ مُوَفَّقةٍ وَمِن الرِسالةِ التِي تَجْعَلُ مِن العِبارةِ دَعْوةً إلى التَفْكِير.

وَمَعَ أَنَّ جُمَلَ تُوَيْنِي لا تَلْزَمُ قِياسَ طُولٍ واحِدًا (وَهُوَ ما يُبْعِدُ الرَتابةَ عَنْ إيقاعِ النَصِّ) فَهِيَ طَوِيلةٌ عَلى وَجْهِ التَعْمِيم. وَتُمَثِّلُ الواحِدةُ مِنْها، فِي مُعْظَمِ الحالاتِ، مَسارًا بَيِّنَ التَقَطُّع. وَهَذِهِ سِمةٌ مُهِمّةٌ بِما لَها من قِسْطٍ فِي إتمامِ التَلاؤمِ ما بَيْنَ **البِنْيةِ النَحْوِيّةِ** وَالنَبْرةِ العالِيةِ غَيْرِ البَعِيدةِ عَن الخَطابةِ وشُحْنةِ القَلَقِ التِي يَنْطَوِي عَلَيْها المَضْمُون. وَتُسْهِمُ أَحابِيلُ عِدّةٌ فِي إحْداثِ الأَثَرِ المُشارِ إلَيْهِ فِي نَفْسِ القارِئ. وَبَيْنَ أَكْثَرِها اسْتِعْمالًا، عِنْدَ كاتِبِنا، لُجُوؤُهُ المُتَكَرِّرُ إلى **صِيغةِ الاسْتِفْهام**. فَهُنا سُؤالٌ يُخَلْخِلُ حُكْمًا شائِعًا وَهُناكَ آخَرُ يَرُدُّ الاعْتِبارَ إلى بَدِيهةٍ كَـثُرَ إهْمالُها، إلخ. وَكَـثِيرًا ما يَنْبَثِقُ الاسْتِفْهامُ مِنْ كَلِمةٍ بِعَيْنِها تَقْطَعُ مَجْرى الجُمْلةِ فَجْأةً مُسْتَدْعِيةً نَظْرةً فاحِصةً. وَيَسَعُنا أَنْ نُسَمِّيَ هَذا تَداعِيَ أَفْكارٍ أَوْ تَداعِيَ أَلْفاظٍ وَلَـكِنَّ التَداعِيَ هُنا لا يَأْتِي آلِيًّا بِحالٍ. بَلْ إنَّ الاسْتِفْهامَ يُمَثِّلُ فُرْصةً لِواحِدةٍ مِنْ حالاتِ **الجَوابِ الحاضِرِ**، وَهِيَ كَـثِيرةٌ عِنْد تُوَيْنِي تُضْفِي بَراعَتُها عَلى أُسْلُوبِهِ ضَرْبًا مِن **النَفَسِ العَصَبِيِّ** يُعْرَفُ بِه. فَفِيها يَظْهَرُ نَفادُ صَبْرِ الكاتِبِ وَمَرارةُ شُعُورِهِ وَنَوْباتُ غَضَبِه. وَتُسْعِفُ كَـثْرةَ الاسْتِفْهامِ فِي إحْداثِ هَذا الأَثَرِ وَفْرةُ **الجُمَلِ المُعْتَرِضة**. هَهُنا أَيْضًا تَنْبَثِقُ مِنْ كَلِمةٍ بِعَيْنِها، فِي مُعْظَمِ الحالاتِ، حاجةٌ إلى تَدْقِيقٍ أَوْ إلى تَحَفُّظٍ أَوْ إلى تَوْكِيدٍ، إلخ. وَتُعَزِّزُ المُعْتَرِضاتُ ما تَتَّسِمُ بِهِ الجُمَلُ

وَالفِقْراتُ مِنْ لُهاثٍ إذْ هِيَ تَـتَكَشَّفُ عَنْ تَـكْثِيرٍ لِتِلْكَ الأَجْوِبةِ الحاضِرةِ التِي تَـتَشَكَّلُ مِنْها اللَوْحةُ التُوَيْنِيّةُ بِضَرْبةِ فُرْشاةٍ تِلْوَ أُخْرى.

•

تَبْقى سِماتٌ أُخْرى مُتَبايِنةُ الأَهَمِّيّةِ تُمَيِّزُ النَحْوَ التُوَيْنِيَّ وَلا يَخْرُجُ أثَرُها عَنْ أَثَرِ تِلْكَ التِي عَرَضْناها، عَلى أَنَّها تَسْتَأْهِلُ الإشارةَ، فِي الأَقَلّ. مِنْ ذَلِكَ، مَثَلًا، مُعامَلةُ تُوَيْنِي الضَمِيرَ الذِي يُفْتَرَضُ ظُهُورُهُ مُتَّصِلًا بِاسْمٍ مَعْطُوفٍ بِالواوِ عَلى آخَرَ مُضاف. يَمْتَنِعُ الكاتِبُ عَنْ إظْهارِ هَذا الضَمِيرِ تارِكًا للقارئِ تَقْدِيرَ ما يُضافُ إلَيْهِ الاسْمُ مَعَ العِلْمِ أَنَّ مَحَلَّ هَذا الأَخِيرِ من الإعْرابِ قَدْ يَبْقى مُعَلَّقًا أَيْضًا. (مِثالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «يُرِيدُونَ اسْتِجْلابَهُ إلى صُمُودِهِمْ وَالانْتِظار»... عِوَضَ القَوْلِ: ...وَانْتِظارِهِمْ). يُخَلِّفُ هَذا الإضْمارُ شُعُورًا بِفَراغٍ أَمْكَنَ التَفادِي مِنْهُ أَوْ بِكَبْحٍ لِلانْزِلاقِ تَمَّ عِنْدَ فَمِ الهاوِية. وَهُوَ يَزِيدُ كَـثِيرًا فِي شِدّةِ الإحْساسِ الذِي أُرِيدَ لِلْجُمْلةِ أَنْ تَبْعَثَهُ. وَلا يَخْلُو اللُبْنانِيُّ مِنْ شُعُورٍ يُخالِجُهُ بِأَنَّ إلْماحًا يَتَكَرَّرُ إلى مَقْطَعٍ مَشْهُورٍ مِنْ نَشِيدِهِ الوَطَنِيِّ: سَهْلُنا وَالجَبَلْ (...) قَوْلُنا وَالعَمَلْ!...

نُشِيرُ أَيْضًا إلى تِلْكَ السَلاسِلِ مِنْ جُمَلٍ اسْمِيّةٍ يُعْطَفُ بَعْضُها عَلى بَعْضٍ أَوْ مِنْ أَسْماءٍ أَيْضًا يُوصَفُ كُلٌّ مِنْها بِصِفةٍ تُناسِبُهُ أَوْ يُضافُ إلَيْهِ اسْمٌ آخَرُ يَتَعلَّقُ بِه. تَـتَكَرَّرُ واوُ العَطْفِ، عَلى هَوى الكاتِبِ، مُطِيلةً السِلْسِلةَ حَتّى مُلامَسَةِ الإطْنابِ أَحْيانًا. تَنْفَعُ هَذِهِ السَلاسِلُ، غالِبًا، فِي إبْرازِ الاتِّساعِ الذِي بَلَغَهُ نِطاقُ مُشْكِلةٍ مَطْرُوحةٍ أَوْ فِي إظْهارِ تَعَدُّدِ الأَبْعادِ الذِي يَتَّصِفُ بِهِ وَضْعٌ بِعَيْنِه. وَيَدُلُّ ما ذكَرْناهُ مِنْ **وَفْرةِ حالاتِ النَعْتِ وَالإضافةِ** عَلى **حاجةٍ**

تُلِحُّ عَلى الكاتِبِ إلى إرْهافِ المَضامِينِ الدَلالِيّةِ التِي يَقْتَرِحُها أَوْ إلى تَـكْثِيفِها. وَأَمّا كَـثْرةُ الجُمَلِ الاسْمِيّةِ المُقْتَصَرةِ عَلى مُبْتَدَإٍ وَخَبَرٍ فَتُسْهِمُ فِي الإبقاءِ عَلى **لَهْجَةِ القَطْعِ** أَوْ دَعْوى القَوْلِ الفَصْلِ التِي يَمِيلُ إلَيْها تُوَيْنِي.

فِي مُتَوالِياتٍ أُخْرى هِيَ تِلْكَ التِي تَـتَلاحَقُ فِيها **الأَفْعالُ**، تَؤُولُ الأَفْضَلِيّةُ إلى **عَلاقةِ السَبَبِيّة**. فَنَقَعُ عَلى فِعْلٍ يُسْفِرُ (أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْفِرَ) عَنْ فِعْلٍ آخَر. وَتَـتَكَرَّرُ **فاءُ السَبَبِيّة** مُبْرِزةً بِالشِدّةِ المُناسِبةِ نَتِيجةً يُرادُ تَحْصِيلُها أَوْ يُخْشى حُصُولُها. وَلَمّا كانَت الآثارُ المبْرَزَةُ أَو المُخَمَّنةُ بَعِيدةً أَحْيانًا عَنْ نِطاقِ التَوَقُّعِ الشائِعِ فَإنَّ **إيقاعَ** الجُمْلةِ الذِي يَغْدُو **تَـكْرارِيًّا** لا يُورِثُ، مَعَ ذَلِكَ، إحْساسًا بِالرَتابةِ بَلْ يُقَوِّي حُظُوظَ الانْطِباعِ المُرادِ فِعْلًا. وَتُؤَدِّي حالاتُ تَـكْرارٍ أُخْرى مُهِمّةَ التَقْوِيةِ هَذِهِ نَفْسَها. مِنْ ذاكَ، مَثَلًا، تَـكْرارُ **لا** النافِيةِ بِشَفْعِها بِأُخْتِها **كَلّا**. تَـكْثُرُ، عِنْدَ تُوَيْنِي، قَوْلةُ «لا! كَلّا!» لِأَنَّ ما يَرْفُضُهُ مِنْ أَقْوالٍ وَأَفْعالٍ أَوْفَرُ عَددًا بِكَـثِيرٍ مِمّا يَقْبَلُه. يَتَكَرَّرُ أَيْضًا وُرُودُ أَلْفاظِ الزَجْر وَأَظْهَرُها اسْمُ الفِعْلِ «حَذارِ!» وَالغايةُ هِيَ نَفْسُها. تِلْكَ أَيْضًا حالُ ضَمِيرِ الشَأْنِ حِينَ يُؤَكَّدُ بِالتَـكْرارِ إبْرازًا لِلاسْمِ المُحالِ إلَيْهِ: نَقْرَأُ مَثَلًا: «لَعَلَّها هِيَ هِيَ قَضايا الحُكْمِ وَالوَطَن». إلخ.

•

فَإذا شِئْنا أَنْ نَلْزَمَ صَعِيدَ النَحْوِ، فَلا بُدَّ لَنا مِن التَنْوِيهِ بِلُجُوءِ تُوَيْنِي المُتَكَرِّرِ إلى **القَلْبِ** تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا لِعَناصِرِ الجُمْلة. وَهُوَ يَرْمِي إلى إبْرازِ العُنْصُرِ الذِي يَتَقَدَّم. وَلَمّا كانَ القَلْبُ إجْراءً اسْتِثْنائِيًّا بِلا مَراءٍ فَإنَّهُ يَزِيدُ أَيْضًا فِي غِنى الإيقاعِ الذِي يَنْتَظِمُ الفِقْرةَ الواحِدةَ أَو المَقالةَ كُلَّها. وَتَحْضُرُ الصِيَغُ النادِرةُ

الاسْتِعْمالِ حِينَ تَحْضُرُ، وَهِيَ قَلِيلةُ الوُرُودِ عِنْدَ تُوَيْنِي، لِتُؤازِرَ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ طُرُقٍ فِي المَسْعى نَفْسِه. مِثالُها: «شُبِّهَ لَهُ أنْ بالحَرْبِ سَيَبْنِي». وَيَقِلُّ أَهَمِّيّةً عَنْ هَذا (فِي رَأْينا، بِطَبِيعةِ الحالِ) وَإنْ يَكُنْ أَشَدَّ جَذْبًا لِلانْتِباهِ اعْتِمادُ مُخْتَصَراتٍ مُسْتَعارَةٍ مِن العامِّيّةِ اللُبْنانِيّةِ (أَو الشامِيّةِ، عَلى الأَعَمِّ) وَمِنْها إحْلالُ لامِ التَعْرِيفِ مَحَلَّ الاسْمِ المَوْصُولِ وَمِنْها أَيْضًا إحْلالُ ضَمِيرٍ مُتَّصِلٍ فِي مَحَلِّ المُنْفَصِلِ المُفْتَرَضِ الوُرُودِ فِي العِبارةِ الفَصِيحة. (مِنْ ذَلِكَ: «وَأَمّا الأَسْماءُ الْفِي حَجْمِ البَرامِجِ وَأَكْبَرُ فَأَيْنَها؟» وَمِنْهُ أَيْضًا: «الرِجالُ الاسْمُهُمْ بِمَثابةِ بَرْنامِجٍ وَأَكْثَر»). تِلْكَ صِيَغٌ اقْتَرَحَها سَعِيد عَقْل أَوَّلًا ثُمَّ أَخَذَ بِها يُوسُف الخال، وَهِيَ لا تَبْدُو عِنْدَ تُوَيْنِي، حِينَ يَعْتَمِدُها، عُنْصُرًا فِي إصْلاحٍ مُقْتَرَحٍ لِلْكِتابةِ العَرَبِيّةِ بِقَدْرِ ما تَبْدُو مُجَرَّدَ تَطْرِيةٍ إنْشائِيّة. وَالواقِعُ أَنَّ وُرُودَها فِي نُصوصِهِ راحَ يَتَضاءَلُ بِمَرِّ السِنِين. مَعَ ذَلِكَ بَقِيَتْ فِي أُسْلُوبِ تُوَيْنِي آثارٌ «سَعِقْلِيّةٌ» مُتَفَرِّقةٌ عَلى مُسْتَوَى صِيَغِ العِبارةِ وَأَبْنِيةِ الجُمْلة. فِي مِضْمارٍ آخَرَ، لا يُقاوِمُ تُوَيْنِي كَثِيرًا، فِي بَعْضِ الحالات، إغْراءَ بَعْضِ اللَعِبِ السَهْلِ بِالأَلْفاظِ إذا كانَ قَدْ حَظِيَ بِشُيُوع. مِنْ ذَلِكَ ما انْتَشَرَ بَعْدَ تَوْقِيعِ الاتِّفاقِ المَشْهُورِ مِن اسْتِثْمارٍ ساخِرٍ لِاشْتِقاقِ «الطائِف»، وَهُوَ اسْمُ المَدِينةِ المَعْرُوفةِ، وَالطَوافِ وَالطَوَفانِ وَكَذَلِكَ الطائِفةِ مِنْ مادَّةٍ لُغَوِيّةٍ واحِدة.

•

وَما دُمْنا لَمْ نَعْزِلْ مَراتِبَ التَحْلِيلِ الذِي باشَرْناهُ بَعْضَها عَنْ بَعْضٍ فَقَدْ لامَسْنا فِي تَناوُلِنا مُعْجَمَ غَسّان تُوَيْنِي وَالبِنْيةِ النَحْوِيّةِ لِجُمَلِهِ بَعْضَ الخَصائِصِ المُتَعَلِّقةِ بِالتَرْسانةِ الخَطابِيّةِ التِي وَقَفْنا عَلَيْها فِي افْتِتاحِيّاتِه. فَالحالُ أَنَّ قِيَمًا خَطابِيّةً أَوْ بَلاغِيّةً تَتَّصِلُ تِلْقائِيًّا بِتَخَيُّرِ الأَلْفاظِ وَبِالمُمَيِّزاتِ البُنْيَوِيّةِ

لِلْجُمَلِ وَبِالإيقاعِ الذِي تَنْتَظِمُ فِيهِ الجُمَلُ وَالفِقْراتُ وَبِطُرُقٍ بِعَيْنِها فِي اسْتِعْمالِ المُعْتَرِضاتِ وَالجُمَلِ الاسْتِفْهامِيّةِ، إلخ. فَإِنَّ تُوَيْنِي يَجْهَدُ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بِحُجَجِهِ، بِالمَعْنى المَنْطِقِيِّ لِلْحُجّةِ، فِي اسْتِثارةِ مَكْمَنِ الانْفِعالِ عِنْدَ مَنْ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِالخِطاب. هُوَ يَتَوَسَّلُ مَوارِدَهُ الأُسْلُوبِيّةَ لِتَوْظِيفِ التَأَثُّرِ فِي كَسْبِ الاقْتِناع. ذاكَ ما يُفِيدُهُ مَسارٌ لا يَخْلُو مِن الفَوَرانِ تَسْلُكُ فِيهِ مَقاطِعُ لا يَخْفى، مَعَ ذَلِكَ، ما تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ نُوىً مَنْطِقِيّة. وَيَنْزِعُ الكاتِبُ، إِذْ يُساجِلُ، إلى مَنْحِ أَحْكامِهِ صِفةَ **الإبْرام**. وَهَذِهِ نَزْعةٌ تُلَبِّيها أَفْضَلِيّةٌ مَلْحُوظةٌ أَشَرْنا إِلَيْها تُمْنَحُ لِلْجُمْلةِ الاسْمِيّة. وَسَواءٌ أَكانَ الخَصْمُ ظاهِرًا أَمْ مُسْتَتِرًا فَالغايةُ هِيَ أَنْ تُسَدَّ دُونَهُ المَنافِذ.

لِلْوُصُولِ إلى هَذِهِ الغايةِ، يُكْثِرُ تُوَيْنِي، أَيْضًا وَخُصُوصًا، مِنْ إيرادِ **المُفارَقاتِ** التِي يَهْتَدِي إِلَيْها وَيَصُوغُها أَبْرَعَ صِياغة. يُلاحِظُ، مَثَلًا، أَنَّ احْتِلالَ العَدُوِّ لِلأَرْضِ هُوَ وَحْدَهُ ما يُصَيِّرُها مُقَدَّسةً، فِي نَظَرِ العَرَبِ، وَأَنَّ اسْتِعادةَ الأَرْضِ (بَعْدَ إضاعَتِها) تَلْقى عِنْدَهُمْ مِن التَأْيِيدِ ما لا تَلْقاهُ المُحافَظةُ عَلَيْها! فِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُعْلِنُ أَنَّنا وَصَلْنا إلى حَيْثُ نَرى حُرُوبَ التَحْرِيرِ تُوَطِّدُ الاحْتِلالاتِ إِذْ هِيَ لاتَحْرِيرِيّةٌ إلى أَقْصى حَدّ. هَلْ ثَمَّةَ حاجةٌ إلى مِثالٍ آخَر؟ «نَعَمْ هَكَذا... ـ يَصِيحُ تُوَيْنِي ـ نُلْغِي الطائِفِيّةَ بِاسْتِرْضاءِ الطَوائِفِ بِالرِئاساتِ وَبِنِياباتِها وَأَوْهامِ الرِئاسات...»، إلخ.، إلخ...

هَذا الوَلَعُ بِالمُفارَقةِ يَسْتَتْبِعُ، عَلى ما يَظْهَرُ، نَوْعًا مِن التَعَلُّقِ بِحالاتِ **الاسْتِقْطابِ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا ثالِثَ لَهُما**. وَهُوَ تَعَلُّقٌ يُواتِي ما أَشَرْنا إِلَيْهِ تَوًّا مِنْ جُنُوحٍ إلى صِيغةِ الحُكْمِ المُبْرَم. هَذا إلى مُواتاتِهِ الرَغْبةَ فِي الإفْضاءِ إلى «لُبابِ الأُمُورِ» وَقَدْ ذَكَرْناها أَيْضًا. فَكَثِيرًا ما يَتَّخِذُ الاسْتِقْطابُ الثُنائِيُّ صِيغَةَ

«إمّا... وَإمّا» وَفِيها لا يَتَكافَأُ القُطْبان فِي القِيمةِ أَبَدًا. وَتَسُوقُ البِنْيةُ المُثَنّاةُ القُطْبِ أَحْيانًا إلى ابْتِداعِ زَوْجٍ غَيْرِ مَعْهُودٍ مِن الأَضْداد. عَلَيْهِ يُصْبِحُ واجِبًا وَقْفُ «الحَرْبِ الحَرامِ» لِكَسْبِ الحَقِّ فِي خَوْضِ «الحَرْبِ الحَلال». وَإذا كانَ ثَمَّةَ ما يُخْتَمُ بِهِ حَدِيثُ تَثْنِيةِ القُطْبِ هَذا فَهُوَ ذاكَ التَذْكِيرُ، وَهُوَ مُدَمِّر، بِأَنَّ انْتِخابَ إلْياس سَرْكِيس رَئِيسًا لِلْجُمْهُورِيّةِ اقْتَضى خَطْفَ قِسْمٍ مِنْ نِصابِ المَجْلِسِ النِيابِيِّ لِإحْضارِ نُوّابٍ إلى الجَلْسةِ وَخَطْفَ قِسْمٍ آخَرَ لِمَنْعِ نُوّابٍ آخَرِينَ مِن الحُضُور!

هِيَ إذَن الأَحْكامُ المُبْرَمةُ وَالمُفارَقاتُ وَالأَقْطابُ التِي تَـتَقَدَّمُ أَزْواجًا ما نُرَجِّحُ أَنَّها الأَدَواتُ الرَئِيسةُ التِي تُجَنِّدُها افْتِتاحِيّاتُ غَسّان تُوَيْنِي لِتُؤَدِّيَ رِسالةَ الزَجْرِ التِي ناطَها صاحِبُها بنَفْسه. لَنا بِطَبِيعةِ الحالِ أَنْ نُضِيفَ إلى هَذِهِ أُخْرَياتٍ كَـثِيراتٍ وَنَبْقى مَعَ ذَلِكَ غَيْرَ مُسْتَوْفِينَ التَعْدادَ، فِي غالِبِ الظَنّ. لا بَأْسَ، مع احْتِمالِ التَقْصِيرِ هَذا، بِالإشارةِ إلى أَدَواتٍ أُخْرى غَيْرِ قَلِيلةِ الظُهورِ، عِنْدَ تُوَيْنِي، أَوْ هِيَ ذاتُ حُمُولةٍ دَلالِيّةٍ بارِزة. كَيْفَ لا نَذْكُرُ، مَثَلًا، مَيْلَهُ إلى **تَوْكِيد** صِيغةِ إيجابٍ أَوْ صِيغةِ نَفْيٍ بِتَـكْرارِ العنْصُرِ المُحَـرِّكِ فِي الجُمْلة؟ وَكَيْفَ لا نُشِيرُ إلى اسْتِعْمالِهِ حَرْفَ العَطْفِ «بَلْ» وَهُوَ المُكَرَّسُ، فِي اسْتِعْمالِهِ الشائِع، لِـ«تَصْوِيبِ» صِيغةٍ مُوجِبةٍ تَسْبُقُهُ أَوْ لِإبْدالِ صِيغَةٍ نافِيةٍ فَنَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ تُوَيْنِي مُوَظَّفًا، عَلى الأَغْلَبِ، فِي تَشْدِيدِ هَذِهِ وتِلْكَ. «أَخْطَأْنا بَلْ أَجْرَمْنا»، يَكْتُبُ تُوَيْنِي، مَثَلًا. أَوْ هُوَ يَكْتُبُ: «نَصْنَعُ الأَنْظِمةَ وَالقَوانِينَ بَلْ نَضَعُ شَرِيعةً جَدِيدةً وَدُسْتُورًا جَدِيدًا رُبَّما، لا بَأْسَ».

تَـتَضافَرُ هَذِهِ الأَحابِيلُ، وَغَيْرُها كَـثِيرٌ، لِتَمْنَحَ صاحِبَها سِيماءَ «مُقَوِّمِ العِوَجِ» وَقَدْ كانَتْ لَهُ وَإنْ عَلى اتِّزان. وَهِيَ، أَي الأَحابِيلُ، تُتِيحُ لَهُ أَنْ يُمِدَّ قارِئَهُ،

فَضْلًا عَنْ تَعَقُّلِ وَضْعٍ قائِمٍ وَعَن التَدابِير القَمِينةِ بِإِصْلاحِهِ، بِما يُساوِرُ الكاتِبَ مِنْ شُعُورٍ بِنَفادِ الصَبْرِ وَبِالقَلَق. هِيَ، أَي الأَحابِيلُ، تُضْفِي عَلى النَصِّ طابَعًا يُشْعِرُ بِدُخُولِ **المَنْطِقِ العَقْلِيِّ الواثِقِ بِنَفْسِهِ فِي مُقارَعةٍ ذاتِ صَخَبٍ أَوْ بِصَرَخاتٍ يُطْلِقُها العقْلُ مَجْبُولةً بِتَوَتُّرِ العاطِفة.**

•

مَعْلُومٌ أَنَّ التَحْلِيلَ يَقْتُلُ مَوْضُوعَه. وَقَدْ أَرادَتْ قِراءَتُنا المُتَواضِعةُ هَذِهِ أَنْ تَـكُونَ قابِلةً لِلْقِراءة. وَهِيَ تزْعُم لِنَفْسِها أَهْلِيّةً ما لِجَعْلِ القارِئِ أقْرَبَ إلى تَحَسُّسِ ما يَنْطَوِي عَلَيْهِ أُسْلُوبُ غَسّان تُوَيْنِي مِنْ خَبايا. عَلى أَنَّ **تَحْلِيلَنا** يَنْتَفِعُ، فِي مَسْعاهُ هَذا، بِنِسْيانِ القارِئِ ما جاءَ فِيهِ حِينَ يُباشِرُ مَرّةً أُخْرى قِراءةَ نَصٍّ ما مِنْ هَذا القَلَمِ الفَرِيدِ الذِي لَمْ يُغادِرْهُ نبْضُ الحَياة.

بِنْت جُبَيْل، تَمُّوز ٢٠١٣

غِناءُ فَيْرُوز لِكَلِماتِ زِياد:
قَمَرُ الصَباحِ الباكِرِ يَحْكِي بَلايا آخِرِ السَهْرة(*)

الصَوْتُ وَلَوْنُه

كَـثِيرًا ما قِيلَ أنَّ صَوْتَ فَيْرُوز خُلِقَ لِلصَباح. وَتَلْزَمُ مَحَطّاتُ الإذاعةِ هَذا الرَأْيَ لُزُومًا إجْماليًّا فَتَبُثُّ أَغانِي فَيْرُوز فِيما الناسُ يَرْشُفُونَ فِنْجانَ قَهْوَتِهِم الأَوَّل أَوْ يَمْسَحُونَ فَوْضى اللَيْلِ عَنْ صُوَرِ أَجْسامِهِمْ وَعَنْ دَواخِلِ بُيُوتِهِمْ مُفْتَتِحِينَ بِذَلِكَ مَنْطِقَ النَهار. وَقَدْ لا تَلْزَمُ مَحَطّاتُ التِلِفِزْيُون هَذِهِ القاعِدةَ لِأَنَّ التِلِفِزْيُون آلةٌ لَيْلِيّةٌ عَلى التَغْلِيب. وَلَمْ يَكُنْ لِفَيْرُوز نَفْسِها أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَن السَهَرِ بِشَخْصِها مَعَ الناس... فَالناسُ أَلِفُوا، لِأَسْبابٍ لا تَعْتَدُّ بِلَوْنِ الصَوْتِ، أَنْ يَكُونَ الغِناءُ مَتاعًا لِلسَهَرات. وَلَمْ يَحْصُر الأَخَوان رَحْبانِي شِعْرَهُما المُغَنّى بِوَقائعِ النَهارِ أَيْضًا. بَل الراجِحُ أَنَّ اللَيْلَ كانَ أَشَدَّ اسْتِدْراجًا لَهُما إلى الشِعْرِ لِأَنَّ آيَةَ النَهارِ مُبْصِرةٌ وَالشِعْرُ لا يُوافِقُهُ كَـثِيرًا ما يَفْرِضُهُ النَهارُ مِنْ مُطابَقةٍ فَظّةٍ (وَإنْ تَـكُنْ ظاهِرِيّةً) بَيْنَ صُوَرِ الأَشْياءِ وَأَسْمائِها. عَلَيْهِ كانَتْ فَيْرُوز، فِي عَهْدِ عاصِي وَمَنْصُور، تُغَنِّي، بِصَوْتِها الحَيِّ، فِي اللَيْل... وَهِيَ قَدْ غَنَّتْ لِلَّيْلِ كَـثِيرًا، فِي عَهْدِ عاصِي وَمَنْصُور أَيْضًا. وَمَعَ أَنَّ مانِعًا لا يَمْنَعُ أَنْ يأْنَسَ المُبَكِّرُونَ لِلسَماعِ إلى أَصْنافٍ شَتّى مِن الأَخْيِلةِ اللَيْلِيّةِ، فَإنَّ بَيْنَ الأَغانِي

(*) وَرَقـةٌ قُدِّمَـتْ فِـي المُؤْتَمَـرِ الـذِي نَظَّمَـهُ بَرْنامَـجُ أَنِيـس المَقْدِسِـي لِـلْآدابِ فِـي الجامِعـةِ الأَمِيركِيّـةِ فِـي بَيْـرُوت حَـوْلَ أَعْمـالِ فَيْـرُوز وَزِيـاد الرَحْبانِـيّ وَذَلِـكَ فِـي ٢٧-٢٩ نَيْسـان ٢٠٠٦

التِي كَتَبَها عاصِي وَمَنصُور (أَوْ كَتَبَها غَيْرُهُما) لِفَيْرُوز ما لا يَصْلُحُ أَصْلًا لِمِزاجِ السابِعةِ صَباحًا: «بِكُوخْنا يا ابْنِي»، مَثَلًا، أَوْ «تِخْمِينْ راحِتْ حِلْوِة الحِلْوِين».

مَعَ ذَلِكَ، لا نَرى حَدْسَ مَحَطّاتِ الإذاعةِ الإجْمالِيَّ يُجانِبُ الصَواب. وَهُوَ حَدْسٌ يَذْهَبُ المُتَأَمِّلُ فِيهِ، عَلى الفَوْرِ، إلى ضِدِّهِ المُتَعَلِّقِ بِأُمِّ كُلْثُوم. فَلَيْسَ صَعْبًا إقْناعُ المُنْهَكِ أَو المُتْخَمِ بِأَنَّ شَدْوَ هَذِهِ السَيِّدةِ بِقَوْلِ الخَيّامِ: «فَما أَطالَ النَوْمُ عُمْرًا...» لا يُوافِقُ ساعةَ القَيْلُولة.

يَجِدُ الناسُ لِلصَوْتِ أَوْصافًا مُخْتَلِفةً، وَيَسْتَعِيرُونَ لِتَسْمِيَتِها مِنْ مُصْطَلَحِ حَواسِّهِم الخَمْسِ، وَتَسُوقُهُم القَرِيحةُ إلى اسْتِعارةِ مُصْطَلَحِ اللَمْسِ، خُصُوصًا، لِحاسّةِ السَمْع. فَيَقُولُونَ: «صَوْتٌ خَشِنٌ» وَيَقُولُونَ: «صَوْتٌ حادٌّ». وَأَمّا أَنا فَأَسْأَلُ: هَلْ لِصَوْتِ فَيْرُوز لَوْنٌ؟ وَلا أُسَلِّمُ إلّا مُرْغَمًا، بِأَنَّ فَيْرُوز سَفِيرَتُنا إلى النُجُوم. فَإِنَّما يَغْلِبُنِي الظَنُّ أَنَّ صَوْتَها هُوَ نُورُ القَمَر. وَلَيْسَ يَذْهَبُ خَيالِي إلى القَمَرِ الذِي يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ اللَيْلِ أَوْ فِي وَقْتٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ مِنْ أَوْقاتِه. وَإِنَّما أُشِيرُ إلى القَمَرِ الذِي يَتَأَخَّرُ إلى ما بَعْدَ الفَجْرِ بِساعة. ذاكَ هُوَ القَمَرُ الذِي سَأَنْظُرُ إلَيْهِ لِأَتَمَلّى فِيهِ مِنْ صَوْتِ فَيْرُوز وَلَنْ أَلْتَفِتَ إلى الشَمْسِ قَطُّ، وَإِنْ تَكُنْ طَلَعَتْ. فلَيْسَ يَصِحُّ فِي هَذا الصَوْتِ حَدِيثُ الحَرارةِ (أَو الدِفْءِ) وَما يُخالِفُهُما أَي البُرُودة. هُوَ صَوْتٌ يُلاعِبُ الرُوحَ لا غَيْرَ، فَيَجِبُ عَلَيْنا، كُرْمى لِفَيْرُوز، أَنْ نُسَلِّمَ بِوُجُودِ الرُوح. والمُعَوَّلُ عَلَيْهِ هَهُنا أَنَّنِي لا أَجِدُ صَوْتَ هَذِهِ السَيّدةِ أَصْفَرَ وَلا بُرْتُقالِيًّا. وَأَمّا النُجُومُ فَهِيَ تَلْمَعُ أَكْثَرَ مِمّا يَجِبُ بِقَلِيل.

تُسْتَعارُ المَعادِنُ أَيْضًا لِوَصْفِ الأَصْوات. وَنِهايةُ ما سَبَقَ أَنَّنِي أَجِدُ صَوْتَ

فَيْرُوز فِضِّيًّا. وَهُوَ الفِضّةُ جُلِيَتْ مِنْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثةٍ لا مِنْ دَقِيقَتَيْن. وَما هُوَ بِالذَهَبِ وَلا بِالماسِ وَلا يَزِيدُهُ إلّا عِزًّا أَلّا نَعْتَدَّ، حِينَ نَصِفُهُ، بِمِقْياسِ الأَسْعار. فَنَحْنُ، حَتّى تارِيخِهِ، نَنامُ وَنَقُومُ فِي بُيُوتِنا لا فِي بُورصةِ دُبَيْ.

العِــيّ

هَلْ تَرَكَتْنا فَيْرُوز مُقِيمِينَ فِي بُيُوتِنا فِعْلًا طِيلةَ نِصْفِ القَرْنِ الذِي مَرَّ وَنَحْنُ نَسْمَعُ بِصَوْتِها وَمَعَهُ شِعْرَ الأَخَوَيْن رَحْبانِي وَأَلْحانَهُما؟ الجَوابُ صَعْبٌ لِأَنَّنا كُنّا مَعَها فِي أَقْصى الوَحْشةِ وَأَقْصى الأُلْفةِ، فِي آن. كُنّا فِي العَراءِ وَلَـكِنَّ هَذا العَراءَ كانَ هُوَ المَنْزِلَ الذِي وُلِدْنا فِيهِ وَباتَ، مِنْ يَوْمِ أَنْ وُلِدْنا، غَيْرَ مَوْجُود. فلَيْسَ غِناءُ فَيْرُوز لِلْأَخَوَيْن رَحْبانِي غَيْرَ هَذا الاتِّحادِ شِبْهِ التامِّ لِلْوَحْشةِ وَلِلْأُلْفة. وَأَقُولُ «شِبْهِ التامِّ» لِأَنَّ ما كانَ يَقُولُهُ هَذا الغِناءُ هُوَ، عَلى وَجْهِ الدِقّةِ، أَنَّ بَيْتَ وِلادَتِنا قَدْ أَصْبَحَ أَطْلالًا وَلَـكِنَّهُ كانَ لا يَزالُ قائِمًا، بِمَعالِمِهِ كُلِّها فِينا. كُنّا قَدْ كَفَفْنا عَن الإقامةِ فِيهِ، مُذْ باتَ غَيْرَ صالحٍ لِسُكْنانا، وَلَـكِنَّهُ كانَ لا يَزالُ مُقِيمًا فِينا.

الذِي حَصَلَ حِينَ تَـرَكَ زِياد حِضْنَ أُمِّهِ لِيُعَلـِّمَها كَلامًا لَمْ يَتَعَلَّمْهُ مِنْها أَنَّ البَيْتَ الذِي كانَتْ فَيْرُوزُ تُرَتِّبُهُ فِينا كُلَّ صَباحٍ تَهَدَّمَ هُوَ أَيْضًا وَأَنَّنا عَلِمْنا، فِي المُناسَبةِ نَفْسِها، أَنَّ أَطْلالَ الخارِجِ قَدْ زالَتْ هِيَ أَيْضًا أَوْ هِيَ أَمْسَتْ عَلى مَشارِفِ الزَوال. عَلِمْنا أَيْضًا، أَوْ وَجَبَ عَلَيْنا أَنْ نَعْلَمَ، أَنَّ هَذِهِ سُنّةُ الحَياةِ وَأَنَّها سُنّةُ المَوْتِ أَيْضًا. فنَحْنُ فِي سِنٍّ قَرِيبةٍ إلى سِنِّ فَيْرُوزَ أَوْ إلى سِنِّ غِنائِها. وَأَمّا زِياد وَغِناؤُهُ فَقَرِيبانِ مِنْ سِنِّ أَوْلادِنا. أَرْكُنُ إلى هَذا

التَعْلِيلِ مُؤَقَّتًا، عالِمًا بِأَنَّ الاحْتِجاجَ بِالسِنِّ سُرْعانَ ما يَنْكَشِفُ ضَعْفُهُ وَأَنَّهُ لا يُعْفِي أَحَدًا مِن المَسْؤُولِيّةِ عَنْ ذَوْقِه.

وَقَدْ كُنْتُ ذَهَبْتُ، قَبْلَ عِشْرِينَ سَنةً، فِي كَلامٍ وَجِيزٍ عَلى مَسْرَحِ زِيادِ الرَحْبانِيّ(*)، إلى أَنَّ هَذا المَسْرَحَ يَؤُولُ إلى إخْراجِ العِيِّ اللُبْنانِيِّ أَيْ عَجْزِ اللُبْنانِيِّينَ عَن الكَلامِ المُفِيد... أَوْ قُصُورِ عِبارَتِهِمْ عَنْ مُلابَسةِ المَعْنى المُرادِ بِها. هَذا العِيُّ عِيٌّ مُداوِر. فَاللُبْنانِيُّونَ يَقُولُونَ، فِي نِهايةِ المَطافِ، ما يُرِيدُونَ قَوْلَهُ وَيَعْرِفُ بَعْضُهُمْ، فِي نِهايةِ المَطافِ، ما يُرِيدُ بَعْضُهُم الآخَرُ أَنْ يَقُول. حَتّى إنَّ هَذِهِ المَعْرِفة قَدْ تَسْبُقُ القَوْلَ نَفْسَه. وَلَكِنَّ المَطافَ المُشارَ إلَيْهِ يَأْتِي طَوِيلًا مُعَقَّدًا وَيُشِيرُ، بِطُولِهِ وَبِعُقَدِهِ، إلى مُقاوَمةٍ ما لِلْقَوْلِ السَوِيِّ، لِلْمُخْتَصَرِ المُفِيدِ، وَإلى عَجْزٍ عَنْه. لَيْسَ ما يُقالُ ضائِعًا إذَنْ. وَلَكِنَّ فِي الإسْتِراتِيجِيّاتِ المُتَقابِلةِ لِلْقَوْلِ ما يَجْعَلُهُ قَوْلًا بَدَلًا مِنْ ضائِع. وَعِلّةُ ذَلِكَ أَنَّ بَيْنَ اللُبْنانِيِّينَ مِن الحَوائِلِ التِي قَدْ يُنْكِرُونَ وَالمَكْتُوماتِ التِي يَعْلَمُونَ ما يَجْعَلُ صَراحةَ القَوْلِ، فِي الدَقِيقِ وَالجَلِيلِ مِن المَسائِلِ وَبَيْنَ الكَثِيرِ أَو القَلِيلِ مِن المُتَخاطِبِينَ، بابًا لِقَطْعِ الكَلامِ أَصْلًا وَلِلْوُصُولِ فَوْرًا إلى أَقْصى التَنازُع. هَذا بَيْنَما تَقْتَضِي الحالُ تَجْزِئةَ التَنازُعِ، عَبْرَ التَطْوِيلِ فِي الكَلامِ وَلَيِّ مَجْراهُ مِرارًا وَتَشْعِيبِهِ هُنا وَهُناكَ، بِحَيْثُ يَحُولُ التَنازُعُ الكَبِيرُ، القابِلُ لِلْفَتْحِ عَلى مَصارِيعِهِ كُلِّها، إلى مُنازَعاتٍ تَفْصِيلِيّةٍ تُطِيقُها حَياةُ كُلِّ يَوْم.

هَلْ بَقِيَ لِعِيِّ اللُبْنانِيِّينَ أَوْ لِلْحُبْسةِ فِي نُطْقِهِمْ هَذا المُثُولُ نَفْسُهُ فِي كَلامِ

(*) را. «ثَقافةٌ لِلْحَرْبِ، ثَقافةٌ لِلسَلام» فِي: أَحْمَد بَيْضُون، **ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ: مَسالِكُ فِي الحَرْبِ اللُبْنانيّة**، بَيْرُوت ١٩٩٠، ص ٦٥-٨٩، وَبِخاصّةٍ الكَلامَ على مَسْرَحِ زِياد، ص ٨٧-٨٨.

الأَغانِي الذِي كَتَبَهُ زِياد لِفَيْروز؟ نَعَمْ وَلا. فِي خانةِ نَعَمْ، أَنَّ زِياد لا يَنْتَظِرُ اجْتِهادَنا فِي مَوْضُوعِ العِيِّ وَالحُبْسةِ وَإنَّما يُعْلِنُ حُصُولَهُما إعْلانًا مُباشَرًا:

«وْهَيْدا جارُو ما بِيفَهِّمْ شِي.
بْيِحْكِيلِي خَبْرِيّاتْ
وِبْيِحْكِي عْمُومِيّاتْ
وِبْيُبْرُمْ ساعة عالكِلْمِة وْما بْتُطْلَعْ هِيْ بِالذات».

وَفِي خانةِ لا، أَنَّ العَجْزَ عَن الإفادةِ يَتَكَشَّفُ عَنْ إسْتِراتِيجِيّةٍ قائِمةٍ بِرَأْسِها. تَـتَمَثَّلُ المَرْحَلةُ الأُولى مِنْ هَذِهِ الإسْتِراتِيجِيّةِ فِي فَرْضِ النِسْيانِ عَلى المُحاوِرِ (أَيْ ما هُوَ عَكْسُ إفادَتِه):

«وِبْياخِدْنِي وْبِيرَجِّعْنِي وْبِينَسِّينِي
نَسّانِي وَاللهْ نْسِيتْ.
(...)»

وَهَذا قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِي الإسْتِراتِيجِيّةُ نَفْسُها إلى فَرْضِ الانْهِيارِ عَلى مُحاوِرٍ أَعْيَتْهُ الحِيلة:

«خبِّرْنِي إنّـُو جارُو شُو دُبّارُو
مَعْقُولِي هالشِي؟
بْيِحْكِي بَيْن شْفافُو
وْبِيجاوِبْ بِكْتافُو
يَعْنِي الحَكِي مِشْ مِتْل الشَوْفِي
فِعْلًا لَوْ حَدا شافُو...
بِيتَعِّبْنِي وْبِينَكِّدْلِي العِيشِي
وْدِينِي بَكّانِي، وَاللهْ بْكِيتْ!»

هِيَ الحَرْبُ إذَنْ، لا مَدافِعَ فِيها وَلا راجِمات. فَإنَّما يَكْفِي مَنْظَرُ الخَصْمِ لِتَقَعَ الهَزِيمة. وَمَنْظَرُ الخَصْمِ مَنْظَرُ واجِهةٍ لا تُخْرَق. فَهُوَ أَشْبَهُ بِالحُصْنِ يَحْجِبُهُ ساتِرٌ هائِلُ الصَفاقةِ مِنْ مُكَعَّباتِ الإسْمَنْتِ وَأَكْياسِ الرَمْل. وَأَمّا الهَزِيمةُ فَما هِيَ غَيْرَ خَيْبةِ الجُهْدِ لِحَمْلِ الخَصْمِ عَلى تَقَبُّلِ غايةٍ مُشْتَرَكةٍ لِلْكَلامِ، أَوَّلًا، وَلِحَمْلِهِ، ثانِيًا، عَلى اعْتِمادِ مُصْطَلَحٍ لِلْكَلامِ وَمَسالِكَ وَقَواعِدَ لِتَداوُلِ الكَلامِ تُفْضِي بِهِ إلى هَذِهِ الغايةِ لا إلى غَيْرِها وَلا إلى ضِدِّها.

الفِعْلُ الناقِصُ وَفِعْلُ القَوْل

وَمِنْ وُجُوهِ العِيِّ أَيْضًا أَنَّ زِياد، إذْ يُحاوِلُ تَعْيِينَ مَعالِمَ بارِزةٍ لِفَقْرِ الكَلامِ اللُبْنانِيِّ، لا يَجِدُ أَمْثَلَ مِن الأَفْعالِ الناقِصةِ، وَخُصُوصًا مِنْها "كانَ" وَ"صارَ". وَهِيَ أَفْعالٌ يَسَعُها أَنْ تَكُونَ تامّةً أَيْضًا فَلا يَزْدادُ مَدْلُولُها غِنًى أَوْ تَعْيِينًا. يُنْشِئُ زِياد أَوْ يَسْتَعِيدُ تَراكِيبَ تَتَكَرَّرُ فِيها هَذِهِ الأَفْعالُ وَتَطْغى. وَمِنْ قَبِيلِ ذَلِكَ «مِشْ كايِنْ هَيْك تْكُونْ» وَ«رَيْتُو عُمْرُو ما يْكُونْ» وَ«ما بَعْرِفْ شُو صايِرْلَكْ»... وَيُضافُ إلى تَكْرارِ الأَفْعالِ الناقِصةِ تَكْرارُ أَفْعالِ القَوْلِ مِنْ قَبِيلِ «قالْ» وَ«حَكى» وَ«خَبَّرْ». وَهَذِهِ أَفْعالٌ لا تَقِلُّ نَقْصًا عَنْ سابِقَتِها. هِيَ مُتَعَدِّيةٌ تَحْتاجُ إلى مَفْعُول. وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ المَفْعُولُ الذِي تَحْتاجُ إلَيْهِ مَفْعُولًا لا كَالمَفاعِيل. فَأَنْتَ إذا قُلْتَ: «أَكَلَ حَسَن» كَفاكَ أَنْ تُضِيفَ التَفّاحةَ إلى الجُمْلةِ لِيَتِمَّ المَعْنى وَإنْ لَمْ يَشْبَعْ حَسَن. وَأَمّا إذا قُلْتَ: «قالَ حَسَن» فَسَتَجِدُ نَفْسَكَ، عَلى الفَوْرَ، تَحْتَ رَحْمةِ حَسَنْ الذِي يُمْكِنُ أن يَحْتاجَ إلى يَوْمَيْنِ لِيَقُولَ ما عِنْدَه. لِذا صَحَّ أَنْ نَعْتَبِرَ أَفْعالَ القَوْل، بِحَدِّ ذاتِها، بَيْنَ أَفْقَرِ أَفْعالِ اللُغةِ مَدْلُولًا... فَيَتَنَوَّعُ مَدْلُولُها وَيَتَشَعَّبُ، بِحَسَبِ

المَفاعِيلِ، إلى غَيْرِ نِهاية. وَقَدْ يَكُونُ مَفْعُولُ فِعْلِ القَوْلِ، عِنْدَ زِياد، ظاهِرًا وَمَحْصُورًا: «اشْتَقْتِلَّكْ» أَو «اشْتَقْتِلّي» مَثَلًا. فَيَتَكَرَّرُ فِي جُمَلٍ مِنْ قَبِيلِ: «اشْتَقْتِلَّكْ، اشْتَقْتِلّي... بَعْرِفُ مِشْ رَحْ بِتْقِلّي»، وَ«طَيِّبْ مِشْ قُصّة ما تْقِلّي» وَ «طَيِّبْ أَنا عَمْ قِلَّكْ». وَقَدْ يَبْقى المَفْعُولُ مُقَدَّرًا وَعامًّا، مِنْ قَبِيلِ «بْتِحْكي وْبِتْصِيرْ ما بْتِسْمَعْ». وَفِي الحالَتَيْنِ (وَفِي حالةِ الأَفْعالِ الناقِصةِ أَيْضًا)، نَجِدُنا أَمامَ نِزاعٍ أَوْ خَيْبةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ يَأْسٍ ضَمَرَتْ مَلَـكَةُ التَعْبِيرِ عَنْها إلى أَدْنى حُدُودِها وَاقْتُصِرَ زادُها عَلى المُدْقِعِ مِن الأَلْفاظ. وَيَتَكَرَّرُ فِعْلُ «فَهِمَ» أَيْضًا مَعَ أَفْعالِ القَوْلِ وَلَـكِنْ لِيُعْلِنَ أَنَّ القَوْلَ لا يُصادِفُ فَهْمًا وَأَنَّ هَذا الأَمْرَ إنَّما هُوَ صُورةُ النِزاعِ وَالخَيْبةِ وَما إلَيْهِما، أَوْ هُوَ أَوَّلُ مَلامِحِ الصُورةِ، عَلى الأَقَلّ.

تَبْقى الجُمَلُ مَفْتُوحةً، طَبْعًا، أَمامَ مُخَيِّلةِ السامِع. فَيَسَعُهُ أَنْ يُودِعَ فِي «مِشْ كايِنْ هَيْك تْكُونْ» أَوْ فِي «ما بَعْرِفْ شُو صايِرْلَكْ» حِكاياتٍ وَرِوايات. وَيَسَعُهُ أَنْ يُودِعَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي «بَعْرِفْ مِشْ رَحْ بِتْقِلّي» وَحَتّى فِي «قالْ عَمْ بِيقُولُو صارْ عِنْدَك وْلادْ». وَذاكَ أَنَّ القِراءةَ فِي الغُيومِ مُمْكِنةٌ لِمَنْ شاء. وَأَمّا فَضْلُ الغُيُومِ فِي إمْكانِها فَيَبْقى مَحَلَّ نِقاش.

بَيْنَ الحُبْسةِ وَالإِفْراط

أَعُودُ إلى العِيِّ وَالحُبْسة. هَذانِ قَدْ يَتَّخِذانِ أَيْضًا، عِنْدَ زِياد، صُورةَ الإِفْراطِ فِي دَفْقِ الأَلْفاظِ وَالإِيقاعِ السَرِيعِ لِتَتابُعِها. قَدْ أَذْهَبُ لِبَيانِ هَذا الأَمْرِ إلى أَغانٍ ذَكَرْتُها دَلِيلًا عَلى ضِدِّهِ: إلى «اشْتَقْتِلَّكْ»، مَثَلًا، أَوْ إلى «مِشْ كايِنْ هَيْك تْكُونْ». فَفِي الأُولى صَفٌّ طَوِيلٌ مِن المَواقِفِ وَالعَواطِفِ: عَمَلُ الزَمانِ

وَحُصُولُ النِسْيانِ، وَالغَلَطُ وَعَدَمُ المُواساةِ وَالإحْساسُ بِالعِلّةِ وَ«العِيشِي عَالهِلّي» وَالاسْتِفْقاد... وَالشَوْقُ، طَبْعًا. وَفِي الثانِيةِ رُكامٌ عَجِيبٌ مِن الأَشْياءِ الحِسِّيّةِ: الزَيْتُونُ وَالصابُونُ وَاللَيْمُونُ وَاليانِسُونُ وَالصالُونُ وَالبَلْكُونُ وَالكَمْيُونُ وَسائِرُ ما «يِخْلَصْ بِحَرْفِ النُونْ». فِي الحالَيْنِ، يَجْرِي عَرْضٌ لِحالةٍ طارِئةٍ عَلى عالَمٍ تَسْعى كَلِماتُ الأُغْنِيةِ إلى تَفْصِيلِه. وَهَذا العالَمُ، فِي الأُغْنِيةِ الأُولى، عالَمُ عَواطِفَ وَمَواقِفَ، وَهُوَ، فِي الثانِيةِ، عالَمُ أَشْياءٍ حِسِّية. فِي أُغْنِيةٍ ثالِثةٍ (ذَكَرْتُها أَيْضًا)، وَهِيَ «انْشاللهْ ما بُو شِي»، نَقَعُ عَلى حَشْدٍ غَيْرِ ضَئِيلٍ مِن البَشَر: عَلى المَشْكُو إلَيْهِ وَعَلى الشاكِيةِ وَصاحِبِها طَبْعًا، وَعَلى «جارُو» الآنِفِ الذِكْرِ، وَلَكِنْ أَيْضًا، عَلى «الدِكَّنْجِي» وَعَلى «اللِي بالأَوَّلْ» وَعَلى «أَهْلِ» الحَبِيبِ وَأَصْحابِهِ، أَخِيرًا. فِي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الحالاتِ، إذَنْ، تَتَبَدَّلُ المادّةُ التِي أُنْشِئَ مِنْها الدِيكُورُ وَيَتَغَيَّرُ مَعَها الحَقْلُ الذِي تُسْتَمَدُّ مِنْهُ الأَلْفاظ. يَتَّخِذُ الشَوْقُ المُضْطَرِبُ المَوْقِعِ مَوْقِعَهُ فِي قامُوسِ العَواطِفِ، وَيَجِدُ ذَواءُ الحُبِّ دِيوانَهُ فِي نُصُولِ أَلْوانِ العالَمِ وَضُمُورِ أَبْعادِهِ وَتَعَثُّرِ حَرَكاتِهِ، وَتُعَبِّرُ اللَهْفةُ عَنْ نَفْسِها فِي تَصَفُّحٍ لِإعْراضِ البَشَرِ عَنْ إغاثةِ المَلْهُوف. وَهَذا كُلُّهُ حَسَنٌ وَإنْ كانَ يَحْسُنُ بِنا أَنْ نَعُودَ إلى العِلّةِ المُحْتَمَلةِ لِمُلازَمةِ الهُزْءِ وَالضَحِكِ هَذا كُلَّه.

قَبْلَ ذَلِكَ، أُحِبُّ أَنْ أَذْهَبَ، لِاسْتِقْصاءِ الإفْراطِ اللَفْظِيِّ، بِما هُوَ أُسْلُوبُ مُواجَهةٍ مُرادِفٌ لِلعِيِّ عِنْدَ اللُبْنانِيِّينَ، إلى أُغْنِيةٍ أُخْرى هِيَ آيةُ آياتِ الإفْراطِ المَذْكُورِ، وَهِيَ «لا وَاللهْ». هَهُنا نَقَعُ عَلى امْرَأةٍ ذاتِ ثَرْوةٍ عَرِيضةٍ مِنْ مُفْرَداتِ الكَلامِ وَتَراكِيبِهِ وَمَوْهِبةٍ فَذّةٍ فِي إطْلاقِهِ بِسُرْعةٍ وَقُوّة. وَأَمّا المَدارُ الأَوَّلُ لِكَلامِها (وَهُوَ كَلامُ احْتِجاجٍ وَتَعْنِيفٍ) فَهُوَ، عَلى وَجْهِ الدِقّةِ، أَنَّ حَبِيبَها

الذي تُخاطِبُهُ يُضارِعُها ثَرْوةً وَمَوْهِبةً فِي المِضْمارِ نَفْسِهِ: مِضْمارِ الكَلام. بَلْ إنَّهُ لا يَمْلِكُ غَيْرَ هَذِهِ الثَرْوَةِ إذْ إنَّ مَوْضُوعَ البَيْتِ وَتَأْثِيثِهُ ما يَزالُ مُعَلَّقًا. وَخُلاصةُ المُبارَزةِ (التِي نَسْمَعُ مِنْ طَرَفَيْها طَرَفًا واحِدًا) أَنَّ «الحَبِيبةَ» تُرِيدُ أَنْ «تَأْكُلَ رَاسَ» الحَبِيبِ الذِي يُواظِبُ بِدَوْرِهِ عَلى «أَكْلِ راسِها»:

«كِلْمِة كِلْمِة يا حَبِيبِي تا إفْهَمْ عَلَيْك
أَوْ فَتِّـشْ عَنْ غَيْرِي يِفْهَمْ إذا رَحْ تِبْقى هَيْك
يْكُون بْيِحْكِي بْسِرْعَة قَدَّكْ ما يِسْمَعْ عَلَيْك
بِتْشارِعْ ضَيْعة يا حَبِيبِي وْما بْتِقْدَرْ عَلَيْك
بَدَّكْ دَوْلِة أَوْ شِي أُمِّة أَوْ أَكْبَرْ مِنْ هَيْك
يِمْكِنْ كَوْكَبْ أَوْ شِي أَكْبَرْ تا يِسْتَوْعِبْ لَيْك!».

وَلْأَتَجاوَزْ هُنا عَنْ سَطْرَيْنِ (سَأَعُودُ إلَيْهِما) مِنْ كَلِماتِ الأُغْنِيةِ لِأَصِلَ إلى خِتامِ هَذا المَقْطَعِ الذِي نَنْتَقِلُ بَعْدَهُ إلى قِسْمٍ آخَرَ مِن الأُغْنِيةِ يُصْبِحُ فِيهِ البَيْتُ وَالفُلُوسُ (لا الكَلامُ نَفْسُهُ) مَدارًا لِلْكَلام. خِتامُ المَقْطَعِ إذَنْ:

«بْتِحْكِي فَوقِي وْبِحْكِي فَوْقَكْ شُو رَحْ نِسْتَفِيدْ؟
صَدِّقْنِي يَوْمًا عَنْ يَوْمٍ حَكْيَكْ عَمْ بِيزِيدْ
بِتْقِلِّي بِتْضَلِّي تْعِيدِي وْإنْتَ العَم تْعِيدْ
وِمْأَكَّدْ دايْمًا مِنْ كِلّ شِي وْما فِي شِي أَكِيدْ!».

هَذِهِ «الحَرْبُ الصَغِيرةُ» تَـكْشَحُ، أَوَّلًا، كُلَّ أَثَرٍ لِصُورةِ السَعادةِ البُطُولِيّةِ التِي تَفْتَرِض تَرْبِيةٌ تَزْعُمُ لنَفْسِها الشُيُوعَ عِنْدَنا أَنَّ اقْتِرانَ الحُبِّ بِالفَقْرِ يَفْتَحُ أَمامَ الزَوْجَيْنِ المُتَحابَّيْنِ أَبْوابَها (وَهِيَ نَفْسُها أَبْوابُ الكِفاحِ الصَعْبِ لِـ«تَحْقِيقِ الطُمُوحِ» أَوْ «لِلْقَناعةِ بِالمَقْسُومِ»، عَلى الأَقَلّ). لا أَثَرَ لِلْقَناعةِ هَهُنا وَلا أَمَلَ يُواكِبُ الطُمُوح. وَلا تُشَنُّ الحَرْبُ عَلى خَصْمٍ ما يَعْتَرِضُ طَرِيقَ الحَبِيبَيْنِ، بَلْ

تَدُورُ الحَرْبُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ نُخَمِّنُ أَنَّ عُمْرَ الحُبِّ فِي بَيْتِهِما كانَ قَصِيرًا. وَأَهَمُّ ما يَقُولُهُ الكَلامُ الكَثِيرُ مِن الجِهَتَيْنِ أَنَّهُ كَلامٌ لا طائِلَ تَحْتَهُ وَلا هُوَ مَفْهُومٌ أَصْلًا وَلا هُوَ يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ سُوءِ الحال. يَرُدُّنا هَذا، مِنْ بابٍ آخَر، إلى مَسْأَلَةِ العِيِّ وَالحُبْسةِ. فَهَذانِ لا تُعالِجُهُما كَثْرةُ الكَلامِ، بِحَدِّ ذاتِها. وَسَواءٌ أَكُنّا أَمامَ الذِي «بْيِحْكِي بَيْن شْفافُو وْبِيجاوِبْ بِكْتافُو» أَمْ أَمامَ الذِي «بِيشارِعْ ضَيْعة»، بِدايةً، لِيَنْتَهِي إلى مُشارَعةِ الكَوْكَبِ أَوْ ما أَصْبَحْنا نُسَمِّيهِ، بَعْدَ ماكْ لُوهانْ، «الضَيْعةَ الكَوْكَبِيّةَ»، فنَحْنُ أَمامَ انْسِجامٍ مَفْقُودٍ أَوْ نِزاعٍ مَفْتُوحٍ، وَبَيْنَنا وَبَيْنَ «التَفاهُمِ» (وَلْنُسَمِّهِ «التَوافُقَ»، إنْ شِئْنا، وَلْنُسَمِّهِ «الحِوارَ») عَرْضُ السَمَواتِ وَالأَرْض. ما الذِي يَجْعَلُ الحِوارَ سَرابًا؟ إنَّها الحَبْكةُ المُحْكَمةُ حَبَكَها كُلٌّ لِنَفْسِهِ وَحَبَسَ فِيها نَفْسَهُ وَحَبَسَ غَرِيمَهُ أَوْ شَرِيكَهُ فِيها أَيْضًا. هَذِهِ الحَبْكةُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَبْكَةَ الزَوْجةِ أَو الزَوْجِ لِما يَراه (أَوْ تَراهُ) صُورةً لِمُسْتَقْبَلِ البَيْت. وَيُمْكِنُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ رِوايةً لِتارِيخِ البِلادِ أَوْ تَصَوُّرًا لِمَبانِي نِظامِها الاجْتِماعِيِّ السِياسِيِّ وَلَخَطِّ سُلُوكِها فِي مَسائِلِ المَصِير. فِي هَذِهِ الأَحْوالِ جَمِيعًا يَسْتَوِي «الحَكْي بَيْن الشْفافْ» وَ«المْشارَعة» التِي يَعْلُو فِيها الصَوْتُ وَيَكْثُرُ الكَلامُ مُمْسِكًا بِتَلابِيبِ بَعْضِهِ بَعْضًا بِحَيْثُ لا يَتَمَيَّزُ وَلا يُفْهَم. فِي الحالَيْنِ، فِي البِلادِ وَفِي البَيْتِ، يَكْثُرُ أَنْ تَبْدُوَ القُدْرةُ عَلى الكَلامِ مُرادِفةً لِلْعَجْزِ عَنْهُ أَوْ لِكِتْمانِه.

وَلَكِنْ «شُو بَدِّي بِالبِلادْ» عَلى ما يَقُولُ زِياد، بِصَوْتِ فَيْرُوز، فِي أُغْنِيةٍ أُخْرى. وَ«خَلِّينا بِالبَيْتْ»، عَلى ما تَأْمُرُ فَيْرُوز فِي أُغْنِيةٍ كَتَبَ كَلامَها جُوزِفْ حَرْب. إذا صَحَّ أَنَّ الكَلامَ القَيِّمَ لا يَسْتَغْنِي عَنْ نَقْضِ كَلامٍ سَبَقَهُ (مِنْ قَبِيلِ أَنَّ «الإِسْلامَ يَجِبُّ ما قَبْلَهُ»، فِي رَأْيِ ذَوِي مِلَّتِهِ) فَأَيُّ كَلامٍ هُوَ ذاكَ الذِي تَنْقُضُهُ

فَيْرُوز وَهِيَ تُغَنِّي كَلامَ زِياد؟ مَرّةً أُخْرى، يُوَفـِّرُ عَلَيْنا زِياد نَفْسُهُ عَناءَ البَحْث. «ما تِبْحَثُو... ما تِبْحَثُو»، تَقُولُ فَيْرُوز فِي «سَلـِّمْلِي عَلِيهْ!». أمْرُكِ سَيِّدَتِي! لَنْ نَبْحَثَ!... فِي «لا وَاللهْ» التِي وَقَفْتُ مَعَ نَصِّها طَوِيلًا، تَشْدُو فَيْرُوز بِمَطْلعِ أُغْنِيَتِها القَدِيمة: «يارَيْتْ! إنْتِ وْأَنا بِالبَيْت!» ثُمَّ تَسْتَدْرِكُ عَلى الفَوْرِ:

«بَسْ كِلْ واحِدْ بِبَيْتْ!

فِعْلًا حِلْوِي هالغِنِّيِّة بَسْ جَدّ انْسَمَّيْتْ!».

وَهَذِهِ الإلْماحاتُ الهازِئةُ إلى قَدِيمِ فَيْرُوز تـَتَكَرَّرُ فِي ما تُغَنِّيهِ مِنْ كَلِماتِ زِياد. مِنْ «كِيفْ طَلّ الوَرْدْ بْشِبّاكِي مَعْ إنُّو ما دَقَّيْتْ!»، فِي الأُغْنِيةِ نَفْسِها، إلى «مِشْ سامِعْ غِنِّيةْ راحُوا؟» فَإلى

«كاينْ راقِي وْحَنُونْ

أَوْ مايِلْ عالغُصُونْ»

فِي أُغْنِيةِ «مِشْ كاينْ هَيْك تْكُونْ!»، إلخ.

الرُومَنْسِيّةُ وَوَجْهُ الآب

فَمِنْ يَوْمِ أَنْ وَضَعَ زِياد مَسْرَحِيَّتَهُ «شِي فاشِلْ»، وَأَخْرَجَها وَعَرَضَها عَلى خَشَبةِ مَسْرَحِ جانّ دارْك، فِي سَنةِ ١٩٨٣، لَمْ يَتْعَبْ مِنْ مَناكَدةِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَعَمِّه. وَهُوَ «يَمُونُ»، بِطَبِيعةِ الحال. فمَوْقِعُهُ لا يُشْبِهُ فِي شَيْءٍ مَوْقِعَ أَيِّ «إنْسانةٍ» «تِمْرُقْ وْتِفْرُقْ وتْصِيرْ تْمُونْ»! فَإنَّما هُوَ، مَعَ فَيْرُوز وَالرَحْبانِيَّيْنِ، فِي بَيْتِهِ، وَهَذا هُوَ عالَمُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، لا رَيْبَ، وَقَدْ كَرَّسَ حَياتَهُ، بِما هُوَ فَنّانٌ، لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذا العالَمِ وَعَلَيْهِ، وَهُوَ حُرٌّ فِي ذَلِكَ... بَلْ إنَّ هَذا الخُروجَ هُوَ حُرِّيَتُهُ عَيْنُها وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْتَرِحَ عَلَيْهِ غَيْرَها.

وَمَأْخَذُ زِياد عَلى عالَمِ الرَحْبانِيَّيْنِ أَنَّ أَصْداءَ العالَمِ الذِي نَرُوحُ فِيهِ وَنَغْدُو وَنَتَعايَشُ وَنَتَنازَعُ، يَفُوتُهُ أَهَمُّها. فَهُوَ لا يَصْلُحُ، بِالتالِي، مَرْجِعًا يَرُدُّ إِلَيْنا، بِلُغةٍ أُخْرى خاصّةٍ، عالَمَنا الذِي نَحْنُ فِيهِ فَيُسْعِفُنا فِي إِدْراكِهِ حَقًّا وَقَدْ يُسْعِفُنا فِي تَغْيِيرِه. وَلَـكِنْ ما هُوَ عالَمُ الأَخَوَيْن رَحْبانِي؟ إِنَّهُ، بِالعِبارةِ الوَجِيزةِ، عالَمُ الرُومَنْسِيّة. تُوجَدُ «أَنا»، هِيَ حِينًا لِجَماعةٍ وَأَحْيانًا لِفَرْدٍ، تَفْرِضُ نَفْسَها بُؤْرةً لِهَذا العالَمِ وَتَرْتَجِلُ لَها مُخَيِّلَتُها أَوْ عَزِيمَتُها حَقًّا فِي تَسْخِيرِهِ وَإِلْحاقِهِ بِها، بِسائِرِ مُكَوِّناتِهِ: مِن العُشْبةِ الطَفِيفةِ إِلى المَجَرَّةِ، وَمِن العِنايةِ الإِلَهِيَّةِ إِلى العَفارِيتِ الصَغِيرةِ الداجِنةِ، المُقِيمةِ فِي الجِوارِ وَالمُسْتَعِدّةِ دائِمًا لِلْأَخْذِ وَالعَطاءِ... فَإِلى الشَياطِينِ الكَبِيرةِ القابِلةِ، بِثَمَنٍ ما، لِلْإِقْصاءِ إِلى كُهُوفِها البَعِيدةِ، وَلَوْ بَعْدَ حِين... عَلَيْهِ تَمْلِكُ الأَنا أَنْ تَسْتَرِدَّ تَوازُنَها كُلَّما اخْتَلّ. هِيَ تَسْتَرِدُّهُ حَتّى مِن المَوْتِ الذِي هُوَ شَهادةٌ، عِنْدَ الرَحْبانِيَّيْنِ، أَيْ تَرِكةٌ باقِيةٌ واسْتِثْمارٌ مَضْمُونٌ، أَوْ هُوَ، عَلى الأَقَلّ، مُوَلِّدٌ، بِتَوَسُّطِ الأَلَمِ وَفِي ما يَتَعَدّاهُ، لِلرِقَّةِ البَدِيعةِ وَلِلاعْتِبارِ الثَرِّ فِي نُفُوسِ الأَحْياء. وَقَدْ كانَ طَلال حَيْدَر، لا عاصِي وَمَنْصُور الرَحْبانِي، هُوَ مَنْ أَجْرى، بِصَوْتِ فَيْرُوز وَتَلْحِينِ زِياد، كَلامَ اللارَجْعةِ وَوَحْشةِ المَوْتِ الذِئْبِيّةِ وَالزَمَنِ الذِي يَعْصِي عَلى التَرْتِيبِ وَلا يُرَدُّ مِنْهُ طَرَفٌ عَلى طَرَف:

«يا زَمانْ!
يا عِشْبْ داشِرْ فَوْقْ هالحِيطانْ
(...)
يارايْحِين التَلْجْ!
ما عادْ بَدْكُنْ تِرْجَعُوا!
صَوِّتْ عَلَيْهُنْ بِالشِتِي، يا دِيبْ!
بَرْكِي بْيِسْمَعُوا!».

الرِيفُ الداخِلِيّ

وَإذا كانَت الرُومَنْسِيّةُ آلةً لِإنْتاجِ هَذا العالَمِ، فَإِنَّ الرِيفَ اللُبْنانِيَّ، بِمَعالِمِهِ المَطْبُوعةِ وَالمَصْنُوعةِ وَبِأَهْلِهِ، كانَ المَسْرَحَ الأَوَّلَ (وَبَقِيَ الأَهَمَّ، وَإنْ يَكُنْ تَوَسَّعَ لاحِقًا) لِاسْتِعْراضِ العالَمِ نَفْسِهِ فِي فَنِّ الرَحْبانِيَّيْنِ، أَوْ لِاسْتِعْراضِ صُورةٍ مُرَكَّبةٍ لَهُ، بِالأَحْرى. أَقُولُ: صُورةٌ مُرَكَّبةٌ لِأَنَّ هَذا العالَمَ لَمْ يَكُنْ قائِمًا عَلى الصُورةِ الرَحْبانِيّةِ، فِي عَهْدٍ مِن العُهُودِ، وَلِأَنَّهُ كَفَّ عَن الشَبَهِ بِنَفْسِهِ وَضَؤُلَ حُضُورُهُ فِي نَفْسِهِ فِي زَمَنٍ لَمْ يُدْرِكْهُ الرَحْبانِيّانِ، فِي كُلِّ حال. فَقَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ، تَقْرِيبًا، مِن الوَقْتِ الذِي وُلِدَ فِيهِ الرَحْبانِيّانِ، كانَ الخُورِي يُوسُف تاتِي يُباشِرُ جَمْعَ ما تَيَسَّرَ مِنْ تَقالِيدِ رِيفِنا الجَبَلِيِّ(*)، مُنَبِّهًا إلى أَنَّ هَذِهِ التَقالِيدَ، إنْ لَمْ تُجْمَعْ ضاعَتْ لا مَحالَة. وَفِي أَواسِطِ الخَمْسِيناتِ، أَيْ حَوالَي الوَقْتِ الذِي الْتَقى فِيهِ الرَحْبانِيّانِ نُهاد حَدّاد، نَشَرَ أَنِيس فُرَيْحة كِتابًا لَهُ تَحْتَ عُنْوانٍ: **القَرْيةُ اللُبْنانِيّةُ: حَضارةٌ فِي طَرِيقِ الزَوال**(**). وَفِي مَطْلَعِ السَبْعِيناتِ، أَيْ بُعَيْدَ أَنْ كانَتْ «دَبْكةْ لِبْنانْ عالمَلْقى» قَدْ هَزَّتْ مَعْبَدَ جُوبِيتِير مِنْ أَرْكانِهِ، اسْتَأْنَفَ سَلام الراسِي مُهِمّةَ إنْقاذِ التَقالِيدِ نَفْسَها فَنَشَرَ، وَهُوَ فِي سِنٍّ مُتَقَدِّمةٍ نِسْبِيًّا، كِتابهُ الأَوَّلَ:" **لِئَلّا تَضِيع**(***). كانَتْ هَذِهِ التَقالِيدُ وَلَمْ تَزَلْ، عَلى الأَرْجَحِ، لا تَفْرُغُ مِنْ ضَياعِها. وَكانَ التَقْلِيدُ اخْتِراعًا لِلتَقْلِيدِ، عَلى ما يُشِيرُ إلَيْهِ فَوّاز طَرابُلُسِي(****) مُقْتَفِيًا أَثَرَ أَرِيك هُوبْسْبُوم. فَإِنَّ رِيفَ التَقالِيدِ، بِما فِي ذَلِكَ طَبِيعَتُهُ، عالَمٌ داخِلِيٌّ بِالدَرَجةِ الأُولى. وَلَوْلا

(*) الأَبُ يوسُف تاتِي، «العَوائِدُ اللُبْنانِيّة» فِي **المَشْرِق**، مج ٢ (١٨٩٩)، ج ١ وَما يَلِيه.

(**) ط١: بَيْرُوت ١٩٥٧.

(***) ط١: بَيْرُوت ل. ت. (حَوالَيْ ١٩٧٠).

(****) فَوّاز طَرابُلُسِي، **فَيْرُوز وَالرَحابِنة: مَسْرَحُ الغَرِيبِ وَالكَنْزِ وَالأُعْجُوبة**، بَيْرُوت ٢٠٠٦، ص ١٨-١٩.

أَنَّ الطَبيعةَ يَسَعُها أَنْ تَـكُونَ عالَمًا داخِليًّا، لَـكانَتْ أَجَلُّ النُجُومِ أَتْفَهَ، فِي إِدْراكِ البَشَرِ، مِنْ مَصابِيحِ السَيّارات.

وَعَلى غِرارِ القَوْلِ: «فَلَكُ ما تَحْتَ القَمَرِ»، نَقُولُ إنَّ ذَلِكَ العالَمِ كانَ، بِعُجَرِهِ وَبُجَرِهِ، «عالَمَ ما تَحْتَ السَيْطَرة». وَلَقَدْ أَوْضَحَ فَوّاز طَرابُلُسِي(*) مَجْرى الأُمُوُرِ، فِي العالَمِ الرَحْبانِيِّ، بِقَرْيَتِهِ وَمَدِينَتِهِ وَدَوْلَتِهِ، إيضاحًا لَيْسَ وَراءَهُ مَزِيد. يَقَعُ النِزاعُ وَلَـكِنَّ الصُلْحَ وَالنَهْضةَ التِي تَلِي الوِئامَ آتِيانِ، لا مَحالة. يَرْزَحُونَ عَلى صُدُورِنا فَنُقَدِّمُ الشُهَداءَ وَنُزِيحُهُم. وَيَكُونُ العَدْلُ سِلاحًا لِلضَعِيفِ فَيَنالُ مِنْ جَبَرُوتِ السُلْطة. إلخ.، إلخ. وَفِي مِضْمارِ الحُبِّ وَأمانِي اللِقاءِ وَلَوْعةِ الفِراقِ المَحْتُومِ، وَهُوَ مِضْمارٌ لِلْأَفْرادِ، أَيُّ نَصٍّ يَفُوقُ الأُغْنِية التِي تُعَلِّقُ عَلَيْها فَيْرُوز، بِلِسانِ زِياد، قائِلةً: «فِعْلًا حِلْوِي هَالغِنِّيِّي، بَسْ جَدّ انْسَمَّيْت»؟... أَيُّ نَصٍّ يَفُوقُ هَذِهِ الأُغْنِيةَ فِي تَسْخِيرِ قُوى الطَبِيعةِ وَظواهِرِها لِكَبْحِ الزَمَنِ الذِي يَذْهَبُ بِالسَعادة؟

«يارَيْتْ!
إنْتِ وْأَنا بِالبَيْتْ،
شِي بَيْتْ أَبْعَدْ بَيْتْ،
مِمْحِي وَرا حْدُود العَتْمْ وِالرِيحْ،
وِالتَلْجْ نازِلْ بِالدِنِي تِجْرِيحْ،
يْضَيِّعْ طَرِيقَكْ ما تْعُود تْفِلّ
وِتْضَلّ حَدِّي تْضَلّ حَدِّي تْضَلّ
وْما يْضَلّ بِالقَنْدِيلْ نُقْطةْ زَيْتْ!»

(*) طَرابُلُسي، م م، فُصُولٌ مُخْتَلِفةٌ مِن الكِتاب.

مَعْنَيانِ لِلْهَواء

يَتَّحِدُ سُوءُ الحالةِ الجَوِّيةِ، إذَنْ، وَسُوءُ المُواصَلاتِ وَغِيابُ النُورِ فِي نَشْرِ اللَحْظةِ ـ التِي هِيَ أُمْنِيةٌ ـ إلى مَدى الزَمَنِ كُلِّه. وَأَمّا لَوْ كانَ زِمامُ الأُغْنِيةِ فِي يَدِ زِياد لَفُقِدَ الأَمَلُ فِي أَنْ تَقُولَ الأُغْنِيةُ: «وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم». لَكانَت الحَبِيبةُ لَفَتَتْ نَظَرَ مُتَيَّمِها إلى أَنَّ الطَرِيقَ مَقْطُوعةٌ وَالكَهْرَباءَ مَقْطُوعةٌ وَأنَّها طَلَبَتْ إلَيْهِ، مِنْ أَوَّلِ النَهارِ، جالُونَ كازٍ لِلْمَدْفَأةِ فَقالَ إنَّ النَهارَ صاحٍ وَدافِئٌ... وَها هُوَ الثَلْجُ يَمْلَأُ الوِدْيانَ وَلَيْسَ فِي قِنْدِيلِ الكازِ نَفْسِهِ نُقْطةُ كاز. وَأَمّا عَن المَوْقِدِ فَـ«جِب لْنا مَوْقَدِي مِن غْنانِي إمَّك». وَلَكانَ اشْتَعَلَ «النْقارْ» بِنُقْطةِ الكازِ تِلْكَ وَاسْتَذْكَرَ كُلٌّ مِن الطَرَفَيْنِ ما يَذْكُرُهُ، حَصْرًا، مِن القَراراتِ السابِقةِ ذاتِ الصِلةِ ثُمَّ ضاعَ المَوْضُوعُ بَيْنَ الصَوْتَيْنِ المَذْعُورَيْنِ... وَمالَ طَرَفٌ إلى جِهةِ العَوْلَمةِ وَالآخَرُ إلى جِهةِ العَوْلَمةِ البَدِيلةِ وَتَعَصَّبَ طَرَفٌ لِأَرْبَعةِ أَطْرافٍ إقْلِيمِيّةٍ، سَوِيّةً أَوْ عَلى التَوالِي، وَتَعَصَّبَ الآخَرُ لِطَرَفٍ لُبْنانِيٍّ واحِدٍ وَطَرَفٍ دُوَلِيٍّ واحِدٍ أَيْضًا، وَلَكانتْ الروايَتانِ المُحْكَمَتانِ دارَتا عَلى مِحْوَرَيْهِما المُتَوازِيَيْنِ طِيلةَ اللَيْل:

«بِتْقِلّي بِتْضَلّي تْعِيدي وْإنْتَ العَمْ تْعِيدْ».

سَيَنْسى الحَبِيبانِ خَطَرَ المَوْتِ، إذَنْ، فِي هَذا اللَيْلِ القُطْبِيِّ الطَوِيلِ... وَسَيَنْجُوانِ مِن المَوْتِ فَنَبْقى مَدِينِينَ بهَذِهِ النِهايةِ السَعِيدةِ لِغَلَيانِ الدَمِ فِي العُرُوق. هَؤُلاءِ هُمُ البَشَرُ، عِنْدُ زِياد، وَهَذِهِ هِيَ الطَبِيعةُ أَيْضًا. عِنْدَ عاصِي وَمَنْصُور، كانَتْ شَراسةُ الطَبِيعةِ نَفْسُها مُمْكِنةَ التَسْخِيرِ لِأَحْلامِ البَشَرِ، واقِفةً عَلى خِدْمةِ أَمانِيهِمْ أَوْ مُظْهِرةً لِجَلالِ سَعْيِهِمْ. عِنْدَ زِياد، يَكْفِي أَنْ يَظْهَرَ شَيْئانِ خَرَجا مِن الأَرْضِ لِيَظْهَرَ مَعَهُما التَنافُرُ بَيْنَ الناس:

«واحِدْ عَمْ ياكُلْ خَسّ
وْواحِدْ عَمْ ياكُلْ تِينْ!».

وَإذا كانَتْ فَيْرُوز قَدْ غَنَّتْ مَعَ عاصِي وَمَنْصُور:

«نَسَّمْ عَلَيْنا الهَوا
مِنْ مَفْرَق الوادِي
يا هَوا دَخْلِ الهَوا
خِذْنِي عَلى بْلادِي!»

فَهِيَ سَتُغَنِّي بَعْدَ زِياد:

«الهَوا، يا مْعَلِّمْ!
رَحْ يِسْفِقْنا الهَوا، يا مْعَلِّمْ!
الهَوا، يا مْعَلِّمْ!
لَوْ بِتْسَكِّرْ هالشِبّاك، يا مْعَلِّمْ!».

التَمْرِينُ السابِقُ (أَيْ تَخَيُّلِي ما قَدْ يَقُولُهُ زِياد وَصاحِبَتُهُ فِي بَيْتٍ مَعْزُولٍ تَحْتَ الثَلْجِ، وَدَعْنا مِمّا قَدْ يَفْعَلانِهِ) هُوَ، فِي كُلِّ حالٍ، «شِي فاشِلْ» بِما هُوَ تَمْرِينٌ عَلى الكِتابةِ الزِيادِيّة. فَإنَّ رَأْسَ شُرُوطِ الأَخِيرةِ، فَضْلًا عَن المَوْهِبةِ، أَنْ تَكُونَ عامِّيّةً وَأَنْ يَتَخَلَّلَها، بَيْنَ الحِينِ وَالحِينِ، عَزْلٌ لِعِبارةٍ فَصِيحةٍ يُحَوِّلُ هَذِهِ العِبارةَ، فِي السِياقِ، إلى فَضِيحةٍ كَلامِيّة. وَهَذا نَفْسُهُ ما يَفْعَلُهُ زِياد بِعِباراتٍ مِنْ أَغانٍ قَدِيمةٍ لِفَيْرُوز. فَإنَّ شِعْرَ الرَحْبانِيَّيْنِ فَصِيحُ التَشْكِيلِ جِدًّا وَإنْ يَكُنْ عامِّيَّ اللَهْجةِ بِمُعْظَمِه. وَهُوَ ابْنُ نَظْرةٍ صَرِيحةٍ هادِفةٍ فِي ما عَلَيْهِ العالَمُ وَفِي ما يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْه. قَدْ لا تُوجَدُ «لَمْبةٌ» فِي شِعْرِ الرَحْبانِيَّيْنِ كُلِّهِ وَيَصْعُبُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِ غَسّالةٌ ما لَمْ تَكُنْ مِنْ لَحْمٍ وَدَم. وَقَدْ يَنْطَفِئُ أَلْفُ قِنْدِيلٍ أَوْ سِراجٍ فِي ما تُغَنِّيهِ

فَيْرُوز مِنْ شِعْرِهِما وَلا تَنْقَطِعُ الكَهْرَباءُ مَرّةً واحِدة. وَأَمّا زِياد فَأَحالَ «بْرِيزْ أَبُو وِئام» إلى شَخْصٍ مِنْ شُخُوصِ مَسْرَحِهِ وَ«بَطَلٍ» مِنْ «أَبْطالِ» الحَرْبِ اللُبْنانِيّة. وَهُوَ قَدْ عَمَدَ إلى الآلِيّاتِ السَيّارةِ مِن البُوسْطةِ (وهَذِهِ قَدْ لا يُمانِعُ فِي تَبَنِّيها عاصِي وَمَنْصُور) إلى «الكَمْيُون المَوْزُونْ» وَقَبْلَهُ «السِيتِرْن»، فَأَعادَها إلى الغِناءِ أَوْ دَفَعَها إلى المَسْرَح... وَكانَتْ قَدْ غابَتْ، تَقْرِيبًا، عَلى ما أُرَجِّحُ، بَعْدَ «يا وابُورْ قُلّـي» وَ «وَقِّفْ خُدْنِي بِأُوتُومْبِيلَكْ»، أَيْ بَعْدَ أَنْ اكْتَمَلَ دُخُولُها فِي نَسِيجِ طُرُقاتِنا وَمَسالِكِ حياتِنا اليَوْمِيّة.

«كانَ بِهِ»

هَذا وَلا تُوجَدُ شَهْوةٌ فِي شِعْرِ الأَخَوَيْنِ رَحْبانِي لِأَنَّ سُمُوَّ المُعْجَمِ الشِعْرِيِّ لا يَتْرُكُ مِنْها شَيْئًا وَيَرُدُّها غَيْرَ ما هِيَ. وَأَمّا زِياد فَهُوَ لا يَتَوَرَّعُ عَن النُزُولِ إلى ما دُونَ اللُغَة. وَقَدْ كُنْتُ تَجاوَزْتُ عَنْ سَطْرَيْنِ مِنْ أُغْنِيةِ «لا وَالله» وَجاءتْ مُناسَبَتُهُما الآن:

«وْلَكْ بَسّ هُوهْ هايْ وَيْنْ... بْعِلْمِي العَقْل كْبِيرْ!
مِشْ سَمّ وْهَمّ وْغَمّ وْذَمّ وْقَدْحْ وْتِشْهِيرْ!».

نُزُولٌ إلى ما دُونَ اللُغةِ إذَنْ... إلى مُجَرَّدِ التَنْوِيعِ عَلى الصِياحِ وَعَلى حُرُوفِ الزَجْرِ، وَهَذا فِي السَطْرِ الأَوَّل. يَلِي ذَلِكَ، فِي السَطْرِ الثانِي، إفْراطٌ مُعْجَمِيٌّ... وَسَأَعُودُ إلى كِلَيْهِما. وَفي ما خَصَّ الشَهْوةَ، لا نَقَعُ عِنْدَ زِياد أَيْضًا عَلى ما يُوحِي بِالمَيْلِ إلى اتِّخاذِها مَوْضُوعًا قائِمًا بِذاتِه. (أَتَخَيَّلُ أَنَّهُ لَوْ قَرَأَ هَذا النَصَّ لَقَصَّ عِبارةَ «قائِمًا بِذاتِهِ» وَوَضَعَها فِي

جَيْبِه). يَحْلُو لِزِياد ــ وَهُوَ عَلى المُنْزَلَقِ نَفْسِهِ إلى ما دُونَ اللُغةِ ــ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ كَلامِ الشَهْوةِ كِناياتٍ يُعَزِّزُ بِها بَلاغةَ كَلامِهِ فِي السِياسة:

«يا زَمانْ الطائِفيِّي
طائِفيِّي وْطائِفيكْ!
خَلِّي إيدَكْ عالهَوِيـِّي
شِدّ عْلَيْها قَدْ ما فِيكْ!».

لَيْسَ هَذا كَلامَ «أَزْعَرٍ» تَلْقاهُ فِي أَيِّ زُقاقٍ كان. هَذا كَلامُ أَزْعَرٍ ماكِر. ماكِرٍ أَيْ فَنّان. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الإشارةَ الفاجِرةَ في «طائِفيكْ» سَرِيعةُ العَدْوى، يَنْتَقِلُ مَفْعُولُها فَوْرًا إلى «الهَوِيِّي».. فَنَعُودُ غَيْرَ مُسْتَيْقِنِينَ مِن المَوْضِعِ الذِي يُرِيدُنا زِياد أَنْ نَشُدَّ عَلَيْه.

وَمِن القَبِيلِ نَفْسِه، أَنَّ زِياد عَلَّقَ، فِي أَوائِلِ الثَمانِينات، (إنْ لَمْ أُخْطِئ التَقْدِيرَ) إعْلاناتٍ مُرَبَّعةً عَلى أَعْمِدةِ الكَهْرَباءِ المَزْرُوعةِ فِي رَصِيفَيْ نَزْلةِ البِيكادِيلِّي (وَهُوَ المَسْرَحُ الذِي قَدَّمَ فِيهِ مَسْرَحِيّاتِهِ «الحَرْبِيّة»). كانَ الإعْلانُ إعْلانًا عَنْ مَسْرَحِيّةٍ لَمْ يُشاهِدْها أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَلا قَبْلَهُ، وَكانَ عُنْوانُها «كانَ بِهِ». وَأَوَّلُ ما تَنَبَّهْتُ إلَيْهِ، وَأَنا أَنْظُرُ إلى هَذا الإعْلانِ، أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فَكَّرْتُ قَطُّ، طَوالَ عَشَراتٍ مِن السِنِينِ مَضَتْ، فِي كَيْفِيّةِ تَكَوُّنِ هَذِهِ العِبارةِ وَتَلَبُّسِها المَعْنى الذِي لَها وَلا فِي إعْرابِها. فَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَكْرَ زِياد وَطَرافَتَهُ واقِعانِ هُنا بِالضَبْطِ: فِي هَذِهِ القُدْرةِ عَلى إقْلاقِ الكَلامِ المُسْتَقِرِّ فِينا... عَلى إزاحَتِهِ شَيْئًا ما عَنْ مُسْتَقَرِّهِ... وَعَلى إلْزامِنا الكَشْفَ عَنْ أَحْوالِهِ وَمُنْدَرَجاتِهِ وَذُيُولِه.

عَلى أَنَّنِي لَمّا طالَ الأمْرُ بِهَذا الإعْلانِ، لَعِبَ الفَأْرُ فِي عِبِّي (أَوْ دُونَ ذَلِكَ

بِقَلِيل). فَغادَرْتُ هَمَّ التَمْحِيصِ اللُغَوِيِّ وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ فِي إخْراجِ المَشْهَدِ كُلِّه. قُلْتُ: إنَّ تَعْلِيقَ هَذا الإعْلانِ عَلى الأَعْمِدةِ قَدْ يَكُونُ صُدْفةً مَحْضةً... وَلَـكِنْ... مَنْ يَضْمَنُ هَذا؟ مَنْ يَضْمَنُ لِي فِعْلًا ــ وَنَحْنُ مُعَلـَّقُونَ مِنْ أَعْوامٍ عَلى خَوازِيقِ الحَرْبِ ــ أَلّا يَكُونَ العَمُودُ هُوَ «اسْمَ كانَ» المَحْذُوفَ فِي العِبارة؟ فَيَكُونُ تَمامَها: «كانَ العَمُودُ بِهِ». وَيَكُونُ العَمُودُ قَدْ أَكْمَلَ العِبارةَ «بِشَخْصِهِ» عِوَضَ إكْمالِها بِاسْمِه. وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَ، بَعْدَ ذَلِكَ، عَن الضَمِيرِ المُتَّصِلِ فِي «بِهِ»: إلى مَنْ يَعُود؟ وَاسْتَبْعَدْتُ أَنْ يَكُونَ زِياد قَدْ خَصَّنِي شَخْصِيًّا بِواحِدٍ مِنْ تِلْكَ الأَعْمِدةِ، إذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَعْرِفةٌ (وَلا هِيَ حَصَلَتْ حَتّى اليَوْم). فَلَمْ يَبْقَ إلّا أَنْ أَفْتَرِضَ لِلْعِبارةِ تَتِمّةً أُخْرى بِحَيْثُ تُقْرَأُ: «مَنْ قَرَأَ هَذا الإعْلانَ كانَ العَمُودُ بِهِ». بَقِيتُ، بَعْدَ هَذِهِ الدَوْرةِ، مَعْنِيًّا بِالهاءِ فِي «بِهِ». فَقَدْ كُنْتُ قَرَأْتُ الإعْلانَ مِرارًا وَكانَ بِهِ! وَلَـكِنْ تَعَزَّيْتُ ــ شَأْنَ أَيِّ لُبْنانِيٍّ لا يَحْتَرِمُ نَفْسَهُ ــ بِأَنَّ العَمُودَ كانَ أَيْضًا بِـ «أَهْلِ الحَيِّ» جَمِيعًا وَزُوّارِهِ أَيْضًا، وَهُمْ قِطْعةٌ كَبِيرةٌ مِنْ شَعْبِنا... «شَعْبِنا العَنِيدِ» آنَذاكَ إلى الحَدِّ الذِي تَعْلَمُون.

أُودِيب وَنَقِيضُه

لَمْ تُغَنِّ فَيْرُوز «يا زَمان الطائِفِيِّ» وَلَمْ تُمَثِّلْ فِي مَسْرَحِيّةٍ ما لِزِياد. فَما مِنْ أَحَدٍ يَكْـتُبُ لِأُمِّهِ بَعْضَ ما كانَ يَكْتُبُهُ زِياد لِنَفْسِهِ أَوْ لِجُوزِف صَقْر مِن الأَغانِي. تِلْكَ أَغانِي ذُكُورٍ أَوَّلًا. وَكانَتْ فَيْرُوز قَدْ جاءَتْ إلى زِياد وَذَيْلُ ثَوْبِها تُراثٌ باذِخٌ تَجُرُّهُ. وَلَعَلَّهُ أَلْزَمَها نِصْفَ التِفاتةٍ فَأَلْقَتْ نَظْرةً فاحِصةً عَلى ذَيْلِ الثَوْبِ ذاكَ. وَلَـكِنْ لَمْ يَكُنْ لِزِياد أَنْ يَلِدَ أُمَّهُ خَلْقًا جَدِيدًا. وَكانَ يَكْفِيها تَضْحِيةً

أَنَّها رَبَّتْهُ هَذِهِ التَرْبِيةَ السَيِّئةَ لِيَكُونَ هَذا مِنْ حُسْنِ فَأْلِه وَفَأْلِنا. وَتَقُولُ زَوْجَتِي، ثانِيًا، إنَّ زِياد واحِدٌ مِنْ قِلَّةٍ بَيْنَنا اجْتازُوا «أُودِيبًا» مُوَفَّقًا. فَكانَ أَنَّهُ أَجْهَزَ عَلى أَبِيهِ، فَنِّيًّا، وَأَنْشَأَ مَعَ أُمِّهِ شَرِكةً رَمْزِيّةً مُتَغايِرةَ الطَرَفَيْن. وَتَزْعُمُ زَوْجَتِي، أَوَّلًا، أَنَّ السائِدَ فِي مُجْتَمَعاتِنا هُوَ «الأَنْتي ـ أُودِيب»... أَيْ أَنَّ الأَهْلَ يَأْكُلُونَ أَوْلادَهُمْ، عادةً، لِيُؤَمِّنُوا لأَنْفُسِهِمْ الاسْتِمْرارَ بِهَؤُلاءِ، عَلى غِرارِ القِطَط. لا أَتَقَبَّلُ، مِنْ جِهَتِي، المَسْؤُولِيّةَ عَنْ هَذا الرَأْيِ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ صِحَّتَهُ ــ إذا صَحَّ ــ لا تُسَهِّلُ طُرُقَ الحَياةِ لِلْقِلَّةِ وَلا لِلْكَثْرة.

فِي كُلِّ حالٍ، لا يُوافِقُ كَلامُ زِياد صَوْتَ فَيْرُوز، وَهَذا رَأْيِي. فَلَيْسَ هَذا اللَوْنُ القارِصُ المُرُّ لَوْنَ الصَباحِ الباكِرِ وَلا يَسْخَرُ قَمَرُ هَذا الصَباحِ مِنْ أَحَدٍ وَإنْ تَكُنْ بِالقَمَرِ خِفّةٌ لا تُنْكَرُ... فيُمْكِنُ أَنْ يُمازِحَنا بِاحْتِشام. غَيْرَ أَنَّنِي لا أَرى فِي عَدَمِ التَوافُقِ هَذا أَدْنى عَيْب. وَإنَّما هُوَ أَقْرَبُ إلى مَزْجٍ غَيْرِ مُنْتَظَرٍ: إلى بَعْضِ أَصْنافِ الصَلْصةِ التِي يَبْتَكِرُها كِبارُ الطُهاة. أَوْ إنَّ امْتِزاجَ اللَوْنَيْنِ ــ إذا غادَرْنا الطُعُومَ ــ يُشْبِهُ أَداءَ الرَجُلِ ذِي الشارِبَيْنِ المَفْتُولَيْنِ دَوْرَ الصَبِيّةِ الصَغِيرةِ عَلى المَسْرَح. فَهُوَ قَدْ يَكُونُ مُقْنِعًا جِدًّا إذا كانَ... مُقْنِعًا. هَهُنا يَحْكِي قَمَرُ الصَباحِ الباكِرِ بَلايا آخِرِ السَهْرة.

هَوامِشُ لِلْجُمْهُورِيّةِ المُتَقَطِّعة

بَقِيَ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَ: أَيْنَ يَقَعُ عالَمُ زِياد إنْ صَحَّ أَنَّ عالَمَ عاصِي وَمَنْصُور يَقَعُ فِي رِيفِ الجَبَلِ اللُبْنانِيِّ وَفِي زَمانِهِ الذِي لا يَزالُ يَبِيد؟ هَلْ يَقَعُ هَذا العالَمُ فِي المَدِينة؟ قَدْ لا نَجِدُ له مَدِينةً هُنا. وَكانَ عِصام عَبْد الله، شَرِيكُ

زِياد فِي أَوائِلِ عَهْدِهِ الإذاعِيِّ وَأَوائِلِ الحَرْبِ، قَدْ أَعْلَنَ مِنْ تِلْكَ الأَيّام:

«ما فِي مْدِينِي إسْمْها بَيْرُوتْ!

بَيْرُوتْ عَنْقُود الضِيَعْ!».

هَذا كَلامٌ يَنْفُذُ إلى لُبِّ المُشْكِلِ البَيْرُوتِيِّ (وَاللُبْنانِيِّ) وَلَـكِنْ لَيْسَ شَأْنُهُ أَنْ يُحِيطَ بِالمُشْكِلِ المَذْكُور. قَدْ لا تَـكُونُ بَيْرُوت مَدِينةً وَقَدْ تَـكُونُ تَجْسِيمًا حَرْفِيًّا لِعُنْوانِ الدِيوانِ الأَوَّلِ الذِي نَشَرَهُ أَحْمَد عَبْد المُعْطِي حِجازِي: «مَدِينةٌ بِلا قَلْب». وَهِيَ قَدْ ظَلَّتْ بِلا قَلْبٍ، حَقِيقةً ومَجازًا، مُدّةَ عِشْرِينَ سَنةً هِيَ، تَقْرِيبًا، ثُلُثا العُمْرِ الفَنِّيِّ الذِي اجْتازَهُ زِياد الرَحْبانِي إلى الآن. وَلَـكِنَّ بَيْرُوت مَدِينةٌ تَـتَأَلَّفُ كُلُّها ــ اليَوْمَ وَقَبْلَ اليَوْمِ ــ مِنْ ضَواحٍ وَهُوامِش. وَهِيَ، حِينَ عادَ إلَيْها قَلْبُها، عادَ مُعَدًّا لِغَيْرِ أَهْلِها، وَلَـكِنَّ هَؤُلاءِ احْتَلُّوهُ بِقُوّةِ التَنَزُّهِ وَالأَكْلِ وَالشُرْبِ فِيه. وَإِنْ لَمْ تَـكُنْ بَيْرُوت مَدِينةً البَتّةَ فَهِيَ ضَواحٍ وَهَوامِشُ لِمَدِينةٍ غَيْرِ مَوْجُودةٍ ولَيْسَتْ عُنْقُودَ قُرًى لِأَنَّ القُرى عادَتْ غَيْرَ مَوْجُودةً، هِيَ نَفْسَها، حَيْثُ كانَتْ وَمالَتْ إلى التَبَدُّلِ ضَواحِيَ وَهُوامِشَ تَبَدُّلًا تَـتَبايَنُ سُرْعَتُهُ وَتَـتَنَوَّعُ مَجالِيه. وَما بَدَّلَهُ زِياد الرَحْبانِي فِي تُراثِ عائِلَتِهِ أَنَّهُ أَصْبَحَ لا يَتَّخِذُ مَرْجِعًا لِمُخَيِّلَتِهِ ذاكَ الرِيفَ: الرِيفَ الذِي كانَ عاصِي وَمَنْصُور لا يَزالانِ يُقِيمانِ فِيهِ بِالمُخَيِّلةِ حِينَ كانَ قَدْ زالَ مِن الوُجُودِ وَبَقِيَ، مَعَ ذَلِكَ، يُطاوِلُ فِي الزَوال. وَقَدْ كَشَفَ زِياد بُؤْسَ الحَياةِ فِي الضَواحِي وَالهَوامِشِ وَكَشَفَ أَنَّ هَذا البُؤْسَ لا يَمْلُكُ مَنْفَذًا إلى عالَمِ الخَيالِ أَيْ أَمَلًا حَقـًّا. فهَذا البُؤْسُ إنْ حَلِمَ حَلِمَ بِالمَدِينةِ، وَهَذِهِ كانَ وُجُودُها ناقِصًا، عَلى الدَوامِ، فَاسْتَقَرَّتْ مَساحةً شِبْهَ عَمْياءٍ لِلْحُلُمِ وَلَمْ تَـتَحَصَّلْ لَهُ مِنْها أَشْكالٌ وَلا أَلْوانٌ وَلا قَواعِدُ وَلا أَنْماطُ سُلُوكٍ وَمُعاشَرةٍ وَمَعاش. حَتّى الكُورْنِيش وَالبَحْرُ لَيْسَا

أُفُقًا. هَلْ مَعْنى هَذا أَنَّ زِياد الرَحْبانِي لا يَحْلُم؟ بَلى هُوَ يَحْلُمُ وَلَـكَّنُه فَنّانُ أَحْلامٍ مَكْسُورة. يُقالُ أنَّ زِياد شُيُوعِيٌّ وأَنَّهُ يُحِبُّ سْتالِين. الثَوْرِيّانِ الحَقّانِ هُما عاصِي وَمَنْصُور وَإِنْ تَـكُنْ ثَوْرَتُهُما رَجْعِيّةً بِمَعْنى أَنَّ مَرْجِعَها وَراءَها. وَأَمّا زِياد فَهُوَ رَجُلٌ وَحِيدٌ وَمُرّ. وَهُوَ إنْ وَحَّدَنا وَحَّدَنا فِي الإقْرارِ بِما بَيْنَنا مِنْ تَعازُلٍ وَمَرارات. هَذا كَـثِيرٌ طَبْعًا وَلَـكِنَّ هَذا الكَـثِيرَ لَيْسَ مَخْرَجًا بِحَدِّ ذاتِهِ وَلا يَدِلُّ شَيْءٌ عَلى أَنَّهُ بَدْءٌ لِبَحْثٍ، مِنْ جانِبِنا، عَنْ طَرِيقٍ أَوْ عَنْ مَخْرَج. وَلَيْسَ عَلى زِياد مَلامةٌ فِي افْتِقادِ الطَرِيقِ أَو المَخْرَجِ وَلَيْسَ شَأْنُهُ أَنْ يَهْدِينا إِلَيْهِما (فهَذا يَكُونُ مُمِلًّا جِدًّا فِي العادة). وَإِنَّما يَكْفِيهِ أَنْ يُثِيرَ فِينا حاجةً ما إلى البَحْث. فِي أُغْنِيةِ «صُبْحِي الجِيز»، وَهِيَ أُغْنِيةٌ شُيُوعِيّةٌ، يَشْتَكِي زِياد:

«رْفِيقِي صُبْحِي الجِيزْ تَرَكْنِي عَالأَرْض وْراحْ
رْفِيقِي صُبْحِي الجِيزْ حَطّ المِكْنِسة وْراحْ
وَما قَلِّي شُو بِقْدِرْ أَعْمِلْ لَمْلايين المَساكِينْ
رَفِيقْ، يا رَفِيقْ!
وَيْنَكْ، يا رَفِيقْ!»

إلى أَنْ يَخْتُم:

«عَمْ فَتِّشْ عا واحِدْ غَيْـرَكْ، عَمْ فَتّـِشْ عا واحِدْ مِتْلَكْ
يِمْشِي يِمْشِي، بِمْشِي نِمْشِي، نِمْشِي وِنْكَفِّي الطَرِيقْ!».

فَلا تَغُرَّنّا، بَعْدَ السَماعِ، «ال» التَعْرِيفِ التِي لِلـ«طَرِيق». إذْ لَوْ كانَ صُبْحِي الجِيز ما يَزالُ يَعْرِفُها، بَعْدَ كُلِّ ما جَرى، لَدَلَّ عَلَيْها الرَفِيقَ زِياد. عَلى أَنَّ شَيْئًا بَقِيَ بالرُغْمِ مِنْ هَذا الذِي جَرى. وَهُوَ أَنَّ الرَفِيقَ زِياد يُرِيدُ رَفِيقًا (واحِدًا، عَلى الأَقَلِّ) وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا لِمَلايِينِ المَساكِين. وَقَدْ يَكْفِيهِ أَنْ

يَمْشِي مَعَ نَفَرٍ مِنْهُمْ، عَلى الأَقَلِّ، نَحْوَ شَيْءٍ ما وَقَدْ يَخْتَرِعُونَ طَرِيقًا إلى ذاكَ الشَيْءِ أَوْ شَطْرًا مِنْ طَرِيق.

وَلا يَسْتَغْنِي أَمْرُ هَذا الطَرِيقِ أَنْ يَكُونَ طَرِيقًا إلى المَدِينةِ وَإلى الدَوْلةِ مَعًا. فَهاتانِ مُتَلازِمَتانِ، عِنْدَنا، فِي الحُضُورِ الذِي يَسْتَوِي غِيابًا، عَلى الفَوْرِ تَقْرِيبًا، أَوْ يَسْتَوِي عَلى شاكِلةٍ تَفُوقُ الغِيابَ سُوءًا وَهِيَ شاكِلةُ التَنازُعِ فِي جِلْدِ الدُبِّ المَشْهُورِ وَالتَناهُشِ طَلَبًا لِلصُمُودِ فِي انْتِظارِ صَيْدِه. وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّهُ لا يُصادُ بَلْ يُرَبّى وَأَنَّهُ، شَأْنَ البانْدا، قَدْ يَعْزِفُ عَن التَوالُد. أَعُودُ إلى «عَدِّيّةِ» فَيْرُوز فِي «لا وَالله»:

«مِشْ سَمّ وْهَمّ وْغَمّ وْذَمّ وْقَدْحْ وْتِشْهِيرْ!».

فَأَمّا السُمُّ وَالهَمُّ فَيُوجَدُ مِنْهُما كَثِيرٌ فِي القُرى وَالمُدُنِ سَواءً بِسَواء. لِذا لا يَقُودانِ خُطانا إلى مَكانٍ بعَيْنِه. وَأَمّا الغَمُّ فَاحْتَرْتُ فِي أَمْرِهِ قَلِيلًا ثُمَّ اسْتَقَرَّ ظَنِّي عَلى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُودًا فِي بَلْدةٍ جُرْدِيّةٍ ــ بَلْدةٍ إذَنْ، لا قَرْيةٍ وَلا مَدِينةٍ ــ تُوجَدُ فِيها مَدْرَسةٌ ثانَوِيّةٌ لِيَلْعَبَ مُعَلِّمُوها الغُرَباءُ بِالوَرَقِ، بَعْدَ الدَوامِ، مَعَ التَلامِيذِ الكِبار. وَأَمّا الذَمُّ وَالقَدْحُ وَالتَشْهِيرُ فَلَها شَأْنٌ آخَر. هَذا مُصْطَلَحُ شَرائِعَ وَصُحُف. فَلا بُدَّ إذَنْ أَنَّ الدَوْلةَ وَالمَدِينةَ مَوْجُودَتانِ... أَوْ لا بُدَّ أَنَّ الدَوْلةَ/المَدِينةَ مَوْجُودةٌ عَلى نَحْوٍ ما. عَلى أَيِّ نَحْو؟ يُفِيدُ الحُضُورُ المُحْتَمَلُ لِلْقَرْيةِ فِي أَوَّلِ «العَدِّيّةِ» وَمُجاوَرَتُها البَلْدةَ قَبْلَ إفْضائِها إلى المَدِينةِ أنَّ الحَيْرةَ قَوِيّة. أَوْ إنَّ هَذا ما أُخَمِّنُهُ فِي أَواخِرِ هَذا النَصِّ الذِي لَمْ أُغادِرْ فِيهِ مُناخَ التَخْمِين. فَإذا صَحَّ تَخْمِينِي، كُنّا حِيالَ شَيْءٍ لا يَزالُ يُراوِحُ ما بَيْنَ اتِّحادِ الرَوابِطِ العائِلِيّةِ (مَعَ افْتِراضِ النِزاعِ حاصِلًا بَيْنَها) وَدَوْلةِ القانُونِ التامّةِ الأَسْنان. أَوْ قُلْ، إنْ شِئْتَ، إنَّها اتِّحادٌ لِرَوابِطِ الضَواحِي التِي

لَمْ يَصْمُدْ عِنْدَنا غَيْرُها، بَعْدَ حُرُوبِنا. وَذَلِكَ «رَغْم العِيَلْ وِالناسْ»، بِمَعْنًى مِن المَعانِي، وَبِالمُواطَأةِ فِي ما بَيْنَهُمْ، بِمَعْنًى آخَر... فَماذا بَعْدُ؟

«إتْسَمَّعْ عَالمُوسِيقى...مُوسِيقى!»

كَلِمةٌ أَخِيرةٌ لِغَيْرِي فِي مُوسِيقى زِياد. لِغَيْرِي هِيَ لِأَنَّنِي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الكَلامِ فِي المُوسِيقى، وَإِنْ يَكُنْ لِي حَظٌّ (مُتِواضِعٌ) مِنْ سَماعِها، وَقَدْ حَصَرَتْنِي صِناعَتِي فِي الكَلامِ عَلى الكَلام. مَعَ ذَلِكَ أُجازِفُ بِالقَوْلِ إنَّ مُوسِيقى زِياد تَسْهَرُ وَإِنَّها، بِخِلاف كَلامِهِ، تَنْتَشِرُ عَلى الجُزْءِ الأَنِيقِ الأَلـقِ مِن السَهْرة. وَهُوَ الجُزْءُ الذِي يَلِي الكَأْسَ الأُولى حِينَ يَكُونُ الساهِرُونَ جَمِيعًا ما زالُوا أَذْكِياءَ، وَلَمّا تَنْطَفِئ الشُمُوعُ فِي رَأْسِ أَيِّهِم. لا تُجارِي هَذِهِ الأَلْحانُ كَلامَ زِياد، فَهِيَ تَبْقى حَنُونًا وَخَفِرةً وَلَو انَّ الإِيقاعَ يَجْهَدُ، فِي بَعْضِ الحالاتِ (مِنْ غَيْرِ مبالُغَةٍ فِي الجُهْدِ)، لِلْمُوافَقةِ عَلى الكَلام. وَلا تُجارِي هَذِهِ الأَلْحانُ صَوْتَ فَيْرُوز لِأَنَّها أَلْحانٌ تَسْهَرُ... تَسْهَرُ بِنَوْعِها وَتَسْهَرُ بِآلاتِها أَيْضًا. هَذا فِيما يَبْدُو صَوْتُ فَيْرُوز وَقَدْ بَكَّرَ إلى اليَقْظةِ مِنْ راحةٍ لَيْلِيّةٍ طَوِيلة. عَلى أَنَّنِي لا أَرى مِنْ عَيْبٍ هَهُنا أَيْضًا. فَإِنَّ الصَوْتَ وَاللَحْنَ وَالكَلامَ تـَتَحاوَرُ هَهُنا مِنْ أَوْدِيَتِها (أَوْ مِنْ قِمَمِها) الثَلاث. وَهِيَ تُجِيدُ الحِوارَ فَيَأْتِي جَمِيلًا أَيْضًا وَيَهُزُّنا وَيُقْلِقُنا وَيُسَلِّينا.

فَهَل عَلَيْنا أَنْ نَخْتارَ ما بَيْنَ هَذا الجَمالِ وَذاكَ الذِي كانَ يَتَفَتَّقُ عَنْهُ الانْسِجامُ ما بَيْنَ الصَوْتِ القَمَرِيِّ وَالشِعْرِ الأَلْمَعِيِّ وَالمُوسِيقى المُشْرِقةِ فِي عَهْدِ الشَركةِ بَيْنَ فَيْرُوز وَالرَحْبانِيَّيْنِ الكَبِيرَيْنِ أَوْ أَيْضًا بَيْنَها وَبَيْنَ زَكِي ناصِيف أَوْ، أَخِيرًا لا آخِرًا، بَيْنَها وَبَيْنَ فِيلِمُون وِهْبِي؟ وَما عَلَيْنا إنْ أَبَيْنا الاخْتِيار؟ مَنْ شاءَ فَلَهُ أَنْ يُضَيِّقَ مَلْوَنةَ أُذُنِه. وَهُوَ إذا اخْتارَ فَيْرُوزَ زِياد، يَكُونُ قَدْ غَصَبَ زِياد مَوْقِعَهُ الفَرِيد. فَقَدْ كانَ عَلى الرَجُلِ أَنْ يَخْرُجَ عَلى الرَحْبانِيّةِ الأُولى

لِيَقُولَ جَدِيدًا أَوْ لِيُنْشِئَ بِالكَلامِ وَبِالمُوسِيقى زَمَنًا آخَر. كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَلِّفَ «شِي فاشِلْ» وَسائِرَ أَعْمالِهِ مِمّا تَلاها. وَأَمّا نَحْنُ فلَيْسَ شَأْنُنا أَنْ نُنازِعَهُ ذَلِك. وَهَذا مَعَ حِفْظِ الحَقِّ لِكُلٍّ فِي ذَوْقِهِ، طَبْعًا، وَمَعَ اسْتِبْعادِ التَعْمِيمِ أَيْضًا.

فِي مَيْدانٍ آخَرَ، ما يَزالُ يَسَعُ كَثِيرِينَ مُنْتَشِرِينَ عَبْرَ العالَمِ أَنْ يُحِبُّوا «أَلْفَ لَيْلةٍ وَلَيْلة». وَهَذا مَعَ أَنَّ عَوالِمَ لِلْحِكايةِ نَشَأَتْ، مِنْ بَعْدِ تِلْكَ «اللَيالِي»، فَوْقَ عَوالِم. وَبَقِيَت القاعِدةُ أَنَّ مَن ابْتَغى مُزاوَلةَ فَنِّ الحِكايةِ مُبْدِعًا فَلا بُدَّ لَهُ أَنْ يَمْقُتَ تِلْكَ «اللَيالِي» مِنْ وَجْهٍ ما. وَلَوْلا أَنَّ ذَلِكَ يَحْصُل كُلَّ يَوْمٍ لَنَضَبَ الفَنُّ، وَالعِياذُ بِالله!

بَقِيَتْ إذَنْ كَلِمةُ غَيْرِي فِي مُوسِيقى زِياد. وَقَدْ كُنْتُ بَدَأْتُ كَلامِي عَلى صَوْتِ فَيْرُوز بِشَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ الرُوح. وَزَوْجَتِي تَقُولُ إنَّ مُوسِيقى زِياد لِفَيْرُوز «تَأْخُذُ الرُوحَ» مَعَها. وَأُوافِقُها، مِنْ جِهَتِي، عَلى هَذا مِنْ غَيْرِ حاجةٍ إلى التَخَصُّص. وَأَزِيدُ أَنَّ الذِي يَكْتُبُ مِثْلَ هَذِهِ المُوسِيقى كانَ لِزامًا عَلَيْهِ أَنْ يُغادِرَ فِي الكَلامِ، بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ، لُغةَ «وْلَكْ بَسّ هُو هايْ وَيْنْ» لِيَكْتُبَ كَلامًا تَكُونُ فَيْرُوز عَلى سَجِيّةِ صَوْتِها فِي أَدائِهِ وَيَكُونُ (أَي الكَلامُ) مُنْتَمِيًا أَيْضًا إلى مُناخِ أَلْحانِه. وَقَدْ فَعَلَ زِياد هَذا أَحْيانًا، وَلَمْ يَتْرُكْ خاطِرَ زَوْجَتِي مَكْسُورًا، فَلَحَّنَ بِالمُوسِيقى التِي «تَأْخُذُ الرُوحَ» مَعَها كَلامًا يُشِيرُ إلى ذَلِك:

«بَعَتِّلَكْ، يا حَبِيب الرُوحْ!
بَعَتِّلَكْ رُوحِي!
وِقُلْتِلَكْ: ما دامْ حَتْرُوح
خَدْ مَعَكْ رُوحِي!».

بَيْرُوت، نَيْسان ٢٠٠٦

مَرَّ زَمَنٌ طَوِيل... (*)

قُلْتُمْ لِي إِنَّ الأَوانَ آنَ لِتَخُطَّ خَطًّا تَحْتَ ذَلِكَ الكَلامِ كُلِّهِ فَنَنْظُرَ مَعَكَ ما يَكُونُ حاصِلُ الجَمْع. سَمْعًا وَطاعةً! وَلَو انَّني غَيْرُ مُتَفَرِّغٍ لِهَذا فِي هَذِهِ الأَيّامِ وَلا مُسْتَعْجِل. هُوَ الجَمْعُ إِذَنْ ما تَطْلُبُونَ وَأَمّا الطَرْحُ فَأَفْتَرِضُ أَنَّكُمْ أَجْرَيْتُمُوهُ مِنْ جِهَتِكُمْ وَالظاهِرُ أَنَّ شَيْئًا بَقِيَ بَعْدَهُ فِي أَيْدِيكُمْ وَإِلّا فَما الداعِي لِهَذِهِ الدَعْوة؟ لا قِبَلَ لِي بِالطَرْحِ، مِنْ جِهَتِي، فَإِنَّنِي حامِلٌ غَثِّي وَسَمِينِي مِنْ أَوَّلِ العُمْرِ إلى آخِرِهِ وَلا فِكاكَ لِي مِنْ أَيِّهِما. تَطْرَحُونَ مِن القِيمةِ وَقَدْ أَطْرَحُ مِنْها مَعَكُمْ وَقَدْ أَطْرَحُ أَكْثَرَ مِمّا تَطْرَحُونَ أَوْ خِلافَهُ وَلَـكِنْ أَعْجَزُ عَن الطَرْحِ مِن المَسْؤُولِيّة.

لا أَعْلَمُ مَتى اسْتَوْلَتْ عَلَيَّ الكِتابةُ: أَفِي العاشِرةِ كانَ ذَلِكَ أَمْ فِي الأَرْبَعِين؟ لَمْ يَثْبُتْ مَطْلُوبِي مِن الكِتابةِ عَلى حالٍ، فِي نِصْفِ القَرْنِ الذِي مَضى، بَلْ كانَ يَتَغَيَّرُ مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مُكَوِّنٌ واحِد. أَيّامَ كُنْتُ فَتًى يافِعًا، كانَ الجَرْسُ أَوَّلَ ما غَرَّني، وَكُنْتُ أُرِيدُهُ عالِيًا، مُتَلاطِمَ الأَمْواجِ، عَلى تَنَوُّعٍ فِيها وَلَـكِنْ عَلى انْتِظام. وَلا أَعْلَمُ أَهُوَ القُرْآنُ أَغْرى سُطُورِي بِالطَرَبِ أَمْ هُوَ

(*) كَلِمةٌ أُلْقِيَتْ فِي النَدْوةِ التِي انْعَقَدَتْ لِتَكْرِيمِ كاتِبِها، وَذَلِكَ بِدَعْوةٍ مِن الحَرَكةِ الثَقافِيّةِ، أَنْطِلْياس، مَساءَ السادِسِ مِنْ آذارِ ٢٠٠٧، فِي نِطاقِ مَهْرَجانِ الكِتاب.

بَدَوِيُّ الجَبَلِ أَو المُتَنَبِّي أَمْ هُما قُسّ بْنُ ساعِدة وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طالِب أَمْ هُمْ شُعَراءُ المَآتِمِ فِي بِنْتِ جُبَيْل أَمْ هِيَ الشُحْرُورةُ صَباح. وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ البَحْرَ عَنْ كَـثَبٍ فِي تِلْكَ الأَيّام. وَلَـكِنْ كُنْتُ أُرِيدُ الماءَ نَقِيًّا جِدًّا وَكانَت الفُصْحى عَلى هَذا المَوْعِد. غَيْرَ أَنَّنِي تَعَلَّقْتُ بِالزَجَلِ أَيْضًا وَادَّعَيْتُ لِنَفْسِي القُدْرةَ عَلى ارْتِجالِهِ: ادَّعَيْتُها زُورًا. ثُمَّ أَصْبَحَ خَلْطُ الفَصِيحِ بِالعامِّيِّ فِي المَنْظُوماتِ سَبيلًا مَرْمُوقًا بَيْنَ سُبُلِي إلى الهَزْلِ وَالضَحِك.

فِي تِلْكَ الأَيّامِ، كُنْتُ ظاهِرةً صَوْتِيّةً مِنْ قِمّةِ رَأْسِي إلى أَخْمَصِ قَدَمِي. كانَت الضَجّةُ المُحْتَواةُ أَو المُبَوَّبةُ فِي الكَلامِ المَكْتُوبِ دَواءً لِحَسْرةِ فَتًى مُقَصِّرٍ جِدًّا فِي فَنِّ الغِناء. فَإِنَّ صَوْتِي لَمْ يَكُنْ جَمِيلًا وَلا قَوِيًّا وَلا كُنْتُ أُحْسِنُ تَجْوِيدَ الأَداءِ وَلا كُنْتُ أَحْفَظُ الأَلْحان. وَكانَ يَزِيدُ الحَسْرةَ حَسْرةً عِلْمِي بِأَنَّ هَذِهِ العاهةَ تُنْقِصُ حُظْوَتِي فِي مِضْمارِ الغَرامِ لِأَنَّ الصَبايا كُنَّ ــ عَلى حَدِّ ما عَلِمْتُ ــ وَلُوعاتٍ بِالمُطْرِبِين. تُغَنِّي لَهُنَّ فَيَتَساقَطْنَ عَلَيْكَ مِن الأَشْجارِ العالِيةِ وَعَنْ سُطُوحِ المَنازِل... وَكانَت الضَجّةُ نَفْسُها دَواءً لابْتِلائِي بِالخَجَلِ أَيْضًا وَلِجُنُوحِي إلى الصَمْتِ، فِي حَضْرةِ الكِبارِ، عَلى الخُصُوص. قُلْتُ أُصْبِحُ شاعِرًا إِذَنْ، عَسى أَنْ يَكُونَ لِلشاعِرِ مَوْضِعٌ فِي قُلُوبِ الصَبايا، مَهْما يَكُنْ ضَيِّقًا. ثُمَّ إنَّ المَوْزُونَ المُقَفّى كانَ شَيْئًا مُعْتَبَرًا عِنْدَ الكِبارِ فِي دِيارِ نَشْأَتِي وَكانَ سَهْلًا نِسْبِيًّا أَنْ أُحَرِّكَ لِسانِي بِهِ أَمامَهُم... فَلا يَعْقِلُ لِسانِيَ الخَجَلُ ما دامَ أَنَّ القَصِيدةَ كَلامٌ ناجِزٌ يَكُونُ مُهَيَّأً قَبْلَ أَنْ تَنْطُقَ بِهِ فَلا تَخْشى العِيَّ وَلا التَلَعْثُم. وَكانَ إِلْقائِي حَسَنًا مَعَ مَيْلٍ إلى الإِفْراطِ فِي رَفْعِ الصَوْت. لِذا أَخَذَ خالِي، وَكانَ شاعِرًا، يُشِيرُ إِلَيَّ، ذاتَ مَرّةٍ، بِيَدَيْهِ وَعَيْنَيْهِ وَشَفَتَيْهِ أَلّا أُجْهِدَ حِبالِيَ الصَوْتِيّةَ كُلَّ هَذا الإِجْهادِ، خُصُوصًا وَأَنَّ مُكَبِّرَ الصَوْتِ يَتَوَلّى عَنِّي مُعْظَمَ المُهِمّة... وَكانَ ذَلِكَ

وَأَنا أُلْقِي، فِي حُسَيْنِيّةِ بِنْتِ جُبَيْل، أَوَّلَ قَصِيدةٍ أَلْقَيْتُها فِي مَهْرَجانٍ، وَكُنْتُ فِي نَحْوِ السادِسةَ عَشْرة.

أَعْرِفُ أَنَّ الخُبَثاءَ مِنْكُمْ سَيَقُولُونَ إِنَّنِي ما أَزالُ ظاهِرةً صَوْتِيّةً حَتّى الساعة. وَهَذا رَأْيٌ أُوافِقُهُمْ عَلَيْهِ عَنْ طِيبِ خاطِر. عَلى أَنَّنِي تَعَلَّمْتُ بِطُولِ المِراسِ تَلْحِينَ الكَلام. فَعُدْتُ لا أَجْنَحُ فِي الكِتابةِ إلى رَفْعِ الصَوْتِ مُطْلَقًا وَأَصْبَحَت الكِتابةُ، فِي عُرْفِ جَسَدِي، تَلْحِينًا لِلْأَنْفاسِ لا إِجْهادًا لِلْحُنْجُرة. أَكْتُبُ بِأَنْفاسِي إِذَنْ، ناشِدًا الراحةَ فِي الشَهِيقِ وَالزَفِيرِ، وَأَنْصَحُ الكُتّابَ مِنْكُمْ أَنْ يُجَرِّبُوا هَذا النَحْوَ فَهُمْ سَيُسَرُّونَ بِالنَتِيجة. عَلى أَنَّ الرِئَتَيْنِ، مَعَ كَوْنِهِما آلةَ نَفْخٍ، لا تُجاوِزانِ ضَبْطَ الإِيقاع. وَبَعْدَهُما يَأْتِي دَوْرُ اللِسانِ وَاللَهاةِ وَالأَسْنانِ وَالحَنَكِ وَالشَفَتَيْن... الشَيْءُ الوَحِيدُ الذِي لا شَأْنَ لَهُ بِالكِتابةِ، عَلى هَذا المُسْتَوَى، هُوَ الحُنْجُرة. بَعْدَ ذَلِكَ يَبْقى أَنْ نَرْعى الاتِّساقَ فِي طَبَقاتِ الأَلْفاظِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّلٍ وَأَنْ نُراقِبَ تَوارُدَ الأَلْفاظِ مِنْ غَيْرِ لُزُومِ المَأْلُوفِ مِنْهُ بِالضَرُورةِ وَأَنْ نَطْلُبَ السَلامةَ المَعْنَوِيّةَ لِلتَراكِيبِ لا سَلامَتَها النَحْوِيّةَ أَو الصَرْفِيّةَ وَحَسْب. ثُمَّ إِنّهُ يُسْتَحَبُّ أَيْضًا ــ وَهَذِهِ نُبْقِيها بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ــ أَنْ يُوجَدَ عِنْدَنا شَيْءٌ نَقُولُه...

فِي كُلِّ حالٍ، عَبَرْتُ، قَبْلَ أَنْ أُغادِرَ المُراهَقةَ، مِن الحَفاوةِ بِالجَرْسِ العالِي إلى طَلَبِ النَفاذِ أَوْ إِدْراكِ القِيعانِ أَوْ إلى طَلَبِ التَحْلِيقِ أَو الإِلْمامِ بِالأَعالِي، وَهُما سِيّانِ حِينَ يَكُونُ الحَدِيثُ حَدِيثَ الكِتابة. كُنْتُ أَرى عالَمَ الكَلامِ ــ إِنْ آثَرْنا الكِنايةَ بِالنَفاذِ ــ مَحْمِيًّا بِقِشْرةٍ سَمِيكةٍ وَأَرْغَبُ فِي ثَقْبِها، هُنا أَوْ هُناكَ، لَعَلِّي أَصْطادُ بِمِنْقادِي شَيْئًا مِن اللُجَجِ العَمِيقة. وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذا الطَلَبِ أَيُّ قَدْرٍ مِن الغُرُور. وَإِنَّما كانَ أَشْبَهَ بِالحَسْرةِ مِنْهُ بِالرَغْبة. كُنْتُ أَقْرِنُ النَفاذَ بِالإِحاطةِ، وَكُنْتُ بَطِيئًا فِي كُلِّ شَيْءٍ: فِي القِراءةِ وَفِي الحِفْظ... وَفِي الكِتابةِ أَيْضًا،

بِطَبِيعةِ الحالِ... وَلَمْ أَكُنْ بارِعًا فِي اسْتِثْمارِ الوَقْت. وَكانَ ما أَعُدُّهُ إحاطةً، أَيْ مَقادِيرُ المَعْرِفةِ التِي أَراها لازِمةً لِطَرْقِ مَوْضُوعٍ ما، شَيْئًا مَهُولًا. كُنْتُ أُلِحُّ فِي السُؤالِ بِلا هُدْنةٍ: كَيْفَ لِي أَنْ أَقْرَأَ كُلَّ هَذِهِ الكُتُبِ وَأَنْ أَتَعَلَّمَ كُلَّ هَذِهِ الأَشْياء؟ فَأَصْبَحَ سَعْيِي كُلُّهُ، وَبَقِيَ إلى اليَوْمِ، مُكْتَنَفًا بِيَأْسٍ عَمِيقٍ هادِئٍ مِنْ إِدْراكِ أَيّةِ غاية. وَتَعَلَّمْتُ أَنْ أَعْتَبِرِ كُلَّ عَمَلٍ قُمْتُ بِهِ جُهْدَ المُقِلّ. وَلْأَقُلْ، حَتّى لا يُظَنَّ بِي نَوْعٌ رَخِيصٌ مِن التَواضُعِ، إنَّنِي كُنْتُ أَزِنُ تَقْصِيري بِمِيزانِ تَطَلُّبِي لا بِمِيزانِ ما يُقَدِّمُهُ غَيْرِي، ما خَلا الكبارَ، عَلى الأَغْلَبِ، فِي صِناعةٍ ما مِن الصِناعاتِ التِي زاوَلْت. وَأَمّا حِيالَ بَحْرِ الكَلامِ الرَمادِيِّ وَالأَمْطارِ الحامِضةِ التِي يَرْبُو بِها البَحْرُ كُلَّ يَوْمٍ، فَوَجَدْتُ التَواضُعَ مُبْطِلًا حِدّةَ الآلةِ الناقِدةِ وَرُحْتُ أَحْسِبُ أَعْمالِي عُورًا بَيْنَ العُمْيان. وَشَيْئًا فَشَيْئًا، تَعَلَّمْتُ أَنَّ المُسْتَبْصِرِينَ مِن الكُتّابِ قَدْ يَأْتُونَ بِآياتٍ حِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ جَهْلِهِمْ مَوْضُوعًا لِلتَأَمُّل. فَإِنَّ بَعْضَ الفُنُونِ يَفْتَرِقُ عَنْ مَقادِيرِ المَعْرِفةِ فِي مَواضِعَ يَجِبُ رَصْدُها حَتّى يَتَأَتّى لَنا أَنْ نَحِيكَ نُصُوصًا تَبْدُو لَنا كامِلة. وَقَدْ أَحْبَبْتُ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الفُنُونِ فَنَّ الضَحِكِ، مَثَلًا، وَاتَّخَذْتُ الضَحِكُ، حُلْوَهُ وَمُرَّهُ، أَلَقًا لِلْكَلامِ المَكْتُوبِ وَخُضْرةً يَنْشُرُ عَدْواها الكَلامُ المَكْتُوبُ فِي الحَياةِ نَفْسِها. ذاتَ مَساءٍ، كُنْتُ أَكْتُبُ خُطْبَةً فِي رِثاءِ أَبِي فَجاءَتْنِي سَجْعةٌ ابْتَسَمْتُ لَها وَلَمْ أُنَحِّها. وَبَكَيْتُ وَأَنا أَتْلُو الخُطْبَةَ وَابْتَسَمَ السامِعُونَ لِلسَجْعةِ وَأَعْجَبَنِي ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي وَمِنْهُم. مِثْلُ هَذا كَثِيرٌ فِي سِيرَتِي مَعَ النُصُوصِ... فَأَخْرُجُ مِنْ صِناعةِ النَصِّ جاهِلًا إنْ كانَ النَصُّ يُضْحِكُ أَمْ هُوَ يُبْكِي.

لَمْ أَعْلَمْ، فِي الفُتُوّةِ وَلا فِي الكُهُولةِ، ماذا أَرَدْتُ أَنْ أُصْبِحَ فِي الكِتابة. لَمْ أَجِدْ فِي أَيِّ وَقْتٍ جَوابًا لِنَفْسِي يُشْبِهُ قَوْلَ الوَلَدِ: «أُرِيدُ أَنْ أُصْبِحَ ضابِطًا». مِرارًا،

سَأَلَنِي الصِحافِيُّونَ تَفْسِيرًا لِتَشَتُّتِ أَعْمالِي بَيْنَ الأَنْواعِ وَاسْتَهْلَكُوا كَثِيرًا مِنْ عَطْفِهِمْ وَمِنْ حُرُوفِ عَطْفِهِمْ، عَلى الأَخَصِّ، وَهُمْ يَرْصُفُونَ الأَلْقابَ: المُفَكِّرَ وَالشاعِرَ وَالمُؤَرِّخَ وَعالِمَ الاجْتِماعِ وَاللُغَوِيَّ وَكاتِبَ السِيناريُو، إلخ. الأَقْحاحُ فِي هَذِهِ الصَنائِعِ كُلِّها لَمْ يَقْبَلُونِي فِي أَيَّةٍ مِنْها قَطُّ. دَرَّسْتُ مُدّةَ رُبْعِ قَرْنٍ فِي مَعْهَدٍ لِلْعُلُومِ الاجْتِماعِيّةِ وَبَقِيَ يُساوِرُنِي إِحْساسٌ بِأَنَّ أَلْصَقَ الزُمَلاءِ بِالتَقارِيرِ وَالجَداوِلِ يَعُدُّونَنِي دَخِيلًا فِي بَيْتِهِم. وَهَذا مَعَ أَنَّنِي لا أَكْرَهُ الجَداوِلَ وَلا التَقارِيرَ، حِينَ يَكُونُ لَها مَحَلٌّ، وَقَدْ وَضَعْتُ شَيْئًا مِنْها وَمِلْتُ إلى المُزاحِ فِي عَناوِينِها وَلَكِنْ لَمْ أَخْتَرْها مَحَلًّا لِلْإقامة. وَنَشَرْتُ دِيوانَ شِعْرٍ وَحِيدًا قَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ تَقْرِيبًا، وَهَذِهِ مُدّةٌ تَكْفِي لِإقالَتِي مِنْ مِلاكِ الشُعَراءِ، إِنْ كانُوا أَدْخَلُونِي فِيهِ أَصْلًا. وَكانَتْ صِناعةُ الشِعْرِ مِنْ بَيْنِ صَنائِعِي الكَثِيرةِ هِيَ الوَحِيدةَ الإمْبِرْيالِيّةَ: لا تُطِيقُ ضُرّةً وَتَصْرِفُنِي عَنْ أُمُورٍ أَكْسِبُ بِها قُوتَ عِيالِي وَعَنْ أُخْرى أُحِبُّها لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلّ. فَانْصَرَفْتُ عَن الشِعْرِ فِي أَكْثَرِ الأَوْقاتِ وَتَحَمَّلْتُهُ فِي أَقَلِّها. وَيُبْدِي المُؤَرِّخُونَ حِيالِي تَهْذِيبًا جَمًّا لَمْ أَكُنْ سَلَّفْتُهُمْ شَيْئًا مِنْهُ فِي ما كَتَبْتُ، وَهُوَ يُبْقِينِي عَلى مَبْعُدة. وَأَمّا اللُغَوِيُّونَ فَيَتَحَجَّبُونَ دُونَ أَمْثالِي بِحِجابِ الحُصْنِ الحَصِين. وَلا أَعْرِفُ مَعْنًى لِلَقَبِ «المُفَكِّرِ» سِوى أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُسْنِدَ ذَقْنِي بِقَبْضَتِي فِي جَمِيعِ الأَوْقات.

مِرارًا قُلْتُ لِلصِحافِيِّينَ إِنَّنِي وُلِدْتُ فِي دِيارٍ كانَ يُلِمُّ الكُنْدَرْجِيُّ فِيها بِزِراعةِ الدُخانِ وَالخَيّاطُ يَقْرِضُ الشِعْرَ أَوْ يَتَعاطى الفَلْسَفةَ وَالقَهْوَجِيُّ يَنْقَلِبُ إلى حَلّاق... فَمَتى اسْتَعْبَدَت الجامِعاتُ الناسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أَحْرارًا؟ وَلَمْ أَكُنْ طَلَبْتُ انْتِسابًا إلى أَيٍّ مِنْ طَوائِفِ أَهْلِ الاخْتِصاصِ الآنِفةِ الذِكْرِ وَلا دَخَلْتُ جَمْعِيّةً مِنْ جَمْعِيّاتِها قَطّ. وَلا أَتَحَدَّثُ بِشَأْنِ نَفْسِي عَن التَنَوُّعِ وَإِنَّما

أَقُولُ إنَّنِي أَمْضَيْتُ فِي الكِتابةِ عُمْرًا سائِبًا أَمِيلُ حَيْثُ تَمِيلُ بِيَ الرِيح. وَالرِيحُ هُنا رِيحُ الإغْراءِ لا أُقاوِمُهُ يَأْتِي، فِي الأَغْلَبِ، مِنْ مُهِمّةٍ تُعْرَضُ أَوْ مِنْ فُرْصةٍ تَسْنَحُ أَوْ مِنْ جَماعةٍ تَـتَصَدّى لِمَشْرُوع. وَأَمّا أَنا فَلَمْ أَكُنْ غَيْرَ فَرْدٍ مِن الناسِ يُحِبُّ أَنْ يَتَعَلَّم. حُبُّ التَعَلُّمِ سِرِّيَ المَكْنُونُ وَعَلَنِي. وَقَدْ أَعْدَدْتُ لِلتَعَلُّمِ... وَلِلْكِتابةِ أَيْضًا عُدَّتَهُما وَهِيَ عُدّةٌ لُغَوِيّة أَوَّلًا. بِمَعْرِفة اللُغةِ أَتَعَرَّفُ كُلَّ ما عَداها. وَأَعْرِفُ أَنَّ القارِئَ الحَصِيفَ لَيْسَ كاتِبًا رَفِيعَ الكَعْبِ بِالضَرُورةِ وَأَنَّهُ لا يَصِحُّ إطْلاقُ القَوْلِ أَنَّ مَنْ لا يُحْسِنُ قَوْلَ الشَيْءَ لا يُحْسِنُ فَهْمَهُ... وَلَـكِنَّ هَذا كَـثِيرُ الحُصُولِ مَعَ ذَلِك.

أَلِفْتُ مُصْطَلَحًا مِنْ هُنا وَآخَرَ مِنْ هُناكَ وَتَعَلَّمْتُ قَواعِدَ وَدَرَّبْتُ نَفْسِي عَلى أَسالِيب. تَعَلَّمْتُ كَيْفَ يُصْنَعُ مُعْجَمٌ وَكَيْفَ يُوضَعُ سِينارْيُو وَكَيْفَ يُصاغُ قانُونٌ وَكَيْفَ يُدارُ مَشْرُوعٌ ضَخْمٌ لِلتَوْثِيقِ وَكَيْفَ يُبْحَثُ فِي رِوايةٍ عَنْ مُجْتَمَعٍ وَعَنْ عَصْرٍ بِتَمامِهِما بِما فِي ذَلِكَ ما لَمْ يَخْطُرْ لِكاتِبِ الرِوايةِ بِبال. وَحِينَ أَخُطُّ الخَطَّ اليَوْمَ وَأَجْمَعُ، أَجِدُنِي احْتَطَبْتُ مِنْ كُلِّ وادٍ عَصًا أَوْ أَجِدُنِي (وَهَذا أَدْنى إلى إنْصافِ النَفْسِ) جَلَبْتُ مِنْ وادٍ واحِدٍ فُرُوعًا مُتَفَرِّقةً خَضْراء. وَقَدْ كَدَحْتُ كَـثِيرًا فِي تَعَهُّدِ الأَشْجارِ التِي هِيَ صَنائِعِي وَلَمْ أَرَ مَقالةً مِنْ مَقالاتِي فِي ما يَرى النائِم. بَذَلْتُ وُسْعِي وَأَتْلَفْتُ أَيّامِي بِلا حِسابٍ فِي ما اضْطَلَعْتُ بِهِ مِنْ أَعْمال. وَكُنْتُ أَتَعَلَّمُ الأُصُولَ ثُمَّ أَرْعاها وَأَحْتَفِلُ بِالتَفاصِيلِ مِن الفاصِلةِ إلى الحاشِيةِ وَمِنْ تَرْجَمةِ المُصْطَلَحِ إلى إخْراجِ فِهْرِسْتِ الكِتاب. وَقَلِيلًا ما عَمِلْتُ فِي جَماعةٍ وَانْتَهَيْنا إلى الثَمَرةِ المَرْجُوّة. وَفِي أَيِّ فَرِيقٍ دَخَلْتُهُ، لَمْ أَجِدْنِي أَتطَأْطَأُ فِي حَضْرةِ الأَقْحاحِ مِنْ حَمَلةِ الشَهادةِ المُناسِبة. وَإنَّما تَعَلَّمْتُ مِنْهُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي. وَقَدْ بَقِيَ التَعَلُّمُ هَمِّيَ الأَوَّلَ فَلَمْ أَنْدَمْ عَلى سِنِينٍ كَـثِيرةٍ أَضاعَ

بَعْدَها صَلَفُ مُقاوِلِي المَعْرِفةِ جُهُودِي وَجُهُودَ غَيْرِي، بَلْ رَضِيتُ مِن الغَنِيمةِ بِتَعَلُّمِ الصِناعةِ أَوْ بِتَعَرُّفِ المَوْضُوع.

وَقَبْلَ أَيّامٍ، كُنْتُ أَقْرَأُ مَقالاتٍ لِلْمُؤَرِّخةِ التُونِسِيّةِ لَيْلى دَخْلِي. فَوَقَعْتُ فِي هامِشِ إحْداها عَلى كَلامٍ لأَنْدْرِيه مِيكِيل، الكَبِيرِ الذِي كانَ قَدْ أَشْرَفَ عَلى واحِدةٍ مِنْ أُطْرُوحاتٍ عِدّةٍ لَمْ أَكْتُبْها. وَكانَ فِي كَلامِ مِيكِيل تَعْرِيفٌ لِلْأَدَبِ فِي عُرْفِ العَرَبِ: الأَدَبِ الذِي تَقُولُ دَخْلِي إِنَّ العَرَبَ اخْتَرَعُوهُ فِي القَرْنِ التاسِعِ المِيلادِيّ. فِي هَذا التَعْرِيفِ أَنَّ الأَدَبَ «يَتَّسِمُ عِنْدَهُمْ بِهَمِّ المُحافَظةِ عَلى الوَحْدةِ بَيْنَ مَضْمُونِ المَعْرِفةِ المَنْقُولةِ وَالصِيَغِ التِي يَحْصُلُ بِها هَذا النَقْل. [...] مِنْ هُنا أَنَّ اقْتِرانَ التَعْلِيمِ بِالتَسْلِيةِ أَصْبَحَ هُوَ القاعِدةَ الذَهَبِيّةَ وَأَنَّ فَنَّ الكِتابةِ أَصْبَحَ وَسِيلةً إلى الثَقافةِ وَصُورةً لَها فِي آن». حِينَ قَرَأْتُ هَذِهِ العِباراتِ، كانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تَهْجُسُ في خاطِرِي أَسْئِلةٌ وَأَجْوِبةٌ لِخُطْبَتِي هَذِهِ التِي تَسْمَعُون. فَهَتَفْتُ بِمِلْءِ رِئَتَيَّ: عاشَ أَنْدْرِيه مِيكِيل وَعاشَ هَذا الأَدَبُ الذِي اخْتَرَعَهُ العَرَب. لا أَنا مُؤَرِّخٌ وَلا عالِمُ اجْتِماعٍ وَلا.. وَلا.. وَلا... أَنا أَدِيبٌ مِنْ عَرَبِ القَرْنِ التاسِع.

لَمْ أَعْلَمْ ماذا أَرَدْتُ أَنْ أُصْبِحَ فِي الكِتابةِ وَلَـكِن ارْتَسَمَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا مَداراتٌ قَلِيلةٌ لِمَطامِحَ تَأْلِيفِيّةٍ أَخَذَتْ تَعْتَمِلُ فِي نَفْسِي وَتَتَّسِع. واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، رَاوَدَنِي مَوْضُوعُ الصِلةِ بَيْنَ الدالِّ وَالمَدْلُولِ فِي المُفْرَدةِ العَرَبِيّةِ ومَوْضُوعُ شَعائِرِ الجَسَدِ وإوالاتِ السُلْطةِ فِي الفِقْهِ الإِسْلامِيِّ وَكانَ لا يَزالُ يَلْتَمِعُ فِي بالِي وَيَخْبُو مَوْضُوعُ العَلاقةِ بَيْنَ السِياسةِ وَالأَخْلاق. وَهَذا الأَخِيرُ أَوَّلُ مَوْضُوعٍ اخْتَرْتُهُ لِأُطْرُوحةٍ... لَمْ أَكْتُبْ مِنْها غَيْرَ مَشْرُوعِها حِينَ كُنْتُ مُقِيمًا فِي بارِيس لِلدِراسةِ بَيْنَ خَرِيفِ ١٩٦٣ وَصَيْفِ ١٩٦٥. كُنْتُ أَقُولُ إِنَّهُ لَوْ كانَ إِلَهُ النَصارى

يُحِبُّنِي ــ كَما يَزْعُمُ ــ لَـكانَ يَسَّرَ لِي أَنْ أَتَفَرَّغَ ثَلاثَ سَنَواتٍ أَوْ أَرْبَعًا لِكُلٍّ مِنْ هَذِهِ المَوْضُوعاتِ فَأَضَعَ فِيهِ كِتابًا كَبِيرًا. عِوَضَ الكُتُبِ الثَلاثَةِ الكَبِيرةِ، وَضَعْتُ مَقالةً فِي المَوْضُوعِ الأَوَّلِ وَداعَبْتُ الثاني فِي مَقالةٍ أَو اثْنَتَيْنِ وَبَقِيَ الثالِثُ مَشْرُوعَ أُطْرُوحة. وَأَمّا ما فَعَلْتُهُ خِلافَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ السِنِينِ الكَـثِيرةِ فَساقَنِي إِلَيْهِ تَيّارُ حَياتِي السائِبُ فِي الكِتابةِ، وَقَدْ أَخَذَ يَتَشَعَّبُ عَلى هَوى الرِياحِ وَالحِجارة. الحَرْبُ أَغْرَتْنِي بِحَدِيثِ الطائِفيّةِ وَاتِّفاقُ الطائِف أَغْرانِي بِحَدِيثِ الانْتِخاباتِ، إلخ.، إلخ. وَفِي ما وَراءَ الكَدْحِ المَرِيرِ وَاللَيالِي النابِغِيّةِ، تَبْدُو لِيَ الكَـثْرةُ الكاثِرةُ مِمّا نَشَرْتُ وَكَأَنَّها أَشْياءٌ سَقَطَتْ مِنْ جُيُوبِي بَيْنَما كُنْتُ أَبْحَثُ فِي تِلْكَ الجُيُوبِ عَنْ أَشْياءَ أُخْرى. وَأَمّا هَوايَ فَكانَ فِي تِلْكَ المَداراتِ التِي تَرَكْتُها سائِبة. اليَوْمَ عُدْتُ لا أَجِدُ العَزْمَ لِأَدْخُلَ فِي أَيٍّ مِنْ تِلْكَ المَداراتِ، لَوْ أُتِيحَتْ لِيَ الوَسائِلُ، وَأُتْرُكَ نَفْسِي لِجاذِبِيَّتِهِ بِضْعَ سِنِين. الظاهِرُ إِذَنْ أَنَّ زَمَنًا طَوِيلًا قَدْ مَرّ.

حِينَ عَزَمْنا عَلى الزَواجِ، أَنا وَعَزَّة، أَخَذْنا مَعَنا، ذاتَ يَوْمٍ مِنْ رَبِيعِ العامِ ١٩٦٩، وَجِيه كَوْثَرانِي وَحَسَن قُبَيْسِي شاهِدَيْنِ إلى المَحْكَمةِ الشَرْعِيّة. وَفِي طَرِيقِ الإيابِ، أَوْقَفَ حَسَن سَيّارَتَهُ التِي كُنّا فِيها عِنْد كَوْمةِ نُفاياتٍ أخَذَ مِنْها بِضْعةَ أَشْياءٍ مِن التَنَكِ فَرَبَطَها بِخَيْطٍ وَجَعَلَها ذَنَبًا قَصِيرًا لِلسَيّارة. ثُمَّ أَقْلَعْنا مُطَنْطِنِينَ لِلْمَدِينةِ خَبَرَ زَواجِنا المَيْمُون. وَما إِنْ وَصَلْنا إلى طَرَفِ الشارِعِ (وَكانَتْ إذاعَتُنا التَنَكِيّةُ تَعْمَلُ فَوْقَ المَأْمُولِ) حَتّى أَوْقَفَنا الشُرْطِيُّ عِنْدَ الإشارةِ الضَوْئِيّةِ وَفَهِمْنا مِنْهُ أَنَّ فِي الذنَبِ القَصِيرِ ذَنْبًا أَطْوَلَ مِنْهُ وَلَهُ ذُيُول. صَرَّحْنا بِأَنَّنا عَرُوسانِ وَلَـكِنَّ الأَفَنْدِي لَمْ يَأْبَهْ أَوْ لَمْ يُصَدِّقْ، فَأَمَرَنا بِفَكِّ الذَنَب. وَكانَت الدَوْلةُ اللُبْنانِيّةُ قَدْ باشَرَتْ جُنُوحَها فِي تِلْكَ الأَيّامِ نَحْوَ

الغُرُوبِ، وَلَـكِنْ كانَ بَقِيَ لَها بَعْضُ الجَلالِ رَأَيْناهُ يُكَلِّلُ هامَ الأَفَنْدِي، فَامْتَثَلْنا لِلْأَمْر. وَكانَ هَذا أَوَّلَ عُرْسِنا وَآخِرَه.

كُنّا نَكْرَهُ أَنْ يُحْتَفَلَ بِنا. لَمْ يَكُنْ مِزاجُنا عَكِرًا مُطْلَقًا بَلْ كُنّا نَسْهَرُ وَنَمْرَحُ كُلَّما أَمْكَنَتْنا الحال. وَأَمّا أَنْ يُحْتَفَلَ بِنا أَوْ بِشَيْءٍ نَفْعَلُهُ فَأَمْرٌ ما كُنّا لِنُسَلِّمَ بِه. اليَوْمَ تَحْتَفِلُونَ بِي أَوْ بِأَشْياءٍ صَنَعْتُها. وَقَدْ بَقِيَتْ فِيَّ بَقِيّةٌ مِنْ خَجَلِيَ القَدِيمِ: خَجَلِيَ الذِي كانَ يَجْعَلُنِي أَسْتَـكْثِرُ عَلى نَفْسِي أَيَّ شَيْءٍ أُعْطاهُ مِنْ بَشَرٍ غَيْرِ أَهْلِيَ الأَقْرَبِين. أَسْتَـكْثِرُ عَلى نَفْسِيَ، اليَوْمَ، كَرَمَ الداعِينَ إلى هَذا اللِقاءِ وَكَرَمَ المَدْعُوِّين. عَلى أَنَّنا، فِي أَيّامِ خَوْفِنا وَلَوْعَتِنا هَذِهِ، مَسْرُورانِ لِلْغايةِ، أَنا وَعَزَّة، بِهَذا اللِقاءِ... هَذا اللقاءِ الذِي ما كُنّا لِنَقْبَلَ ما هُوَ بِمَعْناهُ فِي قَدِيمِ زَمانِنا وَلا فِي زَمانٍ أَقَلَّ قِدَمًا.

الظاهِرُ إذَنْ أَنَّ زَمانًا طَوِيلًا جِدًّا قَدْ مَرّ!

بَيْرُوت، آذارُ ٢٠٠٧

مِنْ قَبِيلِ الخِتام

المُطالَعة (*)

الكِتابةُ، فِي أَصْلِ ما هِيَ، كَرَمٌ: كَرَمٌ فادِحٌ يَصْعُبُ أَنْ نَقَعَ لَهُ عَلى نَظِير. فَهَلْ يُناظِرُها الكَرَمُ بِالوَقْتِ أَو الكَرَمُ بِالمالِ أَو الكَرَمُ بِالطاقةِ العَضَلِيّة؟ لا، قَطْعًا. هَذا الذِي يُعْطى بِالكِتابةِ، حَجَبَت الكَثْرةُ الهائِلةُ وَالتَكْرارُ المُفْرِطُ سُطُوعَ الكَرَمِ الذِي فِيه. مُزاوِلُو الكِتابةِ كَثِيرُونَ وَهُمْ يَزْدادُونَ كَثْرةً مِنْ عَصْرٍ إلى عَصْرٍ وَالمَيِّتُونَ مِنْهُمْ قَدْ تُبْقِيهِمْ أَعْمالُهُمْ فِي التَداوُل. نَعُودُ لا نَفْطَنُ، وَنَحْنُ حِيالَ هَذا التَراكُمِ المَهُولِ، إلى ما أَعْطانا كُلُّ واحِدٍ كَتَبَ أَوْ كُلُّ نَصٍّ وَصَلَ إلى أَيْدِينا. لا نَفْطَنُ إلى أَنَّ عُقُولًا وَمُخَيِّلاتٍ وَحَواسَّ وَذاكِراتٍ وَمَشاعِرَ لا تُحْصى... إلى أَنَّ بَشَرًا لا يُحْصَوْنَ مَبْذُولُونَ بِأَجَلِّ ما فِيهِمْ فِي ما هُوَ مَنْشُور. هُمْ فِي المُتُناوَلِ، مُتُناوَلِنا، بِالبَدَلِ البَخْسِ دائِمًا أَوْ، إنْ نَحْنُ بَذَلْنا الجُهْدَ اللازِمَ أَوْ سَلَكْنا السَبِيلَ المُناسِبَ (سَبِيلَ المَكْتَبةِ العامّةِ مَثَلًا)، بِلا بَدَلٍ بِالمَرّة. يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا أَنْ نَخْتَرِقَ حِجابَ العادةِ لِنَعْلَمَ أَيّةَ نِعْمةٍ هِيَ أَنْ يَكُونَ مَيْسُورًا لِأَيٍّ كانَ اقْتِناءُ كِتابٍ لِأَفْلاطُون أَوْ لِلْجاحِظ أَوْ لِغُوته أَوْ لِأَيٍّ مِنْ آلافٍ آخَرِينَ بِثَمَنٍ قَدْ لا يُجاوِزُ ثَمَنَ وَجْبةٍ سَرِيعةٍ واحِدةٍ وَأَنْ تَكُونَ مَيْسُورةً اسْتِعارةُ الكِتابِ لِمَنْ لا يَقْدِرُ عَلى شِرائِهِ أَوْ لا يَرْغَبُ فِيه.

(*) كَلِمةٌ أُعِدَّتْ لِحَفْلِ افْتِتاحِ أُسْبُوعِ المُطالَعةِ فِي لُبْنان وَأُلْقِيَتْ فِي قَصْرِ الأُونِيسْكُو، فِي بَيْرُوت، يَوْمَ ١٦ نَيْسانٍ ٢٠١٠.

تِلْكَ نِعْمةٌ أَسْبَغَتْها عَلَيْنا ثَوْرةُ الطِباعةِ، بِالطَبْع. وَاليَوْمَ نُوغِلُ، بِلا وَعْيٍ مِنّا تَقْرِيبًا، فِي ثَوْرةٍ طِباعِيّةٍ عَلى الطِباعةِ نَراها هاجِمةً عَلَيْنا وَفِي جُعْبَتِها العَجَبُ العُجاب. أَمْضَيْتُ خَمْسِينَ سَنةً لِأَجْمَعَ ما يَقْرُبُ مِنْ سِتّةِ آلافِ مُجَلَّدٍ حَصَّلْتُها مِنْ أَلْفِ سَبِيلٍ وَسَبِيل. تَحْتَلُّ هَذِهِ المُجَلَّداتُ نَحْوًا مِنْ مائةٍ وَخَمْسِينَ مِتْرًا مِن الرُفُوف، مُوَزَّعةٍ بَيْنَ مَنْزِلَيْنِ، وَقَدْ يَصِلُ وَزْنُها إلى ثَلاثةِ أَطْنان. وَالكُتُبُ، فِي المَكْتَبَةِ الشَخْصِيّةِ، تُمَثِّلُ، بِتوارِيخِ اقْتِنائِها وَبِمِرْوَحةِ أَنْواعِها وَمَوْضُوعاتِها، خَرِيطةً لِعُمْرِ الإنْسانِ الفِكْرِيِّ أَو الرُوحِيّ... خَرِيطةً يَتَشَكَّلُ بِها العُمْرُ طَبَقاتٍ تُشْبِهُ طَبَقاتِ الأَرْض. فَلا غَرْوَ أَنْ يَرى صاحِبُ المَكْتَبةِ صُورةَ حياتِهِ أَوْ خُلاصَتَها مُترائِيةً، عَلى نَحْوٍ ما، فَوْقَ رُفُوفِ مَكْتَبَتِه.

وَقَبْلَ شُهُورٍ جاءَنِي، عَلى سَبِيلِ الهَدِيّةِ، قُرْصٌ مَضْغُوطٌ واحِدٌ عَلَيْهِ ما يَقْرُبُ مِنْ هَذا العَدَدِ نَفْسِهِ مِنْ دَواوِينِ الشِعْر العَرَبِيّ. وَيَسْتَثِيرُ شَهِيَّتِي، فِي المَعارِضِ، قُرْصٌ آخَرُ عَلَيْهِ اثْنا عَشَرَ أَلْفًا مِن الكُتُبِ يَظْهَرُ أَنَّها تُغَطِّي فُرُوعَ التُراثِ الإسْلامِيِّ، عَلى اخْتِلافِها، إلخ.، إلخ. حِينَ لا تَـكُونُ هَذِهِ الأَقْراصُ مُقَرْصَنةً بِحَيْثُ تُصْبِحُ بِلا ثَمَنٍ تَقْرِيبًا، يَبْقى مُمْكِنًا تَحْصِيلُها بِثَمَنٍ حَلالٍ لا يَزِيدُ عَنْ كُلْفةِ كُتُبٍ خَمْسةٍ أَوْ عَشْرةٍ، مُعْتَدِلةِ السِعْر. هَذِهِ حالٌ مُسْتَجَدّةٌ مُخْتَلِفةٌ جِدًّا عَمّا كُنّا (وَلا نَزالُ) فِيهِ مِنْ أَيّامِ غُوتِنْبِرْغ. وَعَلى الرُغْمِ مِنْ هَذِهِ الوَفْرةِ الجَدِيدةِ، البالِغةِ حَدَّ الهَدْرِ، أَبْقى مُصِرًّا عَلى أَنَّ الكِتابةَ كَرَمٌ لا يُوصَفُ وَأَنَّ القِراءةَ إنْعامٌ عَلى النَفْسِ يَفُوقُ الوَصْف. غَيْرَ أَنَّنِي مُسَلِّمٌ أَيْضًا (وَإنْ يَكُنْ بَعْضُ الشُعَراءِ، خُصُوصًا، لا يُرْضِيهِمْ هَذا) بِأَنَّ الكُتّابَ لا يُوجَدُونَ بِما هُمْ أَهْلُ كَرَمٍ مُحْتَمَلٍ ما لَمْ يُوجَدْ لَهُمْ قُرّاء. فِعْلُ القِراءةِ يُوجِدُ الكاتِبَ فِعْلًا فِيما يُبْقِيهِ فِعْلُ الكِتابةِ تَوْقًا وَاحْتِمالًا.

وَقَدْ تَقُولُونَ إِنَّ ما يُكْتَبُ لَيسَ كُلُّهُ أَفْلاطُون أَوْ مارْكِيز أَو السَيّاب. هِتْلَر وَسْتالِين كَتَبا أَيْضًا وَتَخَلَّفا عَنْ ذُرِّيّةٍ كَـثِيرةٍ، يَتَنَوَّعُ أَنْفارُها أَزْياءً وَأَحْجامًا، وَهِيَ غَيْرُ مُقَصِّرةٍ فِي الكِتابةِ أَيْضًا وَبَعْضُها أَقامَ أَوْ هُوَ لا يَزالُ مُقِيمًا بَيْنَ ظَهْرانَيْنا. وَكَـثِيرٌ مِمّا تَنْشُرُهُ صُحُفُنا عُدْوانٌ يَوْمِيٌّ عَلَيْنا. أَدْعُوكُمْ، مُقْتَدِينَ بِالسَيِّدِ المَسِيحِ، إلى شُكْرِ المُعْتَدِينَ بِالكِتابةِ عَلَيْكُمْ وَإلى التَسْبِيحِ بِحَمْدِ السَفّاحِينَ، لا بِما هُمْ سَفّاحُونَ، بَلْ بِما هُمْ كَتَبَةٌ فِي أَوْقاتِ الفَراغِ أَوْ بِما هُمْ مُتَفَرِّغُونَ، فِي بَعْضِ حالاتِهِمْ، لِلْكِتابة. فَلَوْلا أَنَّ العُقُولَ تُهانُ لَمْ تُدْرِكْ لِكَرامَتِها مَعْنًى وَلَمْ تَرْفَعْ لِهَذِهِ الكَرامةِ حُصُونًا وَلَمْ تُحَصِّلْ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ دُرْبةٍ أَوْ لَمْ تَزِدْ فِي هَذا التَحْصِيل. رَدُّ الحَمَلاتِ عَلى العَقْلِ هُوَ رِياضةُ العَقْل. وَلَوْلا أَنَّ المَشاعِرَ تُجْرَحُ لَمْ نَبْلُغ الرِقّةَ المُبْتَغاةَ فِي الشُعُورِ وَلا أَدْرَكْنا الرِفْعةَ فِي الاحْتِجاج. لِذا كانَ السَفِيهُ مِن المَكْتوبِ مَوْضُوعَ احْتِياجٍ مِنّا، يَسْتَثِيرُ حاسَّتَنا الناقِدةَ فنَحْمِلُ عَلَيْهِ، وَلَـكِنْ لا نَرْفُضُ وُجُودَهُ مِن الأَصْل. وَلِذا لَمْ يَكُنْ لَنا أَنْ نَأْسَفَ عَلى أَنَّنا قَرَأْنا شَيْئًا قَرَأْناه. حِينَ نَقْرَأُ الغَثَّ نَأْنَسُ إلى ذَخِيرَتِنا مِن السَمِينِ أَوْ نُدْرِكُ أَنَّ عَلَيْنا تَـكْثِيرَها. وَلا نَقْرَأُ لِجَمالِ ما نَقْرَأُ وحَسْبُ، مَعَ وُجُودِ حَقٍّ مَؤَكَّدٍ لَنا فِي الجَمال. وَإنَّما نَقْرَأُ أَيْضًا لِنَعْلَمَ ما قِيلَ وَما يُقالُ فِي مَسْأَلةٍ تُهِمُّنا أَوْ، عَلى الأَعَمِّ، فِي أَحْوالِ هَذا العالَمِ الذِي نَحْنُ مِنْه.

شَيْءٌ آخَرُ أُحِبُّ أَنْ أَقْتَرِحَهُ هُوَ أَنْ نَضُمَّ المُشاهَدةَ وَالسَماعَ إلى ما نُسَمِّيهِ المُطالَعة. نَسْمَعُ تَذَمُّرًا كَـثِيرًا مِنْ طُغْيانِ الصُورةِ وَالصَوْتِ، مُقْتَرِنَيْنِ، عَلى الكَلِمةِ المَكْتُوبة. لا اعْتِراضَ لِي عَلى القَوْلِ إِنَّ ثَمّةَ مِيزانًا يَجِبُ أَنْ يُرْعى ما بَيْنَ حَوامِلِ الثَقافةِ فَلا يَؤُولُ أَيٌّ مِنْها إلى الانْدِثارِ لِما فِي إِلْغائِهِ مِنْ خَسارةٍ

لا تَقْبَلُ تَعْوِيضًا. لَمْ يَكُنْ جائِزًا أَنْ تُلْغِيَ السِينَما (بِما فِيها التَلْفَزةُ وَالفِيدِيُو) التَصْوِيرَ الفُوتُوغْرافِيَّ وَلا هِيَ أَلْغَتْهُ فِعْلًا مَعَ أَنَّها تَبْدُو مُشْتَمِلةً عَلَيْهِ وَفائِقةً إِيَّاهُ جِدًّا بِتَعَدُّدِ العَناصِرِ وَالأَبْعاد. وَلَمْ يَكُن التَصْوِيرُ الفُوتُوغْرافِيُّ، فِي أَيّامِ سَطْوَتِهِ، قَدْ أَلْغى أَيًّا مِن الفُنُونِ التَشْكِيلِيّة. وَلا نَرى أَنَّ الصُورةَ وَالصَوْتَ مُقْتَرِنَيْنِ، يُصادِرانِ شَيْئًا مِنْ جَلالِ الكَلامِ المَكْتُوبِ أَوْ جَمالِهِ وَمِن الحاجةِ إِلَيْه. هُما يُؤَمِّنانِ إلى المُتْعةِ (أَو الفائِدةِ) سُبُلًا أَيْسَرَ سُلُوكًا وَأَسْرَعَ جَذْبًا مِنْ تِلْكَ التِي يَفْتَحُها الكَلامُ المَكْتُوب. وَلَـكِنَّ ما يَسَعُ هَذا الأَخِيرَ حَمْلُهُ مُنْفَرِدًا (وَبِفَضْلِ هَذا الانْفِرادِ، عَلى التَحْدِيد) لا يَسَعُ السِينَما، بِقَضِّها وَقَضِيضِها، أَنْ تُبَلِّغَهُ بِالكَمالِ نَفْسِهِ بِما هُوَ رِسالة. الفِيلْمُ الذِي يُبْنى عَلى رِوايةٍ عَظِيمةٍ لا يُبْطِلُ الحاجةَ إلى قِراءَتِها. هَذا فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ قَلَّما أَدْرَكَ فِيلْمٌ مَبْنِيٌّ عَلى رِوايةٍ عَظِيمةٍ عَظَمةَ الرِوايةِ فِي عَيْنِ مَنْ أَحْسَنَ قِراءَتَها. وَما بالُكَ بِالمُؤَلَّفِ الفَلْسَفِيّ؟ لَنا أَنْ نَشْكُو الخَلَلَ فِي المِيزانِ المُشارِ إِلَيْهِ إِذَنْ وَلَـكِنْ لَيْسَ لَنا أَنْ نَصِلَ إلى حَدِّ الخَشْيةِ عَلى مَصِيرِ الكَلامِ المَكْتُوب. نَحْنُ خاسِرُونَ إذا مِلْنا إلى هَجْرِ المَكْتُوبِ لِصالحِ المُصَوَّرِ/المَسْمُوعِ وَلَـكِنْ لا تَسْتَدْعِي الغَيْرةُ عَلى المَكْتُوب غَيْرةً مِن المَرْئِيّ/المَسْمُوع.

هُوَ الكَرَمُ إِذَنْ ما تُمَثِّلُهُ الكِتابةُ وَهُوَ الإِنْعامُ عَلى النَفْسِ وَهُوَ المُتْعةُ وَلَوْ مُقْتَرِنةً بِالمَشَقّةِ ما تُمَثِّلُهُ المُطالَعة. هُوَ الجُودُ مِن النَفْسِ وَلَيْسَ «الجُودُ بِالنَفْس» ما يُمَثِّلُهُ التَأْلِيفُ، إذا اسْتَذْكَرْنا قَوْلَ شاعِرٍ أَوَّل. وَهُوَ أَنْ تَشْتَمِلَ بِنَفْسِكَ عَلى «نُفُوسٍ كَثِيرةٍ» ما تُمَثِّلُهُ المُطالَعةُ، إذا اسْتَذْكَرْنا قَوْلَ شاعِرٍ آخَر. وَحِينَ نَذْكُرُ الجُودَ مِن النَفْسِ، يُسْتَحَبُّ أَنْ نَشْعُرَ بِالامْتِنانِ إِنْصافًا وَلَـكِنْ لا يُسْتَحبُّ أَنْ نَشْعُرَ بِالرَهْبة. يَصِلُ إِلَيْنا الكَلامُ المَكْتُوبُ ناجِزًا، وَقَدْ

نَجِدُهُ، فَوْقَ النَجازِ، كامِلًا إلى حَدٍّ يُرْهِبُنا. نَنْسى المَخاضَ الذِي تَلاحَقَتْ فِيهِ مُسَوَّداتٌ وَرَقِيّةٌ أَوْ نَفْسِيّةٌ قَبْلَ بُلُوغِ الكَلامِ حالَهُ التِي وَصَلَ عَلَيْها إلَيْنا. نَنْسى أَنَّ الكاتِبَ قَدْ يَنْسى، وَهُوَ يَكْتُبُ، كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا مِمّا رَغِبَ فِي قَوْلِهِ ذاتَ هُنَيْهة. نَنْسى أَنَّ النَصَّ ما كانَ لِيَكُونَ هُوَ نَفْسَه لَوْ أَكْمَلَ صاحِبُهُ الكِتابةَ فِي سَهْرةٍ ما وَلَيْسَ فِي الصَباحِ التالِي. نَنْسى أَنَّ النَصَّ احْتِمالاتٌ مُتَسَلْسِلةٌ، بِالتالِي، وَأَنَّ دَوْرَ الضَرُورةِ فِي تَشَكُّلِهِ وَوِلادَتِهِ دَوْرٌ مُشْكِلٌ مُحَيِّرٌ، لا يَسْتَقِرُّ عَلى حالٍ مِنْ نَصٍّ إلى آخَرَ وَيَتَسَرَّبُ مِنْ بَيْنِ الأَصابِعِ كُلَّما خالَ الكاتِبُ نَفْسَهُ عَلى أُهْبةِ السَيْطَرةِ عَلَيْه. نَنْسى أَنَّ الكاتِبَ يُصْبِحُ بَعْدَ حِينٍ قارِئًا لِنَفْسِهِ فِي جُمْلةِ قُرّائِه. يَحْصُلُ هَذا حِينَ يَمُرُّ الزَمَنُ عَلى مَخاضِ النَصِّ إلى حَدٍّ يَجْعَلُ النَصَّ قادِرًا عَلى مُواجَهةِ صاحِبِهِ بِقِناعٍ مِنْ ضَرُورةٍ كاذِبة. نَنْسى، عَلى الجُمْلةِ، ما كَتَبَهُ عُبْدُ الرَحِيم البِيسانِيُّ إلى العِمادِ الأَصْفَهانِيّ: «إنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لا يَكْتُبُ إنْسانٌ كِتابًا فِي يَوْمِهِ إلّا قالَ فِي غِدِهِ: لَوْ غُيِّرَ هَذا لَـكَانَ أَحْسَنَ وَلَوْ زِيدَ هَذا لَـكانَ يُسْتَحْسَنُ وَلَوْ قُدِّمَ هَذا لَـكانَ أَفْضَلَ وَلَوْ تُرِكَ هَذا لَـكانَ أَجْمَلَ، وَهَذا مِنْ أَعْظَمِ العِبَرِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلى اسْتِيلاءِ النَقْصِ عَلى جُمْلةِ البَشَر».

فَلْيُواجِه القُرّاءُ الكُتّابَ بِإنْصافٍ لِلْكَرَمِ الذِي فِي الكِتابةِ وَلَـكِنْ بِلا رَهْبةٍ مِن الكُتّابِ كائِنِينَ مَنْ كانُوا. وَلْيُواجِه الكُتّابُ القُرّاءَ بِمَعْرِفةٍ لِما يَسَعُ الكِتابةَ أَنْ تَـكُونَ عَلَيْهِ مِنْ جُودٍ أَيْضًا... وَلَـكِنْ دُونَ ذاكَ الغُرورِ الذِي يُسْنِدُهُ شُعُورٌ بِكَمالِ ما يَبْذُلُونَ، إذْ هَذا شُعُورٌ لا نَراهُ يَصْمُدُ لِأَدْنى نَظَر. وَلْنَعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ الكِتابةَ قَدْ لا تَـكُونُ خارِجَ مُتَناوَلِ هَذا أَوْ ذاكَ مِن المُقْبِلِينَ عَلى القِراءةِ وَلَو اعْتَقَدَ ذَلِك... فَلْيُقْدِمْ إنْ كانَ لا يَأْبى أَنْ يُعِدَّ لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ وَأَنْ يُعانِي أَكْلافَهُ

وَعَواقِبه. وَلْنَعْلَمْ، أَنَّنا، عَلى التَعْمِيمِ، مُحْتاجُونَ إلى القِراءةِ كُتّابًا وَقُرّاءً... فَلا نَكُونُ مِصْداقًا لِقَوْلةِ واحِدٍ مِنْ أصْحابِنا: «الناسُ كُتّابٌ أَوْ قُرّاءٌ: القُرّاءُ لا يَكْتُبُونَ وَالكُتّابُ لا يَقْرَأُون».

لِلْمُؤَلِّف

بِالعَرَبِيّة:

- **دِيوانُ الأَخْلاطِ وَالأَمْزِجة**، شِعْر، المُؤَسَّسةُ الجامِعِيّةُ لِلدِراساتِ وَالنَشْر، بَيْرُوت ١٩٨٤.
- **بَيْرُوتُ اللِقاء**، سِينارْيُو (أَخْرَجَهُ لِلسِينَما بُرْهان عَلَوِيّة، ١٩٨١)، دارُ الباحِث، بَيْرُوت ١٩٨٤.
- **مَداخِلُ وَمَخارِج: مُشارَكاتٌ نَقْدِيّة**، المُؤَسَّسةُ الجامِعِيّةُ لِلدِراساتِ وَالنَشْر، بَيْرُوت ١٩٨٥.
- **الصِراعُ عَلى تارِيخِ لُبْنان**، مَنْشُوراتُ الجامِعةِ اللُبْنانِيّة، بَيْرُوت ١٩٨٩.
- **بِنْتُ جُبَيْل ـ مِيشِيغان**، دارُ العَرَبِيّة، بَيْرُوت ١٩٨٩.
- **ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ: مَسالِكُ فِي الحَرْبِ اللُبْنانِيّة**، المَرْكَزُ الثَقافِيُّ العَرَبِيّ، بَيْرُوت- الدارُ البَيْضاء ١٩٩٠.
- **كَلَمُنْ: مِنْ مُفْرَداتِ اللُغَةِ إلى مُرَكَّباتِ الثَقافة**، دارُ الجَدِيد، بَيْرُوت ١٩٩٧.
- **تِسْعَ عَشْرَةَ فِرْقَةً ناجِية: اللُبْنانِيُّونَ فِي مَعْرَكَةِ الزَواجِ المَدَنِيّ**، دار النَهار، بَيْرُوت ١٩٩٩.
- **الجُمْهُورِيّةُ المُتَقَطِّعة: مَصائِرُ الصِيغةِ اللُبْنانِيّةِ بَعْدَ اتِّفاقِ الطائِف**، دارُ النَهار، بَيْرُوت ١٩٩٩.
- (إِشْرافُ أ. ب.): **اتّجاهاتُ البَحْثِ فِي العُلُومِ الاجْتِماعِيّة وَحاجاتُ المُجْتَمَعِ اللُبْنانِيّ**، اللَجْنةُ الوَطَنِيّةُ اللُبْنانِيّةُ لِلْيُونِسْكُو، بَيْرُوت ٢٠٠٠.
- **الصِيغةُ، المِيثاقُ، الدُسْتُور**، دارُ النَهارِ، بَيْرُوت ٢٠٠٣ (بِالعَرَبِيّةِ وَالفَرَنْسِيّة).
- **مُغامَراتُ المُغايَرة: اللُبْنانِيُّونَ طَوائِفَ وَعَرَبًا وَفِينِيقِيِّين**، دارُ النَهار، بَيْرُوت ٢٠٠٥.
- **مَعانِي المَبانِي: فِي أَحْوالِ اللُغةِ وَأَعْمالِ المُثَقَّفِين**، دارُ النَهارِ وَاللَجْنةُ الوَطَنِيّةُ اللُبْنانِيّةُ لِلْيُونِسْكُو، بَيْرُوت ٢٠٠٦.
- (تَحْرِيرُ أ. ب.): **هَذِهِ الحَرْب: مِحْنةُ لُبْنان المُتَمادِيةُ فِي بَيانَيْن**، دارُ الساقِي، بَيْرُوت ٢٠٠٧.
- **رِياض الصُلْح فِي زَمانِه**، دارُ النَهارِ لِلنَشْر، بَيْرُوت ٢٠١١.
- **لُبْنان: الإِصْلاحُ المَرْدُودُ وَالخَرابُ المَنْشُود**، دارُ الساقِي، بَيْرُوت ٢٠١٢.

- **دَفْتَرُ الفَسْبَكة: نُتَفٌ مِنْ سِيرةِ البالِ وَالخاطِر**، دارُ شَرْقِ الكِتاب، بَيْرُوت ٢٠١٣.
- **الفَسْبَكات: الدَفْتَرُ الثانِي**، دارُ شَرْقِ الكِتاب، بَيْرُوت ٢٠١٥.
- (إشْرافُ أ.ب. وَمَنال خِضْر): **العَرَبِيّةُ عَلى مِحَكّ شَبَكاتِ التَواصُل**، أَوْراقُ نَدْوة، أَشْكال أَلْوان، بَيْرُوت ٢٠١٦.
- **الرَبِيعُ الفائِت: فِي مِحْنةِ الأَوْطانِ العَرَبِيّةِ أُصُولًا وَفُصُولًا**، المَرْكَزُ العَرَبِيّ لِلْأَبْحاثِ وَدِراسةِ السِياسات، بَيْرُوت ٢٠١٦.

بِالفَرَنْسِيّة:

- *Identité confessionnelle et Temps social chez les Historiens libanais contemporains*, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth 1984.
- *Le Liban: Itinéraires dans une Guerre incivile*, Karthala-Cermoc, Paris 1993.
- *La Dégénérescence du Liban ou la Réforme orpheline*, Actes-Sud, Paris 2009.

بِالعَرَبِيّةِ وَالفَرَنْسِيّةِ وَالإِنْكِلِيزِيّة:

مُشارَكاتٌ فِي مُؤَلَّفاتٍ جَماعِيّةٍ وَمَقالاتٌ مَنْشُورةٌ فِي دَوْرِيّاتٍ عَرَبِيّةٍ وَأُورُوبِيّةٍ وَأَمِيرِكِيّة.

تَرْجَمة:

- **مِيشال شِيحا، لُبْنانُ اليَوْم**، دارُ النَهارِ وَمُؤَسَّسةُ مِيشال شِيحا، بَيْرُوت ١٩٩٤.
- **مِيشال شِيحا، فِي السِياسةِ الداخِلِيّة**، دارُ النَهارِ وَمُؤَسَّسةُ مِيشال شِيحا، بَيْرُوت ٢٠٠٥.

عَلى الشَبَكة:

مَعانِي المَبانِي: مُدَوَّنةُ أَحْمَد بَيْضُون http://abeydounblog.wordpress.com